

قصص العرب

تأليف
عبدالمجيد بن عبدالحق بن عبدالمطلب

الطبعة الأولى

الطبعة الأولى
١٩٨٤



0128084

قصة العرب

تأليف

محمد أحمد جاد المولى على محمد الجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الرابع

طبعة جديدة

بها إضافة قصص وفيها زيادة ضبط وشرح وتحقيق

دار الحيلة

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

مُفَدَمَة

١ - هذآ هو الجزء الرابع من كتاب « قصص العرب » وهو الأخير أيضاً؛ ويمتاز هذا الجزء عماسبقه من الأجزاء بأنه يجمع بين دقتيه طائفة كبيرة من القصص التي وضعها الكتآب من العرب قاصدين بها تصوير المجالس والأشخاص، والقصص التي نسبوها للطير والحيوان، والتي حكوها عن شياطين الشر أو تخيلوها عن الجن، واخترعوا لها من اللفظ الرشيق ما يفصح عن أغراضهم، ومن القول الجزل ما يبلغ إرادتهم؛ وسبيلهم في كل مارووا الوضع والخيال. وبهذه المجموعة وما سبقها يتسق في كتاب واحد نصيب حسن من أروع ما خلقه العرب من قصص تاريخي وموضوعي، وواقعي ومتخيل، ويتم الغرض الذي قصدنا إليه من: « عرض شامل لحياة العرب: مدنيهم وحضارتهم، وعلومهم ومعارفهم، وأديانهم وعقائدهم، وذكر لمواندهم وشمالهم، وما طبعوا عليه من كريم الفرائز وحدة الذكاء، ثم ما كان للمرأة عندهم من سامى المسكاة وعظيم المنزلة، وما أثر عنهم من أخبار صوروا بها جهنم العنيف، وغزلم الرقيق، وعشقهم الشريف . . . وما كان لهم من محآورات ومسآجلات، ومطالبيات ومنافلات، وما نقله الرواة من أحوال العامة والملوك، وطرف القضاة والولاء، وأخبار الأيام والحروب . . . » (١).

٢ - ولقد ظهرت الأجزاء السابقة من الكتاب ، فلقيت من ثناء الكتاب ، وإقبال القراء واحتفال الصحف والمجلات في العالم العربي جميعه ما جعلنا نزداد إيماناً و يقيناً بأن الحاجة إليه كانت ماسة ، وأنه سيمد في المكتبة العربية فراغاً كبيراً ؛ ولسنا نحاول في هذه الكلمة أن ننقل كل ما تحدثوا به عن الكتاب ؛ ولكننا نورد قُللاً من كُثر مما ذكره مؤيداً للغاية التي قصدنا إليها :

قالت صحيفة الأهرام الفراء : « ... وما من شك في أن عمل المؤلفين يتجاوز الجمع والطبع ، إلى التبويب والضغط والتحقيق ، وهو قبل هذا قائم على حسن الاختيار والدقة في النقل ، فهم شديدو الحرص على ألا تقع العين في كتابهم إلا على النصص المهندبة ، والنوادر الرقيقة التي تحت على مكارم الأخلاق .

ولقد كان أكثر للربين يدعون إلى تهذيب الكتب القديمة ، وإرائها من الأخبار والأشعار التي تنكرها الأخلاق السكرية ؛ ولكن مؤرخي الأدب وعلماء اللغة لم يؤيدوا هذه الدعوة ؛ لأنهم يشفقون منها على تراثنا الأدبي وفاء لحق التاريخ ، واحتفاظاً للكتب القديمة بمقومات شخصيتها .

وظل الرأي حائراً بين اللربين ورجال اللغة والأدب : الأولون يريدون ألا يقرأ الشباب العربي إلا للهدب الرفيع ، والآخرون يحرصون على أن يبقى للكتب القديمة عناصر شخصيتها ، وتراثها التاريخي .

واليوم يظهر كتاب « قصص العرب » فيوفق بين الرأيين جميعاً ؛ فهو لا يمس تراثنا الأدبي بالتعديل والتغيير ، ولكنه في الوقت نفسه لا يحرم الشباب العربي فضل الانتفاع به والاتصال بماضيه ؛ فهو يترك الكتب القديمة كما هي : للعلماء والمؤرخين ، ويختار منها ما يصح للشبيبة أن تقرأه ، فيعرضه عليهم في أسلوب مهذب .

فالآن نستطيع أن نُوجِّه الدعوة إلى الشباب ، لكي يتصلوا بلغتهم ، ويتمتعوا
إلى ماضيها بقراءة هذه المختارات المهدّية ، التي عاجلت ما نشكوه من سقم وخشونة
وأضطراب ، وأعفّسهم من بعض أخبارهم التي لا ترضى للشبان قراءتها .^(١) »

وقالت صحيفة البلاغ في كلمتها عن الجزء الأول والثاني : « ... يشتمل الجزءان
الذان صدرا من هذا الكتاب على خلاصة ما في نحو مائة مؤلف قديم من أروع
أقاصيص العرب التي انحدرت عنهم مصوِّرة لجميع مظاهر حياتهم العامة .

وقد رتبت هذه الأقاصيص بعد تهذيبها ، وتأليف ما تنافر منها في أمهات
المراجع - إلى أقسام وأبواب في هذين الجزأين ، وماسوّف يليها ، حتى صارت في وضعها
الجديد أقرب نسقاً واتصالاً إلى هيئة القاموس ، وانتظام موارده .

والحق أن هذه الطرائف المختارة ، والنوادر المنتقاة ، وهي مادة ما عند العرب
من قصص كانت أحوج شئ . منذ زمن بعيد إلى مثل هذا المعجم القصصى الذي
اصطنعه المؤلفون لأروع مخلّقات العرب . . . »^(٢) .

وقالت صحيفة الهاتف^(٣) .

« . . . صدر في ظروف ملائمة جدّاً لتوجيه الأفكار إلى نفسيّة العرب الفاتية
وجبّلتهم الطليعية ، وصفاتهم الشبابية ، فكان كصورة ناطقة بما كان يتعلّى به
العربي من الصفات النادرة ، وتصوير مجتمعه تصويراً صادقاً في كل حركاته وسكناته ؛
وهي صورة إن لم يكن لها إلا فائدة تنبيه الأمة العربية الحاضرة إلى ما كان يتّصف

(١) ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٩ .

(٢) ٢١ أغسطس سنة ١٩٣٩ (من مقال للأستاذ أحمد صبري) .

(٣) تصدر في الجف ، ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ هـ .

به العربُ الأقدمون شهامةً وغيرةً وحميةً ، لكفى ذلك نعمًا في هذا الوقت الذي تنشذ فيه الأمة العربية مجدّها ، وتحاول الاقتداء بما كان يتحلّى به العرب قديماً من جمال الصفات ، وسمو الغايات ، لتبنى من كل ذلك وحدةً روحيةً تحقق لها مطالبها المشروعة . . . »

٣ — هذا وقد لاحظ بعض الكتاب أننا لم نورد في كتابنا شيئاً من القصص التي قامت عليها كتب ألف ليلة وليلة ، وسيرة عنترة بن شداد ، وذات الهمة ، وأخبار ابن ذي نون ، وغيرها مما يشبهها . . . وعذرنا في ذلك أن هذه القصص كتبُ قائمة بذاتها ، معروفة بأعيانها ، وكثير منها — كما أوردنا في مقدمة الكتاب — تافه الغرض ، مُبهم القصد ، ردىء اللغة والأسلوب . وإنما كان غرضنا أن نختار القصص الحسنة التي زخرت بها كتب الأدب القديمة ، واخضت تحت ركام من رداءة الطبع واضطراب النصوص ؛ ثم ما كان منها نبيل القصد شريف الغاية جيد الأسلوب ، فكان من مجموعها « . . . معرض ثمين ، عرضت فيه أطنين جملة من روائع البلاغة العربية ، وبدائع الأساليب ، وطرائف الصور الأدبية من جهة ؛ وعرضت فيه من جهة أخرى : ألواح جليّة مشرقة من حياة العرب في شتى جهاتها وألوانها وصورها ، فبرز العرب في هذا الكتاب أناساً أحياء يروّحون ويندون أمام عينيك بأخلاقهم وسمائلهم وسجاياهم ، بماداتهم وتقاليدهم وشرائعهم ، بألوان معاشهم ومشاربهم ، بأحاسيسهم ومشاعرهم وأذواقهم ، وبكل ما تعغل به حياة العرب الأولين من تجلّي الذهن والعقل والشعور . . . »^(١) .

وأخذ بعضهم علينا أيضاً أننا لم نستوعب القصص التي تضمنت أيام العرب

الشهورة ، وملاحظهم للأثورة ؛ على كثرتها . والمذر في ذلك أننا حين عالجنا الاختيار من هذه الأيام وجدناها تضم في أثنائها كثيراً من الشمر ، وتحمل في طياتها كثيراً من الحوادث ، وأنها مضطربة الروايات محرفة النصوص ، فهي لذلك تستأهل أن أن تُرد بكتاب خاص . ونحن آخذون بحول الله في وضع هذا الكتاب ، ونأمل ألا يمضي كبير زمن حتى يكون في يد القراء إن شاء الله^(١) .

وفي كل حال تتوجه إلى الله العلي الكبير شاكرين له ما وقفنا إليه من إتمام هذا الكتاب ضارعين إليه أن يسبح عليه حسن القبول

المؤلفون

يناير سنة ١٩٤٨
صفر سنة ١٣٦٧

(١) هذا ما كتبناه في مقدمة الطبعة الأولى . ويسرنا أن نقول : إلتنا وفيثنا بوعدتنا ، فأخرجنا كتاب « أيام العرب في الجاهلية » ، وكتاب « أيام العرب في الإسلام » وما بأيدي القراء .

مقدمة الطبعة الجديدة

هذه هي الطبعة الخامسة من كتابنا «قصص العرب» تقدمه بمد أن نفذت طبعته الرابعة . وفي هذه الطبعة أضفنا إلى الكتاب بعض القصص الطريفة التي انتخبناها في أثناء قراءتنا لكتب الأدب والتاريخ . وقد أردنا بذلك أن يكون للكتاب مدد جديد يزيد من روعة ، ويبقى على جدته .

أما الشرح والضبط فقد زدنا فيه لنقربه إلى القراء جميعا ، ولينهل منه شبابنا وناشئتنا الذين ينشدون المورد الصافي للثقافة العربية ، ويودون لو عرفوا مصادر هذه الثقافة ، وقرءوا من تراثها ما يشبع رغبتهم ، ويفهم على حياة أسلافهم وأجداد عربتهم .

والله نأله التوفيق ، إنه سميع مجيب .

المؤلفون

المحرم سنة ١٣٩٢ هـ
ماوس سنة ١٩٧٢ م

البَابُ الْأَوَّلُ

في القصص التي تصِفُ ما عقده من مجالس
الطرب ، وحفَلَاتِ الفناء ، وما أثاروه من أسباب
المنافسة بين المُتَنَبِّينَ ، قاصدين التَّرفِيهِ عن النفوس ،
وجلاء الهم ، وتهذيب المشاعر ، وَتَرْقِيقَ الوجدان .

١ - الشعر والغناء *

كان معاوية يُعيبُ على عبد الله بن جعفر^(١) سماعَ الغناء ، فأقبل معاوية عامًا حاجًا ؛ فنزل المدينة ، فمرَّ ليلةً بدار عبد الله بن جعفر ، فسمع عنده غناءً على أوتار ، فوقف ساعةً يستمع ، ثم مضى وهو يقول : أستغفر الله ، أستغفر الله !

فلما انصرف من آخر الليل مرَّ بداره أيضًا ، فإذا عبدُ الله قائمٌ يصلي فوقف ليسمع قراءته ، فقال : الحمد لله ، ثم مضى وهو يقول : « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ »^(٢) .

فلما بلغ ابن جعفر ذلك أعدَّ له طعامًا ، ودعاه إلى منزله ، وأحضر ابن صياد اللغني ، ثم تقدم إليه وهو يقول : إذا رأيت معاويةً واضعاً يده في الطعام ، فحركْ أوتارك وغنَّ ؛ فلما وضع معاوية يده في الطعام حرك ابن صياد أوتاره وغنى بشعر عدي بن زيد - وكان معاوية يُسجِّب به :

يَا بُنَيَّ أَوْقِدِي النَّارَ إِنْ مِنْ تَهْوِينِ قَدْ حَارَا^(٣)
رَبِّ نَارٍ بِتِ أَرْمُهَا تَقْفِمْ الْهِنْدِيُّ وَالنَّارَا^(٤)

* المقد الفريد : ٤ - ٩٨ ، الأغاني : ٢ - ١٧٤

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كان كريما جوادا ، يحب البذل ويرتاح للطاء ، وأخباره في السكرم والسجاء كثيرة ، توفي سنة ٩٠ هـ . (٢) سورة التوبة ، آية ١٠٢ (٣) حار : ضل .

(٤) النار : شجر طيب الريح ، وشجر السوس .

عندها ظني يؤججها عاقِدٌ في التخصِرِ نارا^(١)

فأعجب معاوية غناؤه حتى قبضَ يده عن الطعام ، وجعل يضربُ برجله الأرضَ طَوْبًا ؛ فقال له عبدُ الله بن جعفر : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنا هو مختار الشعر برُكْبٍ عليه مختار الأَلْحَانِ ، فهل ترى به بأسًا ؟ قال : لا بأس بحكمة الشعر مع حِكْمَةِ الأَلْحَانِ .

(١) الزنار : ماعلى وسط النصارى وللجوس ، وقد روى هذا البيت في الأغاني :

عندها ظني يؤرثها عاقِدٌ في الجيد تقصيرا

يؤرثها : يوقدنها ويكثر حطبها . والتقصار : القلادة .

٢ - قل للكرام بيابنا يلجوا *

بيننا عبد الله بن جعفر في أزقة المدينة إذ سمع غناء ، فأصنّى إليه ، فإذا بصوت
شجى رقيق لقينة نفى :

قُلْ للكرام بيابنا يلجوا مافي التصابي على الفتى حرجُ

فترى عبد الله عن دابته ، ودخل على القوم بلا إذن ؛ فلما رأوه قاموا إليه
إجلالا ، ورفعوا مجلسه ؛ ثم أقبل عليه صاحب المنزل ، قال : يا بن عم رسول الله ؛
دخلت منزلنا بلا إذن ، وما كنت لهذا بخلق ؛ فقال عبد الله : لم أدخل إلا بإذن .
قال : ومن إذن لك ؟ قال : قينتك هذه ، سمعتها تقول :

• قُلْ للكرام بيابنا يلجوا . . . •

فإن كنا كراما فقد أذن لنا ، وإن كنا لثاماً خرجنا مذمومين ؛ فضحك
صاحب المنزل وقال : صدقت ، جعلت فداك ؛ ما أنت إلا من أكرم الأكرمين .
ثم بحث عبد الله إلى جارية من جواريه ، فقال لها : غنى ، ففنت ؛ فطرب
القوم ، وطرب عبد الله ، فدعا بتياب وطيب ؛ فكسا القوم وصاحب المنزل ،
وطيبهم ، وهب له الجارية ، وقال له : هذه أخذت بالفناء من جاريتك .

٣ — عبد الله بن جعفر ضيف طويس *

كان عبد الله بن جعفر معه إخوان له في عَشِيَّةٍ من عَشَائِهَا الربيع ، ف راحت عليهم السماء بمطرٍ جَوْدٍ^(١) ، فأسأل كل شئ ، فقال عبدالله: هل لكم في العقيق^(٢) ؟ فركبوا دوابهم ، ثم اتَّهَوْا إليه ، فوقفوا على شاطئه ، وهو يرمى بالزبد مثل مدَّ الفُرَات . وإنهم لينظرون إذ هاجت السماء ، فقال عبدالله لأصحابه : ليس معنا جُنَّةٌ^(٣) نَسْتَجِنُ بها ، وهذه سماء خَلِيقَةٌ أَنْ تَبُلَّ ثِيَابَنَا ، فهل لكم في منزل طويس^(٤) ؟ فإنه قريب منا فَنَسْتَكِنُ فيه ويحدُّنا ويضحِكنا وطويس في النَّظَارَةِ يسع كَلَامَ عبدالله بن جعفر .

فقال له عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : جُعِلَتْ فداكَ ! وما تريد من طويس عليه غضب الله ! هو يَشِينُ^(٥) مَنْ عَرَفَهُ ! فقال له عبدالله : لا تَقُلْ ذَلِكَ فإنه مليح خَفِيفٌ لنا فيه أَنَسٌ .

فلما استوفى طويس كَلَامَهُمْ تَعَجَّلَ إلى منزله فقال لامرأته : ويحك ! قد جاءنا عبدالله بن جعفر سَيِّدُ النَّاسِ ، فما عندك ؟ قالت : نَذْبَحُ هذه الصَّنَاقَ^(٦) . وكانت عندها عَنِيَّةٌ قَدِ رَبَّتْهَا بِاللَّيْنِ - وأَخْبَزَ خُبْزاً رُقَاقاً ؛ فبادر فذمَّحَهَا ، وَعَجَّنَتْ هِيَ .

ثم خرج فتلَّاه مُقْبِلاً إليه ؛ فقال له طويس : بأبي أنت وأُمِّي ! هذا المطرُ ،

* الأغانى : ٣ - ٣٢

(١) الجود : المطر الغزير ، أو مالا مطر فوقه . (٢) العقيق : منزله أهل المدينة في أيام المطر والرياح . (٣) الجُنَّة : ما استترت به . (٤) اسمه عيسى بن عبد الله ، وطويس لقب غلب عليه ، وهو أول من غنى في الإسلام ، وكان ظريفاً غالباً بأمر المدينة وأنساب أهلها . (٥) يَشِينُ : يسب . (٦) الصَّنَاق : الناق : الأنتى من ولد الغز .

فهل لك في المنزل فستكرن فيه إلى أن نسكت السماء ؟ قال : إياك أريد . قال :
فامضِ ياسيدي على بركة الله . وجاء يمشي بين يديه حتى نزلا ، فتحدوا حتى
أدرك الطعام ، فقال : بأبي أنت وأمي ! تُكرمني إذا دخلت منزلي بأن تمشي
عندي ؟ قال : هات ما عندك . فجاء بعتاق سمينة ورقاق . فأكل وأكل القوم
حتى تملأوا^(١) ، فأجبه طيب طعامه ، فلما غسلوا أيديهم قال : بأبي أنت وأمي !
أتمشي معك وأعنيك ؟ قال : افضل يا طويس ، فأخذ منحة فأتزر بها ، وأرعى
لماذا تبين ، ثم أخذ للربيع^(٢) فتمشي ، وأنشأ ينفى :

يا خليلي نابي سهدي لم تنم نيمي ولم تكدي
فشاربي ما أسيع وما أشكي ما بي إلى أحد
كيف تلحنوني^(٣) على رجل أنس تلتذه كيسي
مثل ضوء البدر طلعت ليس بالزئيلة النكد^(٤)
من بني آل المنيرة لا خامل نكس ولا جحد^(٥)
نظرت يوماً فلا نظرت بعده عيني إلى أحد

فطرب القوم ، وقالوا : أحسنت والله يا طويس ! ثم قال : ياسيدي ؛ أتدري
لن هذا الشعر ؟ قال : لا ، والله ما أدري لمن هو . إلا أني سمعت شعراً حسناً .
قال : هو لفارعة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت في عبد الرحمن بن الحارث بن
هشام الخزومي . فنكس القوم رؤوسهم ، وضرب عبد الرحمن برأسه على
صدره^(٦) ، فلو شئت الأرض له لدخل فيها .

(١) تملأوا : امتلأوا من كثرة الأكل . (٢) الربيع : آلة من آلات الطرب . (٣) لماه
بالعو : لاه . (٤) الزئيلة : الجبن الضيف . (٥) النكس : الضيف لا غير فيه . والجدد :
التليل الخير . (٦) ضرب برأسه على صدره : أطرق استحياء وخجلاً ، وهو يريد ببعد الرحمن
عبد الرحمن بن حسان بن ثابت .

٤ - سَقَوْنِي وَقَالُوا لَا تَمَنَّ*

جلس عبدُ الله بن جعفر يوماً عند عبد الملك بن مروان ، فحدثه عن إقبال^(١) ابن أبي عتيق وكثرة عياله ؛ فأمره عبد الملك أن يبعث به إليه ، فأتاه ابنُ جعفر فأعلمه بما دار بينه وبين عبد الملك وبعثه إليه .

فدخل ابنُ عتيق على عبد الملك ، فوجده جالساً بين جارتين قائمتين عليه تميمسان^(٢) كقصتي بآن ، بيد كل جارية مروحة ، تروح بها عليه ، مكتوب بالذهب في اللروحة الواحدة :

لَمَنْى أَجْلِبُ الرِّيحَ وَبِى يَلْبُ الْخَجِلُ
وَحِجَابٌ إِذَا الْحَيِّدُ بُنَى الرَّأْسَ لَقَبَلُ
وَعِثَاتٌ إِذَا التَّنْدِيمُ تَفَى أَوْ ارْتَجَلُ
وَفِي الرُّوحَةِ الْآخَرَى :

أَنَا فِي الْكَفِّ لَطِيفُهُ مَسْكِي قَصْرِ الْخَلِيفَةِ
أَنَا لَا أَصْلَحُ إِلَّا لظَرْفٍ أَوْ ظَرْفِهِ
أَوْ وَصِيفٍ^(٣) حَسَنِ الْقَدِّ شَبِيهِ بِالْوَصِيفَةِ

قال ابنُ أبي عتيق : فلما نظرتُ إلى الجاريتين هَوَّتَا الدنيا علىَّ ، وأُنتَتَانِي سوءَ حَالِي ، ثم قلت : إِنْ كَانَتَا مِنَ الْإِنْسِ فَانْسَاؤُنَا إِلَّا مِنَ الْبَهَائِمِ ، فلما كررتُ بصرى فيهما تذكرتُ الجنة ، فإذا تذكرتُ امرأتى - وكنتُ لها مُحِبًّا - تذكرتُ

* المقدم الفريد : ٤ - ٩١

(١) فقر . (٢) تميمسان : تقيضتان . (٣) الوصيف : الخادم ، غلاما كان أو جارية .

النار ، وبدأ عبد الملك يتوجَّم لي بما حكى له ابنُ جعفر عني ، ويخبرني بما لي عنده من جميل الرأي ، فما كذبتُ له كلَّ ما حكاه له ابنُ جعفر عني ، ووصفت له نفسي بنايةً مَلَّا وإلجدةً^(١) ؛ فامتلاً عبد الملك سروراً بما ذكرت له وعُماً بتكذيب ابن جعفر

فما عاد إليه ابنُ جعفر عاتبه عبدُ اللّٰك علما ما حكاه عنى ، وأخبره بما حَكَيْتُ^(٣) له نفسى ، فقال : كذب ، والله يا أمير المؤمنين ، وإنه أحوجُ أهل الحجاز إلى قليل فضلك ، فضلا عن كثيره .

ثم خرج عَبْدُ اللَّهِ فُلَيْحِي ، فقال : ما حلك على أن كَذَّبَنِي عند أمير المؤمنين ؟ قلت : أفكنت تراني وقد اجلسني بين شمس وقر ، ثم أَتَقَارَرُ^(٣) عنده إلا والله ، ما رأيت ذلك لنفسي ، وإن رأيت لي .

فلما أعلم بذلك عبدُ الله بن جعفر عبد الملك بن مروان قال : فالجاريتان له .
قال ابنُ أبي عَتيق : فلما صارنا إلى زُرتْ عبد الله بن جعفر فوجدته قد امتلأَ
فرحاً وهو يشربُ ، وبين يديه عُسٌّ^(٤) فيه عسل ممزوج بمسك وكافور ، فقال :
مَهْمٌ^(٥) ؟ قلت : قد والله قبضتُ الجاريتين ، قالُ : فاشرب ، فتناولتُ العُسَّ ،
فجرعتُ منه جرعةً ، فقال لي : زِدْ ، فأيت عليه ، فقال لجارية له عنده نُفَيْيَه :
إن هذا قد حاز اليوم غزالتين من عند أمير المؤمنين فخذِي في نَمَهما ، فحركتُ
الجارية العمود ، ثم غنت .

(١) لللا : سعة العيش . والجدة : النني . (٢) حلى شه : وحف حليته . (٣) تعافر : أظهر الفقر . (٤) الس : القدر العظيم . (٥) كلة استفهام : أى ما حالك وما شأنك ؟ أو ما وراءك ؟ أو أحدث لك شي ؟

عهدي بها في الحى قد جردت صفراء مثل المهرة الضامير
 قد حجّم^(١) الثدي على نحرها في مشرق ذى بهجة ناضر
 لو أسندت ميتاً إلى صدرها قام ولم ينقل إلى قابر^(٢)
 حتى يقول الناسى ما رأوا : يا عجبا للميت الناصر
 فلما سمعت الأبيات طربت ، ثم تناولت المس ، فشربت عللاً^(٣) بمد
 نهل ، ورفعت عبقري أغنى :
 سقوني وقالوا : لا تمنّ ولو سقوا جبال حنين ما سقوني لثنت

(١) حجّم الثدي : نهّد . (٢) قبره يقبره : دفنه ، أى إلى دافن . (٣) الطل : الصبرة الثانية ،
 أو الحرب بعد الحرب تبارعا ، والنهل : الحرب الأول .

• - عبدالله بن جعفر عند جميلة *

جلست جميلة^(١) يوماً للوفادة عليها ، وجلت على رؤوس جواربها شعوراً
مُسدلةً كالمنافيد إلى أمجازهن ، وألبسهن أنواع الثياب المصبغة ، ووضعت فوق
الشعور التيجان ، وزينتهن بأنواع الخلى .

ووجهت إلى عبد الله بن جعفر تستزيره ، وقالت لكتاب أملت عليه :
« أبى أنت وأبى أقدرك يحل عن رسالتى ، وكرمك يحتمل زلتى ، وذنبى
لا تقال عثرته ، ولا تغفر حوبته^(٢) ؛ فإن صفحت فالصفح لكم معشر أهل
البيت يؤتر ، واغفر والفضل كله فيكم مدخر ، ونحن العبيد وأنتم الموالى .
فطوبى لمن كان لكم مجاوراً ، ويمزكم قاهرأ ، وبضيايكم مبصرأ ! والويل لمن
جهل قدركم ، ولم يعرف ما أوجب الله على هذا الخلق لكم ! فصغيركم كبير ،
بل لا صغير فيكم ، وكبيركم جليل ، بل الجلالة التى وهبها الله عز وجل للخلق
هى لكم ، ومقصودة عليكم ؛ وبالكتاب نألك ، وبحق الرسول ندعوك
- إن كنت نشيطاً - مجلس هيأته لك ، لا يحسن إلا بك ، ولا يتم إلا معك ،
ولا يصلح أن ينقل عن موضوعة ، ولا يسلك به عن طريقه . »

فلما قرأ عبد الله الكتاب قال : إنا لنعرف تنظيمها لنا ، وإكرامها لهغيرنا
وكبيرنا ، وقد علمت أنها قد آلت ألية^(٣) ألا تنقأ أحداً إلا فى منزلها . وقال

* الأغانى : ٨ - ٢٢٧

(١) هى جميلة مولاة بنى سليم ، كانت أصلاً من أصول الفناء ، وعنها أخذ حميد وابن عاتق
وحبابة وسلامة وغيرهم من الفتيان والمفتيات ، توفيت سنة ١٢٥ هـ تقريباً . (٢) الحوبة : الإثم .
(٣) آلت : ألفت بيننا .

لرسول : والله قد كنتُ على الركوب إلى موضع كذا، وكان في عزمي للورود بها؛
فأما إذ وافق مرادها فإني جاعلٌ بعد رجوعي طريقاً عليها .

فلما صار إلى بابها أدخل بعض من كان معه إليها وصرف بعضهم . فنظر إلى
ذلك الحسن البارع والهيئة الباذة^(١) ، فأعجبه ووقع من نفسه ؛ فقال : يا جميلة ؛
لقد أنيت خيراً كثيراً ! ما أحسن ما صنعتِ ! قالت : سيدي ؛ إن الجليل للجميل
يصلح ، ولك هيأتُ هذا المجلس .

جلس عبد الله بن جعفر ، وقامت على رأسه ، وقامت الجوارى صتيين ؛ فأقسم
عليها جلست غير بعيد . ثم قالت : يا سيدي ؛ ألا أغنيك ، قال : بلى أفنت :
بني شيبه^(٢) الحمد الذي كان وجهه يُضيءُ ظلام الليل كالقمر البدر
كهُولهم خيرُ الكهول ونسَلهم كنسَلُ الملوك لا يبور ولا يجرى^(٣)
أبوكم قصي كان يذني مُجَمِّماً به جَمَعَ الله القَبَائِلَ من نهر
فقال عبد الله : أحسنت يا جميلة ! بالله أعيد به لي ، فأعادته ؛ فجاء الصوت
أحسن من الازجعال . ثم دعت لكل جارية بود ، وأمرتهن بالجلوس على
كرامى صفار قد أعدتها لهن ، فضربن ، وغنت عليهن هذا الصوت وغنى جواربها
على غنائها .

فلما ضربن جميعاً قال عبد الله : ما ظننتُ أن مثل هذا يكون ! وإنه لما
يفتن القلب !

ثم دعا بيفلحه فركبها وانصرف إلى منزله . وقد كانت جميلة أعدت طعاماً
كثيراً . قال لأصحابه : تحلقوا فتقدوا وانصرفوا مسرورين .

(١) الهيئة الباذة : الغالبة القائمة . (٢) شيبه الحمد : لقب عبد المطلب بن هاشم ، وهو جد عبد الله
ابن جعفر . (٣) يبور : يهلك ، ويجري : يتنفس .

٦ - يَتَانِ مِنَ الشَّعْرِ *

قال أبو عَباد : أتيتُ جميلةَ يوماً ، وقد ظننتُ أني سبقتُ الناسَ إليها ، فإذا مجلسها غاص ؛ فسألتُها أن تملأني شيئاً ، فقالت لي : إن غيرك قد سبقك ، ولا يجملُ تقديمك على مَنْ سواك . قلت : جعلتُ فداك ! مني تفرغين ممن سبقني ؟ قالت : هو ذاك ، الحقُّ بِسُوءِهم .

فبينما نحن كذلك إذ أقبل عبدُ الله بن جعفر - وإياه لأوّلُ يومِ رأيتُهُ وآخره ، وكنتُ صغيراً كئيباً^(١) ، وكانت جميلةٌ شديدةَ الفرح - قامت وقام الناس ، فخلعتُهُ وقبلتُ رجليه ويديه ، وجلس في صدرِ المجلس على كُومٍ^(٢) لها ، ونَحَوْتُ^(٣) أصحابه حوله ، وأشارت إلى مَنْ عندها بالانصراف ، وتفرقتُ الناس ، وغمرتُني ألا أبرح ، فأقت . وقالت : يا سيدي وسيدَ آبائي وموالي ؛ كيف نشطتُ إلى أن تنقل قدميك إلى أمتك ؟ قال : يا جميلة ؛ قد علمتُ ما آليتِ على نفسك ألا تنفي أحداً إلّا في منزلك ، وأحببتُ الاستماع . قالت : جعلتُ فداك ! فأنا أصيرُ إليك وأكفر . قال : لا أكلفك ذلك ، وبلغني أنك تُفنين بيتي لامرئ القيس تجيدين الفناء فيها ، وكان اللهُ أُنقذَ بها جماعة من المسلمين من الموت . قالت : يا سيدي ، نعم ! فاندفعتُ نُفسي ، ففنتُ بِمُودِها ؛ فاسمعتُ منها قبلَ ذلك ، ولا بعد

* الأغانى : ٨ - ١٩٨

(١) كئيس : عاقل . (٢) الكوم : اللوازم للشرقة ، واحدها كومة . (٣) تحوُّق القوم حوله : استداروا وأحاطوا به .

إلى أن مات ، مثل ذلك الفناء ، فسبح عبد الله بن جعفر والقوم معه ، وهما :
ولما رأت أن الشرمة ههنا وأن البياض من فرائصها دأى^(١)
تيممت العين التي عند ضارج . بقاء عليها الظل ، عزمها طأى^(٢)
فلما فرغت قالت جميلة : أى سيدي ؟ أزيدك ؟ قال : حسبي . فقال بعض
من كان معه : بأبي جملت فذاك ! وكيف أخذ الله من المسلمين جماعة بهذين
البيتين ؟ قال : نعم ، أقبل قوم من أهل اليمن ، يريدون النبي صلى الله عليه وسلم ؛
فضلوا الطريق ، ووقفوا على غيرها ، ومكنوا ثلاثاً لا يتدرون على الماء ، وجعل
الرجل منهم يستدري^(٣) بقاء السمير والطلع يائساً من الحياة إذ أقبل ركب
على بئر له ، وأنشد بعض القوم هذين البيتين ، فقال :
ولما رأت أن الشرمة ههنا وأن البياض من فرائصها دأى
تيممت العين التي عند ضارج . بقاء عليها الظل عزمها طأى
فقال الراكب : من يقول هذا ؟ قال : امرؤ القيس . قال : والله ما كذب ،
هذا ضارج عندهم ، وأشار لهم إليه ، فحبوا على الزغب فإذا ماء عذب ،
وإذا عليه القرمض والظل بقاء عليه ؛ فشربوا منه ريهم ، وحلوا ما اكتفوا به
حتى بلغوا الماء .

(١) الضمير في رأت الحمر ، والشرمة : مورد الماء الذي تشرب فيه الدواب ، وهما : طلبها ،
والفرصة : اللحظ الذي بين الكنف والصدور . (٢) ضارج : موضع في بلاد بني عيس ، والرمض :
الطعلب ، وطام : عال مرتفع . يريد أن الحر لا أراد شرمة الماء خافت على أنفسهم من الرماة
وأن تدعى فرائصها من سهامهم ، فعدلت إلى ضارج لعدم الرماة على العين التي فيها . (٣) يستدري :

فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه وقالوا: يا رسول الله! أحيانا الله عز وجل
يبعث من شعر امرئ القيس ، وأنشدوه الشعر . فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : ذلك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسي في الآخرة ، خامل
فيها ، يحيى يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار . فكل استحسن الحديث .
ونهض عبد الله بن جعفر ونهض القوم معه ؛ فما رأيت مجلسا كان أحسن
من مجلسه .

٧ - ماذا فعلت بزاهد متعبد *

قال الأصمى: قدم عراقى بذل^(١) من حُرِّ العراق إلى المدينة ، فباعها كلها إلا السود؛ فشكا ذلك إلى الدارم^(٢) ، وكان قد نلتك وترك الشعر ولزِمَ للسجد ، قال : ما تجملُ لى على أن أحتال لك بحيلة حتى نبيها كلها على حكك ؟ قال : ما شئت ! فعمد الدارمى إلى ثياب نسكك ، فألقاها عنه ، وعاد إلى مثل شأنه الأول ، وقال شعراً رُفِعَ إلى صديق له من المنين ، فنفى به ، وكان الشعر :

قُلْ لِلْبَاطِلَةِ فِي الْخِمارِ^(٣) الْأَسود ماذا فعلت بزاهد متعبد
قد كان شمرًا لصلاته ثيابه حتى خطرت له ثياب السجد
رُدِّي عليه صلاته وصيامه لا تقتلني بحق دين محمد
فشاع هذا الفناء في المدينة ، وقالوا : قد رجع الدارمى ، وتمشق صاحبة الخمار
الأسود ، فلم تبق مليعة بالمدينة إلا اشترت خماراً أسود ، وباع التاجر جميع ما كان
معه ، فجعل إخوان الدارمى من الناسك يلقون الدارمى فيقولون : ماذا صنعت ؟
فيقول : ستملون نبأه بعد حين ، فلما نفيده ما كان مع العراقى رجع الدارمى إلى
نسكه وليس ثيابه !

* العقد الفريد : ٤ - ٩٦

(١) العدل : نصف الحمل . (٢) هو ربيعة بن عامر ، ولقبه مكين ، ويصل نسبة إلى دارم بن مالك ، كان شاعراً شريفاً من سادات قومه ، وقد غلب شعره في مصحح معاوية ، توفي سنة ٨٩٠ .
(٣) الخمار : التعفيف ، وما تغطي به المرأة رأسها .

٨ - دُعَابَةُ ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ *

لما دخل المدينة عُثْمَانُ بْنُ حِثَّانَ الرَّيِّ وَالْيَأْ^(١) عليها اجتمع الأشرافُ عليه من قريش والأنصار ؛ فقالوا له : إنك لا تعملُ عملاً أجْدَى ولا أَوْلى من تحرِيمِ الفناء والرَّثَاءِ^(٢) ، ففعل وأَجَلْ أهلها ثلاثاً يخرجون فيها من المدينة .

فقدَّم ابنُ أَبِي عَتِيقٍ^(٣) في الليلة الثالثة ؛ فحطَّ رحله باب سَلَامَةٍ^(٤) وقال لها : بدأتُ بك قبل أن أُصِيرَ إلى منزلي ؛ قالت : أو ما ندرى ما حدث ؟ وأخبرته الخبر . فقال : أقيمى إلى السَّحَرِ حتى ألقاهُ ! قالت : إنا نخاف ألا نُفْنِي شيئاً ، ونُسَكِّظَ^(٥) . فقال : إنه لا بأسَ عليك !

ثم مضى إلى عُثْمَانَ فاستأذَنَ عليه ، فأذِنَ له وسلمَ عليه ، وذكر له غيبته ، وأنه جاء ليقضى حقه ، وقال له : إن من أفضَل ما عملتُ تحرِيمَ الفناء والرَّثَاءِ . قال : إن أهلك قد أشاروا علىّ بذلك . قال : فإنك قد وقَّعتُ ! ولكني رسولُ امرأتِ إليك تقول : قد كانت هذه صناعتى فُتِّبْتُ إلى الله منها ، وأنا أسألك أيُّها الأمير ألا تحولَ بينها وبين مجاورة قبر النبي صلى الله عليه وسلم .

قال عُثْمَانُ : إذن أدعها لك ولكلامك . قال : لا يدعُك الناسُ ؛ ولكن

* الأغانى : ٨ - ٣٤١ ؛ الكامل : ١ - ٣٨٠ ، ذيل زهر الآداب : ٤٤

(١) دخل المدينة واليًّا لوليد بن عبد الملك سنة ٥٩٣ هـ . (٢) الرثاء : يريد التباينة بالرأى ، وفي رواية الأغانى غير ذلك . (٣) هو عبد الله بن أبي عتيق بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق : كان من نسل قريش وطرقاتهم ، وله أخبار طويلة طريفة . (٤) سلامة الزرقاء : من مولات المدينة ، وكانت أحسن الناس وجها وأتمن عقلا ، وأجودهن حديثاً ، قرأت القرآن ، وروى الأعمش ، وأخذت الفناء من جيلة مولاة بني سليم . (٥) تنكظ : تتالنا شدة .

تَدْعُو بِهَا وَتَسْمَعُ كَلَامَهَا ، وَتَنْظُرُ إِلَيْهَا ، فَإِنْ كَانَتْ مِنْ مُيْتَرَكٍ تَرَكْتَهَا . قَالَ : فَادْعُ بِهَا .

فَأَمَرَهَا ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ ؛ فَخَشَعَتْ ، وَأَخَذَتْ سُبْحَةَ فِي يَدِهَا ، وَصَارَتْ إِلَيْهِ ، وَحَدَّثَتْهُ ؛ فَإِذَا هِيَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالنَّاسِ ؛ فَأَعْجَبَ بِهَا ، وَحَدَّثَهُ عَنْ آيَاتِهِ وَأُمُورِهِمْ ، فَكَهَّ^(١) ، فَقَالَ لَهَا ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ : اقْرَأِي لِلْأَمِيرِ ؛ فَقَرَأَتْ لَهُ . قَالَ لَهَا : اخْدِي لِلْأَمِيرِ ، فَرَكَّهُ حَدَاؤُهَا^(٢) . ثُمَّ قَالَ لَهَا : غَيْرِي^(٣) لِلْأَمِيرِ ؛ فَعَمِلَ يُعْجِبُ بِذَلِكَ عُمَانٌ . فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ : فَكَيْفَ لَوْ سَمِعْتَهَا فِي صِنَاعَتِهَا !
قَالَ : قُلْ لَهَا فَتَقْتُلْ . فَأَمَرَهَا فَفَنَّتْ :

سَدَدَنْ خَصَامَ^(٤) أَنْتَلِمُ^(٥) لِمَادَخَلْنَهُ بِكُلِّ لَبَانٍ^(٦) وَاصْبِحْ وَجَبِينِ
فَقَبِلَ عُمَانُ بْنُ حِجَّانٍ عَنْ سِرِّرِهِ ، حَتَّى جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ
مَا مِثْلُكَ يَخْرُجُ مِنَ الدِّينَةِ !

قَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ : يَقُولُ النَّاسُ : أَذِنَ لِلْعَامِ فِي الْقَامِ وَأَخْرَجَ غَيْرَهَا .
قَالَ لَهُ عُمَانُ : قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ جَمِيعًا !

(١) فَكَهَّ لَهَا : طَابَتْ نَفْسُهُ . (٢) الْحَدَاؤُ : غَنَاءٌ خَلْفَ الْإِبِلِ تَقْشَطُ بِهِ . (٣) الْغَيْرِي : ضَرْبٌ مِنَ الْفَنَاءِ اتَّخَذَهُ الْمُتَصَوِّفُ يَتَوَاجِدُونَ عَلَى الْفَنَاءِ . (٤) الْخَصَامُ : خُرُوفٌ وَاسِعَةٌ فِي الْحِمِّ قَدَرُ الرَّجُلِ ، الْوَاحِدَةُ خَصَامَةٌ ، وَهُوَ يَصِفُ نِصْفَ نِصْفٍ تَطْلُعْنَ مِنْهَا . (٥) الْحِمِّ : أَعْوَادٌ تَنْصَبُ فِي الْقَيْظِ ، وَتَجْمَلُ لَهَا عَوَارِضُ ، وَتَنْظِلُّ بِالشَّجَرِ ، فَتَكُونُ أَبْرَدَ مِنَ الْأَخْيَةِ . (٦) اللَّبَانُ : الصَّدْرُ .

٩ - لَعْنُ الْجِيلَةِ*

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : حدثني عَمِّي - وكانت أَسَنُّ من أبي وعُمَرْتُ بعده - قالت : كان السَّبُّ في طلب أبيك الفناء والمواظبة عليه لحناً سمه لجيلته في منزل يونس بن محمد الكاتب ، فانصرف وهو كئيبٌ حزينٌ مهمومٌ ، ولم يَطْعَمْ^(١) ولم يَقِيلْ علينا بوجهه كما كان يفعل . فسألته عن السبِّ فأمسك ، فالتحَّصْتُ عليه فانتهرني ، وكان لي مُكْرِمًا ؛ فضيبتُ وقتُ من ذلك المجلس إلى بيتٍ آخر ؛ فتيمنى وترضاني ، وقال لي : أهدئك ولا كتمان منك ! عشقتُ صوتاً لامرأة قد ماتت ، فأنا بها وبصوتها هائمٌ ، إن لم يتداركني الله منه برحمته . قلت : أنظن أن الله يُحْيِي لك ميتاً ! قال : لا . قلت : فما تمليك قلبك بما لا يُعطاه أحد ! وأما عشقك الصوت فهو أن تحذِّقه وتُغْنِيه عشرَ مرارٍ ، فتَمْلُهُ وبذهبَ عشقك له ! فكأنه أرعوى ورجع إلى نفسه ، وقام قبيلَ رأسي وبديّ ورجلي ، وقال لي : فرتجتُ عني ما كنتُ فيه من الكَرَبِ والغمِّ ، ثم تَمَثَّلَ :

* حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ *

ولزم بيت يونس حتى حَذَقَ الصوتَ ، ولم يَمُكِّثْ إلّا زمناً يسيراً حتى مات يونس ، وانضمَّ إلى سَيَّاط^(٢) ، وكان من أحذق أهل زمانه بالفناء وأحسنهم أداءً عَن مَضَى .

* الأغاني : ٨ - ٢٢٠

(١) لم يَطْعَمْ : لم يتناول الطعام . (٢) اسمه عبد الله ، يكنى من موالى خزاعة ، وهو أستاذ ابن جابر ولإبراهيم الموصلي ، وكان مقدماً في الفناء ، رواية وصنعة ، مات في أيام الهادي .

قالت عتي : قلت لإبراهيم : وما الصوت ؟ فأنشدني الشعر ولم يحسن أداء الفتاء :

مِنَ الْبَكَرَاتِ عِرَاقِيَّةٌ تُسَمَّى سُبَيْمَةَ أَطْرَبَتْهَا
وَمِنْ آلِ أَبِي بَكْرَةَ الْأَكْزَمِينَ خَصَصْتُ يَوْدِي فَأَضْفَيْتُهَا
وَمِنْ حُبِّهَا زُرْتُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَأَسْخَطْتُ أَهْلِي وَأَرْضَيْتُهَا
أَمُوتُ إِذَا شَخَطْتُ دَارُهَا وَأُحْيَا إِذَا أَنَا لَا قِيَّتُهَا
فَأَقْسِمُ لَوْ أَنَّ مَابِي بِهَا وَكَنتُ الطَّيِّبَ لِمَاوِيَّتُهَا

قالت عتي : هذا شعر حسن ، فكيف به إذا ما قُطِعَ ومُدِّدًا فامضت الأيام والليالي حتى سمعتُ اللحن مؤدِّي ؛ فافرق مسامحي شيء قط أحسن منه ؛ ولقد أذكرني بما يؤثّر من حسن صوت داود وجمال يوسف .

فبينما أنا يوماً جالسة ، إذ طلع عليّ إبراهيم ضاحكاً مستبشراً ؛ فقال لي : ألا أحدثُكِ بمعجب ؟ قلت : وما هو ؟ قال : إن لي شريكاً في عشق صوت جيلة ! قلت : وكيف ذلك ؟ قال : كنت عند سياط في يومنا هذا ، وأنا أغنيهِ الصوت ، وقد وقفني فيه على شيء لم أكن أحسنه عن يونس ، وحضر عند سياط شيخ نبيل ، فسبح^(١) على الصوت تسبيحاً طويلاً ؛ فظننت أنه فضل ذلك لاستحسانه الصوت . فلما فرغت أنا وسياط من اللحن قال الشيخ : ما أعجب أمر هذا الشعر ، وأحسن ما غني به ، وأحسن ما قال قائله !

قلت له دون القوم : وما بلغ من الإعجاب به ؟ قال : نعم ! حَبَّتْ سُبَيْمَةُ

(١) سبح : قال : سبحان الله !

من ولد عبد الرحمن بن أبي بَكْرَةَ ، وكانت من أجل النساء ، فأبصرها عمر بن أبي ربيعة^(١) ، فلما انحدرت إلى العراق اتبعها يُسَيِّمها حتى بلغ معها موضعاً يقال له : الخورثق . فقالت له : لو بلغت إلى أهلي ، وخطبتني لزواجك . فقال لها : ما كنت لأخلط تشيبي إياك بخطبة ، ولكن أرجعُ ثم آتيكم خاطباً ؛ فرجع ومراً بالمدينة ، فقال فيها :

من البكراتِ عراقيةٌ تُسمى سبيعةً أطريتها

ثم أتى بيتَ جميلة ، فسألها أن تغني بهذا الشعرِ ففعلت . فأعجبه مسمع من حُسنِ غنائها وجودِ تأليفها ؛ فحسن موقعُ ذلك منه ؛ فوجهَ إلى جارية له كانت تطلبُ الفناء أن تأتيَ جميلة ، وتأخذ الصوتَ منها ، فطارحتها إياه أياماً حتى حدقتْ ومهرت به . فلما رأى ذلك عمر قال : أرى أن تخرجي إلى سبيعة وتغنيها هذا الصوتَ وتبلغني رسالتي ؛ قالت : نعم ؛ جعلني الله فداك .

فأتتها فرحبتَ بها ، وأعلمتها الرسالة ، فحيتْ وأكرمتْ ، ثم غنَّتها فكأبتْ تموت فرحاً وسروراً لحسنِ الفناء والشعر .

ثم عادت رسولُ عمر ، فأعلمته ما كان ؛ وقالت له : إنها خارجةٌ في تلك السنة .

فلما كان أوّلُ الحج استأذنت سبيعة أباه في الحج فأبى عليها ، وقال لها : قد حججتَ حجةَ الإسلام . قالت له : تلك الحجة هي التي أسهرتني ليلي ، وأطالت نهارى ، وتوقفتني إلى أن أعودَ وأزورَ البيتَ والقبرَ ؛ وإن أنت لم تأذن لي ميتٌ كمداءٍ وعمدٍ .

(١) عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة ، شاعر مشهور ، كان يقد على عبد الملك بن مروان فيكرمه .

فلما رأى ذلك أبوها رَقَّ لها، وقال : ليس يَسْمَعُ منها لِمَا أَرَى بها ؛ فأذن لها :
ووافق عمرُ المدينة ليعرف خبرها ؛ فلما قدمت علم بذلك ، وسألتها أَنْ تَأْتِيَ
منزل جميلة ، وقد سبق إليها عمرُ ، فأكرمها جميلة ، وسُرَّتْ بمكانها . قالت لها
سُبَيْعة : جعلني الله فِدَاكَ ! أأقلقني وأسهرني صوتك بشعر عمرَ في ، فأسمعيني إياه .
قالت جميلة : وعزَّازةٌ لوجهك الجميل ! ففَضَّتْها الصوت ؛ فأغنى عليها ساعةً
حتى رُش على وجهها الماء ، وثاب إليها عقلها . ثم قالت : أعيدي علي ، فأعدت
الصوت مراراً في كل مرة يُفْتَنِي عليها .

ثم خرجت إلى مكة وخرج معها . فلما رجعت مرَّتْ بالمدينة وعمرُ معها ؛
فأنت جميلة فقالت لها : أعيدي علي الصوت . فقلت ؛ وأقامت عليها ثلاثاً تسألها
أن تبيد الصوت ، قالت لها جميلة : إني أريد أن أغنيك صوتاً فأسميه . قالت :
هاتيه ياسيدي ففَضَّتْها :

أَبَتِ لِلْبَيْعَةِ أَنْ تَوَاصِلَنِي وَأُظُنُّ أَنَّ زَانِرَ رَمْسِي ^(١)

لَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا مَا لَمْ تُوَافِقْ نَفْسَهَا نَفْسِي

لَا صَبْرَ لِي عَنْهَا إِذَا حَسَرْتُ ^(٢) كَالْبَدْرِ أَوْ قَرْنٍ مِنَ الشَّمْسِ

قالت سُبَيْعة : لولا أن الأول شعر عمر لقدمتُ هذا على كل شيء سمعته .

فقال عمر : فإنه والله أحسنُ من ذلك ؟ فأثابها الشعر فلا . قالت جميلة :

صدقت والله !

(١) الرمس : القبر . (٢) يريد ظهرت .

١٠ - في أيام الحج *

حج عمرُ بن أبي ربيعة في عامٍ من الأهوام على نجيبٍ له ، مَحْضُوبٍ بِالْحِثَاءِ
 مشهَرُ الرَّحْلِ بِقِرَابٍ^(١) ، مُذْهَبٍ^(٢) ، ومعه عُبَيْدُ بْنُ سُرَيْجٍ عَلَى بَسَلَةٍ لَهُ
 شَقْرَاءُ ، ومعه غلامه جَنَادٌ^(٣) ، ويقوِّدُ فَرَسًا لَهُ أَدَمٌ أَغْرٌ مُحَجَّلًا وكان عمرُ بن
 أبي ربيعة يسميه « الكوكب » في عنقه طوقٌ ذَهَبٌ . ومع عمرَ جماعةٌ من حَشَمِهِ
 وغُلَمَائِهِ ومواليه ، وعليه حُسْلَةٌ مَوْشِيَّةٌ يمانية وعلى ابنِ سُرَيْجٍ ثوبانِ هَرَوِيَّانِ^(٤)
 مَرْتَفَعَانِ ، فلم يَمْزُوا بأحدٍ إِلَّا عَجِبَ مِنْ حَسَنِ هَيْئَتِهِمْ ، وكان عمرُ مِنْ أَغْطَرِ النَّاسِ
 وَأَحْسَنِهِمْ هَيْئَةً ، فَخَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ^(٥) بَعْدَ الْمَصْرِ يَرِيدُونَ مَدْيَنَ .
 فَمَرُّوا بِمَنْزِلِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ بِمَدْيَنَ ، قَدْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِ فَسَاطِيطَةٌ^(٦)
 وَخِيَمَةٌ ، وَوَأَقَى الْمَوْضِعَ عَمْرُؤُ فَابْصَرَ بَنَاتًا لِلرَّجُلِ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ قُبَّتِهَا ، وَسَتَرَ جَوَارِيَهَا
 دُونَ الْقُبَّةِ لثَلَايِرَاهَا مِنْ مَرٍّ ، فَأَشْرَفَ عَمْرُؤُ عَلَى النَّجِيبِ ، فَفَظَرَ إِلَيْهَا ، وَكَانَتْ مِنْ
 أَحْسَنِ النِّسَاءِ وَأَجْمَلُنَ ، فَقَالَ لَهَا جَوَارِيهَا : هَذَا عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةٍ ، فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا

* الأغانى : ٢٥٩-١

(١) القِرَاب : جراب السيف يصنع من الجلد . (٢) الإذهاب : الطلاء بالذهب . (٣) في جناد
 يقول عمر :

فقلت لجناد خذ السيف واحتبل عليه برفق وارقب الشمس تقرب
 وأسرج لي الدماء وأجمل بمطري ولا تملن خلقاً من الناس منهي

(٤) ثوب هروى : منسوب إلى هراة . (٥) يوم التروية : الثامن من ذى الحجة لأن الماء كان
 قليلاً يعني فكانوا يرتوون من الماء لما بعد . (٦) القسطاط : ضرب من الأبنية ؛ وجهه فساطيط.

فَنظَرْتُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ سَقَرْتُهَا جَوَارِيهَا وَوَلَّاهُهَا^(١) عَنْهُ ، حَتَّى دَخَلْتُ ، وَمَضَى عَمْرٌ إِلَى مِزْلِهِ وَفَسَاطِيطِهِ بَعْنَى ، وَقَدْ نَظَرَ مِنَ الْجَارِيَةِ إِلَى مَاتِيهِ ، وَمِنْ جَاهِلِهَا إِلَى مَا حِيرَهُ ؛ قَالَ فِيهَا :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِالْخَصْبِ^(٢) مِنْ مِيقَى وَلَى نَظَرْتُ - لَوْلَا التَّصْرِيجُ - عَارِمٌ^(٣)
قُلْتُ : أَشْمَسُ أَمْ مَصَابِيحُ بَيْعَةٍ^(٤) بَدَتْ لِي خَلْفَ السَّجْفِ أَمْ أَنْتَ حَالِمٌ
بَعِيدَةٌ مَهْوًى^(٥) الْقُرْطُ إِمَّا لِنَوْفَلٍ أَبُوهَا وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَائِمٌ
وَمَدَّ عَلَيْهَا السَّجْفَ يَوْمَ لَقَيْتُهَا عَلَى عَجَلٍ تَبَاعُهَا وَالْخَوَادِمُ
فَلَمْ أَسْتَطِعْهَا غَيْرَ أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا عَلَى الرِّقْمِ مِنْهَا كَفُّهَا وَلِلْعَالِمِ
مَعَارِمٌ لَمْ تَضْرِبْ عَلَى الْبَهْمِ^(٦) بِالضَّحَى عَصَاهَا وَوَجَّهْتُ لَمْ تَلْعَنَهُ السَّامِ
نَظِيرٌ تَرَى فِيهِ أَسَارِيعَ مَانِهِ^(٧) صَبِيحٌ تُغَادِيهِ الْأَسْهُ النَّوَاعِمُ
إِذَا مَا دَعَتْ أَتْرَابَهَا فَاسْتَفَنَفَهَا تَمَايَلْنَ أَوْ مَالَتْ بَيْنَ اللَّامِ^(٨)
طَلَبْنَ الصَّبَا حَتَّى إِذَا مَا أُصْبِنَتْهُ تَزَعْنَ وَهْنُ الْمُسْلِمَاتُ الظُّلُمُ

نَمِ قَالَ لَا بِنَ سُرَيْجٍ : يَا أَبَا بَحِيٍّ ؛ إِنِّي تَفَكَّرْتُ فِي رَجُوعِنَا مَعَ الْعَشِيَّةِ إِلَى مَكَّةَ مَعَ كَثْرَةِ الزَّحَامِ وَالنُّبَارِ وَجَلَبَةِ الْحَاجِّ ، فَتَقَلَّ عَلَيَّ ؛ فَهَلْ لَكَ أَنْ تَرُوحَ رَوَاحًا طَيِّبًا مَعْتَزِلًا ، فَتَرَى فِيهِ مَنْ رَاحَ صَادِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أَهْلِهَا ، وَتَرَى أَهْلَ الْعِرَاقِ

(١) الرولية : الأمة وجهها ولاتد . (٢) الخصب : موضع روى الجارمى . (٣) عارم : حاد
(٤) البيعة : كنيئة التصارى . (٥) بعيدة مهوى القرط : كناية عن طول النقى . (٦) البهم :
جمع بهيمة ، العصفير من أولاد الضأن . (٧) أساريع اللاء : طرائقه ، ولتراد أنه يترقب فيه
ماء الشباب . (٨) اللآ كم : جمع ما كمة وهي البجيرة .

والشام ، وتعلل^(١) في عثيتنا وليتنا ونستريح ؟ قال : وأنى ذلك يا أبا الخطاب ؟ قال : على كَيْثِيبِ أَبِي شَحْوَةَ^(٢) ، المشرفِ على بَطْنِ بَأَجِجِ^(٣) بين مِثْيَ وسَرْفِ ، فنُبْصِرُ مَرُورَ الْحَاجِّ بنا وزمَامَ وَلَا يَرُونَا . قال ابنُ سُرَيْجٍ : طَيِّبَ وَاللهُ يَأْسِدِي . فدعا بعضَ خَدَمِهِ فقال : اذهبوا إلى الدارِ بِمَكَّةَ ، فاعملوا لنا سَفَرَةَ^(٤) ، واحملوها مع شرابٍ إلى السَّكَيْتِيبِ ، حتى إذا أُبْرَدْنَا^(٥) ، وَرَمَيْنَا الْجَمْرَةَ^(٦) صِرْنَا إِلَيْكُمْ .

فصاروا إليه فأكلوا وشربوا ، فلما انقشيا أخذ ابنُ سُرَيْجٍ الدَّفْءَ فنقره ، وجعل ينفثُ ، وهم ينظرون إلى الحَاجِّ ، فلما أَمْسَى رَفَعَ ابنُ سُرَيْجٍ صَوْتَهُ فَنَفَى فِي الشَّهْرِ الَّذِي قَالَه عمر ، فسمعه الرُّكْبَانُ ففعلوا بِصَيْحُونِ به : يا صاحِبَ الصَّوْتِ ؛ أَمَا تَتَقَى اللَّهَ ؟ قَدْ حَبَسْتَ النَّاسَ عَنْ مَنَاسِكِهِمْ ! فَيَسْكُتُ قَلِيلاً ؛ حتى إذا مَضَوْا رَفَعَ صَوْتَهُ ، وَقَدْ أَخَذَ فِيهِ الشَّرَابَ ؛ فَيَقِفُ آخَرُونَ ، إلى أن مَرَّتْ قِطْعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ ؛ فَوَقَفَ عَلَيْهِ فِي اللَّيْلِ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ عَتِيقٍ^(٧) عَرَبِيٍّ مَرِيحٍ مُسْتَنٍّ^(٨) ، فهو كأنه يَمْلُ ، حتى وقف بأصل السَّكَيْتِيبِ ، وثنى رجله على قَرْبُومٍ^(٩) سَرَّجِهِ ، ثم نادى : يا صاحِبَ الصَّوْتِ ؛ أَيْسَهُلُ عَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّ شَيْئًا مِمَّا سَمِعْتَهُ ؟ قال : نعم ، وَنَمَمَةٌ عَيْنٍ^(١٠) ، فأبها تريد ؟ قال . تعيد على^(١١) :

(١) تعلل : تلهى وتنتلى . (٢) موضع على غرة أميال من مكة . (٣) بَأَجِجِ : موضع قرب مكة . (٤) السفره : طعام يخفف للسافر . (٥) أُبْرَدْنَا : دخلنا في آخر النهار . (٦) الجمره : واحدة جرات للناسك وهي ثلاث جرات . (٧) العتيق : الفرس الرائع الكريم . (٨) يقال استن الفرس : جرى في نشاطه على سنه في جهة واحدة . (٩) القربوس : مقدم السرج ومؤخره . (١٠) أفضل ذلك إتماماً لمنينك ولا كراماً . (١١) الشعر لقيس بن ذريح .

أَلَا يَا غُرَابُ الْبَيْنِ مَالِكٌ كُلَّمَا نَمَيْتَ بِقَدَانٍ عَلَى نَحْوِ
أَيَّائِينَ مِنْ عَمْرَاءَ أَنْتَ مُحَبَّرِي عَدِمْتُكَ مِنْ طَيْرٍ فَانْتَ مَشُومٌ
فَأَعَادَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ ابْنُ سُرَيْجٍ : أَرَدْتُ أَنْ أَشْتِ ، فَقَالَ : غَنَى :

أَمْسَلُ^(١) إِي - يَابْنَ كُلِّ خَلِيفَةٍ وَيَا فَارِسَ الْهَيْجَاءِ وَيَا قَرَّ الْأَرْضِ
شَكَرْتُكَ إِنْ الشُّكْرَ حَبِلُ مِنَ التَّقَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَفْرَضَتْهُ نِعْمَةٌ يَقْضَى
وَنَوَّهَتْ لِي بِاسْمِي وَمَا كَانَ خَامِلًا وَلَكِنَّ بَعْضَ الذِّكْرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضِ
فَفَنَاهُ ، فَقَالَ لَهُ : الثَّالِثُ ، وَلَا أَسْزِيدُكَ . قَالَ : قُلْ مَا شِئْتُ ، فَقَالَ :

تَمْنِي^(٢) :

يَادَارُ أَقْوَتُ^(٣) بِالْجَزَعِ فَالْكُتْبِ^(٤) بَيْنَ مَسِيلِ الْمَذْذَبِ^(٥) فَالْخَصْبِ^(٦)
لَمْ تَتَفَنَّعْ بِفَضْلِ مِثْرِيهَا دَعَدْتُ وَلَمْ تُسَقِّ دَعْدُ فِي الثَّلَبِ
فَفَنَاهُ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ سُرَيْجٍ : أَجِئْتَ لَكَ حَاجَةٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، نَزَلَ إِلَيَّ
لَا خَاطِبُكَ شَقَاءًا بِمَا أُرِيدُ . قَالَ لَهُ عَمْرٌ : أَنْزِلْ إِلَيْهِ ، فَزَلَ ، فَقَالَ لَهُ : لَوْلَا أَنِي
أُرِيدُ وَدَاعَ الْكُمْبَةِ وَقَدْ تَقَدَّمَنِي تَقَلِّي^(٧) وَغُلَامِي لِأَطْلُتُ الْمَقَامَ مَعَكَ ، وَلَنْزَلْتُ

(١) يريد مسلة بن عبد الملك . والنعر لأبي نخيلة الحماني . (٢) نب هذا الشعر في اللسان - مادة
(دعد) - جرير ، وورد فيه كما يأتي :

يَادَارُ أَقْوَتُ بِجَانِبِ الْجِبِّ	بَيْنَ تَلَامِ السَّقِيقِ فَالْكُتْبِ
حَيْثُ اسْتَقَرَّتْ نَوَائِمُ فُقُورَا	صَوْبَ غَمَامٍ يَجْلُجِلُ الْجِبِّ
لَمْ تَتَفَنَّعْ بِفَضْلِ مِثْرِيهَا	دَعْدُ وَلَمْ تَقْدُدْ دَعْدُ بِالْطَلَبِ

والتفنع : الاشتغال بالتوب كناية ناء الأعراب . والطلب : اقتراح من جلود ، الواحد عليه يجلب فيه
اللين ويصير ، أي : ليست دعد هذه من تشتمل بثوبها وتصير اللين بالطلب كغناء الأعراب
الشقيات ولكنها بمن نأ في نعمة ، وكسى أحسن كوة . (٣) أقوت النار : خلت . والجزع :
منحط الوادي . (٤) الكتب : موضع بدواري . (٥) المذهب - كزير : ماء ، أربعة مواضع
(٦) موضع . (٧) التقل : متاع المسافر .

عندكم ؛ ولكنى أخاف أن يَفْضَحَنِي الصبح ، ولو كان قَتَلَ مَعِيَ لما رَضِيتُ لك
بالهُوَيْنِي^(١) ، ولكن خُذْ حُلَّتِي هذه وخَاتَمِي ولا تَخْذَعْ عنها ، فإن شراءها
ألفٌ وخَمْسُمِائَةِ دِينَارٍ .

ثم قال له : بالله أنت ابنُ سُرَيْجٍ ؟ قال : نعم ، قال : حياك الله . وهذا عمرُ
ابن أبي ربيعة ؟ قال : نعم ؛ قال : حياك الله يا أبا الخطاب !

فقال له : وأنت خِيَاكُ الله ! قد عَرَفْتَنَا فَمَرِّفْنَا نَفْسَكَ ، قال : لا يمكنني
ذلك ، فغَضِبَ ابنُ سُرَيْجٍ وقال : والله لو كنت يزيد بن عبد الملك لما زاد ، فقال
له : أنا يزيد بن عبد الملك !

فوثب إليه عمرُ فَأَعْظَمَهُ ، وابنُ سُرَيْجٍ قَبَّلَ رِكَابَهُ ، ثم مضى يزيد إلى قَعْلِهِ ،
ودفع ابنُ سُرَيْجٍ الحِلَّةَ والخَاتَمَ إلى عمر فأعطاه إياها ، وقال له : إنَّ هَذَيْنِ بك
أشبهَ منهما بِي ، فأعطاه عمر ثلاثمائة دينارَ وَغَدَاَ فِيهِمَا إِلَى السَّجْدِ ، فمَرَّهُمَا النَّاسُ ،
وجعلوا يَتَسَبَّحُونَ ويقولون : كَأَنَّهُمَا وَاللهُ حِلَّةُ يزيد بن عبد الملك وخَاتَمُهُ ، ثم يَأْخُذُونَ
عمرَ فيخْبِرُهُمْ أن يزيد بن عبد الملك كساه ذلك !

(١) الهويني : الأهمون والأيسر .

١١ - في وادي المقيق*

كان ابنُ عائشة^(١) من أحسنِ الناسِ غناءً ، وأُنهمم فيه ، وأضيقهم خلقاً :
إذا قيل له غنَّ ، يقول : أو أُمثلي يُقال هذا ؟ على عِقْقُ رَقَبَةٍ إِنْ غَنَيْتَ يَوْمِي هَذَا !
فإن غنَّ وقيل له : أحسنتَ ، قال : أُمثلي يُقال أحسنتَ ؟ على عِقْقُ رَقَبَةٍ إِنْ غَنَيْتُ
سائِرَ يَوْمِي هَذَا .

فلما كان في بعض الأيام سال وادي المقيق ، فجاء بالمعجب ، فلم يبقَ بالدينة
مُحِبَّةً ولا شابةً ولا شاباً ولا كَهْلاً إلا خرج يُبصره ، وكان فيمن خرج ابنُ عائشة
المُعْتَمِدُ ، وهو مُعْتَجِرٌ^(٢) بِفَضْلِ رِذَائِهِ ، فنظر إليه الحسنُ بنُ الحسنِ بنِ هِلْيَ بنِ
أبي طالب - وكان فيمن خرج إلى المقيق - وبين يديه أسودانِ كأنهما ساريتانِ عِشْيَانِ
بين يديه أمام دابَّتِهِ ، فقال لهما : اذهبا إلى الرجل للمُعْتَجِرِ بِفَضْلِهِ رِذَائِهِ فَخُذَا
بِضَبْعَيْهِ^(٣) ، فإن فعل ما أمَرُهُ بِهِ ، وإلا فَاقْذِفَا بِهِ فِي المَقْيِقِ .

فَضِيَا والحسنُ يَقْفُوها ، فلم يشعر ابنُ عائشة إلا وهما آخِذَانِ بِضَبْعَيْهِ ، فقال :
مَنْ هَذَا ؟ فقال له الحسن : أَنَا هَذَا يَا ابْنَ عَائِشَةَ ، قال : لبيك وَسَمْعُكَ ! وبأى
أنت وأمى ؟ قال : اسمع مني ما أقول ، واعلم أنك مأسور في أيديهما ، ففزع مائة
صوت أو يَطْرَحَاكَ فِي المَقْيِقِ ، وإن لم يفعلَا ذلكَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَهُمَا !

* القند القريد : ٤ - ١١٠

(١) هو محمد بن عائشة : من المتقدمين في صناعة النناء ، ووضع الألحان في العصر الأموي ، توفي
نحو سنة ١٠٠ هـ . (٢) الاعتجار : لف العمامة . (٣) أخذ بتشبيهه : أى يضديه .

فصاح ابنُ عائشة : يا وئيلاه ! واعظمِ مُصِيبَتاه ! قال : دَعْ صِياحَكَ ، وَخُذْ
فِيا يَتَمَعنا .

قال : اقترح ، وأقمِ مَنْ يَحصى ؛ وأقبلِ بَنى ، فتركِ الناسُ المَقيق ؛ وأقبلوا
عليه ؛ فلما تَمَّتْ أَصواتُهُ مائةَ كَثيرِ الناسِ بِلِسانِ واحدٍ تَكبيرةٍ واحدةٍ ، اَرْتَجَّتْ
لِها أَقطارُ المدينة ، وقالوا للحِسن : صلي اللهُ على رُوحِكَ حَيًّا وميتًا ؛ فاجتمع لأهلِ
المدينة سرورٌ قطْ إلا بِكمِ أهلِ البيتِ .

قال له الحسن . إِنما فُلتُ هذا بِكَ يا ابنَ عائِشةَ لأَخلاقِكَ الشَكيمةِ ، قال له
ابنُ عائِشةَ : والله ما مرَّتْ عليَّ مُصيبةٌ أَعظَمُ منها .

فكان ابنُ عائِشةَ بِمَسَدِ ذلك إِذا قيلَ له : ما أَشدُّ ما مرَّ عليك ؟ قال :
يومُ المَقيقِ .

١٢ — من أين صَبَّك الله على *

خرج ابنُ عائشةَ من عند الوليد بن يزيد وقد غنَّاه :
أَبَدَكَ مَقْلًا أَرْجُو وَحِصْنًا قَدْ أَعَيْتَنِي الْمَاعِزُ وَالْحِصُونُ
فَأَطْرَبَهُ ؛ فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَبِمَنْثَلِ كَارَةِ الْقَصَّارِ ^(١) كُسُوءَ .

فبينما ابنُ عائشةَ يسيرُ إذ نظرَ إليه رجلٌ من أهلِ وادى القرى كان يشتعى
الفناءَ ويشربُ النَبِيدَ ؛ فدنا من غلامه وقالَ : مَنْ هَذَا الرَّاكَبُ ؟ قالَ : ابنُ عائشةَ
للغنى ، فدنا منه وقالَ : جُمِلْتُ فداءك ! أنتَ ابنُ عائشةَ أم المؤمنين ؟ قالَ : لا ،
أنا مَوْلَى لقرىشٍ ، وعائشةُ أُمى ، وحسبك هذا ، فلا عليك أن تُكثِرَ ؛ قالَ : وما
هذا الذى أَرَأَهُ بَيْنَ يَدَيْكَ مِنَ اللالِ والكُسُوءِ ؟ قالَ : غَنَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صَوْتًا
فَأَطْرَبَهُ فَأَمَرَ لى بِهَذَا الْمَالِ وَهَذِهِ الْكُسُوءُ . قالَ : جُمِلْتُ فداءك ؛ فهل تَمَنُّ عَلَى
بأن تُسَمِّعَنى ما أَسَمَّتهُ إِيَّاهُ ؟ فقالَ له : وَيْلَكَ أُمِثْلَى يَكَلِّمُ بِمَنْثَلِ هَذَا فى الطَّرِيقِ !
قالَ : فَاأَصْنَعُ ؟ قالَ : الحَقْنَى بِالْبَابِ .

وحرَّكَ ابنُ عائشةَ بَنَلَةً شَقْرَاءَ كَانَتْ تَحْتَهُ لِيَنْقَطِعَ عَنْهُ ، فَعَدَا مَعَهُ حَتَّى
وَأَقْبَا الْبَابَ كَغَرَسَى رِهَازٍ ، وَدَخَلَ ابْنُ عَائِشَةَ فَكَسَتْ طَوِيلًا طَبْعًا فِى أَنْ يَضْجُرَ
فِيَنْصَرِفَ ؛ فَلَمْ يَفْعَلْ ؛ فَلَمَّا أَعْيَاهُ قَالَ لِنَلامِهِ : أَدْخِلْهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ ، قَالَ لَهُ : وَيْلَكَ !
مِنْ أَيْنَ صَبَّكَ اللهُ عَلَى ؟ قَالَ : أَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ وادى القرى ، أَشْتَعَى هَذَا

* الأغانى : ٢ - ٢٢٧

(١) كارة القصار : الثياب التى يجمعها ويحلبها . والقصار : محو الثياب .

الفناء ؛ فقال له : هل لك فيما هو أنفع لك منه ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : ما ثا دينار وعشرة أبواب تنصرفُ بها إلى أهلك ؛ فقال له : جِئْتُ فداك ؛ والله إن لي لُبَكَّةَ ما في أذنِها - علم الله - حَلَقَه من الورق فضلا عن الذهب ، وإن لي لزوجة ، ما عليها - يشهد الله - قِيسٌ ؛ ولو أعطيتني جميعَ ما أمر لك به أمير المؤمنين على هذه الخَلَّةِ^(١) والفقير اللذين عرَّفْتُكهما ؛ وأضعفت لي ذلك ، لكان الصوتُ أعجبَ إليّ - وكان ابنُ عائشة نائماً^(٢) لا يفتي إلا خليفته أو لقي قَدْرَ جليل من إخوانه - فضجَّ ابنُ عائشة منه ورَّحه ودعَا بالأداة^(٣) - وكان يفتي مرتجلاً - فضنَّاه الصوت ؛ فطرب له طرباً شديداً ، وجعل يحرِّك رأسه حتى ظنَّ أن عنقه سينتصف . ثم خرج من عنده .

ويبلغ الخبرُ الوليدَ بنَ يزيد ، فسأل ابنَ عائشة عنه ، فجعل يَنسِبُ عن الحديث ؛ ثم جدَّ الوليدُ به فضدَّه عنه . وأمر يطلبَ الرجلَ فُطِّلَبَ حتى أحضر ؛ ووصله صِلَةً نسيَّةً ، وجعله في ندمائه ، ووَكَّلَه بالتَّنْقِ ، فلم يَزَلْ ممه حتى مات .

(١) الخلة : الحاجة والمصاصة . (٢) من التيه ، وهو الصلف والكبر . (٣) الأداة : آلة من آلات الفناء .

١٣ - ارجع إلى عملك راشدا*

أتى رجلٌ من العراق لندبنة في طلب جارية - وصفت له - قارئةٌ قَوْلِ اللَّهِ ؛ فسأل عنها فوجدها عند قاضي لندبنة ، فأتاه وسأله أن يعرضها عليه ، فقال : يا عبد الله ، لقد أبمدت الشقة في طلب هذه الجارية فإِ رغبتك فيها ؟ قال : إنها تُسقى فجعيد . فقال القاضي : ما علمت بهذا ، فألح عليه في عرضها ، فعرضت بحضرة مولاها القاضي . فقال لما التقى : هاتي ، ففنت :

إلى خالدٍ حتى أَمَحَنَ بخالد فتم الفتى بُرجى ونعم للمؤمل !

فخرج القاضي بمباريته ، وسرَّ بفنائها ، وغشَّيه من الطرب أمر عظيم ، وقال : هاتي شيئاً بأبي أنت ؛ ففنت :

أروح إلى القصاص^(١) كلَّ عشية أرجى ثواب الله في عَدَدِ انْطِلَاقاً

فزاد الطرب على القاضي ، ولم يدرك ماذا يصنع ، فأخذ نمله فعلقها في أذنه ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يأخذ بطرف أذنه ، والنمل معلقة فيها ويقول : اهدوني إلى البيت الحرام ، فإني بدنة^(٢) ! حتى أدمى أذنه !

فلما أمسكت أقبل على الفتى فقال : انصرف ا قد كنتُ فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول ، فنحن الآن فيها أرغبُ . فانصرف الفتى .

* للسودي : ٢ - ١٧٠

(١) القصاص : جمع قاص ، وكانوا يجلسون في صدر الإسلام في المساجد يفتون ما في كتاب الله من قصص الأنبياء ، ابتداءً من نوح (٢) البقرة : من الإبل والبقرة ما تهدي إلى مكة .

وبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز؛ قال: قاتله الله! لقد استرقه الطرب، وأمر بصرقه عن عمله.

فلما صرّف قال: لو سمعها عمر لقال: اركبوني فإني مطية!

فبلغ ذلك عمر، فأشخص^(١) القاضي والجارية؛ فلما دخلا عليه قال: أعد ماقلت إقال: نعم! فأعاد ما قال، فقال للجارية: قولي؛ ففنت^(٢):
كَانَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ^(٣) إِلَى الصَّغَا أَنَيْسَ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
بِلى ا نَحْنُ كَنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا مَرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودِ الْمَوَائِرُ
فَا فَرَعْتُ مِنَ الشَّعْرِ حَتَّى طَرَبَ عُرْ طَرَبًا بَيْنَا، وَأَقْبَلَ يَسْتَعِيدُهَا ثَلَاثًا،
وَقَدْ بَلَّتْ دُمُوعُهُ لَحِيَّتَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْقَاضِي، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى عَمَلِكَ رَاشِدًا!

(١) أشخص: الشغوم: السمر من بلد إلى بلد. (٢) قاتل البيتين: عمرو بن الحارث بن مضاض ابن عمرو يتأسف على ألبيت. (٣) الحجون: جبل بمكة.

١٤ - الأحوص يحتال حتى تسمع سلامة غناء الفريض *

وجه يزيد^(١) بن عبد الملك إلى الأحوص في القُصود عليه ، وكان
الفريض^(٢) معه ، فقال له : اخرجْ معي حتى آخذَ لك جائزةً أمير المؤمنين وتُغنيَ ؛
فإني لا أهل إليه شيئاً هو أحبُّ إليه منك ، فخرجا .

فلما قدم الأحوص على يزيد جلس له ودعا به ؛ فأنشده مدائح فاستحسنها ،
وخرج من عنده ؛ فبعثَ إليه سلامة جارية يزيد بلطف^(٣) ؛ فأرسل إليها : إنَّ
الفريض عندي قدَّمْتُ به هديةً إليك . فلما جاءها الجواب اشتاقت إلى الفريض
وإلى الاستماع منه .

فلما دعاها أمير المؤمنين تمارضتْ وبعثتْ إلى الأحوص : إذا دعاك أمير المؤمنين
فاحتلْ له في أن تذكر له الفريض .

فلما دعا يزيد الأحوص قال له يزيد : ويحك يا أحوص ! هل سمعت شيئاً في
طريقك تُطْرِفُنَا به ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ مررت في بعض الطريق فسمعت
صوتاً أعجبنى حسنُهُ وجودُهُ شمره ؛ فوقفْتُ حتى استقصيتُ خبرَهُ ، فإذا هو
الفريض ، وإذا هو يفتي بأحسن صوت وأشجاء .

* الأغانى : ٨ - ٣٤٤

(١) يوبع يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، وكان صاحب لهُ وراثت ، عباً
لسجاع الفناء . توفي سنة ١٠ هـ . (٢) اسمه عبد الملك ؛ والفريض لقبه . أخذ الفناء عن ابن
سريج . وبرز فيه وفاته . (٣) اللطف : البر .

أَلَا هَاجَ التَّدَكُّرُ لِي سَقَامًا وَنُكْسُ^(١) الدَّاءِ وَالْوَجَعِ الْفَرَامَ^(٢)
 سَلَامَةً لِنَهْأَهْمِي وَدَانِي وَشَرُّ الدَّاءِ مَا بَطَّنَ الظُّلَامَ^(٣)
 قُلْتُ لَهُ - وَدَمْعُ الْعَيْنِ لِحَرِي عَلَى الْخُلْدَيْنِ أَرْبَعَةَ سِجَامًا^(٤) :
 عَلَيْكَ لَهَا السَّلَامُ فَن لِيَصْبِرَ بَيْتُ اللَّيْلِ يَهْدِي مُسْتَهَامَا

قال يزيد: ويحك يا أحوص! أنا ذاك في هوى خليلتي، وما كنت أحسب
 مثلاً هذا يتفق، وإن ذاك لما يزيد لها في قلبي. فاصنعت يا أحوص حين سمعت
 ذلك! قال: سمعت ما لم أسمع يا أمير المؤمنين أحسن منه، فما صبرت حتى
 أخرجت الفريض معي وأخفيت أمره، وعلت أن أمير المؤمنين بالنسبة عارأبت
 في طريق.

قال له يزيد: اتقي بالفريض ليلاً وأخف أمره؛ فرجع الأحوص إلى منزله،
 وبث إلى سلامة بالخبر. فقالت للرسول: جزيته خيراً. قد اتقي إلى كل
 ما قلت، وقد تلطفت وأحسنت.

فلما وارى الليل أمه بث إلى الأحوص أن عجل الحجي إلى مع
 ضيفك.

فجاء الأحوص مع الفريض فدخل عليه؛ فقال: غنني الصوت الذي أخبرني
 أنه سمع منك. وكان الأحوص قد أخبر الفريض الخبر، وإنما ذلك شعر قاله
 الأحوص يريد أن يحركه به على سلامة، ويحتمل للفريض في الدخول عليه.

(١) النكس: عود المرض بعد النقص. (٢) الفرام: اللزوم الشديد. (٣) بطن: دخل.

(٤) يريد الساعطين والموقنين للعينين.

فلما غنَّاهُ الغريصَ دَمَعَتْ عَيْنُ يَزِيدَ ، وأمر بإحضار سلامة فحضرت ، وضُرِبَ
لها حجابٌ فجلست ، وأعادَ عليه الغريصُ الصوت ؛ فقالت : أحسنَ والله
يا أمير المؤمنين ، فاسمعه مني . فأخذت العودَ فضربتُه وغنَّت الصوت ، فكاد
يزيد يطير فرحاً وسُروراً ، وقال : يا أحوص ؛ إنك لمبارك ! يا غريص ؛ غنِّ في
ليلتي هذا الصوت ، فلم يزل يفتنيه حتى قام يزيد وأمر لها بمال ، وببشت سلامة
إليهما بكسوةٍ ولطفٍ كثير .

١٥ - غلام في ختان*

قال عبد الرحمن بن إبراهيم الخزومي : أرسلتني أمي وأنا غلام أسأل عطاء^(١) بن أبي رباح عن مسألة ، فوجدته في دارٍ يقال لها دار الملى ، وعليه ملحقة معصنة ، وهو جالس على منبر ، وقد خُتِنَ ابنه ، والطعامُ يوضع بين يديه ، وهو يأمرُ به أن يفرَّقَ في الخلق ، فلهوتُ مع الصبيان ألعب بالجوز حتى أكل القوم وتفرَّقوا ، وبقي مع عطاء خاصته ، فقالوا : يا أبا محمد ، لو أذنتَ لنا ، فأرسلنا إلى الغرييض وابن سريج ! قال : ما شئتم . فأرسلوا إليهما ، فلما أتيا قاموا معها ، وثبت عطاء في مجلسه فلم يدخل ، فدخلوا بهما بيتاً في الدار ففغياً وأنا أسمع ، فبدأ ابن سريج فنقر بالدُّف ، وتغنى بشعر كثير :

بَلَيْلى وجَارَاتٍ لَيْلى كَأَها نِمَاجُ اللَّيْلِ^(٢) نُحْدَى بَهِنِ الْأَبَاعِرُ
أُمْنُقِطِعْ يَاعِزَّ مَا كَانَ يَبْنَا وشَاجِرُيْ يَاعِزَّ فَيْكَ الشَّوَاغِرُ^(٣)
إِذَا قِيلَ هَذَا يَتُّ عِزَّةَ قَادِي إِلِيهِ الْهَوَى وَاسْتَعْبَجَلَتْنِي الْبَوَادِرُ^(٤)
أَصْدُوبِي مِثْلُ الْجُنُونِ لَكِي يَرَى رُؤَاةُ الْخَلَا أَنَّى لَيْبَتِكَ هَاجِرُ
أَلَا لَيْتَ حَقِّي مِنْكَ يَاعِزُّ أَنفَى إِذَا بَنَتْ بَاعَ الصَّبْرِ لِي عَنْكَ تَاجِرُ

* الأغانى : ١ - ٢٧٨

(١) هو عطاء بن أسلم بن صفوان . تابعي من أجلةاء الفقهاء ، ولد في اليمن ، وزاد بمكة ، فكان مفتي أهلها وعندهم ، وتوفى فيها سنة ١١٥ هـ . (٢) الملا : الصحراء . (٣) الشواجر : جمع شاجر ؛ شجرة . عن الأمر : صرفه عنه . (٤) البوادر : الدموع .

فكان القوم نزل عليهم السبات ، وأدركهم النسي ، فكانوا كالأموات ،
ثم أصفوا إليه بأذانهم ، وشخصت إليه أعينهم ، وطالت أعناقهم . ثم غنى ابن
سريج ووقع بالقضيب ، وأخذ الغريض الدف ، فغنى بشعر الأطل :
قُلْتُ اصْبَحُونَا^(١) لَا أَبَا لِأَيِّكُمْ وما وضعوا الأثقالَ إِلَّا لَيَقْمَلُوا
وقلت : اقتلوا^(٢) عنكم بمزاجها فأكرم بها مقتولة حين قُتِلَ
أَنَّا خُوا فخرُوا شاميات^(٣) كأنها رجالٌ من السودان لم يَنْسَرَبُوا
فوافه ما رأيتهم تحركوا ولا نطقوا إِلَّا مستمعين لما يقول .

ثم غنى الغريض بشعر آخر ، وهو :

هل تعرف الرسم والأطلالَ والدمنا زِدَنَّ الفؤاد على ما عنده حزنا
دارٌ لأسماء إذ كانت تحملُ بها وإذ ترى الوصلَ فيما بيننا حسنا
إذ تَسْتَبِيكُ بِمَصْفُولٍ عَوَارِضُهُ^(٤) ومُفْلَتِي جُوذِرٍ لَمْ يَبْدُ أَنْ شَدْنَا
ثم غنى الغريض في شعر عمر بن أبي ربيعة ، وهو قوله :

كفى حزنًا أن يجمعَ الدارُ فَمَلْنَا وأُمِسِي قَرِيبًا لَا أَزُودُكِ كَلْمًا
دَعِيَ الْقَلْبَ لَا يَزْدَدُ خَبَالًا مع الذي به منكِ أَوْ دَارِي جَوَاهِ الْمَكْمَا
ومن كان لَا يَمُدُّ هَوَاهُ لسانه فقد حلَّ في قلبِ هَوَاكِ وَخِيَا
وليس يَتَزَوَّقِي^(٥) اللسانَ وَصَوْنُهُ ولكنّه قد خالطَ اللّحْمَ وَالدَّمَ

(١) اصبحونا : إيتونا بالصبح ، وهو ما يصرب في النداء إلى الغائلة . (٢) قتل الحمر :
مزجها بالدماء . (٣) الشاميات : الزقاق للملونة الثالثة القوائم . (٤) العوارض : التنايا ، أو
هي الأسنان التي تبدو من الفم عند الضحك . (٥) التزويق : التحسين والتزين .

قال الراوى : وما زالا يبتنيان وعطاء يسمع على منبره ومكانه ، وربما رأيت
رأسه قد مال وشفتيه تصركان حتى بلغت الشمس ، همام يريد منزله ، فما سمع
السامعون شيئاً أحسن منهما ، وقد رفا أصواتهما ، وتقنيا .
ولما بلغت الشمس عطاء قام وم على طريقة واحدة فى الغناء ، فاطلع فى كوة
البيت ، فلما رآوه قالوا : يا أبا محمد ؛ أيهما أحسنُ غناء ؟ قال : الرقيق الصوت .
بمضى ابن سريج !

١٦ — يضطرب حين سمع الفناء*

لَقِيَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ ابْنَ سُرَيْجٍ (١) بَنَى طُؤَى (٢) ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ مَصْبُغَةٌ ،
وَفِي يَدِهِ جِرَادَةٌ مَشْدُودَةٌ الرَّجْلُ مَخِيطٌ يَطِيرُهَا وَيَجْذِبُهَا بِهِ كُلَّمَا تَخَلَّفَتْ ، قَالَ لَهُ
عَطَاءُ : يَا فَتَانُ ؛ أَلَا تَكْفُفُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ ؛ كُنِيَ اللَّهُ النَّاسَ مَثَوْنَتَكَ . قَالَ
ابْنُ سُرَيْجٍ : وَمَا عَلَى النَّاسِ مِنْ تَلَوِينِي ثِيَابِي وَلَعِبِي بِجِرَادَتِي ؟ قَالَ لَهُ : فَتَنُكُمْ
بِأَغَانِيكَ الْخَبِيثَةِ ، قَالَ لَهُ ابْنُ سُرَيْجٍ : سَأَلْتُكَ بِحَقِّ مَنْ تَبِعْتَهُ مِنْ أَصْحَابِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبِحَقِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَّا مَا سَمِعْتُ
مَنْ يَتَّبِعُ مِنَ الشَّعْرِ ، فَإِنْ سَمِعْتُ مِنْ مُنْكَرٍ أُمِرْتُ بِالْإِمْسَاكِ مَا أَنَا عَلَيْهِ ، وَأَنَا
أَقْسِمُ بِاللَّهِ وَبِحَقِّ هَذِهِ الْبَيْتَةِ (٣) لَنْ أُمِرْتُ بِمَدِّ اسْتِعَاكَ مَنْ بِالْإِمْسَاكِ مَا أَنَا عَلَيْهِ
لَأَقْعَلَكَ ذَلِكَ .

فَأَطْعَمَ ذَلِكَ عَطَاءُ فِي ابْنِ سُرَيْجٍ ، وَقَالَ : قُلْ ، فَأَنْدَفَعَ يَنْفَى بِشَعْرِ

جَرِيرٍ :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِبُكَكَ غَادَرُوا وَشَلَّ (٤) بَيْنَكَ لَا يَزَالُ مَعِينًا (٥)

* الأغانى : ١ - ٥٦ ، نهاية الأرب : ٤ - ٢٤٥

(١) هو عبد بن سريج ، كان من أحسن الناس فناء ، وهو أول من ضرب بالود على الفناء

العربي بمكة ، انقطع إلى عبد الله بن جعفر ، ومات في خلافة هشام بن عبد الملك .

(٢) ذو طوى : موضع بمكة . (٣) البنية : السكبة . (٤) الوهل : الدمع السكبر .

(٥) المعين : الجارى السائل .

غِيْظُنْ مِنْ عِبْرَاتِهِمْ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْمَسْئُورِ وَلَتَيْنَا
فَلَمَّا سَمِعَ عَطَاءُ الْفَنَاءَ اضْطَرْبَ اضْطِرَابًا شَدِيدًا وَدَخَلَتْهُ أُرْيَحِيَّةٌ ، خَلْفَ الْأَيْكَمِ
أَحَدًا بَقِيَّةَ يَوْمِهِ إِلَّا بِهَذَا الشَّعَرِ ، وَصَارَ إِلَى مَكَانِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَكَانَ
كُلُّ مَنْ يَأْتِيهِ سَائِلًا عَنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ أَوْ خَيْرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ ، لَا يَجِيبُهُ إِلَّا بِأَنْ
يَضْرِبَ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى ، وَيَنْشُدَ هَذَا الشَّعْرَ حَتَّى صَلَّى الْمَغْرِبَ ، وَلَمْ يَمُودِ
ابْنُ مُرَيْجٍ بَمَدِّهَا وَلَا تَمَرُّضَ لَهُ .

١٧ — في قصر الوليد بن يزيد*

اشتاق الوليدُ بنُ يزيدَ إلى مَعْبِد^(١) ، فوجهَ إليه إلى المدينة فأخضر ، وبلغ الوليدُ
قدومه ؛ فأمر بِيَزْكَهَ بين يدي مجلسه فُكِلَتْ ماء وَرِدٍ قد خُلِطَ بِمِلْكٍ وَزَعْفَرَانٍ ، ثم
فُرش للوليد في داخل البيت على حافة البركة ، وُيَسِّطُ لمعبد مقابله على حافة البركة ،
ليس معها ثالثٌ ، وجىء بمعبد فرأى سِتْرًا مُرَحَّيً ومجلسَ رجل واحد ، فقال له
الحجاب : يا معبد ؛ سلِّمْ على أمير المؤمنين واجلس في هذا للوضع ، فلمَّ فَرَدَّ عليه
الوليدُ السلامَ مِنْ خَلْفِ السِّتْرِ ؛ ثم قال له : حَيْثُكَ اللهُ يا معبد ! أتدري لِمَ وَجَّهْتُ
إليك ؟ قال : اللهُ أعلمُ وأمير المؤمنين . قال : ذكرك فأنجبت أن أسمع منك .
قال معبد : أأَغْنِي ما حضر أم ما بقدره أمير المؤمنين ؟ قال : بل غَنَى :

ما زال يَعدُّو عليهم رَبِيبُ دهرِهِمْ حتى نَفَانُوا وَرَبِيبُ الذَّهْرِ عَدَاهُ
أَبْكَى فِرَاقَهُمْ عَيْنِي وَأَرْقَمَهَا إِنْ التَّفَرَّقَ لِلْأَحْبابِ بَكَاهُ

فَتَنَاهُ ، فما فرغ منه حتى رفع الجوارى السَّجْفَ^(٢) ، ثم خرج الوليدُ فألقى نفسه
في البركة فغاص فيها ، ثم خرج منها فاستقبله الجوارى بثيابٍ غير الثياب الأولى ،
ثم شرب وسقى معبدًا ، ثم قل : غَنَّى يا معبد :

يَا رَنْعُ مَالِكَ لَا تُجِيبُ مَتِيًّا قَدْ عَاجَ^(٣) مَحْوُكَ زَانِرًا وَمَسْلَمًا

* الأغانى : ١-٣٠

(١) هو معبد بن وهب ، خلّ اللتين ، وإمام أهل المدينة في الفتاه ، اشتغل في أول أمره
بالتجارة ، ورعى النعم ، واختلط إلى نسيط القارسي وسائب خاتر مولى عبد الله بن جعفر حتى
اشتهر بالملقح وحن الفتاه وطيب الصوت ، مات بدسقي في أيام الوليد بن يزيد .

(٢) السجف : السر - (٣) عاج : مال .

(٤ - قصص العرب - ٤)

جاءتك كلُّ سحابةٍ هطالةٍ . حتى تَرى عن زهرةٍ مُتَبَسِّمَةٍ
لو كنتَ تَدْرِي مَنْ دعاكَ أجبته . وبكيت من حُرْقٍ عليه إِذْ دَمَا
فنتاه؛ وأقبل الجوارى فرفعن السُّرَّ، وخرج الوليد فألقى نفسه في البركة ففاض
فيها ثم خرج ، فلبس ثيابا غير تلك ، ثم شرب وسقى معبداً ، ثم قال له : غنّى .
قال : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : غنّى :

عَصِيَتْ لَمَّا رَأَيْتَنِي أَنْدَبُ الرِّيحِ لِلْحَيْلِ^(١)
واقفاً في الدار أبكى لا أرى إلا البطولاً
كيفَ تبكى لأناسٍ لا يَمُوتُونَ الدَّمِيلَ^(٢)
كلّما قلتُ اطمانتُ دارُهم قالوا الرّحِيلَ

فلما غناه رمى بنفسه في البركة ثم خرج فَرَدُّوا عليه ثيابه ، ثم شرب وسقى
معبداً ، ثم أقبل عليه الوليد فقال له : يا معبد ؛ مَنْ أراد أن يزداد عند اللوك حُظْوَةً
فليكنتمُ أسرارهم ، قلت : ذلك مالا يحتاج أمير المؤمنين إلى إيصائي به ، قال :
يا غلام ؛ احمل إلى معبد عشرة آلاف دينار تُحَصِّلْ له في بلده ، وألني دينار لنفقة
طريقه ، فحملتُ إليه كلّها ، وحمل حل البريد من وقفته إلى المدينة .

(١) الحيل : التي أنت عليه أحوال فنيته . (٢) الدميل : السير اللين .

١٨ - معبد في مكة*

قال معبد : غَنَيْتُ فَأَعْبَيْتُ غَنَائِي ، وَأَعْجَبَ النَّاسَ ، وَذَهَبَ لِي بِهِ صَيْتٌ
وَذِكْرٌ ، قُلْتُ : لَا تَبْنِ مَكَّةَ فَلَا تَمُوتَ مِنَ اللَّغْنِ بِهَا ، وَلَا تُغْنِيَهُمْ ، وَلَا تُرَكِّفَنَّ
إِلَيْهِمْ .

فَابْتَعْتُ حَمَارًا ، فَخَرَجْتُ عَلَيْهِ إِلَى مَكَّةَ ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا بَتُّ حَمَارِي ، وَسَأَلْتُ
عَنِ اللَّغْنِ : أَيْنَ يَجْتَمِعُونَ ؟ قِيلَ : بِقَمَيْقَمَانَ^(١) ، فِي بَيْتِ فُلَانٍ .

فَخَشَفْتُ إِلَى مَنْزِلِهِ بِالنَّكْسِيِّ^(٢) ، فَقَرَعْتُ الْبَابَ ، قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قُلْتُ :
انْظُرْ عَافَاكَ اللَّهُ ؛ فِدَانَا وَهُوَ يَسْمَعُ وَيَسْتَعِذُّ كَأَنَّهُ يَخَافُ ، فَفَتَحَ ، قَالَ : مَنْ أَنْتَ
عَافَاكَ اللَّهُ ؟ قُلْتُ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ . قَالَ : فَمَا حَاجَتُكَ ؟ قُلْتُ : أَنَا رَجُلٌ
أَشْتَعِي الْفَنَاءَ ، وَأَزْعَمُ أَنِّي أَعْرِفُ مِنْهُ شَيْئًا ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الْقَوْمَ يَجْتَمِعُونَ عِنْدَكَ ،
وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تُنْزِلَنِي فِي جَانِبِ مَنْزِلِكَ وَتَخْطُبَنِي بِهِمْ ، فَإِنَّهُ لَا مَثْوَى عَلَيْكَ
وَلَا عَلَيْهِمْ .

فَلَوْيَ^(٣) شَيْئًا ثُمَّ قَالَ : انْزِلْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ . فَفَقُلْتُ مَتَاعِي فَانْزَلْتُ فِي جَانِبِ
حُجْرَتِهِ .

ثُمَّ جَاءَ الْقَوْمُ حِينَ أَصْبَحُوا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَأَنْكَرُونِي ، وَقَالُوا :

* الْأَغَانِي : ١ - ٥٧

(١) قَمَيْقَمَان : اسم قرية بها مياه وزروع ونخيل قرب مكة . (٢) النَّكْسَى : ظلمة آخر الليل إذا
اختلطت بظلمة الصباح . (٣) لَوِي شَيْئًا : تَنَكَّبْتُ قَلِيلًا .

مَنْ هَذَا الرَّجُلُ؟ قَالَ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينَةِ ضَيْفٌ يَشْتَهِي الْفَنَاءَ ، وَيَطْرُبُ عَلَيْهِ ، لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهُ عَنَاءٌ وَلَا مَكْرُوهٌ . فَرَحَّبُوا بِهِ وَكَلِّبَهُمْ ، ثُمَّ انْبَسَطُوا وَشَرِبُوا وَغَنَوْا ، فَجَعَلَتْ أُعْجَبُ بِفَنَائِهِمْ وَأَظْهَرَ ذَلِكَ لَهُمْ ، وَيَجْعِبُهُمْ مِنْهُ حَتَّى أَقْنَأُوا أَيْكَمَا ، وَأَخَذَتْ مِنْ غَنَائِهِمْ . وَهُمْ لَا يَدْرُونَ . أَصَوَاتَنَا وَأَصَوَاتَنَا وَأَصَوَاتَنَا ؛ ثُمَّ قَلَّتْ لِابْنِ سُرَيْجٍ : أَمْسِكَ عَلَى صَوْتِكَ :

قُلْ لِمَنْدَرٍ وَتَرْبِيهَا^(١) . قَبْلَ شَحْطِ^(٢) النَّوَى غَدَا

إِنْ تَجُودِي فَطَالَا بَتْ لَيْلِي مُهْدَا

قَالَ : أَوْ تَحْسَنُ شَيْئًا؟ قُلْتُ : تَنْظُرُ^(٣) ، وَعَسَى أَنْ أَصْنَعَ شَيْئًا ، وَانْدَفَعْتُ فِيهِ فَتَنِيَّتَهُ ؛ فَصَاحَ وَمَاحَا ، وَقَالُوا : أَحْسَنْتَ ! قَاتَلَكَ اللَّهُ ! قُلْتُ : فَأَمْسِكَ عَلَى صَوْتِ كَذَا ؛ فَأَمْسَكُوهُ عَلَى فَتَنِيَّتِهِ ؛ فَازْدَادُوا عِجْبًا وَصِيحًا ، فَاتْرَكَتْ وَاحِدًا مِنْهُمْ إِلَّا غَنِيَّتَهُ مِنْ غَنَائِهِ أَصَوَاتًا قَدْ تَخَيَّرْتُهَا ؛ فَصَاحُوا حَتَّى عَلَتْ أَصَوَاتُهُمْ ، وَهَرَفُوا^(٤) بِي ، وَقَالُوا : لَأَنْتِ أَحْسَنُ بِأَدَاءِ غَنَائِنَا عَنَّا مِنَّا . قُلْتُ : فَأَمْسَكُوا عَلَيَّ وَلَا تَضْحَكُوا^(٥) بِي حَتَّى تَسْمَعُوا مِنْ غِنَائِي . فَأَمْسَكُوا عَلَيَّ فَتَنِيَّتِ صَوْتًا مِنْ غِنَائِي ، فَصَاحُوا بِي ، ثُمَّ غَنِيَّتِهِمْ آخِرَ وَآخِرٍ ؛ فَوَثَبُوا إِلَيَّ وَقَالُوا : نَحْلِفُ بِاللَّهِ إِنْ لَكَ لَصِيْبَتَا وَاسْمَا وَذِكْرًا ، وَإِنْ لَكَ فِيهَا هُنَا^(٦) لِسَهْمًا عَظِيمًا ، فَمَنْ أَنْتِ؟ قُلْتُ : أَنَا مُعِيْدٌ ؛ قَبَلُوا رَأْسِي ، وَقَالُوا : لَفَقْتُ^(٧) عَلَيْنَا وَكُنَّا تَهَاوُنُ بِكَ ، وَلَا نَعْدُكَ شَيْئًا ، وَأَنْتِ أَنْتِ !

فَأَقْبَتُ عَنْدهُمْ شَهْرًا آخِذًا مِنْهُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنِّي ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ إِلَى الدِّينَةِ

(١) التَّرب : اللذة ، وهو من عائلتك في سترك . (٢) الشحط : البعد ، والشعر لعمري بن أبردومية . (٣) تنظر : تأمل وتلذذ . (٤) هرف به : مدح حتى جاوز القدر في الثناء والإطراء . (٥) ضحك به ومنه بمعنى . (٦) سهبا : نصيبا . (٧) لفقت علينا : أي سرت علينا أمرك .

١٩ - معبد في السفينة*

كان معبد قد علم الفناء جارية من جوارى الحجاز تدعى ظبية، وغنى بشخرٍ بها؛ فاشتراها رجل من أهل العراق، فأخرجها إلى البصرة، وباعها هناك، فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأعجب بها، ثم مات بعد أن أقامت عنده برهة من الزمان، وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها، فكان لمحبتها إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخيار معبد وأين مستقره؟ ويظهر التعصب له والليل إليه، والتقديم لفنائه على سائر أغاني أهل عصره إلى أن عرف ذلك منه.

وبلغ معبدًا خبره، فخرج من مكة حتى أتى البصرة، فلما وردها صادف الرجل، وقد خرج عنها في ذلك اليوم إلى الأهواز، فإكترى سفينة، وجاء معبد يلتبس سفينة يتصلد فيها إلى الأهواز، فلم يجد غير سفينة الرجل، وليس يعرف أحد منهما صاحبه، فأمر الرجل اللّاح أن يجلسه معه في مؤخر السفينة، فقل وانحدروا.

فلما صاروا في فم نهر الأبله^(١) نددوا وشربوا، وأمر جواريه فغنين، ومعبد ساكت، وهو في ثياب السفر، وعليه فروّ وخفان غليظان وزى^(٢) جاف من زى أهل الحجاز، إلى أن غنّت إحدى الجوارى:

بانت سُمَادُ وأمنى جبلُها انصرَمَا واحتلتِ النورَ والأجراعَ من إصمًا^(٣)

* الأغانى : ١ - ٤٨

(١) الأبله: بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج التي يدخل إلى مدينة البصرة. (٢) النور: الطلح من الأذن، والأجراع: جم جمع، وهو مفرد أو جمع جرة، وهي الرملة الطيبة اللينة لا وعوة فيها، وإصم: واد بجبل تهامة، وهو الوادي الذي فيه المدينة، والشعر لثناينة.

إحدى بليّ وما هام الفؤادُ بها إلا السقاءَ وإلا ذِكرَةَ حُلّا^(١)
 فلم يُجِدْ أداءه، فصاح بها مَتَبِّدْ: يا جارية؛ إن غناءك هذا ليس بمستقيم. فقال له
 مولاهما - وقد غضب: وأنتَ ما يُدْرِيكَ الغناء ما هو! ألا تُحْسِنُك وتُلزِمُ شألك! فأمسك.

ثم غنّت أصواتاً من غناء غيره، وهو ساكت لا يكلم، حتى غنّت:
 يابنةَ الأزديّ قلبي كُثِيبُ مُسْتَهَامٌ عندها ما يُنِيبُ
 ولقد لاموا قُلت: دَعَوْنِي إن من تَهَوَّنَ عنه حَبِيبُ
 إنما أبلى عظامي وجسى حبها، والحبُّ شئٌ عَجِيبُ
 أيها المائبُ عندي هواها أنت تَقْدِي من أراك تَعِيبُ
 فأخَلَّتْ بِمَعْنَاهِ؛ فقال لها مبيد: يا جارية؛ لقد أخَلَّتْ بهذا الصوت إخلالاً
 شديداً؛ فغضب الرجل وقال له: ويحك! ما أنت والغناء! ألا تكفّ عن هذا
 الفضول! فأمسك وغنّى الجوارى ملياً؛ ثم غنّت إحداهن:

خَلِيلِي عَوْجاً فابكِيا ساعةً مهي على الرَّبْعِ نَفْصِي حَاجَةً وَنَوْدَغِ
 وَلَا تَحْجِلَانِي أَنْ أَلْمَ بِدِمْنَةٍ لَمَزَةٍ لَاحَتْ لِي بِيَسْدَاءِ بَلْقَعِ
 وَقُولَا لِقَلْبٍ قَدْ سَلَا: رَاجِعِ الْهَوَى وَلِلْمَيْنِ: أَذْرِي مِنْ دَمْعِكَ أَوْدَعِي
 فَلَا عَيْشَ إِلَّا مِثْلَ عَيْشِ مَعْنَى لَنَا مَصِيفاً أَقْمَنَّا فِيهِ مِنْ بَسْمِ مَرْبَعِ
 فلم تصنع فيه شيئاً، فقال لها مبيد: يا هذه؛ أما قومين على أداء صوت واحد! فغضب الرجل وقال له: ما أراك تدع^(٢) هذا الفضول بوجهٍ ولا حيلةٍ، فأقسم بالله
 لئن عاودتَ لأُخْرِجَنَّكَ مِنَ السَّفِينَةِ!

(١) بلي: اسم قبيلة، والسقاء: الطيش، والذِكرة - بالكسر والضم: تقيض النسيان.

(٢) تدع: تترك.

فأمسك معبد حتى إذا سكنت الجوارى سكتة اندفع بضئ الصوت الأول حتى فرغ منه ؛ فصاح الجوارى : أحسنت والله يا رجل ؛ فأعذه ، فقال : لا ، والله ولا كرامة ! ثم اندفع بضئ الثانی ، قتلن لسيدهن : ويحك والله ! إن هذا أحسنُ الناس غناءً ، فسأله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة ، لملنا تأخذه عنه ؛ فإنه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً . فقال : قد سمعنا سوء رده عليك ، وأنا خائف مثله منه ، وقد أسلفناه ^(١) الإساءة فاصبرن حتى نُدَارِيه . ثم غنى الثالث ، فززل الأرض ، فوثب الرجل وقبيل رأسه ، وقال : يا سيدي ؛ أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك . فقال له : فهبك لم تعرف موضعي ، قد كان ينبغي لك أن تتشبَّهت ولا تسرع إلى بسوء العشرة وجفاء القول ! فقال له : قد أخطأتُ ، وأنا أعتذر إليك مما جرى ، وأسألك أن تنزل إلي ، وتختلط بي ، فقال له : أما الآن فلا .

فلما زل يَرَفُقُ ^(٢) به حتى نزل إليه . فقال الرجل : ممن أخذت هذا الغناء ؟ قال : من بعض أهل الحجاز ، فن أبن أخذ جواريك ؟ قال : أخذته عن جارية كانت لي ، ابتاعها رجلٌ من أهل البصرة من مكة ، وكانت قد أخذت عن معبد ، وعني بتخريجها ^(٣) ، فكانت تحمل مني محلَّ الروح من الجسد ، ثم استأثر الله عز وجل بها ، وبقي هؤلاء الجوارى وهن من نملينها ، فإنا إلى الآن أتعصَّب اعبد ، وأفضله على اللغتين جميعاً ، وأفضل صنمته على كل صنعة .

فقال له معبد : أو إنك لأنت هو ؟ أتعرفني ؟ قال : لا . فصك ^(٤) معبد بيده صلَّمته ، ثم قال : فإنا والله معبد ، وإليك قدمتُ من الحجاز ، ووافيتُ البصرة ساعة

(١) أسلفناه : قدمنا إليه . (٢) يرفق به . (٣) يتخريجها : يدرجها . (٤) صك : ضرب .

زَلَّتِ السَّفِينَةُ لَأَقْصَدَكَ بِالْأَهْوَازِ ؛ وَوَاللَّهِ لَا قَصْرَتْ فِي جَوَارِيكَ هَؤُلَاءِ ، وَلَأَجْعَلَنَّ
لَكَ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمْ خَلْقًا مِنَ الْمَاضِيَةِ .

فَأَكَبَّ الرَّجُلُ وَالْجَوَارِي عَلَى يَدَيْهِ وَرَجُلِيهِ يَقْبَلُونَهَا ، وَيَقُولُونَ : كَتَمْتَنَّا نَفْسَكَ
طَوْلَ هَذَا الْوَقْتِ حَتَّى جَفَوْنَاكَ فِي الْمَخَاطَبَةِ ، وَأَسَأْنَا عِشْرَتَكَ وَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَمَنْ
تَمْنَى عَلَى اللَّهِ أَنْ نَلْقَاهُ .

ثُمَّ غَيَّرَ الرَّجُلُ زِيَّةَ وَجْهِهِ وَخَلَعَ عَلَيْهِ عِدَّةَ خَلَعٍ وَأَعْطَاهُ ثَلَاثِينَ دِينَارًا وَطَبِيبًا وَهَدَايَا
بِمِثْلِهَا ، وَانْحَدَرَ مَعَهُ إِلَى الْأَهْوَازِ ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ حَتَّى حَذَقَ جَوَارِيَهُ مَا أَخَذَتْهُ عَنْهُ ،
ثُمَّ وَدَّعَهُ وَانْصَرَفَ إِلَى الْحِجَازِ .

٢٠ - وفاء مالك بن أبي السَّمَح لعميد*

كان مالك^(١) بن أبي السَّمَح اللقي من طي^٢، فأصابتهم حَظَّة^(٣) في بلادهم بالجليلين؛ فقدمت به أمه وأخوة له وأخوات أيام لا شيء لهم، فكان يسأل الناس على باب حمزة بن عبد الله بن الزبير - وكان معبد منقطعاً إلى حمزة يكون عنده في كل يوم ينفية - فسمع مالك غناؤه، فأعجبه واشتهاه.

فكان لا يفارق باب حمزة، يسمع غناء معبد إلى الليل، فلا يطوف للدينة ولا يطلب من أحد شيئاً ولا يرعى^(٤) موضعه، فينصرف إلى أمه، ولم يكتسب شيئاً فنصر به، وهو مع ذلك يترنم بألحان معبد، يؤديها دوراً دوراً، في مواضع صيحاته وتبراته^(٥) تنمى بغير لفظ ولا رواية شيء من الشعر؛ وجعل حمزة كلما غداً وراح ملازماً لبابه، قال لئلامه يوماً: أَدْخِلْ هَذَا الْقَلَامَ الْأَعْرَابِيَّ إِلَيَّ؛ فَأَدْخَلَهُ، قَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا غَلامٌ مِنْ طَيٍّ أَصَابَتْنا حَظَّةٌ بِالْجَلِيلَيْنِ خَطَبْتُنَا إِلَيْكُمْ، وَمَعِيَ أُمِّي وَإِخْوَةٌ، وَإِنِّي قَدْ لَزِمْتُ أَبَاكَ فَسَمِعْتُ مِنْ دَارِكَ صَوْتاً أَعْجَبَنِي فَلَزِمْتُ أَبَاكَ مِنْ أَجْلِهِ، قَالَ: فَهَلْ تَعْرِفُ مِنْهُ شَيْئاً؟ قَالَ: أَعْرِفُ لَحْنَهُ كُلَّهُ؛ وَلَا أَعْرِفُ الشَّعْرَ. قَالَ: إِنْ كُنْتَ صَادِقاً فَلَنْتُكَ لَقِيمٍ.

ودعا بمعبد، فأمره أن يُنفِيَ صَوْتاً فغناه، ثم قال للمالك: هل تستطيع أن

* نهاية الأرب : ٤ - ٧٨١ ، الأغانى : ٥ - ١٠٢

(١) أخذ مالك اللقاء عن جيلة ومبدا وأدرك الدولة العباسية ، وانقطع إلى بني سليمان بن علي ، ومات في خلافة أبي جعفر المنصور . (٢) الحطة : السنة والمجدب . (٣) يرم موضعه : يفارقه .

(٤) تيرة اللقي : رفع صوته عن خفض

تقوله؟ قال: نعم، قال: هاتيه، فاندفع فضائه، فأدى نغمه بنير شعر، يؤدى مدانه وليكاته، وعطافته ونبراته، لا يحترم حرقاً.

فقال لمبعد: خذ هذا الغلام إليك وخرجه فليكونن له شأن، قال لمبعد: ولم أفضل ذلك؟ قال: لتسكون مجلسه منسوبة إليك.

فقال: صدق الأمير، وأنا أفضل ما أمرتني به. ثم قال حمزة المالك: كيف وجدت ملازمتك لبائنا؟ قال: أرايت لو قلت فيك غير الذي أنت له مستحق؟ من الباطل أكنت ترضى بذلك؟ قال: لا. قال: وكذلك لا يسرك أن محمد بما لم تفعل؟ قال: نعم. قال: فوالله ما شيعت على بابك شعبة قط، ولا انقلب من أهل بيخير. فأمر له ولأمه ولاخوته بمنزل؛ وأجرى لهم رزقاً وكسوة، وأمر لهم بخادم يخدمهم، وعيّد يسقيهم المياه، وأجلس مالكا معه في مجالسه، وأمر ممبداً أن يطأ رجليه، فلم ينشب^(١) أن مهر وحذق، وكان في ذلك بعقب مقتل هذبة بن خشرم؛ ففرج مالك يوماً، فسمع امرأة تنوح على زيادة الذي قتله هذبة بن خشرم بشعر أخى زيادة:

أبعد الذي بالنف^(٢) نعب كويكب رهينة رمي ذى تراب وجندل
أذكر بالبقيا على من أصابي وبقياى أى جاهد غير مؤتل^(٣)
فلا يدعنى قومي لزيد بن مالك لئن لم أعجل ضربة أو أعجل

(١) لم ينشب: لم يلبث. (٢) النف: ما انحدر عن غلط الجبل وارتفع عن بحر السيل.

(٣) غير مؤتل: غير مقصر، والبقيا: الاسم، من أقيت عليه إذا رعبت عليه ورحته. وقد ورد هذا البيت في اللسان منسوباً إلى أبي الصغام الأسدي هكذا:

أذكر بالبقوى على ما أصابى وبقواى أى جاهد غير مؤتل

وإلا أنل تأري من اليوم أو غدر بنى عنسا فالدهر ذو مُتَطَوَّلٍ
أعُتِمَّ علينا كَنَكَلُ الحربِ مرَّةً فنحن مُنِيخُوها عليكم بِكَنَكَلِ
فَنَنَى في هذا الشمر لَحْنين : أحدهما نَحَا فيه نَحْوُ للمرأة في نَوَحَا ورَقَّةُ
وأصلحه ، وزاد فيه ، والآخَر نَحَا فيه نَحْوُ مَعْبِد في غِنَاهُ .

ثم دخل على حمزة فقال له : أيها الأمير ؛ إني صَنَعْتُ غَنَاءً في شعرٍ سمعتُ
بعضَ أهل المدينة ينشده . وقد أعجبنى ؛ فإن أذن الأمير غَنِيَّتُهُ فيه . قال : هَاتِيه ؛
فَنَنَاهُ اللَّحْنَ الذي نَحَا فيه نَحْوُ مَعْبِد ؛ فطرب حمزة ، وقال له : أَحْسَنْتَ باغلام !
هذا الغناء غناء مَعْبِد وطريقته ، فقال : لا تَعْبَلُ أيها الأمير ، واسمع مني شيئاً ليس
من غناء مَعْبِد ولا طريقته . قال : هَات ، فَنَنَاهُ اللَّحْنَ الذي تَشَبَّه فيه بنوح المرأة ؛
فطرب حمزة حتى ألقى عليه حُلَّةً كانت عليه قيمتها مائة دينار .

ودخل مَعْبِد فرأى حُلَّةَ حمزة عليه ، فأنكرها ، وعلم حمزة بذلك ، فأخبر
مَعْبِدًا بالسبب ، وأمر مالك فَنَنَاهُ الصوتين ؛ فغضب مَعْبِد لما سمع الصوت الأول ،
وقال : قد كَرِهْتُ أن آخِذَ هذا الغلام فيتعلم غَنَائِي فيدعيه لنفسه . فقال له حمزة :
لا تَعْبَلْ واسمع غَنَاءَ صَنَعَهُ ليس من شَأْنِكَ ولا غَنَائِكَ ، وأمره أن يُنَقِّيَ الصوت
الآخر ، فَنَنَاهُ فاطرق مَعْبِد ، فقال له حمزة : والله لو انْفَرَدَ بهذا لصَاحَكَ ، ثم
بَزَايدُ على الأيام ، وكلما كَبُرَ وزاد شِخْتُ أَنْتِ ونَقَصَتْ ، فَلَاَنْ يكون منسوباً
إليك أَجَلُ .

فقال له مَعْبِد - وهو منكِرٌ : صدق الأمير ! ثم أمر حمزة لمَعْبِد بِخُلْعَةٍ من
ثيابه وجائزة حتى سكن وطابت نفسه ، فقام مالك فَقَبِلَ رَأْسَ مَعْبِد ، وقال له :

يا أبا عباد ! أساءك ما سمعت مني ؟ والله لا أغني نفسي شيئاً أبداً ما دمت
حيّاً ، وإن غلبتني نفسي ففنيته في شر استحسنته لا نسبته إلا إليك ، فعاب
نفساً وارضَ عني . فقال له معبد : أو تفعل هذا وتني به ؟ قال : إني والله
وأزيد .

فكان مالكٌ بعد ذلك إذا غنى صوتاً وسئل عنه قال : هذا لمعبد ، ما غنيت
لنفسى شيئاً قط ، وإنما أخذُ غناء معبد فأقله إلى الأشعار وأحسنه . وأزيدُ فيه
وأقص منه .

٢١ - مالك بن أنس يفتي*

قال حسين بن دحان الأشقر : كنتُ بالمدينة ، فخلا لي الطريق وسط النهار فجلبتُ أنفَى :

ما بالُ أهلكِ يا ربَّابُ خُرَّرا^(١) كأنهمُ غضابُ

قال : فإذا خَوْخَة^(٢) قد فُتِحتُ ، وإذا وَجْهٌ قد بدا تقبه لحيةُ حمراء ، فقال : يا فاسق ، أسأتِ التَّأْوِيةَ ، ومنعتِ القائلة^(٣) ، وأذعتِ الفاحشةَ ؛ اندفع بفتيه ، فظننتُ أن طوبىً قد نُشِرَ بعينه .

قلتُ له : أصلحك الله ! من أين لك هذا الفناء ؟ فقال : نشأت وأنا غلام حدثُ أتقبَّعُ الفُتَّينَ ، وأخذُ عنهم ؛ فقالت لي أمي : يا بني ؛ إن للغنى إذا كان قبيحَ الوجه لم يلتفتْ إلى غناؤه ؛ فدع الفناء واطلب الفقه فإنه لا يضرُّ معه قُبُحُ الوجه . فتركتُ للفنين واتَّبعتُ الفقهاء ، فبلغ الله لي عزَّ وجل ما ترى . قلتُ له : فأعِدْ ، جُمِلْتُ فداؤك اِقال : لا ! ولا كرامةَ ، أتريد أن تقول : أخذتهُ عن مالك ابن أنس ! وإذا هو مالك^(٤) بن أنس ، ولم أعلم .

* الأغانى : ٤ - ٢٢٢

(١) الحزر : النظر بلفظ العين . (٢) الخَوْخَة : البوب ، أو الباب الصغير في الباب الكبير .

(٣) القائلة : القيلولة . (٤) مالك بن أنس : أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة كان سلباً في

دينه بعيداً من الأمراء والملوك ، وهو صاحب كتاب الموطأ ، توفى سنة ١٧٩ هـ .

٢٢ - أَفْسَدَ آخِرًا مَا أَصْلَحَ أَوَّلًا*

قدم ابنُ جامع السهبي مَكَّةَ بِمَالٍ كَثِيرٍ ، ففَرَّقَهُ فِي ضَعْفَاءِ أَهْلِهَا ؛ فَسَالَ
سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ^(١) : بَلَفَى أَنْ هَذَا السَّهْبِيُّ قَدِيمٌ بِمَالٍ كَثِيرٍ ! قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ :
فَلَا مَ يُعْطَى ؟ قَالُوا : يَنْفَى لِللَّوْكَ فَيُعْطَوْنَهُ . قَالَ : وَبِأَيِّ شَيْءٍ يَنْفِيهِمْ ؟ قَالُوا : بِالشَّعْرِ .
قَالَ : فَكَيْفَ يَقُولُ ؟ قَالَ لَهُ فَنِي مَنْ تَلَامِيذُهُ : يَقُولُ :

أَطَوَّفُ بِالْبَيْتِ مَعَ مَنْ يَطَوَّفُ - وَأَرْفَعُ مِنْ مِئْزَرِي لِلسَّبِيلِ^(٢)

قَالَ : بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، مَا أَحْسَنَ مَا قَالَ ! ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ :

وَأُسْجِدُ بِاللَّيْلِ حَتَّى الصَّبَاحِ وَأَتَلُو مِنَ الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ

قَالَ : وَأَحْسَنَ أَيْضًا ، أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ :

عَسَى فَارِجُ الْمُرِّ عَنْ يَوْسَفَ يُسَخِّرُنِي رَبِّيَ الْهَمْلَ

قَالَ : أَمْسِكَ ! أَفْسَدَ آخِرًا مَا أَصْلَحَ أَوَّلًا !

* المقدم الفريد : ٤ - ٩٣

(١) محدث الحرم ، كان حافظاً فقه ، واسع العلم ، ولد بالكوفة ، ومات بمكة سنة ١٩٨ هـ .

(٢) السبيل : للرخي .

٢٣ - ابن جامع في دار الخلافة*

قال إسماعيلُ بن جامع السهمي^(١) :

ضَمَنِي^(٢) الدهر ضماً شديداً بمكة ، فانتقلتُ منها إلى المدينة ، فأصعبت يوماً وما أملكُ إلا ثلاثة دراهم ، فعني في كُفِّي إذا أنا بجارية مُخَيَّرَاءَ على رقبتيها جَرَّةٌ تريد الرُّكْبَى^(٣) تسمى بين يدي ، وتُرَكُّمُ بصوتٍ شَجِيٍّ تقول :

شَكُونَا إلى أحبابنا طولَ ليلنا فقالوا لنا : ما أقصر الليلَ عندنا !
وذاك لأنَّ النومَ يَغْمُيُ عيونَهُمْ مِرَاعاً وما يَفْشِي لنا النَّوْمُ أَعْيُنَا
إذا ما دنا الليلُ المُضِرُّ لذي الهوى جَزَعْنَا وهمُ يَسْتَبْشِرُونَ إذا دَنَا
فلو أنهم كانوا يُبْلَاوُونَ مثلَ ما نَلَّاقِ لكانوا في المضاجعِ مِثْلَنَا

فأخذ الفناء بِقَلْبِي ، ولم يَدْرُ لي منه حرف . قلت : يا جارية ؛ ما أذرى أوجهك أحسن أم غناؤك ! فلو شئتِ أعدتِ . قالت : حباً وكرامة . ثم أسندتْ ظهرها إلى جِدَارٍ قَرُبَ منها ووضعت إحدى رجليها على الأخرى ، ووضعت الجَرَّةَ على ساقيها ، ثم انبعثتُ مُنَمِّيهِ ؛ فوالله ما دار لي منه حرف . قلت : أحسنتِ !

* الأغانى : ٦ - ٣١١

(١) اشتهر ابن جامع بالفناء ، ولكنه كان من أحفظ خلق الله لكتاب الله ، وكان ورعاً تقياً يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة ، فيصل المصبح ثم يصف قدميه حتى تطلع الشمس ، ولا يصل الناس الجمعة حتى يتمم الفركان ، ثم يصصرف إلى منزله . (٢) ضمني : ضنطني واشتد علي ، من شدة الفقر . (٣) الركب : جمع الركبة ، وهي البئر .

فلو شئت أعدت مرة أخرى اقَطَّعْتُ وَكَلَّهْتُ^(١) وقالت : ما أعجب أمركم !
أحدكم لا يزال يحىء إلى الجارية عليها الضريبة فيشغلها ! فضربتُ يدي إلى
الثلاثة الدرام فدفعتها إليها ، وقلت : أقيس بها وجهك اليوم إلى أن نلتقي .
فأخذتها كالكارهة وقالت : أنت الآن تريد أن تأخذ مني صوتاً أحسبك ستأخذ
به ألف دينار وألف دينار وألف دينار ؛ وانبمشتُ تُنْفَى ؛ فأعلتُ فِكْرِي في
غنائها حتى دار لي الصوتُ وفهمته ، وانصرفتُ مسروراً إلى منزلي أَرَدَدُهُ حتى
خَفَّ على لساني .

ثم إنى خرجتُ أريدُ بُغْدَادَ ، فدخلتها ، فنزلتُ إلى المُكَارِي على باب مُحَوَّل^(٢) ؛
فبقيتُ لا أدري أين أتوجه ولا مَنْ أَقْصِدُ ! فذهبتُ أمشي مع الناس ، حتى
أتيتُ الجُمُزَ فغيرتُ معهم ، ثم انتهيتُ إلى شارع المدينة ، فرأيتُ مسجدًا بالقرب
من دار الفضل بن الربيع مرتفعًا ، فقلت : مسجد قوم سرّاء ؟ فدخلته وحضرتُ
صلاة المغرب ، وأقمتُ بمكانى حتى صليتُ العشاء الآخرة على جوع وتعب ،
وانصرفتُ أهلُ المسجد ، وبقي رجل يُصَلِّي ، خلفه جماعةٌ : خدام وخوَلٌ ينتظرون
فراغه ، فصلى مليًا ثم انصرفتُ ؛ فوآنى فقال : أحسبك غريبًا . قلت : أجل قال :
فتى كنتَ في هذه المدينة ؟ قلت : دخلتها آنفًا ، وليس لي بها منزلٌ ولا معرفة ،
ولست صناعتي بما يُمْتَحُ بها إلى أهل الخير . قال : وما صناعتك ؟ قلت : أنُتَقَى .
فوثب مُبَادِرًا ، ووَكَّلَ بى بعضَ من معه ، فسألتُ للوَكَّلِ بى عنه ، فقال : هذا
سَلَامُ الأبرش^(٣) .

(١) كَلَحَ : تكسرت في عبوس . (٢) باب محول : عملة كبيرة من عمال بغداد . (٣) سلام
الأبرش : خدام النصور وتولى النظام للهدى وطاهر المادى والرشيده .

قال ابنُ جامع : وإذا رسولٌ قد جاء في طلبٍ ، فاتتهى بي إلى قصرٍ من قصورِ الخلافة ، وجازَ بي مقصورةً إلى مقصورة ، ثم أُدْخِلْتُ مقصورةً في آخر الدَّهْلِيز ، ودعا بطعامٍ فَأَتَيْتُ بمائدةٍ عليها من طعام الملوك ، فأكلتُ حتى امتلأتُ .

فإني لكذلك إذ سمعتُ رَكُضًا في الدَّهْلِيزِ وقائلًا يقول : أين الرجل ؟ قيل : هو ذا ، قال : ادعوا له بِسُؤْلِ^(١) وَخَلْعَةٍ وطيبٍ . ففعل ذلك بي ، فَصَحِلْتُ على دابةٍ إلى دارِ الخلافة - وعرةٌ بها بالحرَسِ والتَّسْكِييرِ والنَّيْران - فجاوزتُ مقاصيرَ عِدَّةٍ ، حتى صِرْتُ إلى دارِ قَوْزَاءَ^(٢) فيها أَسِيرَةٌ في وسطها ، قد أُضِيفَ بِمُضْمَرٍ إلى بعض

فأمرني رجلٌ بالصعود فَصَعِدْتُ ، وإذا رجلٌ جالس ، عن يمينه ثلاثُ جوارٍ في جهورهن الميذان ، وفي جِجْرِ الرجلِ عود ، فوَحَّبَ الرجلُ بي ، وإذا بجالسٍ حياله كان فيها قومٌ قد قاموا عنها ، فلم أَلْبَثْ أَنْ خرجَ خادمٌ من وراء الستر ؛ فقال للرجل : تَفَنَّنْ ، فأنبعثَ يَفَنَّنِي بصوتٍ لي وهو :

لَمْ تَمْشِ مَيْلًا وَلَمْ تَرْكَبْ عَلَى قَتَبٍ وَلَمْ تَرَ الشَّمْسَ إِلَّا دُونَهَا السَّكَلُ^(٣)
تَمْشِي الْهُوْبِيُّ كَأَنَّ الرِّيحَ تَرْجِمُهَا مَشَى الْيَعْفِيرِ فِي جَيْثَاتِهَا الْوَهْلُ^(٤)
فَفَنَّنِي بِغَيْرِ إِصَابَةٍ ، وَأَبْوتَارِ وَدَسَاتِينِ^(٥) مختلفة ، ثم عاد الخادم إلى الجارية التي

(١) السؤل : اللاء يفتتل به . (٢) الدار القوزاء : الواسعة . (٣) السكل : جمع كلة ، وهي ستر يخاط كالبيت . (٤) اليعافير : الطباء ، والوهل : الفزع . (٥) الدساتين : الرباطات التي توضع الأصابع عليها ، واحدها دستان .

تلى الرجل ، فقال لها : فَنَنْتِ أَيضًا بِصَوْتِي لِي ، كَانَتْ فِيهِ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ
الرجل ، وهو :

يَادَارُ أَضَحَّتْ خَلَاءَ لَا أُنَيسَ بِهَا إِلَّا الطَّبَاءُ وَإِلَّا النَّاسِيطُ^(١) الْفَرْدُ^(٢)
أَيْنَ الدِّينِ إِذَا مَازَرْتُهُمْ جَذِلُوا^(٣) وَطَارَ عَنْ قَلْبِي النَّشْوَاءُ وَالْكَمْدُ^(٤)

ثم عاد الخادم إلى الجارية التي تليها ، فابتمت نُفْسِي :

فَوَاقَهُ مَا أَذْرَى أَيْفُلِيْنِي الْمَوَى إِذَا جَدَّ وَشَكَ الْبَيِّنُ أَمْ أَنَا غَالِبُهُ ؟
فَإِنْ أُسْتَطِيعَ أَغْلِبُ ، وَإِنْ ضَلَبَ الْمَوَى فَتُفْلُ الْفَى لَا قَيْتُ يُغْلِبُ صَاحِبُهُ
ثم عاد الخادم إلى الجارية الثالثة فَنَتَّى :

مَرَرْنَا عَلَى قَيْسِيَّةٍ عَامِرِيَّةٍ لَهَا بَشَرٌ صَافِي الْأَدِيمِ هِجَانِ^(٥)
قَالَتْ ، وَأَلْقَتْ جَانِبَ السَّتْرِ دُونَهَا : مِنْ آيَةِ أَرْضٍ أَوْ مِنْ الرِّجْلَانِ ؟
قَلَّتْ لَهَا : أَمَّا تَمِيمٌ فَاسْرَقَ هُدَيْتِ ، وَأَمَّا صَاحِبِي فَيَمَانِ
رَفِيقَانِ ضَمَّ السُّفْرُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَقَدْ يَلْتَقِي الشَّقَى فَيَأْتِلِفَانِ

ثم عاد إلى الرجل فنَتَّى صَوْتًا فَشَبَّهَ^(٥) فِيهِ وَهُوَ :

أَمْسَى بِأَسْمَاءَ هَذَا الْقَلْبُ مَعْمُودًا إِذَا أَقُولُ صَحَا بِمُتَادِهِ عِيْدًا
أَجْرَى عَلَى مَوْعِدٍ مِنْهَا فَتُخَلْفُنِي فَاأَمَلُ وَلَا تَوَفِّي الْمَوَاعِيدَا
كَأَنَّ أَهْوَرَ مِنْ غِزْلَانِ ذِي بَقَرٍ^(٦) أَعَارَهَا شَبَّهَ الْعَيْنِينَ وَالْجِيدَا
قَامَتْ تَرَامَى وَقَدْ جَدَّ الرَّجُلُ بَنَا لَتَنَكَّ الْقَرْحُ مِنْ قَلْبِهِ قَدْ اضْطَبَّدَا

(١) الناسط : التور الوحشي . (٢) الفرد : للفرد . (٣) جزلوا : فرحوا . (٤) الهجان : الأيبي : الخالص من كل شيء . (٥) شبه : خلط فيه ولم يحسن أداءه . (٦) ذو بقر : قرية في ديار بني أسد .

بمشرق كشاع الشمس بهبعته
ثم عاد إلى الجارية ، ففتت :

نَمِيرْنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا
وَمَا ضَرُّنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا
وَأَنَا لِقَوْمٍ مَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً
يُقَرَّبُ حُبُّ لَوْتٍ أَجَالَنَا لَنَا
وَتَكْرَهُهُ أَجَالُهُمْ فَتَطُولُ

وَفَتَّتِ الثَّانِيَةَ :

وَوَدِدْتُكَ لَمَّا كَانَ وَدُكَ خَالِصًا
وَلَا يَلْبُثُ الْحَوْضُ الْجَدِيدُ بِنَاؤُهُ
وَأَعْرَضْتُ لَمَّا صِرْتُ نَهَبًا مَقْسَمًا
عَلَى كَثْرَةِ الْوُرَادِ أَنُفٍ يَتَهَدَّمَا

وَفَتَّتِ الثَّلَاثَةَ :

وَمَا كَرُّ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ طَاعِنٍ
فَيَذْرِكُ نَارًا وَهُوَ لَمْ يُخْطِهِ النَّسْفُ
وَمَا أَبْصَرْتُهُ الْخَلِيلُ إِلَّا اقْتَصَرَتْ
فَتَلُّ أَخِي يَوْمًا بِهِ الْعَيْنُ قَرَّتِ
فَأَذْكُرُهُ إِلَّا سَلَتْ وَتَجَلَّتِ

وَعَنَى الرَّجُلُ :

لَحَى اللَّهُ صُلُوكًا مَنَاهُ وَهْهُ
يَنَامُ الضَّحَا حَتَّى إِذَا لَيْلُهُ انْتَهَى
وَلَكِنَّ صُلُوكًا يَسَاوِرُ هَمَّهُ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْكَرِيمَةَ يَلْقَاهَا
مِنَ الدَّهْرِ أَنْ يَلْقَى لَبُوسًا وَمَطْعَمًا
تَلْبَهُ مَنَلُوجَ النَّوَادِ مُورَمًا^(١)
وَيَمْنَى عَلَى الْمَهْجَاءِ لَيْثًا مُقَدَّمًا
كَرِيمًا ، وَإِنْ يَسْتَفِنَ يَوْمًا فَرِيمًا

(١) شعر مبكر : مرسىل : (٢) مورما : أى متفتحا بادنا لديم ما يفتحه من أمور الحياة .

وَفَتَّتِ الْجَارِيَةُ :

إِذَا كُنْتَ رَبًّا^(١) لِّلْقُلُوبِ فَلَا يَكُنْ رَفِيقُكَ يَمْشِي خَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبٍ
أَمِنَهَا فَأَرَدِفُهُ فَإِنَّ حَلْسُكَ فَذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ الْعِقَابُ^(٢) فَعَاقِبِ

وَفَتَّتِ الثَّانِيَةَ :

أَلَمْ تَرَ لَمَّا ضَمِنِي الْبَلَدَ الْفَقْرُ سَمِعْتُ نَدَاءَ يَصْدَعُ الْقَلْبَ يَاعْمُرُو !
أَغْنَيْنَا فَإِنَّا عَصَبَةٌ مَذْحِجِيَّةٌ نَزَارُ عَلَى وَفَرٍ وَلَيْسَ لَنَا وَفْرُ

وَفَتَّتِ الثَّالِثَةَ :

فَلَمَّا تَوَاقَفْنَا وَسَلْتُ أَسْفَرْتَ وَجْوهَ زَهَاهَا الْحُسْنُ أَنْ تَتَقَنَّمَا
تَبَاهَيْنَ بِالْعِرْفَانِ لَمَّا عَرَفْنِي وَقُلْنَ أَمْرُوْهُ بَلِغْ أَسْكَرَ وَأَوْضَعَ^(٣)
وَلَا تَنَازَعَنَّ الْأَحَادِيثَ قُلْنَ لِي أَخِيَّتْ عَلَيْنَا أَنْ نَفَرَّ وَنُخْذَعَا !
قَالَ ابْنُ جَامِعٍ : وَتَوَقَّعْتُ مَجِيءَ الْخَادِمِ إِلَيَّ ، فَهَلْتُ لِلرَّجُلِ : يَا بَنِي أَنْتَ !
خُذِ الْعُودَ ، فَشُدَّ وَتَرَكَذَا وَارْفَعَ الطَّبَقَةَ ، وَحُطَّ دُسْتَانُ كَذَا ، فَعَمِلَ مَا أَمَرْتُهُ .

وَخَرَجَ الْخَادِمُ فَقَالَ لِي : تَقَنَّ ، عَاثُكَ اللَّهُ ! فَهَنَيْتُ بِصَوْتِ الرَّجُلِ الْأَوَّلِ عَلَى
غَيْرِ مَآغَنَاهُ ، فَإِذَا جَمَاعَةٌ مِنْ الْخَلْدَمِ يَحْضُرُونَ حَتَّى اسْتَقْنَدُوا إِلَى الْأُسْرَةِ ، وَقَالُوا :
وَيْحُكَ ! لِمَنْ هَذَا الْفَنَاءُ ؟ قُلْتُ : لِي . فَاَنْصَرَفُوا عَنِّي بِتِلْكَ الْمَرْزَعَةِ ، وَخَرَجَ إِلَيَّ
الْخَادِمُ وَقَالَ : كَذَبْتَ ! هَذَا الْفَنَاءُ لِابْنِ جَامِعٍ . وَدَارَ الدَّوْرُ ، فَلَمَّا انْتَهَى الْفَنَاءُ إِلَيَّ
قُلْتُ لِلْجَارِيَةِ الَّتِي تَلِيَ الرَّجُلَ : خُذِي الْعُودَ فَصَلِّتِ مَا أُرِيدُ ، فَسَوَتْ الْعُودَ عَلَى
غَنَائِمِهَا لِلصَّوْتِ الثَّانِي فَهَنَيْتُ بِهِ ؛ فَخَرَجَتْ الْجَمَاعَةُ الْأُولَى مِنْ الْخَلْدَمِ فَهَالُوا :

(١) ربا : صاحباً . (٢) العقاب : هو أن تترك الناقة مرة ، ويركبها صاحبك مرة أخرى .

(٣) أكل : أعيأ . وأوض : أسمع ؛ يريد أنه أوض فأكل ، ولكن قدم وأخر .

وَيَحْكُ الْمَن هَذَا؟ قُلْتُ: لِي. فَرَجَعُوا وَخَرَجَ الْخَادِمُ قَالًا: كَذَبْتَ، ثُمَّ تَقَنَّيْتُ
بِصَوْتِي، فَلَا يُعْرِفُ إِلَّا بِي، وَهُوَ:

عُوجِي عَلَى فُسْلَى جَبْرِ فِيمَ الصَّدُودُ وَأَنْتُمْ سَفَرُ^(١)
مَانَتْقِي إِلَّا ثَلَاثَ مَيِّ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَنَا الدَّهْرُ

فَتَزَلَّزَلْتُ وَاللهَ الدَّأْرُ عَلَيْهِمْ، وَخَرَجَ الْخَادِمُ قَالًا: وَيَحْكُ الْمَن هَذَا الْفَنَاءُ؟
قُلْتُ: لِي. فَرَجَعَ، ثُمَّ خَرَجَ قَالًا: كَذَبْتَ! هَذَا غَنَاءُ ابْنِ جَامِعٍ، قُلْتُ:
فَأَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَامِعٍ.

فَاسْمَعْتُ إِلَّا وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَجَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى قَدْ أَقْبَلَا مِنِّي وَرَاءَ السَّيْرِ الَّذِي
كَانَ يُخْرِجُ مِنْهُ الْخَادِمُ. قَالَا لِي الْفَضْلُ بْنُ الرَّيِّعِ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَقْبَلَ
إِلَيْكَ؛ فَلَا صَدَّ السَّرِيرَ وَثَبْتُ فَأَتَمَّا، قَالَا لِي: ابْنُ جَامِعٍ؟ قُلْتُ: ابْنُ جَامِعٍ،
جَمَلَنِي اللَّهُ فَذَلِكَ يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ! قَالَ: وَيَحْكُ! مَتَى كُنْتَ فِي هَذِهِ الْبَلَدَةِ؟ قُلْتُ:
أَتَمَّا، دَخَلْتُهَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَلِمَ بِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: اجْلِسْ، وَيَحْكُ
يَا بَنَ جَامِعٍ!

وَمَضَى هُوَ وَجَعْفَرُ، فَجَلَسَا فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَجَالِسِ، وَقَالَ لِي: أَبَشِّرْ وَأَبْسُطْ
أَمْلَكَ؛ فَدَعَوْتُ لَهُ. ثُمَّ قَالَ: غَنَيْتُ يَا بَنَ جَامِعٍ، نَخْطُرُ بَقْلِي صَوْتُ الْجَارِيَةِ
الْحَمِيرَاءِ، فَأَمَرْتُ الرَّجُلَ بِإِصْلَاحِ الْعُودِ عَلَى مَا أَرَدْتُ مِنَ الطَّبَقَةِ، فَفَرَفَا أَرَدْتُ،
فَوَزَنَ الْعُودَ وَزَنَّا، وَتَسَاهَدَهُ حَتَّى اسْتَقَامَتِ الْأَوْتَارُ، وَأَخَذْتُ الدَّسَاتِينَ مُوَاضِعَهَا،
وَانْبَعَثَتْ أَغْنَى بِصَوْتِ الْجَارِيَةِ الْحَمِيرَاءِ:

(١) سفر: مسافرون.

شكّونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا قالوا لنا : ما أقصرَ الليلَ عندنا !
وذلك لأنَّ النومَ يَنقُشُ عيونهم سِرَاعاً وما يَنقُشُ لنا النومُ أعيننا
إذا مادنا الليلَ المَضرَّ لدى الهوى جَزَعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلوأنهم كانوا يلاقون مثلَ ما نُلَاقِي لكانوا في المضاجعِ مثَلنا

فَنظرَ الرشيدُ إلى جعفر وقال : أَسَمِعْتَ مثلَ هذا قَطَّ ؟ قال : لا والله ما خَرِقَ
مِسامي قَطَّ مِثْلُه . فرفعَ الرشيدُ رأسَه إلى خَادمٍ بالقرْبِ منه ، ودعا بكيسَ فيه
ألفُ دينار ، فجاءَ ورَجَى به إلى فِصيرَتِه تحتَ فخذي ودعوتُ لأميرِ المؤمنين .

قال : يا ابنَ جامع ؛ رُدِّ على أميرِ المؤمنينَ هذا الصوتُ ، فرددته ، وتَزَيَّدَتْ
فيه ؛ فقال له جعفر : يا سيِّدِي ؛ أما تراه كَيفَ يَتَزَيَّدُ في الفناءِ ! هذا خلافُ
ما سمعناه أولاً ، وإن كان الأمرُ في اللعنِ واحداً .

فرفعَ الرشيدُ رأسَه إلى ذلك الخَادمِ ، ودعا بكيسَ آخرَ فيه ألفُ دينار ،
فجاءَ به ، ففَصَّيرَتُه تحتَ فخذي ، وقال : تَنَنَّ يا إسماعيلُ ما حَضَرَكَ ،
فجِئْتُ أَقْصِدُ الصوتَ مِنْ بَعدِ الصوتِ ؛ عَمَّا كانَ يَبلغُنِي أَنه يَشْتَرِي
عليه الجِواري فَاغْنِيه ، فلم أَزَلْ أَضِلُّ ذلكَ إلى أن عَمَسَ^(١) الليلُ . فقال :
أَتُنبِئُكَ يا إسماعيلُ هذه الِيسَلَةُ با لِنِفاءِ ؛ فَأَعِدْ على أميرِ المؤمنينَ الصوتَ (يعنى
صوتَ الجارية) فَتَنَبَّيْتُ ؛ فدعا الخَادمَ وأمره . فَأَحْضَرَ كَيْساً ثالثاً فيه ألفُ
دينارٍ ؛ فَذَكَرْتُ ما كانتَ الجاريةُ قَالَتْ لِي فَتَبَسَّمتُ ، وَلَحَظَنِي ؛ فقال :
مِمَّ تَبَسَّمتُ ؟ فَجَبَّوتُ على رِكبَتِي وَقُلْتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ الصَدَقُ مَنجاةٌ ،

(١) عَمَسَ الليلُ : أَقْبَلَ ظَلامُه .

قال لي بانتهار : قُلْ ! قَصَصْتُ عَلَيْهِ خَيْرَ الْجَارِيَةِ ، فلما استوعبه^(١) قال :
صَدَقْتُ ، قد يكون هذا ؛ وقام .

ونزلتُ من السرير ولا أدري أين أَقْصِدُ ، فابْتَدَرَنِي^(٢) قَرَّاشَانِ فَصَارَا بِي إِلَى
دَارٍ قَدْ أَمَرَ بِهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَرَشَتْ وَأَعِدَّ فِيهَا جَمِيعُ مَا يَكُونُ فِي مِثْلِهَا مِنْ آلَةٍ
جَلَسَاءَ لِلْمُلُوكِ وَنَدَمَائِهِمْ ، وَمِنْ كُلِّ آلَةٍ وَخَوَّلَ^(٣) إِلَى جَوَارٍ وَوُصَفَاءَ ، فَدَخَلْتُ
بِنَدَادٍ قَهِيرًا وَأَصْبَحْتُ مِنْ جِلَّةِ^(٤) أَهْلِهَا وَمَيَاسِيرِهِمْ !

(١) مرفه كاله . (٢) ابتدرني : أسرع إلى . (٣) الخول : الخدم .

(٤) الجلة جمع جليل : عظيم .

٢٤ — ابن جامع وأبو يوسف القاضي *

قديم ابن جامع قَدَمَةٌ له من مكة على الرشيد - وكان ابنُ جامع حسنَ السَّمتِ كثيرَ الصلاة ، قد بَانَ أَرُ السَّجُودِ في جَبْهَتِهِ ، وكان يَتَمُّ بِعِمَامَةٍ سوداء على قَلَنْسُوءٍ طويلة ، ويلبس لباسَ الفُقهاء ويركب حماراً مَرَبِيساً^(١) في زِيٍّ أَهْلِ الحجاز .

فبينما هو واقفٌ على باب يحيى بن خالد يلتمس الإذن ، إذ أقبل أبو يوسف القاضي بأصحابه أهل القلانس ، فلما هَجَمَ على الباب نظر إلى رجلٍ يقفُ إلى جانبه ويحادثُهُ ، فوقفَ عَيْنُهُ على ابن جامع ، فرأى سَمْتَهُ وحُلَاوَةً هَيْئَتِهِ ؛ فجاء فوقف إلى جانبه ، ثم قال له : أَمْتَعَ اللَّهُ بِكَ ؟ تَوَسَّمتُ فيكَ الحجازية والقرشية ، قال : أصبَتْ ، قال : فمن أي قريش أنت ؟ قال : من بني سَهم . قال : فأَيُّ الحرميين منزلُكَ ؟ قال : مكة ، قال : ومن لقيت من قضاةهم ؟ قال : سَلُّ عن شئتَ ، ففأتمعه الققه والحديث فوجد عنده ما أحب ؛ فأعجبَ به ، ونظر الناسُ إليهما فقالوا : هذا القاضي أبو يوسف قد أقبل على المَعْنَى - وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع ؛ فقال أصحابه : لو أخبرناه عنه ! ثم قالوا : لا ، لعله لا يعودُ إلى موافقته بعد اليوم فَلَمْ تَقْمَعْ !

فلما كان الإذنُ الثاني ليحيى غَدَا عليه الناسُ وغدا عليه أبو يوسف ، فنظر يطلبُ ابنَ جامع فَرَأَاهُ ، فذهب فوقف إلى جانبه ، لحادثة طويلة كما فعل في المرة

* الأغانى : ٦ - ٢٩١

(١) مريسي : نسبة إلى مريسة ، وهي قرية بمصر مشهورة بالخير .

الأولى ، فلما انصرف قال له أصحابه : أيها القاضي ؛ أتصرف هذا الذي تواف^(١) وتحادث ؟ قال : نعم ؛ رجل من قريش من أهل مكة من النخباء . قالوا : هذا ابن جامع للمنى ، قال : إنا لله ! قالوا : إن الناس قد شهروك بمواقفته ، وأنكروا ذلك من ذمك .

فلما كان الإذن الثالث جاء أبو يوسف ونظر إليه فتعجب ، وعرف ابن جامع أنه قد أُنذِرَ به ، فجاء فوقف فلم عليه ، فردّ عليه أبو يوسف بغير ذلك الوجه الذي كان يلقاه به ، ثم انحرف عنه .

فدنا منه ابن جامع ، وعرف الناس القصة ، وكان ابن جامع جهوراً ، وفرغ صوته . ثم قال : يا أبا يوسف ؛ مالك تنصرف عني ! أي شيء أنكرت ؟ قالوا لك : إني ابن جامع للمنى ، فكرهت موافقتي ! أسألك عن مسألة ثم اصنع ما شئت . ومال الناس فأقبلوا نحوها يستمعون . قال : يا أبا يوسف ، لو أن أعراياً جلفاً وقف بين يديك فأنشدك بحمائه وغفلة من لسانه وقال :

يَا دَارَ مَيْبَةِ الْعَلِيَاءِ فَالسُّنْدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ

أكنت ترى بذلك بأساً ؟ قال : لا ، قدرّوي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الشعر قولٌ وزرّوي في الحديث .

قال ابن جامع : فإن قلت أنا هكذا . . . ثم اندفع يتفنى فيه حتى أتى عليه ، ثم قال : يا أبا يوسف ؛ رأييني زدّت فيه أو قصّت منه ؟ قال : عافاك الله ؛ أغفينا من ذلك . ثم قال : يا أبا يوسف ؛ أنت صاحب فتية ، ما زدته على أن حسنته بألفاظي ، فحسن في السماع ، ووصل إلى القلب ! ثم تنحى عنه ابن جامع !

٢٥ — سَرِقَةُ الْغَنَاءِ *

قال الرشيد يوماً لجعفر بن يحيى: قد طال سماعنا هذه العصابة على اختلاط الأمر فيها، فهل أظنك إياها وأخايرك؛ فاقسمنا للغنين، على أن جملاً يإزاه كل رجل نظيره؛ وكان ابن جامع في حيز الرشيد، وإبراهيم اللوصلي في حيز جعفر بن يحيى، وحضر الندماء لمحنة^(١) للثنين.

وأمر الرشيد ابن جامع ففنى صوتاً أحسن فيه كل الإحسان، وطرب الرشيد غاية الطرب، فلما قطعه قال الرشيد لإبراهيم: هات يا إبراهيم هذا الصوت ففنته. فقال: لا، والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه؛ وظهر الانكسار فيه، فقال الرشيد لجعفر: هذا واحد.

ثم قال لإسماعيل بن جامع: غن يا إسماعيل؛ ففنى صوتاً ثانياً أحسن من الأول، فلما استوفاه قال الرشيد لإبراهيم: هات يا إبراهيم، قال: ولا أعرف هذا! فقال: هذان اثنان! غن يا إسماعيل؛ ففنى ثالثاً يتقدم الصوتين الأولين ويفضلهما. فلما أتى على آخره قال: هات يا إبراهيم، قال: ولا أعرف هذا أيضاً. فقال له جعفر: أخزك الله.

وأتم ابن جامع يومه، والرشيد مسروراً به، وأجازه بجوائز كثيرة، وخلع عليه خلعاً فاخراً، ولم يزل إبراهيم مُتَحَدِّلاً منكسراً حتى انصرف. ومضى إلى

* الأغاني: ٥ - ٢٠٦

(١) الهنة: الاختبار.

منزله ، فلم يستقر فيه حتى بعث إلى محمد للعروف بالزَّف (١) - ركان من اللنين
المختين ، وكان أسرع من عُرف في أيامه في أخذ صوت يريد أخذه ، وكان الرشيد
قد وجد (٢) عليه في بعض ما يجده للوك على أمثاله ، فآزره بيته وتناساه - فقال إبراهيم
للزَّف : إني اخترتك على من هو أحب إلي منك لأمر لا يصلح له غيرك ، فانظر
كيف تكون ا قال : أبلغ في ذلك مصيبتك ، إن شاء الله تعالى . فأدى إليه الخبر ،
وقال : أريد أن تمضي الساعة إلى ابن جامع ، فقله أنك صيرت إليه مهنتاً بما
تهيأ له على وتنفقني وتبليغي (٣) وتشتني ، وتحال في أن تسمع منه الأصوات
وتأخذها منه ، ولك ما تحب من جهتي من عرض من الأعراض مع رضا الخليفة
إن شاء الله .

فرض واستأذن على ابن جامع فأذن له ، فدخل وسلم عليه وقال :
جئتك مهنتاً بما بلغي من خبرك ، والحمد لله الذي أخزى ابن الجرهماني (٤)
على يدك ، وكشف الفضل في محلك من صناعتك ، قال : وهل بلت خبرنا ؟
قال : هو أشهر من أن يخفى على مثلي ، قال : ويحك ! إنه يقصر عن العيان .
قال : أيها الأستاذ ؛ سرني بأن أسمعه من فيك حتى أرويه عنك ؛ قال : أقم
عندي حتى أقبل ، قال : السمع والطاعة .

فدعا له ابن جامع بالطعام فأكل ودعا بالشراب ، ثم ابتدأ حديثه بالخبر حتى

(١) هو محمد بن عمرو ، مولى بني تميم ، كوفي الأصل وللولد ، والزف لقب غلب عليه ، كان
مفتياً حاربا ، طيب السوء ، صالح الصنعة ، مليح النادرة ، أسرع خلق الله أخذاً للثناء .
وأصحهم أداء له ، كمال ينصب لابن جامع ، مات في خلافة الرشيد . (٢) وجد عليه : غضب ،
(٣) ثلثه : غابه وتقصه . (٤) الجرهماني واحد الجرامقة : وهم قوم من الجهم صاروا بالوصل في
أوائل الإسلام .

اتمهي إلى خَبر الصوت الأول . فقال له الزَّف : وما هو أيُّها الأستاذ ؟ فنَّاه ابنُ جامع إياه ، فجعل عمداً يُصَنِّقُ وينقر ويشربُ وابنُ جامعُ مجتهد في شأنه حتى أخذه عنه ، ثم سألَه عن الصوت الثاني فنَّاه إياه . وفعل مثلَ فعلِه في الصوت الأول ، ثم كُنْطِك في الصوت الثالث .

فلما أخذ الأحموت الثلاثة وأحْكَمها ، قال له : يا أستاذ ؛ قد بلغتُ ما أحبُّ فُأذن لي في الانصراف ؟ قال : إِذَا شِئْتَ .

فانصرف عمداً من وجهه إلى إبراهيم ، فلما طلع من باب داره قال له : ما وراءك ؟ قال : كلُّ ما تحبُّ ؛ ادْعُ لي بَعْدَ ، فدعا له ؛ فَضَرَبَ وَغَنَاهُ الأصوات . قال إبراهيم : وأييك هي بصُورِها وأعيانها ؛ رَدَّدها على الآن ، فلم يزل يرددها حتى سحَّت لإبراهيم ، وانصرف الزَّف إلى منزله .

وَعَدَا إبراهيم إلى الرشيد فلما دعا بالمُتَمَنِّين دخل فيهم ، فلما بَصَرَ به قال له : أوقد حضرت ! أما كان ينبغي لك أن تجلسَ في منزلِك شهراً بسبب مالتيتَ من ابن جامع ! قال : ولمَ ذلك يا أمير المؤمنين ؟ جعلني الله فداك ! والله لئن أذنت لي أن أقولَ لأَقُولَنَّ ، قال : وما عساك أن تقول أقل . فقال : إنه ليس ينبغي لي ولا لغيري أن يراك نشيطاً لشيء ، فيمارضك ، ولا أن تكونَ متعصباً لحِزْبٍ وَجَنَبَةٍ^(١) فينالبك ؛ وإلا فاني الأرض صَوَّتْ لا أعرفه . قال : دَعَا عنك ؛ قد أقررت أُمس بالجهالة بما سمعت من صاحبنا ، فإن كنتَ أُمسكتَ عنه بالأُمس على معرفة كما تقول فهاته اليوم ، فليس ههنا عَصَبِيَّة ولا تمييز .

(١) الجنبه : الناحية .

فاندفع فامر الأصوات كلها ، وابن جامع مُصنِع يسمع منه ، حتى أتى على آخرها ، فاندفع ابن جامع خلف بالإيمان المُرَجَّة أنه ما عرفها قط ولا سمعها ، ولا هي إلا مِن صَنَعته ، ولم تَخْرُج إلى أحد غيره ، قال له : وبك إذا أحدثتُ ببدى ! قال : ما أحدثتُ شيئا .

قال : يا إبراهيم ؛ بحياتي ، اصدقني . قال : وحياتك لأصدقنك ؛ ربيته بحجره^(١) ، فبعثت إليه بمحمد الزَّرف وضمنتُ له ضماناتٍ ، أولها رضاك عنه ؛ فضى فاحتال لي عليه حتى أخذها عنه وقتلها حتى سقط الآن اللومُ عني بإقراره ، لأنه ليس عليَّ أن أعرف ما صنعه هو ولم يُخْرِجه إلى الناس ، وهذا بابٌ من الغيب ، وإنما يلزمني ألا يعرف هو شيئا من غناء الأوائل وأجهله أنا ، وإلا فلوزمني أن أروى صنعه للزَّمة أن يروى صنعتي ولزم كل واحدٍ منا لِسائر طبقة ونظرانه مثل ذلك ، فن قصر كان مذموما ساقطا .

قال له الرشيد : صدقتَ يا إبراهيم ونصحتَ^(٢) عن نفسك وقتَ بحجيتك . ثم أقبل على ابن جامع ، قال له : يا إسماعيل ؛ أتيت أُنيت دُهيت دُهيت ! أبطل عليك الموصلي ما فلتته به أمس ، وانتصف اليوم منك ، ثم دعا بالزَّرف فرَضِيَ عنه .

(١) روى فلان بحجره : إذا قرن بئله . (٢) فضع عن نفسه : دفع عنها بالحجة .

٢٦ — أنا والصبح كَفَرَسَى رِهَان*

قال إبراهيم^(١) للوصلي :

قال لي الرشيد يوماً : يا إبراهيم ؛ بَكَرْ عَلَى غَدَا حَتَّى نَصْطَبِحَ ؛ قُلْتُ لَهُ : أَنَا
وَالصَّبْحُ كَفَرَسَى رِهَانٍ ، فَبَكَرْتُ فَلِذَا أَنَا بِهِ خَالِيًا ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ جَارِيَةٌ كَانَهَا
خُوطُ^(٢) بَانَ ، حُلْوَةٌ لِلنَّظَرِ ، دَحِيَّةٌ لِلشَّامِلِ ، وَفِي يَدَيْهَا عُودٌ ، قَالَتْ لَهَا : غَنِّي ،
فَنَنَنْتُ فِي شِعْرِ أَبِي نَوَاسٍ وَهُوَ :

تَوَهَّمْ قَلْبِي فَأَصْبَحَ خَذَهُ وَفِيهِ مَكَانَ الْوَهْمِ مِنْ نَظَرِي أَثَرُ^(٣)
وَمَرٌّ بِفِكْرِي خَاطِرًا فَجَرَحْتُهُ وَلَمْ أَرِ جِسْمًا قَطُّ يَمْجُوحُهُ الْفِكْرُ
وَصَافِغُهُ قَلْبِي فَأَلَمَ كَفَّهُ فَمِنْ عَزَزِ قَلْبِي فِي أَنَامِلِهِ عَقْرُ^(٤)

قال إبراهيم : فَذَهَبَتْ وَاللهُ بِقَلْبِي حَتَّى كِدْتُ أَنْ أَفْضَحَ ، قُلْتُ : مَنْ هَذِهِ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : هَذِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا الشَّاعِرُ :

لَهَا قَلْبِي الْمَدَاةَ وَقَلْبُهَا لِي فَنَحْنُ كَذَلِكَ فِي جَسَدَيْنِ رُوحِ
ثُمَّ قَالَ : غَنِّي ، فَغَنَنْتُ :

تَقُولُ غَدَاةَ الْبَيْتِ لِمَحْدَى نَسَائِهِمْ : لِي السَّكِيدُ الْحَرَمِيُّ فِيرَ وَلَكَ الصَّبْرُ^(٥)

* الْأَغَانِي : ٥ — ٢٢٨

(١) أُوْحِدَ زَمَانُهُ فِي النَّتَاءِ وَانْتِفَاعِ الْأَلْهَانِ ، اتَّصَلَ بِالْخُلَفَاءِ فَسَكَتَتْ لَهُ عِنْدَهُمْ مَنَزَلَةٌ حَسَنَةٌ .
وَمَاتَ فِي بَغْدَادِ سَنَةِ ١٨٨ هـ . (٢) الْخُسُوفُ : الْفَنَنُ ، وَالْبَانُ : نَوْعٌ مِنَ الشَّجَرِ ، لِحَبِّ ثَمَرِهِ
دَحْنٌ طَيِّبٌ . (٣) أَثَرُ الْمَجْرَحِ : أَثَرُهُ يَبْقَى بَعْدَ مَا يَبْرَأُ . (٤) الْمَقَرُ : الْمَرْحُ . (٥) الشَّعْرُ
لِأَبِي الصَّبْرِ .

وقد خَفَقَتْهَا عَصِيْرَةٌ فَدُمُوْعُهَا عَلَى خَدَّهَا بَيْضٌ وَفِي نَحْرِهَا صُفْرُ
 قال : فشرِب وسَقَانِي ثُمَّ سَقَاها ، ثُمَّ قَالَ : عَنِّي يَا إِبْرَاهِيْمُ ؛ فَفَنِيْتُ حَسْبُ
 مَا فِي قَلْبِي غَيْرُ مُتَحَفِّظٍ مِنْ شَيْءٍ :
 تَشْرَبُ قَلْبِي حَبِيْبًا وَمَشَى بِهِ تَمْشَى حَيَّا الْكَأْسَ فِي جِسْمٍ شَارِبِ
 وَدَبَّ هَوَايَا فِي عِظَايَ فَشَفَّيْهَا كَادِبٌ فِي الْمَلْسُوعِ سُمُّ الْقَارِبِ
 قال : فظنن بتمريضى - وكان جهالةً مئى - وأمرنى بالانصراف ، ولم يدعنى
 شهراً ، ولا حَصَرْتُ مَجْلِسَهُ .

فلما كان بعد شهر دسَّ إِلَى خَادِمًا مَعَهُ رَقْعَةً ، فِيهَا مَكْتُوبٌ :
 قَدْ نَحَوْتُ أَنْ أَمُوتَ مِنَ الْوَجْدِ وَلَمْ يَدِرْ مَنْ هُوْتُ بِمَا فِي
 يَا كِتَابِي فَأَقْرَ السَّلَامَ عَلَى مَنْ لَا أَسْمَى وَقُلْ لَهُ يَا كِتَابِي
 إِنْ كَفَا إِلَيْكَ قَدْ بَعَثْتَنِي فِي شَتَاءِ مُوَاصِلٍ وَعَازَابِ
 فَأَتَانِي الْخَادِمُ بِالرَّقْعَةِ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : رَقْعَةُ الْبَعَارِيَةِ فَلَانَةُ الَّتِي
 غَنَنْتُكَ بَيْنَ بَدَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَأَحْسَسْتُ الْقِصَّةَ ، فَشَتَمْتُ الْخَادِمَ وَوَبَّيْتُ عَلَيْهِ
 وَضَرَبْتُهُ ضَرْبًا شَفَّيْتُ بِهِ نَفْسِي وَغَيَّظَنِي .

وَرَكِبْتُ إِلَى الرَّشِيدِ مِنْ قَوْرَى فَأَخْبَرْتُهُ الْقِصَّةَ وَأَعْطَيْتُهُ الرَّقْعَةَ ؛ فَضَحِكَ حَتَّى
 كَادَ يَسْتَلْقَى ، ثُمَّ قَالَ : عَلَى عَهْدِي قُلْتُ ذَلِكَ بِكَ لِأَمْتَحِنَ مَذْهَبَكَ وَطَرِيقَتَكَ ،
 ثُمَّ دَعَا بِالْخَادِمِ ، فَلَمَّا خَرَجَ رَأَى قَسَالَ لِي : قَطَعَ اللَّهُ يَدَيْكَ وَرَجْلَيْكَ ، وَيَمُكُّ !
 قَتَلْتَنِي ؛ فَقُلْتُ : الْقَتْلُ وَاللَّهُ كَانَ بَعْضُ حَتِّكَ لَمَّا وَرَدْتَ بِهِ عَلَيَّ ، وَلَكِنْ رَحِمْتُكَ
 فَأَبْقَيْتُ عَلَيْكَ ، وَأَخْبَرْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِيَأْتِيَنِي فِي عَقُوبَتِكَ بِمَا تَسْتَحِقُّهُ . وَأَمَرَنِي
 الرَّشِيدُ بِمَلَّةٍ سَيِّئَةٍ .

٢٧ - ما هذا يجرأني منك *

قال الأعمى^(١) : مررتُ بدار الزُّبير بالبصرة ، فإذا شيخٌ قديمٌ من أهل المدينة من ولد الزبير ، يبكى أبا رَحْمَنة ، جالسٌ بالباب عليه شَمْلَةٌ^(٢) تستره ؛ فسلْتُ عليه ؛ وجلستُ إليه ؛ فبينما أنا كذلك إذ طلعت علينا سُوَيْدَاءُ ، تحصل قُرْبَةً ، فلما نظر إليها لم يتالكُ أن قام إليها ، قال لها : بالله عَنِّي صوتاً ! قالت : إن مَوَالِيَّ أَعْجَلُونِي^(٣) ؛ فقال : لا بدَّ من ذلك ! قالت : أما والقُرْبَةُ على كعفي فلا قال : فانا أُنْجِلُها ؛ فأخذ القُرْبَةَ منها ؛ فاندفتْ^(٤) نَفْسِي :

فَوَادَّ أَسِيرٌ لَا يُفْكَ وَمُهْجَتِي تَفِيضُ ، وَأَحْزَانِي عَلَيْكَ تَطُولُ
وَلِي مَقَلَّةٌ قَرَحَى لَطُولَ اشْتِيَاقِهَا إِلَيْكَ ، وَأَجْفَانِي عَلَيْكَ هُمُولُ^(٥)
فَدَيْتُكَ أَعْدَائِي كَثِيرٌ ، وَشَقَقِي بَعِيدٌ ، وَأَشْيَاعِي لَدَيْكَ قَلِيلُ

فطرب ، وصرخ صرخةً ، وضرب بالقُرْبَةَ إلى الأرض فشقها !
فقامت الجارية تبكي ، وقالت : ما هذا يجرأني منك ! أَسَفْتُكَ بِمَاجِدِكَ
فمرَضَّتْنِي لِمَا أُكْرَهُ مِنْ مَوَالِيَّ !

قال : لَا تَغْتَمِي ؛ فَإِنَّ الصَّبِيَّةَ عَلَى حَصَلَتِ ! وَنَزَعَ شَمْلَتَهُ ، وَابْتَاعَ لَهَا قُرْبَةً
جديدةً اوقَعَدَ ؛ فَاجْتَازَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ فَفَرَفَ حَالَهُ ،

* زهر الآداب : ١ - ١٥٦

(١) هو عبد الملك بن قريب ، اشتهر بالرواية والتضلع في اللغة ، توفي سنة ٢١٦ هـ . (٢) الشملة : كساء دون القطنية يشتمل به . (٣) أَعْجَلُهُ : استعجته . (٤) اندفت بالدمع .

قَالَ : يَا أَبَا رِيحَانَةَ ؛ أَحْبَبْتُكَ مِنْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿فَمَا رَحِمْتَ تِجَارَتَهُمْ وَمَا كَانُوا مُتَقَدِّينَ﴾ ^(١) .

قال : لا ؛ يَا بَنَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَكِنِّي مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ^(٢) .
فَضَحِكَ وَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دَرَاهِمٍ .

(١) سورة البقرة ، آية ١٦

(٢) سورة الزمر ، آية ١٧ ، ١٨

٢٨ — ما نفعني الفناء إلا ذلك اليوم*

قال إبراهيم^(١) بن المهدي : حججتُ مع الرشيد ، فبينما نحن في الطريق وقد انفردتُ أسيرُ وحدي ، وأنا على دابتي إذ غلبني عياني ، فسلكتُ في الدابةُ غير الطريق ، فانقبتُ وأنا على غير الجادة^(٢) ، فاشتدَّ بي الحرُّ ، فعطشت عطشاً شديداً ، فارتفعَ لي خيالٌ قصدته ، فإذا بقبةٌ ، وبجنبها بئرُ ماء ، بقرب مزرعة — وذلك بين مكة والمدينة — ولم أر بها إنسياً ، فاطلمت في القبة ، فإذا أنا بأسود نائم ، فأحسَّ بي ، ففتح عينيه ثم استقوى جالساً ، فإذا هو عظيمُ الصورة . قلت : يا أسود ، استقي من هذا الماء ، فقال : يا أسود ، استقي من هذا الماء ، استقي من هذا الماء ، مُحَاكِاً لي . وقال : إن كنتَ عطشان فانزل واشرب ، وكان تحتي برزْدون^(٣) خبيث نفور ، فخشيتُ أن أنزل عنه ، فينفر ، فضربتُ رأس البرزْدون .

وما نفعني الفناء قط إلا في ذلك اليوم ، وذلك أني رفعتُ عتري وغنيت .
فرفع الأسودُ رأسه إليّ ، وقال : أيما أحب إليك ، أن أسقيك ماء وحده ، أو ماء وسويقاً^(٤) ؟ قلت : الماء والسويق . فأخرج قعباً^(٥) له ، فصبَّ السويق في القدح فسقاني ، وأقبل يضرب يده على رأسه وصدره ، ويقول : واحرَّ صدره ! يا مولاي ؛ زدني وأنا أزيدك ، وشربتُ السويق ، ثم قال لي : يا مولاي ، إن بينك

* السعدي : ٢ - ٢٧٠

(١) هو إبراهيم بن محمد المهدي أخو هارون الرشيد ، كان أسود حاك القرون فصيح اللسان واسع الصدر ، سخر الكف حافظاً بصنة الفناء ، توفي سنة ٢٢٤ هـ . (٢) الجادة : معظم الطريق (٣) البرزْدون : الدابة . (٤) السويق : ما يتخذ من الحنطة والصبر . (٥) القعب : القدح الضخم .

وبين الطريق أميالاً ، ولست أشك أنك تعلمش ؛ لكنى أملاً قريبى هذه وأجلها
قدّامك . قلتُ : اضل .

فلأُقرّبته ، وسار قدّامى وهو يجعل فى مسيّته غيرَ خارج عن الإيقاع ، فإذا
أمسكت لأستريح أقبل علىّ ، قال : يا مولاي ؛ عطشتُ ؛ فأعنتيه إلى أنْ أوقفنى
على الجادة ، ثم قال لى : سرّ رعاك الله ، ولا سلّيك ما كساك من هذه النّم -
بكلام مجبى ، معناه هذا الدعاء - فلحقتُ بالقافلة ، والرّشيدُ قدّ هقدى ، وقد بثّ
الخيل فى طلي ، فسُرّ بى حين رآنى ، فأنتهتُ فصصتُ عليه الأُمز ، فقال :
علىّ بالأسود ، فما كان إلا هُنيئة حتى مثل بين يديه ، قال له : ويذكّ 1 ما حرّ
صدرك ؟ فقال : يا مولاي ، ميمونة ! قال : ومن ميمونة ؟ قال : حبشيّة يا مولاي ؛
فأمر من يستفهمه ، فإذا الأسود عبداً لبني جعفر الطيار ، وإذا السوداء التى يهواها
لقوم من ولد الحسن بن على ؛ فأمر الرّشيدُ بابتاعها له ، فأبى موالها أنْ يقبلوها
ثمناً ، ووهبوا للرّشيد ، فاشتري الأسود وأعطته ، وزوجه منها ، ووهب له من
ماله بالمدينة حديقتين وثلاثمائة دينار .

٢٩ — طَفِيلِي وَلَكِنَّهُ غَرِيفٌ*

حدث إسحاق^(١) الموصلي قال : غدوت يوماً وأنا ضَجِر من مُلَازمة دارِ
الخلافة والخِدْمَةِ فيها ؛ فخرجتُ وركبتُ بِكَرَّةٍ^(٢) ، وعزمتُ على أن أطوفَ
الصعراءَ وأتفرّج . قلتُ لِنِلماني : إن جاء رسولُ الخليفة أو غيره فمرّ فوه أُنِي
بِكَرَّتُ في بعض مِهْمَاتِي ، وأنكم لا تعرفون أين توجّهت !
ومضيتُ وطلّفتُ ما بدا لي ، ثم عدتُ وقد حمى النهار . فوقفتُ في
الشارع المعروف بالخُرَّم^(٣) في فناء تَحْنين الظل ، وجناح رَحْبٍ^(٤) على الطريق
لأُسْتَرْجِح .

فلم أَلْبَثْ أن جاء خادمٌ يقود حِمَاراً فأرّها عليه جارية راكبة ، تحمها منديل
دَبِيقٍ^(٥) ، وعليها من اللبس الفاخر ما لا غاية بسده . ورأيت لها قواماً حسناً
وشمائل حسنة .

فَفَرَحْتُ^(٦) أنها مُعَنِيّة ، فدخلتِ الدارَ التي كنتُ واقفاً عليها .
ثم لم أَلْبَثْ أن جاء رجلان شابان ، فاستأذنا فأذن لهما ، فترّلا ، ونزلت معهما

* الأغانى : ٥ - ٤٢٣

(١) إسحاق الموصلي : من أشهر نداء الخلفاء ، تفرد بصناعة النداء ، وكان عالماً بالغة والموسيقى
والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام ، وراوية للشعر وحافظاً للأخبار . توفي ٤٢٣٥ هـ . (٢) باكرٌ
(٣) الخُرَّم : محلة ببغداد . (٤) رحب : واسع . (٥) دَبِيق : منسوب إلى دَبِيق ، وهي بلدة
كانت بين القراما وتيس من أعمال مصر ، وتلقب إليها الثياب . (٦) فرحت : ظنفت .

ودخلت ؛ فظننا أن صاحبَ الدارِ دَعَانِي وظَنَّ صاحبُ الدارِ أني معها ؛ فجلسنا
وأَتَيْنا بالطعام فأكلنا وبالشراب فَوَضَعَ ، وخرجت الجارية وفي يدها عودٌ ففَتَتْ
وشرِبْنَا ؛ وقُمْتُ قومةً ، فسألَ صاحبُ المنزلَ الرجلين عَنِّي ، فأخبراهُ أَنهما
لا يعرفاني ؛ فقال : هذا طُفْلِي ولكنه ظَرِيفٌ ، فَأَجْلَسُوا عِشْرَتَهُ ، وجِثْتُ لجلسْتُ ؛
وَعَنَتِ الجارية في الحَنْرِ لِي ، فَأَذَنَهُ أَدَاءَ صالِحاً ؛ ثم غَنَّتْ أصواتاً شتى ، وغَنَّتْ في
أصنافها مِنْ صَنَعَتِي ؛

البلولُ الدَّوَارِسُ فارتَقَتْها الأَوَانِسُ
أوحشتُ بِصدِّ أَهْلِهَا فهي قَفَرٌ بِسَائِسٍ^(١)

فكان أمرُها فيه أَصلَحَ منه في الأولِ ؛ ثم غَنَّتْ أصواتاً من القديم والحديث ،
وغَنَّتْ في أَثْنائها مِنْ صَنَعَتِي :

قُلْ لِمَنْ صَدَّ عَاتِيَا ونأى عَنْكَ جَانِبَا
قد بَلَّتْ القِيَّ أَرْدَا تَ وَإِنْ كُنْتَ لَا عِيَا

فكان أَصلَحَ ما غَنَّتَهُ . فاستمدتُهُ منها لِأَصَحَّحَهَا . فأقبلَ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ
الرجلين ، وقال : ما رأيتُ طُفْلِيًّا أَصْفَقَ وَجْهًا مِنْكَ أَلَمْ تَرْضَ بِالطَّفِيلِ حَتَّى
اقتَرَحْتَ ، وهذا غايةُ المثل : « طُفْلِيٌّ مُقْتَرَحٌ » ؛ فأطَرَقْتُ ولم أَجِبْهُ . وجعل
صاحِبُهُ يَسْكُفُهُ عَنِّي فَلَا يَسْكُفُ . ثم قاموا للصلاة وتَأَخَّرْتُ قَلِيلًا ، فَأَخَذْتُ عودَ
الجارية ، ثم أَصْلَحْتُ إِصْلَاحًا مُحْكَمًا ، وعدتُ إِلَى مَوْضِعِي فَصَلَّيْتُ . وعادوا ثُمَّ
أَخَذَ ذَلِكَ الرَّجُلُ يَمْنَنِي وَأَنَا صامتٌ .

(١) بِسَائِسٍ ، لفة في البأسب : الصعاري .

ثم أخذتِ الجارية المودة فبعثته وأنكرت حاله ، وقالت : مَنْ مَسَّ عودي؟ قالوا : ما مَسَّهُ أحدٌ ، قالت : بلى ، والله لقد مَسَّهُ حاذقٌ متقدمٌ وأصلحُهُ إصلاحٌ متمكِّنٌ من صناعته ، فقلت لها : أنا أصلحُته ؛ قالت : فبالله خذْه واضرب به ؛ فأخذته وضربتُ به مبدأً ظريفاً عجيباً صعباً ، فيه نقراتٌ متحركة . فباقي أحدٍ منهم إلا ونب على قدميه وجلس بين يدي .

ثم قالوا : بالله ياسيدنا ؛ أنفَى ؟ قلت : نعم ، وأعرفكم نفسى ؛ أنا إسحاق ابن إبراهيم اللوصلى ، ووالله إنى لأتية على الخليفة إذا طلبنى ، وأنتم تُسمعونى ما أكره منذ اليوم لأنى نزلتُ بكم ! فوالله لا نطقتُ بحرف ولا جلستُ معكم حتى تُخْرِجُوا هذا المُعْرِيدَ ^(١) المَقِيثَ ^(٢) . قالت : فقال له صاحبه : مِنْ هذا حَذَرْتُ عليك . فأخذ يستنذر ؛ قلت : والله لا نطقتُ بحرف ولا جلستُ معكم حتى يُخْرِجَ ؛ فأخذوا بيده فأخرجوه وعادوا .

فبدأتُ وغنيتُ الأصوات التى غنيتها الجارية من صَنَعَتى ، فقال لى الرجل : هل لك فى خَصَلَةٍ ؟ قلت : ما هى ؛ قال : تقيمُ عندى شهراً والجارية والجار لك مع ما عليها من حُلَى ؛ قلت : أفعل . فأقمتُ عنده ثلاثين يوماً لا يدرى أحدٌ أين أنا ، وللأُمُونِ يَطْلُبُنِى فى كل موضع فلا يعرف لى خبراً .

فلما كان بعد ثلاثين يوماً أسلمَ إلى الجارية والجار والخدام فبعثتُ بذلك إلى منزلى ، وركبتُ إلى للأُمُونِ من وقتى ، فلما رآنى قال : إسحاق ! ويحك ! أين تكون ؟ فأخبرتهُ بخبرى . قال : على بالرجل الساعة ؛ فلذلك تُهمُّ على بيته فأحضر .

(١) العريد ، رجل معرِبٌ يؤذى نفسه . (٢) المقيث : اللكروه .

فأله للآمون عن القصة فأخبره . فقال له : أنت رجل ذو مروءة ، وسيلك أن
تعاونَ عليها . وأمر له بمائة ألف درهم ، وأمر لي بخمسين ألف درهم ، وقال :
أحضرنى الجارية . فأحضرتها فننته . فقال لي : قد جعلتُ لها نوبةً في كل يوم
ثلاثاء تُفخّني وراء السّتر مع الجوارى . وأمر لها بخمسين ألف درهم ، فريحتُ والله
بتلك الرّكبة وأرْبَحْتُ .

٣٠ — زَرِيَاب وإِسْحَاق الموصِلِيّ

كان زَرِيَاب^(١) تلميذاً لإِسْحَاق الموصِلِيّ ببغداد ، فتلف من أغانيه استراقاً ،
وهْدَى من قَهْم الصناعة وصدّق العقل ، مع طيب الصوت ، إلى مافاق به إسحاق ،
وإِسْحَاقُ لا يشغُر بما فُتِحَ به عليه ، إلى أن اقترح الرشيدُ عليه أن يأنيه بمفَنّ
غريب يُجيدُ للصنعة ، لم يشهر مكانه إليه ؛ فذكر له تلميذه هذا ، وقال : إنه مَوَلَى
لكم ، وسمعتُ له نَزَّاتٍ حسنة ، ونفائٍ رائعة مُلتأطة^(٢) بالنفس ، وهو من
اختراعى واسْتَبَاطَ فِكْرِي ، وأُحْدِسُ^(٣) أن يكون له شأن .

فقال الرشيد : هذا طَلِيقِي ، فأخَصَرَنِيه ، لعل حاجتي عنده . فأحضره ، فلما
كلمه الرشيدُ أَعْرَبَ عن نفسه بأحسن منطق ، وأَوْجَزَ خطاب ؛ وسأله عن
معرفة بالفناء ، قال : نعم ، أُحْسِنُ مَا يُحْسِنُهُ النَّاسُ ، وَأَكْثَرُ مَا أُحْسِنُهُ لَا يُحْسِنُونَهُ ،
مما لَا يُحْسِنُ إِلَّا عِنْدَكَ ، وَلَا يَدَّخِرُ إِلَّا لَكَ ؛ فإِنْ أَذِنْتَ غَنَيْتُكَ مَا لَمْ تَسْمَعْهُ
أُذِنُ قَبْلَكَ .

فأمر بإحضار عودِ أستاذه إسحاق ، فلما أَدْرَنِي إليه وقف عن تناوله ، وقال :

* نفع . طيب : ٢ - ١٠٩

(١) كان زرياب مع علمه بصناعة الفناء عالماً بالنجوم ، شاعراً أديباً حلو الحديث ، لطيف الماشرة ،
ماهراً في خدمة الملوك ، توفي سنة ٣٣٠ هـ . (٢) التأت بالقلب : ترق به . (٣) الحدس : التضييق .

لى عودٌ تحته يدي ، وأرهفته بإحكامى ، لا أرتضى غيره ، وهو الباب ، فليأذن لى أمير المؤمنين فى استدعائه ؛ فأمر بإدخاله إليه .

فلما تأمله الرشيدُ - وكان شبيهاً بالعود الذى دفعه إليه - قال : ما منعك أن تستعملَ عودَ أستاذك ؟ قال : إن كان مولاي يرغبُ فى غناء أستاذي غنيته بعوده ، وإن كان يرغبُ فى غنائى فلا بد لى من عودى ! فقال له : ما أراها إلا واحداً ؛ فقال : صدقتَ يا مولاي ؛ ولا يؤذى النظرُ غيرَ ذلك ؛ ولكنَّ عودى وإن كان فى قدرِ جسمِ عوده ، ومن جنسِ خشبه ، فهو يقع من وزنه فى الثلث ؛ ووصفه وصفاً استبرعه الرشيد ، وأمره بالفناء ، فحسب ثم اندفع فغناه :

بأيها الملك الليمون طائرُه هارون راح إليك الناس وابكروا^(١)

فلما أتم طار الرشيد طرباً ، وقال لإسحاق : والله لولا أنى أعلم من صدِّك ونصديقه لك ؛ من أنك لم تسمه قبلُ لأنزلت بك العقوبة ؛ لتزكَّ إعلامى بشأنه ؛ فخذ به إليك واعتن به ، حين أفرغ له ، فإن لى فيه نظراً .

فسقط فى يد إسحاق ، وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره ، فخلا بزرياب ، وقال : يا على ، إن الحسد أقدمُ الأدوية^(٢) . والدنيا فتانة ، والشركة فى الصناعة عداوة ، ولا حيلة فى حسيما ، وقد مكرت لى فيما انطويت عليه من إجادتك ؛ وعلو طبقتك ، وقصدت منفعتك ، فإذا أنا قد أتيت نفسى من مأميها بإذنائك ، وعن قليل تسقط منزلتى ، وترتقى أنت قوتي ، وهذا ما لا أصحابك عليه

(١) ابكروا : أتوه بكرة ، والبكرة : الضدوة . (٢) جمع داء .

ولو أنك وَلَدَيْ؛ ولولا رَغْبِي لَمَتَّ تَرْبَتِكَ لِمَا قَدَمْتُ شَيْئًا عَلَى أَنْ أَذْهَبَ نَفْسَكَ،
ويكونُ في ذلك ما يكون .

فَخَيَّرَ فِي ثِنْتَيْنِ لَا بَدَّ لَكَ مِنْهَا : إما أَنْ تَذْهَبَ عَنِّي فِي الْأَرْضِ الْعَرِيضَةِ ،
لَا أَسْمَعُ لَكَ خَبْرًا ، بَعْدَ أَنْ تَعْطِيَنِي عَلَى ذَلِكَ الْإِيمَانِ الْمَوْقُوعِ ؛ وَأَنْهَضُكَ لِذَلِكَ بِمَا
أُرِدْتُ مِنْ مَالٍ وَغَيْرِهِ ، وَإِمَّا أَنْ تَقِيمَ عَلَى كُرْهِي وَرَغْبِي مُسْتَهْدِفًا إِلَيَّ ؟ فَخُذْ
الآن حِذْرَكَ مِنِّي ، فَلَسْتُ - وَاللَّهِ - أَبْقَى عَلَيْكَ ، وَلَا أَدْعُ اغْتِيَاكَ ، بِإِذِلٍّ فِي
ذَلِكَ بَدَنِّي وَمَالِي ، فَاقْضِ قَضَاءَكَ !

فَخَرَجَ زِيَارَبَ لَوْقَتَهُ ، وَعَلِمَ قُدْرَتَهُ عَلَى مَا قَال ، وَاخْتَارَ الْفِرَارَ ، فَأَمَانَهُ إِسْحَاقُ
عَلَى ذَلِكَ سَرِيمًا ، وَرَأْسًا^(١) جَنَاحَهُ ، فَرَحَلَ عَنْهُ وَمَضَى يَبْنِي مَغْرِبَ الشَّمْسِ ، وَاسْتَرَاحَ
قَلْبُ إِسْحَاقَ مِنْهُ .

وَتَذَكَّرَهُ الرَّشِيدُ بَعْدَ فَرَاحِهِ مِنْ شُغْلٍ كَانَ مِنْغَسِمًا فِيهِ ، فَأَمَرَ إِسْحَاقَ بِإِحْضَارِهِ ؛
فَقَالَ : وَمَنْ لِي بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! ذَاكَ غُلَامٌ مَجْنُونٌ ، بَزَعُمُ أَنْ الْجَنُّ تَسْكُلُهُ ،
وَتَطَارِحُهُ مَا يُرْهِى^(٢) بِهِ مِنْ غِنَائِهِ ، فَا يَرَى فِي الدُّنْيَا مِنْ يَمَلِّهِ^(٣) ، وَمَا هُوَ إِلَّا
أَنْ أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ جَائِزَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدَّرَ التَّقْصِيرَ بِهِ ، وَالتَّهْوِينَ بِصِنَاعَتِهِ ، فَرَحَلَ
مُغَاضِبًا^(٤) ذَاهِبًا عَلَى وَجْهِهِ ، مُسْتَخْفِيًا عَنِّي ، وَقَدْ صَنَعَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
فَإِنَّهُ كَانَ بِهِ لَمَمٌ^(٥) بِشَآءٍ ، وَقَدْ كَانَ يَفْرُطُ خَبْلَهُ ، فَيُفَرِّعُ مِنْ رَأْيِهِ .

فَسَكَنَ الرَّشِيدُ إِلَى قَوْلِ إِسْحَاقَ ، وَقَالَ : عَلَى مَا كَانَ بِهِ ، فَقَدْ فَاتَنَا مِنْهُ سُرُورٌ
كَثِيرٌ !

(١) رَأْسُهُ : إِذَا أَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَرَأْسُ صَدِيقِهِ : إِذَا أَطْعَمَهُ وَسَقَاهُ وَكَأ . (٢) زَهِيَ بِهِ : أَعْجَبَ
بِهِ . (٣) يَمَلُّهُ : يَبَاوِيهِ . (٤) مُغَاضِبًا : غَاضِبَتِ الرَّجُلُ : أَغْضَبَتْهُ وَكَرِهَتْهُ . (٥) اللَّمَمُ : الْجَنُونُ .

ومضى زرياب إلى الغرب^(١) ، وعلم عبد الرحمن بن الحكم بخبره؛ فكتب إلى
عماله على البلاد أن يُحْسِنُوا إِلَيْهِ ، ويوصلوه إلى قرطبة ، وأمر من يلقاه ببعال
وآلات حسنة .

فدخل هو وأهلُه ليلاً ، وأنزله في دار من أحسن الدور ، وحمل إليها جميع
ما يحتاج إليه ، وخَلَعَ عليه . ثم أجرى عليه راتباً ، وأقطعته من الدور والمستغلات
بقرطبة وبساتينها ، ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار ، فلما قفى له
سؤاله ، وأنجز مواعده ، وعلم أن قد أَرْضاه ، ومثلك نفسه استدعاه ، ولما سمع غناؤه
أطرح كلَّ غناء سواه ، وأحبه حباً شديداً ، وقدمه على جميع الفنانين .

(١) يريد الأندلس .

٣١ - في مسجد رسول الله تتغنى؟*

قال إبراهيم الخزازي : حجبتُ مع أمير المؤمنين الرشيد ، فدخلتُ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبينما أنا بين القبر والمنبر إذا أنا برجلٍ حسن الهيئة خَاصِب ، ومعه رجل في مِثْل حاله ، فحانتُ مني التفاتة ، فإذا هو يقوِّس حاجبيه ، ويفتح فاهُ ، ويُلوي عنقه ، فتجوَّزْتُ^(١) في صلاتي ، ثم سلَّمتُ فقلت : أفي مسجد رسول الله تتغنى ! قال : ما أجْهَلَكَ ! أما في الجنة غناء ! قلت : بلى ! لعمري ، فيها ما تشبهه الأنفس وتلذُّ الأعين ! قال : أما نحن في رَوْضَةٍ من رياض الجنة ؟ قلت : نعم ! قال : وأحرَّباهُ ! أتردُّ على رسول الله قوله : « بين قبري ومنبري روضةٌ من رياض الجنة » ! فنحن في تلك الروضة . قلت : قُبِحَ اللهُ شيخاً ما أسفه ! قال : بالقبر والمنبر كما^(٢) أنصتَ إلى ! فتخوفتُ ألا أنصت . فاندفع بغي بصوتٍ يخفيه :

ولستَ عَشِيَّاتُ الحَيِّ برواجعٍ إليك ، ولكنْ خلَّ عَيْنِكَ تَدَمَّماً
بكتَ عَيْنِي اليُسرى فلما زجرَتْها عن الجهل بعد الحلم أسبَلتُ معاً

فوالله إن قُتُّ إلى الصلاة لَمَّا دخل قلبي ! فلما رأى ما نزل بي ، قل : يا بن أم !
أرى نفسك قد استعجَّبتَ وطأبتَ ، فهل لك في زيادة ؟ قلت : ويحك ! في مسجد

* ذيل زهر لآداب : ٤٨

(١) تجوز في ملاته : خفف . (٢) ٢ : لا .

رسول الله !! قال : أنا والله أعرفُ بالله ورسوله منك ! فدعنا من جهلك ،
ثم تنقئ :

فلو كان واثي باليامة دأزه وداري بأقصى حَضَر مَوْتَ اهتدى ليا
وماذا لهم - لا أحسن الله حفظهم - من الشأن في نصيريم^(١) كَلَى حَيًّا لِيَا
قَالَ له صاحبه : يابن أمّ ، أحسنت والله ، وعثق مَأْمَلِكُ لو كان أمير المؤمنين
الرشيد حاضراً خلّع عليك ثيابه مشفوقة طرباً .

فقلت ، وما لا يملان من أنا ؟ فدخلتُ على أمير المؤمنين فأعلمته الخبر ، فقال :
أذركهما لا يقوتاك !

فوجهتُ من جاء بهما . فلما دخلا عليه دخلا بوجوه قد ذهب ماؤهما ، وأنا
قائمٌ على رأسه ؛ قال : يا إبراهيم ؛ هذان ها ؟ قلت : نعم ! فنظر إلى اللقي منهما ،
وقال : سِمْيَةَ^(٢) في جوار رسول الله ! فسُرِّي عن أمير المؤمنين بعضُ غَضَبِهِ ،
وتبسّم ، قال : ما كنتمُا فيه ؟ قالا : في خير ! قال : فما الخير ؟ فسكتا .

فقال لللقي منهما : من أنت ؟ فابتدره جماعة فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إنه
ابنُ جُرَيْجٍ^(٣) فقيه مكة ! فقال : فقيه مكة يتنقى في مسجد رسول الله !

قال : يا أمير المؤمنين ؛ لم يكن ذلك مني بالقصد للفناء ، ولكني كنتُ
أتممت هذا الخزومي - يعني صاحبه - صوتين ، فلم يزالا في قلبي حتى التقينا ،
فأحببتُ أن يأخذها عنى فأخذها ، وحلف أنى أحسنتُ ، وأنه لو كان في الموضع
أمير المؤمنين خلّع على - وسكت .

(١) صرته ، وصارته : طلعته . (٢) سماية : وهابية . (٣) ابن جريج : وهو عبد الملك
ابن عبد العزيز بن جريج ، ويكنى أبا الوليد .

قال الرشيد : تركت من الحديث شيئاً ؟ قال : ما تركت شيئاً يا أمير المؤمنين !
قال : والله لتقولنَّ . قال : يا أمير المؤمنين ؛ زعم أنك لو كتبت في موضعه غللت
على ثياباً مشقوقة طرباً !

فقبس ، وقال : أما هذا فلا ، ولكن نخلمها عليك صحيحة ، فعي خير لك !
ثم دعا بثياب فلبسها ونبذَ إليه ثيابه ، وأمر له بعشرين ألف درهم ولصاحبه
بمِشْرَةِ آلاف درهم !

وقال : لا تسودنَّ لهذا . قال صاحبه : إلا أن يحجَّ أمير المؤمنين ثانية .
فضحك وقال : الحقُّوه بصاحبه في الجائزة !

٣٢ - شعر رقيق *

قال إسحاق الموصلي: حضر مسامرة الرشيد عبّار المغنى - وكان فصيحاً متأدباً،
على الشعر، ذا صوت حسن - فذاكروا رقة شعر اللدنيين، فأنشد بعض
جلسائه أبياتاً لابن الدُمَيْتَةِ حيث يقول:

وأذكر أيام الحَيِّ نَم أنلني على كبدى من خشية أن تصدعا^(١)
ولست عَشِيَّاتُ الحَيِّ براجع عليك، ولكن خل عينيكَ تدمعا
بكت عيني اليمنى فلما زجرتها عن الجول بسد الحلم أسبَلتَ ماعا

فأعجب الرشيد برقة الأبيات، فقال له عبّار: يا أمير المؤمنين؛ إن هذا
مدنى رقيق، قد غدّى بماء المقيق، حتى رقّ وصفاً، فصار أصفى من الهواء؛
ولكن إن شاء أمير المؤمنين أنشدته ماهو أرق من هذا وأحلى، وأصلب وأقوى
لرجل من أهل البادية! قال: فإني أشاء. قال: وأترسم به يا أمير المؤمنين؟ قال:
وذلك لك، ففنى الجري:

إن الذين غَدَوْا بلبك غَادَرُوا وَشَلَا^(٢) بَمَينِكَ لَا يَزَالُ مَعِينَا
غَيْضُن^(٣) مِنْ عِبْرَاتِهِمْ وَقَلَنْ لِي: ماذا لقيت من المسمى ولقيتنا!
قال: صدقت يا عبّار، وخلع عليه وأجازه.

* المقد الفريد: ٤ - ١٠٩

(١) أمه تصدعا. (٢) الوخل: التليل من الدمع والكثير منه. (٣) غيظ من عبراتهم:
سيلان دموعهن حتى ترزقنها، ومن هنا التبعيض أو كرامة.

٣٣ - صَوْتُ بَدْرِهَمِينَ*

قَدِمَ إِسْمَاعِيلُ ^(١) بَنُ الْهَرَبِيزِ عَلَى الرَّشِيدِ مِنْ مَكَّةَ ، فَدَخَلَ إِلَيْهِ وَعِنْدَهُ ابْنُ جَامِعٍ
وَأَبِرَاهِيمَ وَابْنَهُ إِسْحَاقَ وَقُلَيْبَ وَغَيْرُهُمْ ، وَالرَّشِيدُ يَوْمَئِذٍ خَائِرٌ ^(٢) ، فَقَتَّى ابْنُ جَامِعٍ
نُحْمَ قُلَيْبٍ ثُمَّ أَبِرَاهِيمَ ثُمَّ إِسْحَاقَ ، فَاحْرَكَ أَحَدُ مِنْهُمْ وَلَا أُطْرَبَهُ ؛ فَانْدَفَعَ ابْنُ
الْهَرَبِيزِ بُغْضِي ، فَمَجَّبُوا مِنْ إِقْدَامِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ عَلَى الرَّشِيدِ ، فَقَتَّى :

يَا رَاكِبَ الْعَيْسِ ^(٣) الْقِي وَفَدَّتْ مِنَ الْبِلَادِ الْحَرَامِ
قُلْ لِلْإِمَامِ ابْنِ الْإِمَامِ م أَخِي الْإِمَامِ أَبِي الْإِمَامِ
زَيْنِ الْبَرِيَةِ إِذْ بَدَا فِيهِمْ كَصَبَاحِ الْفَلَاحِ
جَمَلُ الْإِلَهِ الْهَرَبِيزِيِّ فِدَاكَ مِنْ بَيْنِ الْأَنَامِ

فَكَادَ الرَّشِيدُ يَرْقُصُ ، وَاسْتَخَفَّهُ الطَّرَبُ حَتَّى ضَرَبَ بِيَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ ، ثُمَّ أَمَرَهُ
بِخَمْسَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ . قَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنْ لِهَذَا الصَّوْتِ حَدِيثًا ؛ فَإِنْ أُذِنَ
مَوْلَايَ حَدِّثْهُ بِهِ ؛ قَالَ : حَدَّثَ .

قَالَتْ : كُنْتُ مَمْلُوكًا لِرَجُلٍ مِنْ وَلَدِ الزَّيْبِ ؛ فَدَفَعَ إِلَيَّ دَرَاهِمِينَ أَبْتَاعَ بِهَا لَحْمًا ،
فَرُحْتُ فَلَقِيتُ جَارِيَةً عَلَى رَأْسِهَا جُرَّةٌ مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَاءِ الْعَقِيقِ ، وَهِيَ تُغَنِّي هَذَا
اللَّحْنَ فِي شَعْرِ غَيْرِ هَذَا الشَّعْرِ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيهِ ، فَسَأَلْتُهَا أَنْ تَعْلُنِيهِ ؛ فَقَالَتْ :

* الْأَغَانِي : ٧ - ١٠٤

(١) إِسْمَاعِيلُ بْنُ هَرَبِيزٍ : مَوْلَى آلِ زَيْبِ بْنِ النَّوَّامِ ، أَحَدُ ثَلَاثَةِ أُولَادِ أَبِي أُمِيَّةَ . وَعَمُّ لَوْلِيدِ بْنِ
يَزِيدَ ، وَهَمَّرَ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ الرَّشِيدِ . (٢) خَيْرٌ قَدْرُهُ : غَشَّتْ وَتَقَلَّتْ وَانْخَطَلَتْ .
(٣) الْعَيْسِ : الْإِبِلُ .

لا وحقَّ القبر إلا بدرهمين ؛ فدفعت إليها الدرهمين وعلقتيه، فرجعتُ إلى مولاي
بغير لحم ، فضر بني ضرباً مبرحاً شُفِلَتْ معه بنفسى فأنسيتُ الصوت .
ثم دفع إلى درهمين آخرين بعد أيام أبتاع له بهما لحماً ، فالتقيتني الجارية فسألتهَا
أَنْ تَمِدَّ عني - الصوت ؛ قالت : لا والله إلا بدرهمين ، فدفعتها إليها ، وأعادته عليَّ
مراراً حتى أخذته .

فلما رجعتُ إلى مولاي أيضاً ولانَ حمي ، قال : ما القصةُ في هذين الدرهمين ؟
فصدَّقته القصة ، وأعدتُ عليه الصوت ، فقبَّل بين عيني وأعتقني ؛ فرحلتُ إليك
بهذا الصوت ، وقد جعلت ذلك اللحنَ في هذا الشعر ، قال : دَرَجَ الأول وتَنَاسَه ،
وأقمِ على الفناء بهذا اللحن في هذا الشعر ، فأما مولاك فسأدفع إليه بَدَل كل درهم
ألف دينار ، ثم أمر له بذلك فحِيلَ إليه .

٣٤ - أُمُّ جَعْفَرٍ تَنُوحُ عَلَى الرَّشِيدِ*

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

سَمِعْتُ نَائِمَةً تَنُوحُ بِهَذَا الشَّعْرِ^(١) :

قد لَمَرْتُ بِتُ لَيْلى كُلِّى الْهَاءِ الْوَجِيعِ
وَبَحِيٍّ الْمِ مِئى بَاتِ أَدَى مِنْ ضُلُوعِ
كَلَّا أَبْصَرْتُ رَبِّى دَارِىاً^(٢) فَاضَتْ دُمُوعِ
مُقَفِّراً مِنْ سَيِّدٍ كَا نَ لَنَا غَيْرَ مُضِيعِ

فلما سمعته منها استحسنته واشبهته ، ولهجتُ به ، فكنتُ أترنمُ به كثيراً ،
فسمع ذلك منى أبى ، فقال : ما تصنعُ بهذا ؟ قلت : شِعْرُ قَالَةِ الْأَخْوَصِ وَصْنَمِهِ
مَعْبُودِ لِسَلَامَةِ ، وناحتُ به سَلَامَةَ عَلَى يَزِيدٍ .

ثم ضرب الدهر^(٣) ؛ فلما مات الرشيدُ إِذَا رَسُولُ أُمِّ جَعْفَرٍ قَدْ وَاثَقَانِ فَأَمَرَنِي
بِالْحَضُورِ . فسيرتُ إليها ؛ فبعثتُ إِلَى : إِنْى قَدْ جَمَعْتُ بَنَاتِ الْخُلَفَاءِ وَبَنَاتِ هَاشِمٍ
لِنُتُوحَ عَلَى الرَّشِيدِ فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ ؛ قُلِ السَّاعَةَ أَيَّانًا رَقِيقَةً ، وَاصْنَعْنِ صِنْمَةً حَسَنَةً
حَتَّى أَنْوَحَ بِهِنَّ .

* الأغانى : ٨ - ٣٤٨

(١) النمر للأخوص والنوح لمبد ، وكان صنمه لسلامة ، وناحتُ به سَلَامَةَ عَلَى يَزِيدٍ بن
عبد الملك . (٢) الدرس : العاقِ الذى اعى . (٣) ضرب الدهر بيتنا : فرقنا .

فأردتُ نفسي على أن أقول شيئاً فاحضرني ، وجعلتُ ترسل إلى تَحَنُّي ،
فذكرتُ هذا التَّوْح ، فأريتُ أني أصنع شيئاً ، ثم قلت : قد حضرني القول ، وقد
صنعتُ فيه ما أمرت ، فبعثتُ إلى بكْنِيزَة ، وقالت : طارِحها حتى تَطَارِحَنِيه ،
فأخذتُ كَنْيزَة العودَ ورددتهُ عليها حتى أخذته ، ثم دخلت فطارحته أم جعفر ،
فبعثت إلى بجانة ألف درهم ومائة نوب .

٣٥ — أما إليك سبيل غير مسدود*

قال إسحاق بن إبراهيم اللوصلي : لا أفضت الخلافةُ إلى المأمون أقام عشرين شهراً لم يسمع حرفاً من الفناء ؛ ثم كان أول من تنسّى بحضرته أبو عيسى ، ثم واطبَ على السماع ، وسأل عفى ، فخرّجني عنده بعض من حسدني ؛ فقال : ذلك رجل يَنْبِيهُ على الخلافةِ ؛ قال المأمون : ما بَقِيَ هذا من التَّيْبِ شيئاً ، وأمسك عن ذكرى .

وجفاني كل من كان يَصِلُنِي لِمَا ظَهر من سُوءِ رأيه ؛ فأضَرَّ ذلك بي حتى جاءني يوماً عَلَوِيَّةٌ ، فقال لي : أناذُنُ لِي اليوم في ذِكْرِكَ ، فأبى اليوم عنده ؟ قلت : لا ، ولكن غنّه بهذا الشعر ؛ فإنه سَيُسمِعُهُ على أن يسألك : من أين هذا ؟ فيفتتح لك ما تريد ، ويكون الجواب أسهل عليك من الابتداء ؛ ففضي عَلَوِيَّةٌ ، فلما استقرَّ به المجلس غنّاه الشعر الذي أمرته به ، وهو :

بِامْتَرَعِ الْمَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَسَالِكُهُ أَمَّا إِلَيْكَ سَبِيلٌ غَيْرُ مَسْدُودٍ

لِحَاثِمٍ حَارَحَنِي لَا حَيَاةَ بِهِ مَشْرِدٍ عَنْ طَرِيقِ الْمَاءِ مَطْرُودٍ

فلما سمعه المأمون : قال : وبك اِلْتِنَ هذا ؟ قال : ياسيدي ، لم يدِ من عبيدك ، جَفَوْتَهُ واطَّرَحْتَهُ ، قال : إسحاق ؟ قال : نعم ؛ قال : ليحضر الساعة .

قال إسحاق : فجاءني الرسولُ ، فسرْتُ إليه ، فلما دخلتُ قال : اذنُ ، فدنوتُ
فرفع يديه وقد مدهما ، فانكأْتُ عليه ؛ فاحتضنني بيديه ؛ وأظهر من إكرامِي ورِي
مالو أظهره صديقٌ لي مَواسٍ لسرِّي .

٣٦ — عند مُحَارِقِ *

قال بعضُ الرِّوَاةِ : كنتُ عند مُحَارِقِ^(١) أنا وهارون بن أحمد بن هشام ،
فلمب مع هارون بالزَّردِ ، فَمَمَرَهُ^(٢) مُحَارِقُ ، ومرَّ بهارون فصِيلَ^(٣) بناذِي عليه ،
فاشتراه بأربعة دنانير ، ووجَّه به إلى مُحَارِقِ ، وقال : أطعِمْنَا من هذا الفَصِيلِ .
فاجتمعنا وطبخ مُحَارِقُ بيده جَزُورِيَّةً ، وعمل من سَنَامِه وكبدِه طعاماً شَوِيَّ
في الثَّنُورِ ، وعمل من لَحْمِه لَوْنًا يُشْبِهُ الكَرِيْسَةَ بشميرٍ مَقْسَرٍ في نهاية الطَّيْبِ ، فأكلنا
وجلسنا نشرب ؛ فإذا نحن بامرأةٍ تصيحُ من الشَّطِّ : يا أبا للمُنَا ، الله ، الله في !
حَلَفَ زوجي بالطلاق أن يسمع غناءك ويشربَ عليه ، فقال : اذهبي وجيئي به ،
فجاء فجلس ، فقال له : ما حَلَمْتُ على ما صَنَعْتَ ؟ فقال له : يا سَيِّدِي ؛ كنتُ
سمعتُ صوتاً من صَنَعَتِكَ فطربتُ عليه حتى استخففتُ الطَّربَ ، فخلعتُ أن أُنَمِّمَه
منك ثَمَّةً يَاجابِتُكَ رَغْبَةُ زوجتي ؛ فقال : وما هذا الصوت ؟ فقال :

* الأغانى : ٢١ - ١٠١

(١) هو أبو المنان بن يحيى ، منشؤه بلندن ، وكان أبوه جزائراً ، فكان وهو صبي يادى على
ما يبيعه أبوه ، فلما بان طيب صوته علته مولاته طرقاتاً من الفناء ثم اشتهر أمره وغنى الرشيد
والأمين والأمين والمعتصم والراشدي ، توفي أيام التتوكل . (٢) غلبه .
(٣) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

بكرت عليك فهبجت وجددا هوج^(١) الرياح وأذكرت نجددا
أعني من شوقي إذا ذكررت نجدد وأنت تركتها عسدا !
ففتناه إياه ، وسقاه رطلا ، وأمره بالانصراف ، ونهاه أن يعاود ؛ فخرج .

قال الراوى : فابلثنا أن عادت للمرأة تصرخ : الله ، الله ، يا أبا المهنأ ! قد
أعاد زوجي للمشوم اليمين ؛ أن تنفني صوتا آخر ؛ فقال لها : أحضرته ، فأحضرت
أيضا ، فقال له : ويلك ! مالي ولك ؟ ما قصتك ؟ فقال له : يا سيدي ؛ أنا رجل
طروب ، وكنت قد سمعت صوتا لك آخر فاستخفى الطرب إلى أن خلعت بالطلاق
ثلاثا أنى أسمعه منك ، قال : وما هو ؟ قال : لحنك :

أبلغ سلامة أن البين قد أذدا^(٢) وأن صحتك عنها راعون غدا
هذا الفراق قينا إن صبرت له أولا فإنك منه ماميت كمدنا
لاشك أن الذى بي سوف يهلكنى إن كان أهلك حب قبله أحدا
ففتناه إياه غمارق ، وسقاه رطلا وقال له : احذر ، ويلك أن تعاود .

قال الراوى : ولم تلبث أن عاودت الصياح تصرخ : يا سيدي ! قد عاود
اليمين ، الله الله فى أولادى ! قال : هاتيه ، فأحضرت ، فقال لها : انصرفى
أنت ؛ فإن هذا كلما انصرف حلف وعاده فدعيه يقيم يومه كله ، فتركته وانصرفت ،
فقال له غمارق : ما قصتك أيضا ؟ قال : قد عرفتك يا سيدي أننى رجل طروب ،
وكنت سمعت صوتا من صنعتك فاستخفى الطرب له ، خلعت أنى أسمعه منك ،
قال : وما هو ؟ قال :

ألف الظبي يسأدى ونفى المم رقادى

(١) هوج الرياح : شديد الرياح . (٢) أذد : دنا ، وأزف .

وَعَدَا الْمُهْجِرُ عَلَى الْوَضَلِ بِأَسْيَافٍ حِدَادٍ

قَلَّ لِمَنْ زَيْنٌ وَوَدَى : لَسْتُ أَهْلًا لَوْدَادِي

فَفَنَّا إِيَّاهُ وَسَقَاهُ رَطْلًا ، ثُمَّ أَمْرُهُ فُطِطِحَ ، وَأَمْرُ بَصْرِهِ خَسِينٌ مَقْرَعَةٌ^(١) ، وَهُوَ
يَسْتَعْنِثُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : احْلِفْ أَنْتَ لَا تَذْكُرْنِي أَبَدًا ، وَإِلَّا كَانَ هَذَا دَأْبُكَ إِلَى
الْإِيْل ، خَلَفَ عَلَى مَا أَمْرُهُ ، ثُمَّ أَقِيمَ فَأَخْرَجَ عَنِ الدَّارِ ، فَجَعَلْنَا نَضْحَكَ بَقِيَّةَ
يَوْمِنَا مِنْ سُحْقِهِ .

(١) أصل المقرعة ما تفرع به الدابة .

٣٧ — غارق يفتى لأبي المتاهية في شعره *

حدث غارق ، قال : جاءني أبو المتاهية ، قال : قد عزمتُ على أن أتزوّد منك يوماً تَهَبُهُ لِي فتى تنشط ؟ قلت : متى شئت وإن طلبني الخليفة ، فقال : يكون ذلك في غد ؟ قلت : أفل .

فلما كان من غد باكرني رسوله فجهته ، فأدخلني بيتاً له فيه فرشٌ نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خُبزٌ سَمِيدٌ ^(١) وَخَلٌّ وَبَقْلٌ وملح وجَدِيُّ مَشْوِيٌّ ، فأصبنا منه حتى اكفينا ، ثم دعا بحلواء فأصبنا منها ، وغسلنا أيدينا ، وجاءونا بفاكهة وريحان وألوان من الأنبيدة ، قال : اختر ما يصلح لك منها ، فاخترت وشربت ؛ قدحاً ثم قال : غنّني في قولي :

أحمدُ قال لي ولم يدّر ما بي . أحبّ النداءَ عتبةَ حقاً

فغنّيته ، فشرب قدحاً وهو يبكي أحراً بكاءً ، ثم قال : غنّني في قولي :

ليس لمن ليست له حيلةٌ موجودةٌ خيرٌ من الصبر

فغنّيته وهو يبكي وينشج ^(٢) ، ثم شرب قدحاً آخر ، ثم قال : غنّني فديتك

في قولي :

خليلي مالي لا تزال مضرّتي تكون مع الأقدار حماً من الحزم

فغنّيته إياه ، وما زال يقترح عليّ كلّ صوت غنّني به في شعره فأغنيه ويشرب

ويبكي حتى التئمة ^(٣) ، فقال : أحبُّ أن تصبر حتى ترى ما أصنع . فجلست ، فأمر

* الأغاني : ٤ - ١٠٧

(١) السميد : الدقيق الأبيض . (٢) تنج الباكي : غس بالبكاء في حلقه من غير انتعاب .

(٣) التئمة : وقت صلاة العشاء .

ابنه وغلامه فكسّر كلّ ما بأيدينا من النبيذ وآلته وللإلهي ، ثم أمر بإخراج كلّ ما في بيته من النبيذ وآلته ، فأخرج جميعه ، فما زال يكسّره ويصبّ النبيذ ، وهو يبكي حتى لم يَبْقَ من ذلك شيء ، ثم نزع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثياباً بيضاً من صوف ، ثم عاقبني وبكي ، ثم قال : السلام عليك يا حبيبي سلام الفراق الذي لا لقاء بعده ، وجعل يبكي وقال : هذا آخر عهدِي بك . فظننتُ أنها بعضُ حَمَاقاته .

فانصرفتُ وما لقيته زماناً ، ثم تشوّقتُ إليه فأتيتُه ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فدخلت فإذا هو قد أخذ قوصرتين^(١) ، وثقّب إحداها ، وأدخل رأسه وبذيه فيها ، وأقامها مقام القميص ، وثقّب أخرى ، وأخرج رجله منها ، وأقامها مقام السراويل .

فلما رأيته نيت كلّ ما كان عندي من الثمّ عليه والوحشة لشرفته ، وضحك والله ضحكاً ما ضحكت مثله قط . فقال : من أيّ شيء تضحك ؟ قلت : أسخّن^(٢) الله عينك ! هذا أيّ شيء هو ؟ من يلفك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزّهاد والصّحابة والمجانين ! انزع عنك هذا ياسخّن العين ! فسكّانه استعجباً مني .

ثم لفتني أنه جلس حجّاماً ، فعهّدت أن أراه بتلك الحال ، فلم أراه ، ثم مرض فلفتني أنه اشتهى أن أعْتَبِه ، فأتيتُه عائداً ؛ فخرج إلى رسوله يقول : إن دخلت إلى جددت لي حرّاً ، وثاقت نفسي من سماعك إلى ما قد غلبتها عليه ، وأنا أستودعك الله ، واعتذرُ إليك من عدم اللقاء ، ثم كان آخر عهدِي به .

(١) القوصرة: وعاء من قصب يوضع فيه الثمر . (٢) أسخّن الله عينه : أبكاه وأحزنه .

٣٨ — الْمُتَنَوِّنَ عِنْدَ الْوَائِقِ *

تناظر للمتَنَوِّنَ يوما عند الوائِقِ ، فذكروا الشَّرَابَ وحِذِّقَهُمْ ؛ فقدمَ إسحاق زلزلاً^(١) على ملاحظ ، ولملاحظ في ذلك الرياسة على جميعهم ، قال له الوائِقِ : هذا حَيْفٌ وتَمَدُّرٌ منك ؛ قال إسحاق : يا أمير المؤمنين ؛ اجمع بينهما وامتحنهما ؛ فإنَّ الأمرَ سينكشف لك فيهما ، فأمر بهما فأحضرا ؛ فقال له إسحاق ؛ إنَّ الشَّرَابَ أصواتاً معروفة ، أفأمتحنهما بشيء منها ؟ قال : أجل ، أفعلْ ، فسمي ثلاثة أصوات كان أولها :

عَلَّقَ قَلْبِي ظَلْبَةَ السَّيْبِ ^(٢)	جَهْلًا قَدْ أَغْرَى بِمَذْبِي
تَمَّتْ عَلَيْهَا حِينَ مَرَّتْ بِنَا	بِحَاسِدٍ ^(٣) بِنَفْحِنَ بِالطَّيْبِ
تَصَدُّ عَنَّا عَجُوزٌ لَهَا	مُنْكَرَةٌ ^(٤) ذَاتُ أَعْلَاجِيْبِ
فَكَلَّمًا هَمَّتْ ^(٥) يَأْتِيَانَهَا	قَالَتْ : تَوَقَّى عَذْوَةَ الذِّيبِ ^(٦)

فضر بها عليه ، فتقدم زلزل وقصر عنه ملاحظ ، فعجب الوائِقِ من كشفه عما ادعاه في مجلس واحد . قال له ملاحظ : فما بأله يا أمير المؤمنين يُحْيِيكَ على الناس ! ولم لا يضرب هو ! قال : يا أمير المؤمنين ؛ إنه لم يكن أحد في زمانى أضرب منى

* الأغانى : ٥ — ٢٨٠

(١) كان زلزل من سواد أهل الكوفة ، وقفه إبراهيم اللوصلى على التناء العربى ، وأراه وجوه النعم وقفه ، ثم أصبح بعد ذلك من حذاق الشراب . (٢) اليب : كورة من سواد الكوفة . (٣) الحاسد : القمصان التى صبغت بالزعفران . (٤) سكرة . مبنضة مكروهة (٥) همت : هممت ، وهم بالشئ . أرادته ونواه . (٦) الذيب : القتب .

إلا أنكم أعفيتوني ؛ ففعلت مني ، على أن معي بئمة لا يتعلق بها أحدٌ من هذه الطبقة .

ثم قال : ياملاحظ ؛ شوشٌ عودك وهاتيه ، ففعل ذلك ملاحظ : فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هذا يخلط الأوتار تخطيط متمتت ، فهو لا يألو إفسادها ، ثم أخذ المود فبجسه ساعة حتى عرف مواقفه ، ثم قال : ياملاحظ ؛ غنّ أي صوتٍ ، فغنى ملاحظ صوتا ، وضرب إسحاق بذلك المود الفاسد التسوية ، فلم يخرجْه عن لحنه في موضع واحد حتى استوفاه عن نقره واحدة ، ويده تصمد وتنحدر على اللسانين^(١) ، فقال له الواقفي : لا والله ما رأيتُ مثلك ولا سمعتُ به ! اطرَح هذا على الجوارى .

فقال : هيهات يا أمير المؤمنين ! هذا لا تعرفه الجوارى ولا يصلحُ لهنّ ، إنما بلغني أن الفهليذ ضرب يوماً بين يدي كسرى فأحسن ، فحسده رجلٌ من حُدّاق أهل صنّعتَه ، فترقبه حتى قام لبعض شأنه ، ثم خالفه إلى عود فشوش بعض أوتاره ، فرجع فضرب وهو لا يدري ، واللوك لا تُصلَح في مجالسها العيدان ، فلم يزل يضرب بذلك المود الفاسد إلى أن قرَّخ ، ثم قام على رجله فأخبر الملك بالقصة ، فامتحن المودَ فصرف مافيه ، ثم قال : « زه زه^(٢) وزهان زه » ، ووصله بالصلة التي كان يصل بها من خاطبه هذه المخاطبة ؛ فلما تواطأت الرواية بهذا أخذت نفسى ورُصّتها عليه ، وقلت : لا ينبغي أن يكون الفهليذ أقوى على هذا مني ، فازلتُ أستنبطه بضع

(٢) كلمة فارسية معناها

(١) اللسانين : ما عليه أطراف أوتار المود من مقدمه .

أحسنت أحسنت .

عشرة سنة حتى لم يَبْقَ في الأرض موضعٌ على طبقةٍ من الطبقاتِ إلا وأنا أعْرِفُ
نَعْمَتَهُ كيف هي ، وللواضع التي يخرج النعم كلها منه فيها ، من أعاليها إلى أسافلها ،
وكل شيء منها يُجَانِسُ شيئاً غيره كما أعرف ذلك في مواضع الدساتين ، وهذا شيء
لا تقي^(١) به الجوارى . قال له الواصل : صدقت ، ولئن مُتَّ لَتَوَرَّتَ هذه الصناعة
معك ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

(١) لا تأتي به وانبا .

٣٩ — في دارِ الوائق*

حدث ابن بُسْخَرٌ ، قال : كانت لي نَوْبَةٌ في خِدْمَةِ الوائق في كُلِّ جُمُعَةٍ إِذَا
حضرتُ رَكِبْتُ إِلَى الدَّارِ ؛ فَإِنْ نَشِطَ أَقْتُ عِنْدَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْشِطْ انصرفتُ ، وَكَانَ
رُتْمُنَا أَلَّا يُحْضِرَ أَحَدٌ مِنَّا إِلَّا فِي يَوْمِ نَوْبَتِهِ .

فَأَتَى لِي مَنزَلِي فِي يَوْمِ نَوْبَتِي إِذَا رُسِلَ الْخَلِيفَةُ قَدْ هَجَمُوا عَلَيَّ ، وَقَالُوا لِي :
احْضُرِ ! قُلْتُ : أَلْخَيْرُ ؟ قَالُوا : خَيْرٌ ، قُلْتُ : لَنْ هَذَا يَوْمٌ لَمْ يُحْضِرْنَا فِيهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
فَطً ، وَلَسَلَكُمْ عَلَاطُ . قَالُوا : اللَّهُ السَّمَانُ لَا تَطُولُ وَبَادِرْ ، فَقَدْ أَمَرْنَا أَلَّا نَدْعَكَ
نَسْتَقِرُّ عَلَى الْأَرْضِ . فِدَاخَلَنِي فَرْخٌ شَدِيدٌ ، وَخَفْتُ أَنْ يَكُونَ سَابِغٌ قَدْ سَعَى بِي
أَوْ بَكِيَّةٌ قَدْ حَدَّثَتْ فِي رَأْيِ الْخَلِيفَةِ عَلَيَّ .

فَرَكِبْتُ حَتَّى وَافَيْتُ الدَّارَ ؛ فَذَهَبْتُ لِأَدْخُلَ مِنْ حَيْثُ كُنْتُ أَدْخُلُ فَمَنْعْتُ ،
وَأَخَذَ بِيَدِي الْخَدَمُ فَأَدْخَلُونِي وَعَدَلُوا بِي إِلَى تَمَرَّاتٍ لَا أَعْرِفُهَا ، فَزَادَ ذَلِكَ فِي
جَزَعِي وَعَجْزِي ، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْخَدَمُ يُسَلِّمُونَنِي مِنْ خَدَمٍ إِلَى خَدَمٍ ، حَتَّى أَفْضَيْتُ إِلَى
دَارٍ مَمْرُوشَةٍ الصَّخْنِ ، مَلْبَسَةِ الْحِيطَانِ بِالْوُشِيِّ الْمَسْجُوجِ بِالذَّهَبِ ، ثُمَّ أَفْضَيْتُ إِلَى
رَوَاقٍ أَرْضُهُ وَحِيطَانُهُ مَلْبَسَةٌ بِمَثَلِ ذَلِكَ ، وَإِذَا الْوَائِقُ فِي صَدْرِهِ عَلَى سِرَرٍ مُرْصَعٍ
بِالْجَوْهَرِ ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ مَنْسُوجَةٌ بِالذَّهَبِ وَإِلَى جَانِبِهِ فَرِيدَةٌ^(١) ، جَارِيَتُهُ ، عَلَيْهَا مِثْلُ
ثِيَابِهِ ، وَفِي حِجْرِهَا عُودٌ . فَلَمَّا رَأَيْتُ قَالَ : إِلَيْنَا إِلَيْنَا ! فَقَبِلْتُ الْأَرْضَ ثُمَّ قُلْتُ :

* الْأَغَانِي : ٤ — ١١٥

(١) فَرِيدَةٌ : كَانَتْ جَلْبَرِيَّةً مَفْنِيَّةً مَعْنَى ، أَهْدَاهَا عَمْرُو بْنُ يَابَانَ إِلَى الْوَائِقِ ، وَكَانَتْ حَسَنَ الْوَجْهِ ،
حَسَنَ السِّنَاءِ ، حَادَّةَ الْفُطْنَةِ وَالنَّهْمِ .

يا أمير المؤمنين ؛ خيراً ! قال : خيراً ، أما ترانا ! أنا طلبتُ والله ثالثاً يؤنسنا فلم أرَ أحقَّ بذلك منك ، فيحياتي بادر فكل شيئاً وبادر إلينا . قلتُ : قد والله يا سيدي أكلتُ وشربتُ أيضاً ، قال : فاجلس ، فجلست . قال : هاتوا الحمد رطباً في قدح ، فأحضر ذلك ، واندفعت فريدةً نضيةً :

أما بك إجلالاً وما بك قدرةٌ على ولكن مله عين حيدها
وما هجرتك النفس بالليل أنها قلتك^(١) ولا أن قل منك نصيبها
فجاءت والله بالسحر ، وجلت . نضى الصوت بعد الصوت ، وأغنى أنا في خلال غنائها ؛ فمررنا أحسن ما مرراً لأحد .

فإننا السكذلك إذ رفع رجله فضرب بها صدر فريدة ضربةً تدخرجت منها من أعلى السرير إلى الأرض وتفتت عودها ، ومرت نعدو ونصيح ، وبقيت أنا كالنزع الروح ، فاطرق ساعة إلى الأرض متعيراً ، وأطرقت أنوقع ضرب العنق . فاني لكذلك إذ قال لي : يا محمد ؛ فوثبت . قال : ويحك ! أرايت أغرب عما تبتنا لنا ؟ قلت : يا سيدي ؛ الساعة والله تخرج روجي . فلي من أصابنا بالعين لعنة الله ! فما كان السبب ! الذنب ؟ قال : لا والله ولكن فكرت أن جعفرًا يقعد هذا المقعد ، ويقعد معها كما هي قاعدة معي ، فلم أطلق الصبر ، وخامري ما أخرجني إلى ما رأيت . فسرى عني وقلت : بل يقتل الله جعفرًا ويحيي أمير المؤمنين أبداً ، وقبّلت الأرض وقلت : يا سيدي ؛ الله الله ! ارحمها ومرّ بردها . فقال لبعض الخدم الوقوف : من يحيى بها ! فلم يكن بأسرع من أن خرحت في يدها عودها ، وعليها غير الثياب التي كانت عليها . فلما رآها لا طقها ، فبكت وجعل هو يبكي ، واندفعت أنا في البكاء ، فقالت : ما ذنبي يا مولاي وسيدي ؟ وبني شيء استوجب هذا ؟

(١) قلتك : أبضتك وكرمك .

فَأَعَادَ عَلَيْهَا مَا قَالَهُ وَهُوَ يَبْكِي وَهِيَ تَبْكِي أَيْقَالَتْ : سَأَلْتُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا ضَرَبْتَ عَنِّي السَّاعَةَ وَأَرْحَتَنِي مِنَ الْفَكْرِ فِي هَذَا ، وَأَرْحَتَ قَلْبَكَ مِنَ الْهَمِّ بِي ؛ وَجَعَلْتَ تَبْكِي وَيَبْكِي ، ثُمَّ مَسَحَا أَعْيُنَهُمَا ، وَرَجَعْتُ إِلَى مَكَانِهَا .

وَأَوْمَأَ إِلَى خَدَمِهِ وَقُوفٍ بِشَيْءٍ لَا أَعْرِفُهُ ، فَضُؤُوا وَأَحْضَرُوا أَكْيَاسًا فِيهَا عَيْنٌ وَوَرَقٌ^(١) وَرَزَمًا فِيهَا ثِيَابٌ كَثِيرَةٌ ، وَجَاءَ خَادِمٌ بِدَرَجٍ فَفَتَحَهُ وَأَخْرَجَ مِنْهُ عِقْدًا مَارَأَيْتُ قَطُّ مِثْلَ جَوْهَرٍ كَانَ فِيهِ ، فَأَلْبَسَهَا إِيَّاهُ ، وَأَخْضَرَتْ بِذَرَّةٍ فِيهَا عَشْرَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ ، فَجُمِلَتْ بَيْنَ يَدَيَّ ، وَخَمْسَةٌ تَخَوَّتُ فِيهَا ثِيَابٌ ، وَعُدْنَا إِلَى أَمْرِنَا وَإِلَى أَحْسَنِ مِمَّا كُنَّا فِيهِ ، فَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ إِلَى اللَّيْلِ .

ثُمَّ تَفَرَّقْنَا وَضَرَبَ الدَّهْرُ ضَرْبَهُ^(٢) ، وَتَقَلَّدَ الْمُتَوَكِّلُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لِنُفَى مَنزَلِي بَعْدَ يَوْمٍ نَوْبِي إِذْ جِئْتُ عَلَى رُسُلِ الْخَلِيفَةِ ، فَمَا أَهْمَلُونِي حَتَّى رَكِبْتُ وَصَرْتُ إِلَى الدَّارِ ، فَأَذْخَلْتُ وَاللَّهِ الْحَجْرَةَ بَعَيْنِهَا ، وَإِذَا لِلتَّوَكِّلِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الْوَاقِعُ عَلَى السَّرِيرِ بَعَيْنُهُ وَإِلَى جَانِبِهِ فَرِيدَةٌ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ قَالَ : وَيْحَكَ ! أَمَا تَرَى مَا أَنَا فِيهِ مِنْ هَذِهِ ! أَنَا مِنْذُ غُدُوَّةٍ أَطَالِبُهَا بَأَنِّ تَغْنِيَنِي فِتْنَتَانِ ذَلِكَ أَهْلَتْ لَهَا : سَيِّحَانُ اللَّهِ ؟ أَتُخَالِفِينَ سَيِّدَكَ وَسَيِّدَنَا وَسَيِّدَ الْبَشَرِ ! بَحْيَانُهُ عَنِّي ، فَمَزَقْتُ ، وَاللَّهِ ثُمَّ انْدَفَعَتْ نَفْسِي :

مَقِيمٌ بِالْحَاجَزَةِ^(٣) مِنْ قَنَوْنٍ^(٤) وَأَهْلُكَ بِالْأَجِيفَرِ قَالَتُهَا^(٥)
فَلَا تَبْعُدْ فَكُلَّ فِتْنَى سَيِّئَاتِي عَلَيْهِ الْمَوْتُ يَطْرُقُ أَوْ يُنَادِي

(١) العين : الذهب المضروب ، و الورق : الدراهم المضروبة من الفضة . (٢) يقول : ضرب .
الدهر من ضربه ، أى مر من مروره وذهب بوجهه . (٣) الحجازة : منزل من أهزل طريق مكة .
(٤) قنونا : واد من أودية السراة يصب إلى البحر . (٥) الأجيفر والهاد : موضعان .

نم رمّت بالموَدِ الأرضَ، ورمّت نفسها عن السرير، ومرت فعدو وتصبح:
واسيّداه ؟

فقال لي : ويحك ! ما هذا ؟ قلت : لا أدري والله يا سيدي . فقال : فأتري ؟
قلت : أرى أن أنصرف أنا وتحضر هذه وممها غيرها ، فإنّ الأمر يؤولُ إلى
ما يريدُ أميرُ المؤمنين . قال : فأنصرف في حفظِ الله ، فأنصرفتُ ، ولم أدِر ما كانت
القصة !

٤٠ - محبوبة جارية المتوكل *

قال علي بن الجهم : كانت محبوبةً أُهديتُ إلى المتوكل ، أهداها إليه عبدُ الله ابن طاهر في جملة أربعائة جارية ، وكانت بارعةً الحسن والطرف والأدب ، مغنيةً محسنةً ، فخطبت عند المتوكل حتى إنه كان يجلسها خلف ستارة وراء ظهره إذا جلس للشرب ، فيُدخل رأسه إليها ويمدنها ويرأها في كل ساعة ؛ ففاضبها يوماً ، وهجرها ، ومنع جواربه جميعاً من كلامها ، ثم نازعته نفسه إليها ، وأراد ذلك ، ثم منعه الميزة منها ، وامتنعت من ابتدائه إداً لا عليه بمحلها منه !

قال ابن الجهم : فبكرتُ إليه يوماً فقال لي : يا علي ؛ إني رأيتُ الباردة محبوبةً في نومي كأنني قد صالحتها ، قلت : أقر الله عينيك يا أمير المؤمنين ، وأناملك على خير ، وأبظلك على سرور ، وأرجو أن يكون هذا الصالح في الیقظة . فبينما هو يحدثني وأجيبه إذا بوصيفة قد جاءت فأسرّت إليه شيئاً ، فقال لي : أندرى ما أسرّت هذه إلي ؟ قلت : لا . قال : حدثني أنها اجتازت محبوبة الساعة ، وهي في حجرتها تُنفّي الأفلا تعجب إلى هذا إلى مفاضبها وهي متهاونة بذلك ، لا تبدؤني بصالح ، ثم لا ترضى حتى تُنفّي في حجرتها أقم بنا يا علي حتى نسمع ما تنفي ، ثم قام ، ونيمته حتى انتهى إلى حجرتها ، فإذا هي تنفي وتقول : أدور في القصر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا يسكمني حتى كأنني ركبتُ معصيةً ليست لها توبةٌ تخلصني

* نهاية الأرب : ١٠٩ : ٥

فهل لنا شافع إلى مالكٍ قد زارني في البكرى^(١) فصالحني
حتى إذا ما الصَّباحُ لاحَ لنا عاد إلى هجره فصارمَني^(٢)
فطرب للتوكلُ ، وأحسَّتْ بمكانه ، فخرجت إليه ، وتفتَّحتُ ، فحدثته أنها
رأته في منامها ، وقد صالحها فانتبهت ، وقالت هذه الأبيات ، وغنت فيها ؛ فحدثها
هو أيضا برؤياه ، واصطلحا ، وبعث إلى بجائزة وخيلة .
ولما قُتل تسلى عنه جميعُ جواريه غيرها ، فإنها لم تزل حزينةً ، هاجرة لكل
لذة حتى ماتت .

(١) الكرى : النوم .

(٢) الصرم : النطق والمجير .

٤١ — قَيْنَةُ نَحْنُ إِلَى بَنْدَادْ *

قال أبو علي بن الأسكر المصري ، كنتُ من جُلّاسِ تميم بن أبي عيمٍ ومِنْ
يَحْفَ عَلَيْهِ ، فَأَتَيْتُ مِنْ بَنْدَادٍ بَجَارِيَةٍ رَاضِيَةٍ فَاطَمَةُ الْغَنَاءِ ، فَدَعَا جُلّاسَهُ وَمَدَّتِ السُّتَارَةَ
وَأَسْرَهَا فَغَنَّتْ :

وَبَدَّالَهُ مِنْ بَعْدِ مَا أَنْدَمَلَ الْهَوَى بَرَقَتْ نَائِقُ مَوْهَبًا لِمَعَانِهِ

يَبْدُو كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ وَدُونِهِ صَعْبُ الدُّرِّاءِ مَقْتَنَعِ أَرْكَانِهِ

وَبَدَا لِيَنْظُرَ كَيْفَ لَاحِ ظِلُّ يَطِيقُ نَظْرًا إِلَيْهِ وَصَدَّهُ أَشْجَانُهُ

فَالنَّارُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُهُ وَاللَّاهُ مَا سَحَّتْ بِهِ أَجْفَانُهُ

فَأَحْسَنْتُ مَا شَاءَتْ ، وَطَرِبَ تَمِيمٌ وَمَنْ حَضَرَ ، ثُمَّ غَنَّتْ :

سَتُكَلِّمُكَ عَمَافَاتُ دَوْلَةِ مُنْضِلٍ أَوَائِلُهُ عَمُودَةٌ وَأَوَاخِرُهُ

ثَنَى اللَّهُ عِطْفِيهِ وَأَلْفَ شَخْصَةٍ عَلَى الْبَرِّ مَذْشُودَةٌ عَلَيْهِ مَا زُرُهُ

فَطَرِبَ تَمِيمٌ وَمَنْ حَضَرَ طَرِبًا شَدِيدًا ، ثُمَّ غَنَّتْ :

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَنْدَادٍ لِي قَرَأَ بِالْكَرْبِخِ مِنْ فَلَكَ الْأَزْوَارِ مَطْلَعُهُ

فَأَفْرَطَ تَمِيمٌ فِي الطَّرِبِ جَدًّا ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : تَمَنَّى مَا شِئْتَ فَلَكَ مُنَاكَ ، قَالَتْ :

أَتَمَنَّى عَافِيَةَ الْأَمِيرِ وَسَعَادَتَهُ ، قَالَتْ : لَا بَدَّ وَاللَّهِ أَقَالَتْ : كَلَى الْوَفَاءُ أَتَمَنَّى أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؟

قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَتْ : أَتَمَنَّى أَنْ أُغْنَى هَذِهِ النَّوْبَةُ بَنْدَادَ . . . فَتَغَيَّرَ وَجْهُ تَمِيمٍ ،

وتكدر المجلس ، وقمنا ؛ فلحقني بعضُ خدمه فردّني ، فلما وقفتُ بين يديه قال لي :
وَمَحَلَّكَ أَرَأَيْتَ مَا امْتَحَنَّا بِهِ ؟ وَلَا بُدَّ مِنَ الْوَفَاءِ ، وَمَا أَتَى فِي هَذَا بَنِيكَ ، فَتَأَهَّبْ
لِتَحْمِلَهَا إِلَى بَنْدَادٍ ، فَإِذَا غَنَّتْ هُنَاكَ فَاصْرِفْهَا : قَالَتْ : سَمَاءٌ وَطَاعَةٌ .

فَأَصْحَبَهَا جَارِيَةً سَوْدَاءَ تَخْدُمُهَا وَتُعَادِلُهَا^(١) ، وَأَمَرُ لِي بِنَاقَةٍ وَيَجْعَلُ عَلَيْهَا هَوْدَجًا ،
فَأَدْخَلْتُ فِيهِ ، وَسَرَرْنَا مَعَ الْقَافِلَةِ إِلَى مَكَّةَ ، فَقَضَيْنَا حَجَّنا ، ثُمَّ لَمَّا وَرَدْنَا الْقَادِسِيَّةَ ،
أَتَيْتُ السَّوْدَاءَ فَقَالَتْ لِي : تَقُولُ لَكَ سَيِّدَتِي : أَيْنَ نَحْنُ ؟ قَالَتْ : نَحْنُ نَزُولٌ
بِالْقَادِسِيَّةِ ، فَأَخْبَرْتُهَا ، فَسَمِعْتُ صَوْتَهَا قَدْ ارْتَفَعَ بِالْفَنَاءِ :

لَمَّا نَزَلْنَا الْقَادِسِيَّةَ حَيْثُ يُجْتَمِعُ الرِّفَاقُ
وَشَمْتُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَا زَنْسِمَ أَفْطَاسِ الْعِرَاقِ
أَقْبَتُ لِي وَلَمْ أَحِبُّ بِجَمْعٍ شَمْلٍ وَاتِّفَاقٍ
وَضَعَكْتُ مِنْ فَرَحِ الْفَقَا كَمَا بَكَيْتُ مِنَ الْفِرَاقِ
فَصَاحَ مِنْ أَقْطَارِ الْقَافِلَةِ : أَعِيدِي ، أَعِيدِي ؛ فَأَسْمِعِيهَا كَلِمَةً .

فَلَمَّا نَزَلْنَا الْيَاسِرِيَّةَ - عَلَى خِصَّةِ أُمَيْيَالٍ مِنْ بَنْدَادٍ فِي بَاتِنِ مَتَصِلَةٍ بَيْتِ النَّاسِ
بِهَا ثُمَّ يَبْكُرُونَ لِبَنْدَادٍ - بَقَيْنَا هُنَاكَ ، وَلَمَّا قَرُبَ الصَّبَاحُ إِذَا بِالسَّوْدَاءِ قَدْ أَتَتْني
مَذْعُورَةً ، فَقَالَتْ : إِنْ سَيِّدَتِي لَيْسَتْ بِحَاضِرَةٍ ، وَوَأَقْدَ لَا أَدْرِي أَيْنَ هِيَ ؟ فَطَلَبْتُهَا
فَلَمْ أَجِدْهَا ، وَلَا وَجَدْتُ لَهَا بَبْنَدَادٍ خَبْرًا ، فَخَصَّيْتُ حَوَائِجِي بِبَنْدَادٍ ، وَانصَرَفْتُ
إِلَى تَمِيمٍ فَأَخْبَرْتُهُ خَبْرَهَا ، فَلَمْ يَزَلْ وَاجِعًا^(٢) عَلَيْهَا .

(١) وَتُعَادِلُهَا : تَرْكَبُ مَعَهَا . (٢) وَاجِعًا : حَزِينًا .

البَابُ الثَّانِي

في القصص التي تُفصِّح عن رِقَّةِ قلوب العرب ،
ورفاة عواطفهم ، وسمو نفوسهم بالإخبار عن وقع
الحب في قلبه ، وامتزج التَّفَافُ والشرف بحبه ،
ولكن امتنع عليه أمله ، فبقى معذباً في سبيل من أحب ،
وراح شهيداً الرقة والعفاف .

٤٢ - جَوَّى الْجَالُ عَلَى نَعْرِ فَرَّ بِهِ

عن المدينة تبكيه ويبيكيها *

عشت امرأة من المدينة فتى من بنى سليم ، يقال له نَعْر بن حجاج - وكان أحسن أهل زمانه - فَعُصِنَتْ من حُبِّه ، وَدَنِفَتْ^(١) من الوجْدِ به ، ثم لَحِجَتْ بِذِكْرِهِ حتى صار ذِكْرُهُ هَجِيرًا^(٢) .

وخرج أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب - رضى الله عنه - ذات ليلة يَئُسُ ، ومراً بدارها ، فسمعا تقول رافعة عَقِيرَتَهَا^(٣) :

هل من سبيلٍ إلى سَحْرِ فَأُشْرِبَهَا أم هل سبيلٍ إلى نَعْرِ بن حجاج
فقال عمر : أَمَا مَا عَشْتُ فَلَآ ، لَا أَرَى مَعَى رَجُلًا يَهْتَفُ بِهِ الْعَوَاتِقُ
فِي خُدُورِهِنَّ .

فلما أصبح دعا نَعَرَ بن حجاج ، فأبصره ، فإذا هو أحسنُ الناس وجهًا ،
وأضبطهم وأملحهم حسنًا ، فأمر أن يُطَامَ^(٤) شعره فَنَخَّرَجَتْ جَبْهَتُهُ فَازداد حسنًا ،
فقال له عمر : اذهب فَأَعْتَمِ ، فَأَعْتَمَ فَبَدَّتْ وَفَرَّتْ^(٥) ، فأمر بحلقها فَازداد حسنًا ،
فقال له : فَفَتَتْ نِسَاءَ الْمَدِينَةِ يَا بنَ حجاج ، فقال : وَأَيُّ ذَنْبٍ لِي فِي ذَلِكَ ! قال عمر :

* بحم الأمثال : ١ - ٣٧٩ ، ابن أبي الحديد : ٣ - ٩٣ ، ثمرات الأوقاف : ٢٣٦ .

(١) دنف : إذا لازمه اللرس . (٢) هجيرها : دأبها وشأنها . (٣) الية : صوت الفاك
والباكى واللفى . (٤) طم شعره : عقمه . (٥) الوفرة : ماسال على الأذنين من الشعر .

صدقت ، الذنبُ لى إن تركتكَ فى دار الهجرة ، ثم أَرْكَبْهَ جَلا وسيره
إلى البصرة .

وأقام نصرٌ بالبصرة مدة ، ثم سمع يوماً منادياً ينادى : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ
إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئاً فليكتب ؛ فَإِنَّ بَرِيدَ الْمُسْلِمِينَ خَارِجٌ »
فكتب الناس ، ودرس نصرٌ بن حجاج كتاباً فيه : « لعبد الله عمر أمير المؤمنين ،
من نصر بن حجاج . سلام عليك ، أما بعد يا أمير المؤمنين :

لَمْ أَمْرَى لِيَنَّ سَيْرَتِي أَوْ حَرَمَتِي	لَمَّا نِلْتَ مِنْ عِرْضِي عَلَيْكَ حَرَامُ
أِنْ غَنَّتِ الدَّلَالَةُ يَوْمًا بُنْيَتِي	وَبَعْضُ أَمَانِيَّ النِّسَاءُ غَرَامُ
ظَنَنْتُ فِي الظَّنِّ الَّذِي لَيْسَ بَدَهُ	بَقَاءُ ، فَجَالِي فِي النَّدَى كَلَامُ
وَأَصْبَحْتُ مُتَنِيًّا عَلَى غَيْرِ رِيَسَةٍ	وَقَدْ كَانَ لِي بِالْمَكْتَبَيْنِ ^(١) مَقَامُ
سَيَمْنُفَى مِمَّا تَطْنُ تَكْرُئِي	وَأَبَاهُ صَنَدَقِي سَالِفُونَ كَرَامُ
وَيَمْنَعُهَا مِمَّا تَمَتَّتْ صَلَاتُهَا	وَحَالُهَا لَهَا فِي دِينِهَا وَصِيَامُ
فَهَاتَانِ حَالَانَا ، قَهْلُ أَنْتَ رَاجِي ^(٢) ؟	قَدْ جُبُّ مَنِي كَاهِلٍ وَسَنَامُ ^(٣)

ولما بلغ عمر بن الخطاب قال : أما وَلِيَّ وَلَايَةٍ فَلَا ، وَأَقْطَعُهُ بِالْبَصْرَةِ
أَرْضًا وَدَارًا .

ثم بدا لجاشع بن مسعود السلمي أَنْ يُنْزِلَهُ مِنْزِلَهُ لِقَرَابَتِهِ ، فَصَيَّرَهُ إِلَيْهِ ، وَأَخَذَهُ
امْرَأَتَهُ تُسَمِّيْلَةَ - وَكَانَتْ أَجْمَلُ امْرَأَةٍ بِالْبَصْرَةِ - فَعَلِقَتْهُ وَعَلَقَهَا ، وَخَفَى عَلَى كُلِّ
وَاحِدٍ مِنْهُمَا خَبْرَ الْآخَرِ لِمُلَازِمَةِ مَجَاشِعِ لَضِيْفِهِ ، وَكَانَ مَجَاشِعُ أُمِّيًّا وَنَصْرٌ وَتُسَمِّيْلَةُ

(١) يريد مكة والمدينة على التظليل . (٢) راجى : رادى . (٣) جب : قطع ، والكاهل :
مقدم أعلى الظهر مما على النقي ؛ ذكروا أَنَّ التمنية هى الفارعة أم الحجاج ، وقيل هى جدة الحجاج
أم أبيه (ابن خلكان : ص ١٢٤ ، ج ١) .

كانين ، فِعِيلٌ صَبْرُ نَصْر ، فَكُتِبَ عَلَى الْأَرْضِ بِحَضْرَةِ مَجَاشِعَ : «إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَوْ كَانَ فَوْقَكَ لِأُظْلَكَ ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَكَ لِأَقْلَكَ » . فَوَقَّعَتْ تَحْتَهُ غَيْرَ عَشْمَةِ « وَأَنَا » . قَالَ لَهَا مَجَاشِعُ : مَا الَّذِي كَتَبَهُ ؟ قَالَتْ : كَتَبَ ؛ كَمْ تَحْلُبُ نَاقَتَكُمْ ؟ قَالَ : وَمَا الَّذِي كَتَبْتَ تَحْتَهُ ، قَالَتْ : كَتَبْتُ وَأَنَا ؛ قَالَ مَجَاشِعُ : كَمْ تَحْلُبُ نَاقَتَكُمْ ، وَأَنَا ؛ مَا هَذَا لِهَذَا بِطَبَقٍ ^(١) ؟ قَالَتْ : أَصْذَقُكَ ، إِنَّهُ كَتَبَ ، كَمْ تُغِلُّ أَرْضَكُمْ ؟ قَالَ مَجَاشِعُ : كَمْ تُغِلُّ أَرْضَكُمْ ، وَأَنَا ؛ مَا بَيْنَ كَلَامِهِ وَجَوَابِكَ قَرَابَةٌ ، ثُمَّ كَفَّأَ عَلَى الْكِتَابَةِ جَفَنَةً وَدَعَا بِفَلَامٍ مِنَ الْكُتَّابِ ^(٢) ، قَرَأَ عَلَيْهِ ، فَالْتَفَتَ إِلَى نَعْرٍ وَقَالَ : يَا بَنَ عَم ؛ مَا سِيرُكَ عَمْرُ مِنْ خَيْرٍ ؛ قُمْ فَإِنَّ وِرَاءَكَ أَوْسَعَ ، فَهَضَّ مُسْتَحْيِيًّا ، وَعَدَلَ إِلَى مَنْزِلِ بَعْضِ السُّلَمِيِّينَ ؛ وَوَقَعَ لِحْنِهِ ، فَضَبَّيَ مِنْ حُبِّ شَمِيلَةٍ ؛ وَذَنَفٍ ^(٣) وَانْتَشَرَ خَبْرُهُ .

ثُمَّ إِنْ مَجَاشِعًا وَقَفَ عَلَى خَيْرٍ عِلَّتِهِ ؛ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَاصْطَقَتْ رِقَّةً لَا رَأْيَ مَا بِهِ مِنَ الدَّنَفِ ؛ فَرَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ ؛ وَقَالَ لِشَمِيلَةٍ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ لَمَّا أَخَذْتَ خُبْرَةَ ^(٤) فَلَبَسَكُنَّهَا بِسَمْنٍ ، ثُمَّ بَادَرَتْ بِهَا إِلَى نَصْرِ ؛ فَبَادَرَتْ بِهَا إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَكُنْ بِهِ نَهْوَضٌ ؛ فَجَعَلَتْ تَلْقَمُهُ بِيَدِهَا ، فَصَادَتْ قُوَاهُ وَبَرَأَ كَأَن لَمْ يَكُنْ بِهِ قَلْبَةٌ ^(٥) .

فَلَمَّا فَارَقَتْهُ عَاوَدَهُ النُّكْسُ ^(٦) ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَرَدَّدُ فِي عِلَّتِهِ حَتَّى مَاتَ فِيهَا !

(١) الطبق من كل شيء: ماساواه. (٢) الكتاب والمكتب: موضع التعلیم، أو هو جمع كاتب.

(٣) الدنف: للرض اللازم. (٤) الخبزة: عجينة يوضع في اللثة حتى ينضج. (٥) يقال: ما به

قلبة — بالتحريك: أي داء وتعب. (٦) النكس: عود للرض.

٤٣ — عُرْوَةُ وَعَفْرَاءُ *

هلك حِزَامٌ ، وترك ابنه عُرْوَةَ^(١) صغيراً في حِجْرِ عَمِّه عَقَالٍ ؛ وكانت عَفْرَاءُ
تَرْبِيَاً^(٢) لمرءة ، يلعبان جميعاً ، ويكونان معاً ، حتى تألف كل واحدٍ منهما صاحبه
إلفاً شديداً ؛ وكان عَقَالٌ يقول لمرءة لما يرى من إلفهما : أبشِرْ فإن عفراء أُمْتُكَ^(٣)
إن شاء الله !

فكانا كذلك حتى لحقت عفراء بالنساء ، ولحق عُرْوَةُ بالرجال ؛ فأتى عروة
عَمَّةٌ له يقال لها : هند ، وقال لها في بعض ما يقول : يا عمة ؛ إني لـمـكـُـمُك ؛ وإني منك
لستخِي ، ولكن لم أفضل هذا حتى ضِيقْتُ دَرْعاً بما أنا فيه .

فذهبت عمتُها إلى أخيها ، فقالت له : يا أخى ؛ قد أتيتُك في حاجةٍ أُحِبُّ أن
تُحَسِّنَ بها ، فإن الله يَأْجُرُكَ^(٤) لصلَةِ رحمتك بي ؛ فقال لها : قولى ، فلنَ نَسْأَلَ
حاجةً إلا ردَدْتُكَ بها ، قالت : تُزَوِّجُ عروةَ ابْنِ أَخِيكَ بابنتك عفراء ، فقال :
ما عنه مذهب ، ولا هو دون رجل يُرَغَّبُ فيه ، ولا ينأ عنه رغبة ؛ ولكنه ليس
بذِي مال ، وليست عليه عَجَلَةٌ .

* الأغانى : ٢٠ — ١٥٢

(١) هو عروة بن حزام بن مالك ، شاعر لبيب حاذق متمكن في العشق ، قيل : إنه أول
ماشق مات بالمجر من الفُتُورين ، ولثبته مقاساته في العشق ضرب به المثل بين العرب . مات
سنة ٣٠ هـ ، ودفن بوادى الترى قرب المدينة . (٢) الترب : من ولد ملك . (٣) يريد
زوجتك وامراتك . (٤) يَأْجُرُكَ : يجازيك .

فطابت نفسُ عروة ؛ وسكنَ بعضُ الشُّكُونِ ، وكانت أمُّها سيئةَ الرأى فيه
تريد لا يبتها ذامال ووفر^(١) ، وكانت عُرْضَةً^(٢) لذلك كآلاً وجالاً .

فلما تسكملتُ سنَّه ، وبلغ أشدَّه ؛ عرف أن رجلاً من قومه ذابِيسار ومالٍ
كثيرٍ يخطبها ؛ فأتى عمه ، فقال : يا عم ؛ قد عرفتَ حقِّي وقرايبي ؛ وإني ولداك
ورُبِّيْتُ في حجرِكَ ؛ وبلغني أن رجلاً خطبَ عَفْرَاءَ ؛ فإن أسمعته بطلبته قتلتنِي
وسفكت دمي ؛ فأنشدك الله ورحمى وحقِّي ! فرَّقْ له ؛ وقال : يا بني ؛ أنت مُعْدِمٌ
وحالنا قريسةٌ من حالك ؛ ولستُ مخرِجها إلى سِوَاكَ ، وأمَّا أبت أن تزوجهَا
إلا بمهرٍ غالٍ .

فَضَرَبَ في الأرض بيتنى الرزق ، ثم جاء إلى أمها فألطفها^(٣) ودَارَاهَا ، فأبت
أن تبيعه إلا بما تحكمه من المهر ، وبعد أن يسوقَ شَطْرَه^(٤) إليها ، فوعدها بذلك ،
وعلم أنه لا تنفقه قِرابَةً ولا غيرها إلا للمال الذي يطلبونه ، فعمل على قَصْدِ ابنِ عمه
موسرٍ ، وكان مقيماً بالرَّيِّ ، فجاء إلى عمه وامرأته ، فأخبرهما بمزمه ، فصورياه ووعدها
ألا يُحدثا حدثاً حتى يعود .

وصار في ليلةٍ رحيله إلى عَفْرَاءَ ، فجلس عندها هو وجوارى الحَيِّ يتحدثون
حتى أصبَحوا ، ثم ودَّعها وودَّعَ الحَيِّ ، وشدَّ على راحلته ، وصحبتهُ في ضَرْبِهِ
فَتَيَّانَ كانا يَأْلِفَانِه ، وكان في طول سفره ساهما يكلمانَه فلا يفهم ، فِسْكَرَه في عَفْرَاءَ
حتى رُدَّأَ عليه القولُ مِرَّاراً .

(١) الوفرة : الفنى . (٢) عرضة : أى أهلاً لذلك . (٣) ألطفها : برها .

(٤) الشطر : النصف .

وسار إلى أن قدم على ابن عمه ، فلقّيه ، وعرفه حاله وما قدم له ، فوصله وكساه وأعطاه مائة من الإبل ، فانصرف بها إلى أهله .

وقد كان رجل من أهل الشام من أنساب بني أمية نزل في حي عَفْرَاء ، فنَحَرَ وَوَهَب وأطعم ، وكان ذا مال ، فرأى عَفْرَاء ، وكان منزله قريباً من منزلهم ، فأعجبته وخطبها إلى أبيها ، فاعتذر إليه وقال : قد سميتها إلى ابن آخر لي يعدلها عندي ، وما إليهما لغيره سبيل . فقال له : إني أُرْعُبُكَ في للهِم ، قال : لا حاجة لي بذلك ؛ فعدّل إلى أمّها ، فوافق عندها قبولاً لبدّلها ، ورغبت في ماله ، فأجابته ووعده ، وجاءت إلى عقال وقالت : أي خير في عُرْوَة حتى تحبس ابنتي عليه وقد جاءها الفنى يَطْرُقُ عليها بابها ؟ والله ما تدرى أعرُوة حتى أم ميت ؟ وهل ينقلب إليك بخير أم لا ؟ فتكون قد حرمت ابنتك خيراً حاضراً ورزقاً سليماً ، فلم تنزل به حتى قال لها : فإن عاد لي خاطباً أجبته .

فوجهت إليه : أن عدّ إليه خاطباً . فلما كان من غد نحرَ جُزْراً عِدَّة ، وأطعم ووهب ، وجمع الحى معه على طعامه ، وفيهم أبو عَفْرَاء ، فلما طعموا أعاد القول في الخطبة ، فأجابه وزوجّه ، وساق إليه للهِمَ وحولت إليه عَفْرَاء ، وقالت قبل أن يدخل بها :

يَا عُرْوَة إِنَّ الْحَى قَدْ تَقَبَّضُوا عَهْدَ الْإِلَهِ وَحَاوَلُوا الْقَدْرَا

فلما كانت الليل دخل بها زوجها ، وأقام فيهم ثلاثاً ، ثم ارتحل بها إلى الشام ، وعمد أبوها إلى قبر عتيق فجذّده وسواه ، وسأل الحى كتمان أمرها .

وقدم عُرْوَةَ بعد أيام ، فَنَمَاهَا أَبُوهَا إِلَيْهِ ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى ذَلِكَ الْتَبَرِ ، فَكَثَّ
يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ أَبَا مَا وَهُوَ مُضْنِي هَالِكٌ ، حَتَّى جَاءَتْهُ جَارِيَةٌ مِنْ جَوَارِي الْحَيِّ فَأَخْبَرَتْهُ
الْخَبَرَ ؛ فَتَرَكَهُمْ وَرَكِبَ بَعْضُ إِبِلِهِ وَأَخَذَ مَعَهُ زَادًا وَنَفَقَةً ، وَرَحَلَ إِلَى الشَّامِ فَقَدِمَهَا ،
وَسَأَلَ عَنِ الرَّجُلِ ، فَأَخْبَرَ بِهِ وَدَلَّ عَلَيْهِ ، فَقَصَدَهُ وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ فِي عَدْنَانٍ ، فَأَكْرَمَهُ
وَأَحْسَنَ ضِيَاقَتَهُ ، فَكَثَّ أَبَا مَا حَتَّى أُنْسُوا بِهِ .

ثُمَّ قَالَ الْجَارِيَةُ لِمَ : هَلْ لَكَ فِي يَدَيَّ تَوَلَّيْنِيهَا ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ : تَنْدَفِعِينَ
خَاتَمِي هَذَا إِلَى مَوْلَانِكَ ، قَالَتْ : سَوَاءٌ لَكَ أَمْ تَسْتَحْيِي لِهَذَا الْقَوْلِ فَأَمْسِكْ عَنْهَا
ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهَا ، وَقَالَ لَهَا : وَبِحَيْكِ أَهِيَ وَاللَّهِ بِنْتُ عَمِّي ، وَمَا أَحَدٌ مِنَّا إِلَّا وَهُوَ أَعَزُّ
عَلَى صَاحِبِهِ مِنَ النَّاسِ ، فَاطْرَحَنِي هَذَا الْخَاتَمُ فِي صَحْفِهَا ، فَإِنْ أَنْكَرْتُ عَلَيْكَ
فَقُولِي لَهَا : اصْطَلَحَ ضَيْفُكَ قَبْلَكَ وَلَمْ يَلَمْهُ سَقَطَ مِنْهُ !

فَرَقَتْ لَهُ الْجَارِيَةُ ، وَفَعَلَتْ مَا أَمَرَهَا بِهِ ، فَلَمَّا شَرِبَتْ عَفْرَاءَ اللَّيْلِ رَأَتْ الْخَاتَمَ
فَضَرَفَتْهُ فَشَبَقَتْ ، ثُمَّ قَالَتْ لَجَارِيَتِهَا : اصْدُقِيَنِ الْخَبَرَ ، فَصَدَّقَتْهَا ، فَلَمَّا جَاءَ زَوْجُهَا
قَالَتْ لَهُ : أَتَدْرِي مَنْ ضَيْفُكَ هَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ! فَلَانَ ابْنَ فَلَانَ (لِلنَّسَبِ الَّذِي
انْتَسَبَ لَهُ عُرْوَةُ) . قَالَتْ : كَلَّا وَاللَّهِ ، بَلْ هُوَ عُرْوَةُ بْنُ حِزَامِ ابْنِ عَمِّي ، وَقَدْ كَتَمْتُكَ
نَفْسَهُ حَيَاءً مِنْكَ .

فَبِعَثَ إِلَيْهِ ، فَدَعَاهُ وَعَاتَبَهُ عَلَى كَيْفَانِهِ نَفْسَهُ إِيَّاهُ ، وَقَالَ لَهُ : بِالرَّحْبِ وَالسَّعَةِ ،
نَشَدْتُكَ اللَّهُ إِنْ رِمْتَ^(١) هَذَا الْمَكَانَ أَبَدًا ، وَخَرَجَ وَتَرَكَهُ مَعَ عَفْرَاءَ يَتَحَدَّثَانِ ،
وَأَوْصَى خَادِمًا لَهُ بِالِاسْتِمَاعِ عَلَيْهِمَا ، وَإِعَادَةِ مَا تَسْمَعُهُ مِنْهُمَا عَلَيْهِ .

(١) رَامَ الْمَكَانَ : بَرَحَهُ وَتَرَكَهُ .

فلما خَلَوْا نَشَاكَيَا مَا وَجَدَا بَدَ الْفَرَاقِ ، فَطَالَتِ الشُّكُورَى وَهُوَ يَبْكِي أُخْرَى
بِكَاءٍ ، ثُمَّ أَتَتْهُ بِشْرَابٍ ، وَسَأَلَتْهُ أَنْ يَشْرِبَهُ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا دَخَلَ فِي جَوْفِي حَرَامٌ
قَطْ ، وَلَا ارْتَكَبْتُهُ مِنْذُ كُنْتُ ، وَلَوْ اسْتَحْلَلْتُ حَرَامًا لَكُنْتُ قَدْ اسْتَحْلَلْتُهُ مِنْكَ ،
فَأَنْتِ حَظِيٌّ مِنَ الدُّنْيَا ، وَقَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي وَذَهَبْتُ بِمَدِّكَ فَمَا أَعِيشُ ، وَقَدْ أَجَلَ هَذَا
الرَّجُلُ الْكَرِيمُ وَأَحْسَنُ ، وَأَنَا أَسْتَحْيِي مِنْهُ ، وَاللَّهِ لَا أَقِيمُ بَعْدَ عِلْمِهِ مَكَانِي ، وَإِنِّي
عَالِمٌ أَنِّي رَاحِلٌ إِلَى مَلِيَّتِي ، فَبَكَتْ وَبَكَى وَانْصَرَفَ .

فلما جَاءَ زَوْجُهَا أَخْبَرَتْهُ الْجَارِيَةُ بِمَا دَارَ بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ : يَا عَفْرَاءُ ! اْمْنَعِي ابْنَ
عَمِّكَ مِنَ الْخُرُوجِ ، فَقَالَتْ : لَا يَمْنَعُ ، هُوَ وَاللَّهِ أَكْرَمُ وَأَشَدُّ حَيَاءً مِنْ أَنْ يَقِيمَ بَعْدَ
مَا جَرَى بَيْنَكُمَا ؛ فَدَعَاهُ وَقَالَ لَهُ : يَا أَخِي ؛ اتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ ، فَقَدْ عَرَفْتُ خَيْرَكَ ؛
وَإِنَّكَ إِنْ رَحَلْتَ تَلَفْتَ ، وَاللَّهِ لَا أَمْنُكَ مِنَ الْاجْتِمَاعِ مَعَهَا أَبَدًا ، وَلَنْ شَتَّ
لَا تَفَارِقْتَهَا ، وَلَا تَزَلْ عَنْهَا لَكَ ، فَقَالَ لَهُ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا وَأَتَى عَلَيْهِ . وَقَالَ : إِنَّمَا
كَانَ الطَّمَعُ إِلَيْهَا آفَتِي ، وَالْآنَ قَدْ بُلِسْتُ ، وَحَمَلْتُ نَفْسِي عَلَى الصَّبْرِ ، فَإِنْ الْيَأْسُ
بُسْلَى ، وَلِيْ أُمُورٌ لَا بَدَّ مِنْ رَجُوعِي إِلَيْهَا ، فَإِنْ وَجَدْتُ بِي قُوَّةً عَلَى ذَلِكَ ، وَإِلَّا
عَدْتُ إِلَيْكُمْ وَزُرْتُكُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ مِنْ أَمْرِي مَا يَشَاءُ ؛ فَرَزَّوْدُوهُ وَأَكْرَمُوهُ
وَشَبِّعُوهُ فَانْصَرَفَ .

فلما رَحَلَ عَنْهُمْ نَكِسَ بَعْدَ صَلَاحِهِ وَتَمَاسُكِهِ ، وَأَصَابَهُ غَشْيٌ وَخَفَقَانٌ ، فَكَانَ
كُلَّمَا أَغْمَى عَلَيْهِ أَلْقَى عَلَى وَجْهِهِ خِمَارًا لَعَفْرَاءُ زَوْدَتُهُ إِيَّاهُ فَيُفِيْقُ .

وَلَقِيَهُ فِي الطَّرِيقِ ابْنُ مَكْحُولٍ عَرَّافُ الْبِلَامَةِ ، فَرَأَاهُ وَجَلَسَ عِنْدَهُ وَسَأَلَهُ عَمَّا بِهِ
وَهَلْ هُوَ خَبَلٌ أَوْ جُنُونٌ ؛ فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ : أَلَيْكَ عِلْمٌ بِالْأَوْجَاعِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

فَمَا بِي مِنْ خَبَلٍ وَلَا بِي جُنَّةٌ وَلَكِنْ هِيَ يَا أَخِي كَذُوبٌ
أَقُولُ لِمَرَافِ الْيَمَامَةِ دَاوِي فَإِنَّكَ إِنْ دَاوَيْتَنِي لَطِيبٌ
فِيَا كَبِدًا أَمْسَتْ رُفَاتًا كَأَنَّمَا يُبَلِّغُهَا بِالْمَوْقِدَاتِ طِيبٌ
عَشِيَّةٌ لَا عَفْرَاءَ مِنْكَ بِمِيسَةٍ فَتَسْلُو وَلَا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبٌ
فَوَاللَّهِ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا وَمَا عَقِبَهَا فِي الرِّيحِ جَنُوبٌ
وَلِي لَتَعْرُوْنِي لِذِكْرِكَ هِرَّةٌ لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامِ دَيْبٌ

وَقَالَ يُحَنَّا طِبُّ صَاحِبِيهِ بِقِصَّتِهِ (١) :

خَلِيلِي مِنْ عَلِيٍّ هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ بَصَنَّمَاءَ عُوْجَا الْيَوْمِ وَاتَّظَرَانِي
وَلَا تَزْهَدْ فِي الْأَجْرِ عِنْدِي وَأُجْلَا فَإِنَّكَ بِي الْيَوْمَ مُبْتَلِيَانِ
أَلَا عَلَى عَفْرَاءٍ إِنْكَا غَدَاً يَوْشَكَ النَّوَى وَالْبَيْتِ مُعْتَرِفَانِ
فِيَا وَاشِئْ عَفْرَاءَ دَعَايَ وَنَظَرَةً تَقْرَأُ بِهَا عَيْنَايَ ثُمَّ كِلَانِي
أَغْرَاكَ مَنَى قِيَمٍ لَبَسَتْهُ جَدِيدٌ وَبُرْدًا يَمْنَعُ زَهْيَانِي
مَنْ تَكْشِفَا عَنْ الْقَمِيصِ تَبَيَّنَا بِي الضَّرِّ مِنْ عَفْرَاءٍ يَافَتِيَانِ
وَتَعْرِفَا لِحَا قَلِيلًا وَأَعْظَمًا بَلَيْنَ وَقَلْبًا دَائِمَ الْخَفَقَانِ
عَلَى كَبِدِي مِنْ حُبِّ عَفْرَاءٍ قُرْحَةً وَعَيْنَايَ مِنْ وَجْدٍ بِهَا تَكْفَانِ
فَعَفْرَاءُ أَرْجَى النَّاسِ عِنْدِي مَوْدَةً وَعَفْرَاءُ عَنِ الْمَرَضِ (٢) اللَّتَوَانِي
فِيَا لَيْتَ كُلِّ اثْنَيْنِ بَيْنَهُمَا هَوًى مِنَ النَّاسِ وَالْأَنْسَامِ يَلْتَقِيَانِ

(١) راجع هذه القصيدة بتمامها من ١٥٨ إلى ١٦٢ من ذيل الأملاني طبعة دار الكتب .

(٢) قال صاحب الأملاني : ذكر المرض ، لأنه أراد : وعفراء عن الشخص المرض ، أو ذكره بناء على التنبيه وأراد : وعفراء عن مثل المرض .

فيبقى حبيب من حبيب لُبَّانَةً وَرَعَاهَا رَبِّي فَلَا يُرِيَانِ
 هَوَى نَاقِي خَلْفِي وَقُدَّائِي الْمَوَى وَإِنِّي وَإِيَّاهَا لِمُخْتَلِفَانِ
 تَحَمَّلْتُ مِنْ عَفْرَاءٍ مَا لَيْسَ لِي بِهِ وَلَا لِلْعِبَالِ الرِّسْمَاتِ يَدَانِ
 كَأَنَّ قِطَاعَةً جَلَّقْتُ بِمِخْنَاهَا عَلَى كِبْدِي مِنْ شِدَّةِ الْخَفَقَانِ
 وَقَدْ تَرَكْتُ لِي أَعْيَ لِحْدَتُ حَدِيثًا وَإِنْ نَاجَيْتُهُ وَنَجَانِي
 جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْبِلَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِنْ هَا شَقِيَانِي
 قَالَا : نَمِ نَشْفِي مِنَ الْهَاءِ كُلَّهُ وَقَامَا مَعَ الْعُودِادِ بَيِّنْدَرَانِ
 فَاتْرَكََا مِنْ رُقِيَّةٍ يَمْلِكَانِيَا وَلَا شَرِبَةَ إِلَّا وَقَدْ سَقِيَانِي
 وَمَا شَقِيًّا لَهَا الَّذِي بِي كُلَّهُ وَلَا ذَخْرًا نَضَحًا وَلَا أَلْوَانِي^(١)
 وَقَالَا : شَفَاكَ اللَّهُ ، وَاللَّهِ مَا لَنَا بِمَا ضُنُنْتُ مِنْكَ الصَّلَوُعُ يَدَانِ
 فَوَيْلَ عَلَى عَفْرَاءٍ وَيْلًا كَانَ عَلَى الصَّدْرِ وَالْأَحْشَاءِ حَدَّ سِنَانِ
 أَحَبُّ ابْنَةِ الْعَذْرَى حَبًّا وَإِنْ نَأْتُ وَدَانَيْتُ فِيهَا غَيْرَ مَا مُتَدَانِ
 يَارِبُّ أَنْتَ السَّلْعَانُ عَلَى الَّذِي تَحَمَّلْتُ مِنْ عَفْرَاءٍ مِنْهُ زَمَانِ

ثم توفى^(٢) وهو راجع بالشام . ولما بلغ عفراء موته قالت لزوجها : قد كان من
 خير ابن عى ما بَلَغَكَ ، ووالله ما عرفتُ منه قط إلا الحَسَنَ ، وقدمات في وبسبهي ؛
 ولا بُدَّ لِي من أن أُنْذِبه فَأَقِيمَ مَا تَمَّا عَلَيْهِ ، قَالَ : أَفَلِي ؛ فَازَالَتْ تَنْدِبُهُ فَلَا تَأْتِي تَوْفِيَتْ
 فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ ، وَبَلَغَ مَعَاوِيَةَ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ خَبْرُهَا ؛ فَقَالَ : لَهْ عَلِمْتُ بِحَالِ هَذَيْنِ
 الْحَرَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ لَجَعْتُ بَيْنَهُمَا .

(١) أَلْوَانِي : قَضَرَانِي حَتَّى . (٢) انظر القصة التالية .

٤٤ - قَتِيلُ الْحَبِّ *

قال النعمان بن بشير :

استعملني معاوية على صدقات بليّ وعُدْرَةٍ^(١) ، فإني لَكِنِي بَعْضُ مِيَاهِهِمْ إِذَا أَنَا
بَيْتٌ مُنْعَرِدٍ^(٢) نَاحِيَةً ، وَإِذَا بَغَاثُهُ رَجُلٌ مُسْتَلْقٍ ، وَعِنْدَهُ امْرَأَةٌ ، وَهُوَ يَقُولُ ،
أَوْ يَتَفَنَّى بِهَذِهِ الْأَيَّاتِ :

جَعَلْتُ لِمِرَافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعِرَافِ نَجْدٍ إِنْ هُمَا شَفِيَايَ
فَقَالَا : نَمْ ، نَشْفِي مِنَ الدَّاءِ كُلِّهِ وَقَامَا مَعَ الدُّوَادِ يَبْتَدِرَانِ
فَمَا تَرَكََا مِنْ رُقِيَّةٍ يَلْمَانِيهَا وَلَا سَلَوَةٍ إِلَّا وَقَدْ سَقِيَايَ
فَقَالَا : شَفَاكَ اللَّهُ ، وَآلَهُ مَا نَا بِمَا حُمِلْتُ مِنْكَ الضَّلُوعُ يَدَايَ
فَقُلْتُ لَهَا : مَا قِصَّتُهُ ؟ فَقَالَتْ : هُوَ مَرِيضٌ ، مَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ ، وَلَا أَنَّ أَنَّهُ
مِنْذُ وَقْتِ كَذَا وَكَذَا إِلَى السَّاعَةِ ، ثُمَّ فَتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَأَنشَأَ يَقُولُ :
مَنْ كَانَ مِنْ أُمّهَاتِي بَاكِيًا أَبَدًا فَالْيَوْمَ إِنِّي أَرَانِي الْيَوْمَ مَقْبُوضًا
يُسَمِّعُنِيهِ ، فَإِنِّي غَيْرُ سَامِعِهِ إِذْ حُمِلْتُ عَلَى الْأَعْنَاقِ مَعْرُوضًا
ثُمَّ حَقَّتْ فَاَت ، فَغَمَضْتُهُ وَغَسَلْتُهُ ، وَصَلَيْتُ عَلَيْهِ وَدَفَنْتُهُ ، وَقُلْتُ لِلرَّأَةِ :
مِنْ هَذَا ؟ فَقَالَتْ : هَذَا قَتِيلُ الْحَبِّ هَذَا عُرْوَةُ بْنُ حَزَامٍ

* ذيل الأملاني . ١٥٧

(١) بلي وعُدْرَة : قبيطان . (٢) منعد : منفرد بمنزل .

٤٥ - قيس ولبنى *

— ١ —

كان منزلُ قَيْسٍ ^(١) في ظَاهِرِ المدينة ، وكان هو وأبوه من حَاضِرَةِ المدينة ؛
فَرَقَيْسٌ لبعض حاجته بخيامِ بنى كَعْبِ بن خُرَاعَةَ ، فوقف على خِيَمَةٍ منها ؛
والحَى خُلُوفٌ ^(٢) ، وانخِيمَةُ خِيَمَةُ لُبْنَى بنتِ الحُبَابِ السَّكَمِيَّةِ ، فاستسقى ماءً ،
فسَقَطَتْ وخرجتْ إليه به ، وكانت امرأةً مديدةَ القامةِ شَهْلَاءَ ^(٣) حُلْوَةَ المنظرِ
والكَلَامِ .

فلما رَأَاهَا وَقَمَتْ في غُصَةٍ ، وشربَ للماءِ ، فقالت له : أَنْزِلْ فَتَتَرَدَّدَ عندنا ؟
قال : نعم ؛ فنزلَ بهم . وجاءَ أبوها فَتَحَرَّلَهُ وأكرمه ، فانصرفَ قَيْسٌ وفي قلبه من
لُبْنَى حَرًّا لَا يُطْفَأُ ، فجعلَ يَنْطَلِقُ بالشعرِ فيها حتى شاعَ ورُوى .
ثم أتاها يوماً آخرَ ، وقد اشتدَّ وَجْدُهُ بها ، فسَلَّمَ فظهرتْ له وردتْ سلامَهُ ،
وَتَحَفَّتْ ^(٤) به ، فشكا إليها ما يَلْقَى مِنْ حُبِّهَا ، وشمكتْ إليه مثلَ ذلكِ فأطالت ،
وعرفَ كلُّ واحدٍ منهما مالَهُ عند صاحبه .

* الأغانى : ٩ - ١٨١

(١) هو قيس بن ذريح من كنانة ، كان هو وأبوه من حاضرة المدينة ، واشتهر قيس بحبه لبني
بنت الحباب السكبية ، وهي التي ألهمته القول وأنطقه بالشعر ، توفي نحو سنة ٧٠ هـ (٢) خلوف ؛
غيب . (٣) الشهلاء : التي يخالط سواد عينيها زرقه . (٤) تحمت : بالنت في إكرامه ، وأظهرت
السرور والفرح .

فانصرف إلى أبيه وأعلمه حاله ، وسأله أن يرَّوِّجَه إياها . فأبى عليه ، وقال :
يا بُنَيَّ ؛ عليك ياخذى بناتِ عمك ، فهنَّ أحقُّ بك . وكان ذَرِيحٌ كثيرُ المالِ
موسراً ، فأحبَّ ألاَّ يخرجَ ابنه إلى غريبَةٍ .

فانصرف قيسٌ ، وقد ساءه ما خاطبه أبوه به ، فأبى أمه فشكا ذلك إليها ،
واستعان بها على أبيه ؛ فلم يجدْ عندها ما يحبُّ .

فأتى الحسينَ بنَ علي بن أبي طالب وابنَ أبي عَتِيْق ، فشكا إليهما ما به وما رَدَّ
عليه أبوه . فقال له الحسينُ : أنا أَكْفِيكَ . فغشى معه إلى أبي لُبَيْبٍ ؛ فلما
بَصُرَ به أعظمه وَوَسَّ بِإِلَيْهِ وقال له : يا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ ؛ ما جاء بك ؟ ألاَّ بَعَثْتُ إِلَيَّ
فَأَتَيْتُكَ ! قال : إن الذي جئتُ فيه يُوجِبُ قَصْدَكَ ، وقد جئتُكَ خاطباً ابنتك
أُبَيَّ لَئِيْسَ بنَ ذَرِيحٍ . فقال : يا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ ؛ ما كنا لِنَمْعَى لك أمراً ، وما بنا
عن الفتى رَغْبَةً ؛ ولكنَّ أَحَبَّ الْأَمْرِ إِلَيْنَا أَنْ يَخْطُبَهَا ذَرِيحٌ أبوه ، وأن يكون ذلك
على أمرِهِ ؛ فَإِنَّا نَخَافُ إِنْ لَمْ يَسْعَ أَبُوهُ فِي هَذَا أَنْ يَكُونَ عَاراً وَسُبَّةً عَلَيْنَا .

فأتى الحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَرِيحاً وقومه وهم مجتمعون ، فقاموا إليه إعظاماً له ،
وقالوا له مثل قول الخَزَاعِيِّينَ ^(١) . فقال لذرِيحٍ : أقسمتُ عليك إلاَّ خطبتَ لُبَيْبِي
لأبنتك قيس . قال : السَّمْعُ والطاعة لأمرِك .

ففرج معه في وجوه من قومه حتى أتوا دار لُبَيْبِي ، فخطبها ذَرِيحٌ على ابنه
إلى أبيها ، فزوَّجها به إياها وزَفَّتْ إِلَيْهِ بعد ذلك ، فأقامت معه مُدَّةً لَا يُنْكَرُ أَحَدٌ
من أصحابه شيئاً .

(١) الخَزَاعِيُونَ : قوم لبني .

وكان أبرّ الناسِ بأمّه ، فألّهته لُبني وعكوفه عليها عن بعض ذلك ، فوجدت أمّه في نفسها وقالت : لقد شغلت هذه المرأة ابني عن برّي ، ولم تر للكلام في ذلك موضعاً حتى مرض مرضاً شديداً . فلما برأ من علته قالت أمّه لأبيه : لقد خشيتُ أن يموتَ قيس وما يترك خَلقاً وقد حُرّم الولد من هذه المرأة ، وأنتَ ذو مال فيصير مالكُ إلى الكِلالة^(١) ، فزوّجهُ بغيرها لعل الله أن يرزقهُ ولداً ؛ وألحّت عليه في ذلك .

فأمهلَ قيساً حتى إذا اجتمع قومُه دعاه فقال : يا قيسُ ؛ إنك اعتللت هذه العلة فخيبتُ عليك ولا ولداً لك ولا لي سيواك ، وهذه المرأة ليست بوُلود ؛ فتزوج إحدى بناتِ عمك ؛ لعلَّ الله أن يهبَ لك ولداً تقرُّ به عينُك وأعيننا .

فقال قيس : لستُ متزوجاً غيرها أبداً ؛ فقال له أبوه : فإن في مالي سمةٌ فَنَمَسَرَّ بالإماء ، قال : ولا أسوءها بشيء أبداً والله . قال أبوه : فإني أقسم عليك ألا طَلَّقْتَهَا . فأبى وقال : للوتُ والله علىَّ أسهلُّ من ذلك ، ولكني أخيرُك خصلةً من ثلاث خصال ، قال : وما هي ؟ قال : تنزوج أنتَ فلعلَّ الله أن يرزقك ولداً غيري . قال : فما في فَضْلَةٍ لذلك . قال : فدعني أرثمَلُ عنك بأهلي وأصنع ما كنت صانعا لومت في عنتي هذه . قال : ولا هذه . قال : فدع لُبني عندك وأرثمَلُ عنك فلعلَّ أسلوها فإني ما أحبُّ بعد أن تكون نفسي طَيِّبَةً أنها في خيالي .

قال : لا أرضى أو تطلّقْها ، وحلف لا يَكُنْهُ سَقْفُ بيت أبداً ، حتى يطلق لُبني ، فكان يخرج فيقف في حرِّ الشمس ويمشي قيس فيقف إلى جانبه فيظله

(١) يراد بالكِلالة هنا : من عدا الأب والابن من الورثة .

بردائه ، وَبَصَلَى هُوَ بِحَرِّ الشَّمْسِ حَتَّى بَنَى النَّيْ^(١) فَيَنْصَرِفُ عَنْهُ ، وَبَدَخَلَ إِلَى
لُبْنَى فَيَعَاتِمُهَا وَتَسَامِعُ ، وَيَبْكِي وَتَبْكِي مَعَهُ ، وَتَقُولُ لَهُ : يَا قَيْسُ ؛ لَا تُطْعِمَ أَبَاكَ قَهْلَكَ
وَتَهْلِكُنِي . فَيَقُولُ : مَا كُنْتُ لِأَطْعِمَ أَحَدًا فَيْكَ أَبَدًا ، وَمَكَثَ كَذَلِكَ سَنَةً ثُمَّ طَلَقَهَا .
فَلَمَّا بَانَتْ لُبْنَى بِطَلَّاقِهِ ، وَفُرِغَ مِنَ السَّكَّالِمِ لَمْ يَلْبَثْ حَتَّى اسْتَطَاعَ عَقْلُهُ وَذُهِبَ
بِهِ ، وَلَحِقَهُ مِثْلُ الْجُنُونِ ، وَتَذَكَّرَ لُبْنَى وَحَالَهَا مَعَهُ ، فَأَسِيفَ وَجَعَلَ يَبْكِي وَيَنْشِجُ^(٢)
أَحْرَ نَشِيجٍ . وَبَلَفَهَا الْخُبْرَ فَأَرْسَلَتْ إِلَى أَبِيهَا لِيَحْمِلَهَا ؛ فَأَقْبَلَ أَبُوهَا يَهُودَجِرَ عَلَى
نَاقَةٍ وَيُؤَلِّبُ تَحْمِلُ أَثْنَاءَهَا .

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَيْسُ أَقْبَلَ عَلَى جَارِيَتَيْهَا فَقَالَ : وَتَحَكَّ أَمَادَاهُنِي فَيْكُم ؟ قَالَتْ :
لَا نَسْأَلُنِي وَسَلْ لُبْنَى ، فَذَهَبَ لُبْنَى بِخَبَائِثِهَا فَيَسْأَلُهَا ، فَهَمَّ قَوْمُهَا . فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ
امْرَأَةٌ مِنْ قَوْمِهِ قَالَتْ لَهُ : مَا لَكَ ؟ وَتَحَكَّ اسْأَلْ كَأَنَّكَ جَاهِلٌ أَوْ مُتَجَاهِلٌ هَذِهِ
لُبْنَى تَرْتَمِلُ اللَّيْلَةَ أَوْ غَدًا ، فَسَطَّ مَشْيُهَا عَلَيْهِ لَا يَمْلِكُ ، ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَقُولُ :
وَإِنِّي لَمَعْنٍ دَمَعٌ عَيْنِي بِالْبُسْكَ حِذَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَأَنَّ
وَقَالُوا : غَدًا أَوْ بَسَدَ ذَلِكَ بَلِيلَةٍ فِرَاقُ حَبِيبٍ لَمْ يَبْنَ وَهُوَ بَائِنٌ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيتِي بِكَفِّكَ إِلَّا أَنْ مَا حَانَ حَائِنُ
ثُمَّ التَفَتَ فَرَأَى غُرَابًا سَقَطَ قَرِيبًا مِنْهُ ، فَجَلَّ يَنْقُ مِرَارًا ، فَتَطَاعَرَتْ مِنْهُ
وَقَالَ :

لَقَدْ نَادَى الْغُرَابُ بِبَيْنِ لُبْنَى فَطَارَ الْقَلْبُ مِنْ حَذَرِ الْغُرَابِ
وَقَالَ : غَدًا تَبَاعَدُ دَارُ لُبْنَى وَتَنَاضَى بَسَدُ وَرَدٍ وَاقْتِرَابِ

(٢) النَشِيجُ : أَنْ يَضْمَرَ الْبَاكِ بِالْبَكَاءِ مِنْ

(١) النَّيْ : مَا كَانَ شَمْسًا فَيَنْفَخُهُ الظَّلْ .

غَيْرِ اتِّحَابٍ .

قلت : نَعِسْتَ وَبَحَكَ مِنْ غَرَابٍ وَكَانَ الدَّهْرُ سَمِيكَ فِي تَبَابٍ

ومنعه قومه من الإلزام بها ، قال :

أَلَا يَا غَرَابَ الْبَيْنِ ؛ وَبَحَكَ أَنْبَى بِعِلِّكَ فِي لُبِّي وَأَنْتَ خَيْرُ
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تُخَيِّرْ بِمَا قَدْ عَلِمْتَهُ فَلَا طَرْتَ إِلَّا وَالْجَنَاحُ كَغَيْرِ
وَدُرْتُ بِأَعْدَاءِ حَبِيْبِكَ فِيهِمْ كَمَا قَدْ تَرَانِي بِالْحَبِيبِ أَدْوَرُ

ثم أَذْخَلَتْ فِي هَوْدَجِهَا ، وَرَحَلَتْ وَهِيَ تَبْكِي ! فَاتَّبَعَهَا وَهُوَ يَقُولُ :

أَلَا يَا غَرَابَ الْبَيْنِ ؛ هَلْ أَنْتَ تُخَيِّرِي بِخَيْرٍ كَمَا خَيْرْتَ بِالنَّأْيِ وَالشَّرِّ
وَقُلْتَ : كَذَاكَ الدَّهْرُ مَا زَالَ فَاجِعًا صَدَقْتَ ، وَهَلْ شَيْءٌ يَبَاقِي عَلَى الدَّهْرِ

ثم علم أَنَّ أَبَاهَا سَمِعْتَهُ مِنَ الْمَسِيرِ مَعَهَا ؛ فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَبْكِي ، حَتَّى غَابُوا
عَنْ عَيْنِهِ ، فَفَكَرَ رَاجِعًا ؛ وَنَظَرَ إِلَى أَثَرِ خُفِّ بَعِيرِهَا ؛ فَأَكْبَّ عَلَيْهِ يَقْبَلُهُ ، وَرَجَعَ
يَقْبِلُ مَوْضِعَ مَجْلِسِهَا وَأَثَرِ قَدَمِهَا ؛ فَلَيْمَ عَلَى ذَلِكَ وَعَنَفَهُ قَوْمُهُ عَلَى تَقْبِيلِ التُّرَابِ ،
فَقَالَ :

وَمَا أَحْبَبْتُ أَرْضَكُمْ وَلَكِنْ أَقْبَلُ لِأَثَرِ مَنْ وَطِئَ التُّرَابَا
لَقَدْ لَا قِيَتُ مِنْ كَلْفِي بُلْبُنِي بَلَاءَ مَا أُسِيخُ بِهِ الشَّرَابَا
إِذَا نَادَى النَّسَادِي بِاسْمِ لُبِّي عَيْتُ فَأَطِيقُ لَهُ جَوَابَا

وقال ، وقد نظر إلى آثارها :

أَلَا يَا رَيْحَ لُبِّي مَا تَقُولُ ؟ أَيْنَ لِي الْيَوْمَ مَا فَعَلَ الْحُلُولُ
فَلَوْ أَنَّ الدِّيَارَ تُجِيبُ صَبًّا رَدَّ جَوَابِي الرَّيْحُ لِلْحَيْلِ
وَلَوْ أَنِّي قَدَرْتُ غَدَاةَ قَالَتْ : غَبَرْتُ ، وَمَاءَ مُقْلَتِهَا يَسِيلُ

نَحَرْتُ النَّفْسَ حِينَ سَمِعْتُ مِنْهَا مَقَاتِلَهَا وَذَلِكَ لَهَا قَلِيلُ
 شَفِيتُ غَلِيلَ نَفْسِي مِنْ فِئَالِي وَلَمْ أَعْبُرْ بِهَا عَقْلِي أَجُولُ
 كَأَنِّي وَاللَّهُ بِفِرَاقِ لُبِّي سَهْمٌ يَفْقَدُ وَاحِدَهَا ثُكُولُ
 أَلَا يَا قَلْبُ وَيْحَكَ أَكُنْ جَلِيدًا ؛ قَدْ رَحَلْتَ ، وَفَاتَ بِهَا الدَّمِيلُ ^(١)
 فَإِنَّكَ لَا تُطِيقُ رَجُوعَ لُبِّي إِذَا رَحَلْتَ ، وَإِنْ كَثُرَ الْعَوِيلُ
 وَكَمْ قَدْ عِشْتَ ؟ كَمْ بِالْقُرْبِ مِنْهَا وَلَكِنَّ الْفِرَاقَ هُوَ السَّبِيلُ
 فَصَبْرًا ؛ كُلُّ مُؤَلَّفَيْنِ يَوْمًا مِنْ الْأَيَّامِ عَيْشُهُمَا يَزُولُ
 فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَانْفَرَدَ ، وَأَوَى إِلَى مَضْجَعِهِ لَمْ يَأْخُذْهُ الْقَرَارُ ، وَجَمَلَ
 يَتَمَكَّلُ فِيهِ تَمَكُّلُ السَّلِيمِ ، ثُمَّ وَبَّ حَتَّى أَتَى مَوْضِعَ خِيَابِهَا ؛ فَجَمَلَ يَتَمَرَّغُ فِيهِ
 وَيَسْكِي وَيَقُولُ :

بِثِّ وَالْهَمْ يَا لُبِّيَّ ضَجِيي وَجَرَّتْ مَذْنَابِي عَنِ دُمُوعِي
 وَتَنَفَّسْتُ إِذْ ذَكَرْتُكَ حَتَّى زَالَتِ الْيَوْمَ عَنْ فَوَادِي ضُلُوعِي
 أَنفَاسًا كَيُورِغِ ^(٢) فَوَادِي ثُمَّ يَشْعُدُ عِنْدَ ذَلِكَ وَلُوعِي
 يَا لُبِّيَّ ! قَدْ تَكَّ نَفْسِي وَأَهْلِي هَلْ لَدَهْرٍ لَنَا مِنْ رَجُوعِ

— ٢ —

وَمَرَضَ قَيْسٌ ، فَسَأَلَ أَبُوهُ فَتَيَاتِ الْحَيِّ أَنْ يَمُدَّنَّهُ وَيَحْدِثْنَهُ ، لَعَلَّهُ أَنْ يَقْسِي ؛
 فَعَمِلْنَ ذَلِكَ ، وَدَخَلَ الطَّبِيبُ إِلَيْهِ لِيَدَاوِيَهُ ، وَالْفَتَيَاتُ مَعَهُ ، فَلَمَّا اجْتَمَعْنَ عِنْدَهُ جَمِلْنَ
 بِحَادِثْنَهُ ، وَأَطْلَنَ السُّؤَالَ عَنْ سَبَبِ عِلَّتِهِ ، فَقَالَ :

(١) القمیل : البز ألین . (٢) يورغ : يعيد .

عِيدَ قَيْسٍ مِنْ حُبِّ لُبْنَى، وَلُبْنَى دَاءُ قَيْسٍ، وَالْحُبُّ دَاءٌ شَدِيدُ
وإذا عَادَنِي الْمَوَانِدُ يَوْمًا قَالَتِ الْعَيْنُ: لَا أَرَى مِنْ أَرِيدُ
لَيْتَ لُبْنَى تَمُودَنِي ثُمَّ أَقْضَى لَهَا لَا تَمُودُ فِيمَنْ يَسُودُ
وَيَبْحُ قَيْسٍ لَقَدْ أَضْمَنَ مِنْهَا دَاءَ حَبْلٍ، فَالْقَلْبُ مِنْهُ عِيدُ

فقال له الطبيب : منذ كم هذه العلة ؟ ومنذ كم وجدت بهذه المرأة ما وجدت ؟
فقال :

تَمَلَّقَ رُوحِي رُوحَهَا قَبْلَ خَلْقِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا كُنَّا نَطَافَا فِي الْمَهْدِ
فَزَادَ كَارِدُنَا ، فَاصْبَحَ نَامِيًا وَلَيْسَ إِذَا مَتْنَا بِمَنْصَرَمِ الْمَهْدِ
وَلَكِنَّهُ بَاقٍ عَلَى كُلِّ حَادِثٍ وَزَاثِرُنَا فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ وَالْآخِرِ

فقال له الطبيب : إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوي والمعايب ،
وما تغافله النفس من أقدار بني آدم ، فإن النفس حينئذ تنبو وتكفو ويخف ما بها ،
فقال :

إِذَا عَيْبُهَا شَبَّهَهَا الْبَدْرَ طَالِمًا وَحُسْبُكَ مِنْ عَيْبِهَا شَبَّهَ الْبَدْرَ
لَقَدْ فَضَّلْتَ لُبْنَى عَلَى النَّاسِ مِثْلَ مَا عَلَى أَلْفِ شَهْرِ فَضَّلْتَ لَيْلَةَ الْفَرِّ

ودخل أبوه وهو يخاطب الطبيب بهذه الخطابية ، فأنبه ولامه ، وقال له :
يا بني ؛ الله الله في نفسك ! فإنك ميتٌ إن دُمْتَ على هذا ، فقال :
وفي عروة^(١) المذري إن مت أسوةً وعمرو^(٢) بن عجلان الذي قتلت هيند

(١) هو عروة بن حزام أحد المؤمنين الذين قتلهم الهوى (انظر صفحة ١١٣) . (٢) شاعر جاهل
أحد من قتلهم الحب ، وكان له زوجة يقال لها هند فطلبها ثم ندم عليها ، ولا تزوجت زوجاً غيره
مات أسفاً (الأغانى ص ١٠٢ ، ج ١٩) .

وبى مثل ما ماتا به ، غير أنى إلى أجل لم يأتى وقته بعد
هل الحب إلا عبرة بعد زفرة وحر على الأخشاء ليس له برد
وفيض دموع تسهل إذا بدا لنا علم من أرضكم لم يكن يبدو

ولما طال على قيس ما به من الأمر بعد طلاق لبنى ، أشار قومه على أبيه
بأن يزوجه امرأة جميلة ، فاعله أن يسألها عن لبنى ؛ فدعاه إلى ذلك فأباه وقال :
لقد خفت ألا تقنع النفس بعدها بشيء من الدنيا وإن كان مقنناً
وأزجر عنها النفس إذ حيل دونها وتأتى إليها النفس إلا تطلعا
فأعلمهم أبوه بما رده عليه . قالوا : فمره بالسير في أحياء العرب والنزول عليهم
فلعل عينه أن تقع على امرأة تعجبه . فأقسم عليه أبوه أن يفعل .

فسار حتى نزل بحى من فزارة ، فرأى جارية حسناء قد حسرت برقع خمر
عن وجهها وهى كالبدرة ليلة نمر ؛ فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : لبنى .
فسقط على وجهه مغشياً عليه فنضحت على وجهه ماء وارتفعت لما عراه ، ثم
قالت : إن لم يكن هذا قيس بن ذريح إنه لجنون ! فأفاق فنصبته فانصب .
فقال : قد علمت أنك قيس ، ولكن نشدتك بالله وبحق لبنى إلا أصبت من
طعامنا ؛ وقدمت إليه طعاماً ، فأصاب منه بإصبعه ، وركب فأتى على أثره أنح لها كان
غائباً فرأى منائح ناقته ؛ فسأله عنه فأخبروه ، فركب حتى رده إلى منزله ، وحلف عليه
ليقيم عنده شهراً . فقال له : لقد شفت على ، ولكنى سأبيع هواك ، والفرارى

يزداد إعجاباً بحديثه وعقله وروايته ، فرض عليه الصَّبر . فقال له : يا هذا ؛ إن فيك لرغبة ، ولكني في شغل لا يُفْتَقِعُ بي منه .

فلم يزل يُعَاوِدُهُ والحيُّ يلومونه ويقولون له : قد خَشِينَا أَنْ يَصِيرَ عَلَيْنَا فِتْنَةٌ سَبَّةٌ . فقال : دَعُونِي فِي مِثْلِ هَذَا الْفَتَى يَرْغَبُ الْكِرَامَ . فلم يزل به حتى أَجابه ، وعقدَ الصَّبرَ بينه وبينه على أُخْتِهِ لِلْمَاءِ لُبْنَى ، وقال له : أَنَا أَسْأَلُ عَنْكَ صَدَاقَهَا . فقال : أَنَا وَاللَّهِ يَا أَخِي أَكْثَرُ قَوْمِي مَالًا . فاحْجُثْكَ إِلَى تَكْلِيفِ هَذَا ؟ أَنَا سَأُتْرَكُ إِلَى قَوْمِي وَسَأَتَّقِي إِلَيْهَا النَّهْرَ . ففعل وأعلم أباه الذي كَانَ مِنْهُ ؛ فَسَرَّهُ وَسَاقَ النَّهْرَ عَنْهُ .

ورجع إِلَى الْفَزَارِيِّينَ حَتَّى أَذْخَلَتْ عَلَيْهِ زَوْجَتَهُ ، فلم يَرَوْهُ هَشًّا إِلَيْهَا وَلَا دَنًا مِنْهَا ؛ وَلَا خَاطِبًا بِمَحْرَفٍ وَلَا نَظَرَ إِلَيْهَا .

وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ أَيَّامًا كَثِيرَةً ؛ ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَرِيدُ الْخُرُوجَ إِلَى قَوْمِهِ أَيَّامًا ، فَأَذِنُوا لَهُ فِي ذَلِكَ ؛ فَضَى لَوَجْهَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِهَا ، فَأَتَاهُ فَأَعْلَمَهُ الْأَنْصَارُ أَنَّ خَيْرَ تَزْوِيجِهِ بَلَّغَ لُبْنَى فَفَعَّمَهَا وَقَالَتْ : إِنَّهُ لَمَقْدَارٌ ! وَلَقَدْ كُنْتُ أَمْتَنُ مِنْ إِجَابَةِ قَوْمِي إِلَى التَّزْوِيجِ فَأَنَا الْآنَ أَجِيبُهُمْ .

وَقَدْ كَانَ أَبُوهَا شَكَا قَيْسًا إِلَى مَعَاوِيَةَ ، وَأَعْلَمَهُ نَعْرَضَهُ لَهَا بَعْدَ الطَّلَاقِ ، فَكَتَبَ إِلَى مِرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ يَهْدِرُ دَمَهُ إِنَّ نَعْرَضَ لَهَا ، وَأَمَرَ أَبَاهَا أَنْ يُزَوِّجَهَا جَلَابِيفَ بَنِي عَمَلَةَ بْنِ حِلْزَةَ ، فَزَوَّجَهَا أَبُوهَا مِنْهُ ، لِجَعْلِ نَسَاهُ الْحَيَّ يَقْلَنَ لَيْلَةَ زِفَافِهَا :

لَبِئْسَ زَوْجُهَا أَصْبَحَ لَا حُرَّ بَوَادِيهِ
لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ بِمَا بَاتَتْ تَفَاجِيهِ
وَقَيْسٌ مَيِّتٌ حَتَّى صَرِيحٌ فِي بَوَاكِيهِ
فَلَا يُبْعِدُهُ اللَّهُ وَبُعْدًا لِأَنْوَاعِهِ

فَجَزَعَ قَيْسٌ جَزْعاً شديداً ، وجعل ينشيج أحرَّ نَشِيجٍ ويبيكي أحرَّ بكا .
ثم ركب من قَوْزِهِ حتى أتى مَحَلَّةَ قومِها ، فناداه النساء : ما تصنعُ الآنَ هاهنا ؟
قد نُفِلْتُ لُبْنَى إلى زوجها ! وجعل الفتيانُ يَمَارِضُونَهُ بهذه اللَّقَالَةِ وَأَشْبَهَها وهو
لا يجيبهم حتى أتى موضعَ خِيَابِها ، فنزل عن راحلته وجعل يَتَمَتَّعُ^(١) في موضعها ؛
وَيَمْرُغُ خَدَّهُ على تَرَابِها ، ويبيكي أحرَّ بكا ، ، ثم قال :

إلى الله أَشْكُو قَدْ لُبْنَى كَأَشْكََا	إلى الله قَدَّ الوالدَيْنِ يَتِيمُ
يَتِيمٌ جَفَاءُ الْأَفْرَافِونَ فَجِئْتُهُ	نَحْمِلُ وَعَهْدُ الوالدَيْنِ قَدِيمُ
بَكَتْ دَارُهُمْ مِنْ نَأْيِهِمْ قَهَلْتُ	دَمْعِي ، فَأَيُّ الْجَارِ عَيْنِ الْأَوْمُ ؟
أَسْتَمِيرُ بِبَيْكِ مِنَ الشَّوْقِ وَالْهَوَى	أَمْ آخِرَ بَيْكِ شَجْوُهُ وَيَهْمُ
تَهَيَّضِي ^(٢) مِنْ حُبِّ لُبْنَى عِلَاقُ	وَأَصْنَافِ حُبِّ مَوْلَاهُنَّ عَظِيمُ
وَمَنْ يَتَلَقَّ حُبَّ لُبْنَى فَوَادُهُ	يَمُتْ أَوْ يَمِشْ مَا عَاشَ وَهُوَ كَلِيمُ
فَأَيُّ وَإِنْ أَجَمْتُ عَنْكَ تَجَلَّدَا	على الْعَهْدِ فَمَا يَبْنِنَا لَمُقِيمُ
وَإِنْ زَمَانًا شَقَّتْ الشَّمْلَ يَبْنِنَا	وَيَبْنِنُكُمْ فِيهِ الْعِدَا لَمُسُومُ
أَتَى الْحَقُّ هَذَا أَنْ قَلْبِكَ قَارِغُ	صَحِيحٌ وَقَلْبِي فِي هَوَاكِ سَقِيمُ ا

وَشَخَّصَ أَبُو لُبْنَى إِلَى معاوية ، فشكا إليه قَيْساً ، وَتَمَرَّضَهُ لَابَنَتِهِ بَعْدَ طَلَاقِهِ
إِيَّاهَا ، فَكَتَبَ معاويةَ إِلَى مَرْوَانَ يُهْدِرُ دَمَهُ إِنْ أَلَمَّ بِهَا ، وَأَنْ يَشْتَدَّ فِي ذَلِكَ .

(١) يَتَمَتَّعُ : يَمْرُغُ . (٢) تَهَيَّضُ : انْكَسَرُ .

فكتب مروان في ذلك إلى صاحب الماء الذي ينزله أبو لُبَيْي كتاباً وكيداً ؛
 ووجهت لُبَيْي رسولاً قاصداً إلى قيس تُعليه ما جرى وتُحذّره .
 وبلغ أباه الخبر ، فاتبه ، وقال له : انتهى بك الأمر إلى أن يُهدّر السلطان
 دمك ؟ قال :

فإن يحجبوها أو يحلّ دون وصلها	مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يمنعوا عني من دائم البكا	ولن يذهبوا ما قد أجنّ ضميري
إلى الله أشكو ما ألاق من الهوى	ومن حرقي تمكأني وزفير
ومن حرقي للحب في باطن الحسى	وليل طویل الحزن غير قصير
سأبكي على نفسي بعين غزيرة	بكاء حزين في الوفاق أسير
وكنّا جميعاً قبل أن يظهر الهوى	بأنتم حالي غبطة وسرور
فأبرح الواشون حتى بدت لهم	بطون الهوى مقاربة لظهور
لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا	ولكننا الدنيا متاع غرور

وحجّ قيس بن ذريح ، واتفق أن حجت لُبَيْي في تلك السنة ، فرآها ومعهما
 امرأة من قومها ؛ فذهش ، وبقى واقفاً مكانه ومضت لسبيلها .
 ثم أرسلت إليه بالمرأة تبثفه السلام وتسأله عن خبره ، فألقته جالساً وحده
 يفشد ويبكي :

ويوم ميّ أعرشت عني فلم أقل
 بمحاجة نفس عند لُبَيْي مقالها
 وفي اليأس للنفس للريضة راحة
 إذا النفس رامت خطّة لا تنالها

فدخلتُ خِباءَهُ وجعلتُ تحذِّرُهُ عن بُنى وبخدتها عن نفسه مَلِيًّا ، ولم تعلمه أن
 بُنى أرسلتها إليه ، فسألها أن تبْلُغها عنه السلام ، فامتنعت عليه ؛ فأنشأ يقول :

إذا طلعتْ شمسُ النهارِ فسَلِّى فأَيُّه تسلِيى عليكِ طلوعُها
 بعشرِ تحياتٍ إذا الشمسُ أُشْرِقتْ وعشرٍ إذا اصْفَرَّتْ وحنَ رجوعُها
 ولو أبلتها جارةٌ قوليَّ أسَلِّى بكتٍ جزعاً وارفضِ منها دموعُها
 وبأنِّ الذى تُخْفِي من الوجْدِ فى الجَسَى إذا جاءها عني الحديثُ يرْوَعُها

وقضى الناسُ حَجَّهم ، وانصرفوا ؛ ففرض قيس فى طريقه مرضاً شديداً أشقى
 منه على الموت ؛ فلم يأتِه رسولُها عائداً ؛ لأنَّ قومها رأوه وعلموا به فقال :

أُلبِنى لقد جَلَّتْ عليكِ مصيبتى غداً غداً إذ حلَّ ما أتوقَّعُ
 تُمنِّئِنى نَيْلاً وتلوِّينى به فنفسى شوقاً كلَّ يومٍ تَقَطِّعُ
 وقلبكِ قطْ ما يلبسُ لما يرى فواكِدِى قد طال هذا التضرُّعُ
 ألوِّمُكِ فى شأنى وَأَنتِ مُلِيمةٌ لعمرى ، وأجفنى للمحبِّ وأقطعُ
 أخبرتِ أنى فىكِ مِيتٌ حسرتى فما فاض من عينيك للوجْدِ مدَمَعُ
 ولكن لعمرى قد بكيتكِ جاهداً وإن كان دأى كلِّه منك أجمعُ
 صبيحةً جاء العائداتُ يمدُّننى فظلتُ علىَّ العائداتُ تَفْجَعُ
 فقاتلةٌ جئنا إليه وقد قَصَى وقاتلةٌ لا ، بل تركناه يَنْزِعُ^(١)
 فاغشيتُ عينيكِ مِنْ ذاكِ عَبرَةً وعينى على ما بى بذكرالكِ تدْمَعُ

فبَلَّغَتْها الأبياتُ ؛ فجزعتُ جزعاً شديداً ، وبكتُ بكاءً كثيراً ، ثم خرجتُ

(١) فى الزرع : أى على شفا الموت .

إليه ليلا على موعد ؛ فاعتذرت وقالت : إنما أبقى عليك وأخشى أن تقتل ، فإنى
أحيا ماك لذلك ، ولولا هذا لما افترقنا ، وودعته وانصرفت .

وبانه أن أهلها قالوا لها : إنه عليل لما به ، وإنه سيموت فى سفره هذا ،
فقال لهم لتدفعهم عن نفسها : ما أراه إلا كاذباً فيما يدعى ، ومتعللاً لا عليلاً ،
فبلغه ذلك فقال :

تَكَادُ بِلَادُ اللَّهِ بِأَمِّ مَعْمَرٍ بِمَا رَحِبَتْ يَوْمًا عَلَى تَغْيِقِ

إلى أن قال :

سمى الدهرُ والواشونَ بيني وبينها فَقُطِعَ جِلُّ الوصلِ وهو وثيق
هل الصبرُ إلّا أن أُصدَّ فلا أرى بِأَرْضِكَ إلّا أن يكون طريق
نم أتى قومه ، فاقطعَ قطعةً من الإبل ، وأعلم أباه أنه يريد للمدينة ليبيعهها ،
ويتمتار لأهله بشمها . فعرف أبوه أنه إنما يريد لُبى ، فصاتبه وزجره عن ذلك ؛
فلم يقبل منه ، وأخذ إليه وقدم للمدينة .

فبينما هو يمرُّ بها إذ ساومه زوجُ لُبى بِنَاقَةٍ منها ، وهما لا يتعارفان فباعه
إياها . فقال له : إذا كان غدًا فأتني فى دار كثير بن الصلتِ فاقبضِ الثمن . قال :
نعم . ومضى زوجُ لُبى إليها ، فقال لها : إني أبتعتُ ناقةً من رجل من أهل البادية ،
هو يأتينا غدًا لقبضِ ثمنها ، فأعدى له طعاماً ، ففعلت .

فلما كان من النداء جاء قيس فصوصت بالخدام وقال : قولى لسيّدك : صاحب الناقة
بالباب . فعرفت لُبى نعمةً فلم تقل شيئاً . فقال زوجها للخدام : قولى له : ادخل .
فدخل جلس . فقالت لُبى للخدام : قولى له : يا فتى ؛ مالى أراك أشعث أغبر ؟

قالت له ذلك . فتنفس ثم قال لها : هكذا تكون حال من فارق الأُحِبَّةَ واختار الموت على الحياة ، وبكى .

قالت لها لُبِّي : قولي له : حَدَّثْنَا حَدِيثَكَ ؛ فلما ابتدأ يُحَدِّثُ به كشفت الحجاب ، وقالت : حَسْبُكَ ا قد عرفنا حَدِيثَكَ ا وأسبَلَتِ الحجاب ؛ فبُهِتَ ساعة لا يَسْكُمُ ، ثم انفجر باكيا ونهض فخرج ؛ فناداه زوجها : ويحك ا ما قصَّتك ؟ ارجع اقبضْ مِن دَقِّكَ وإِنْ شئتَ زِدْ ناك . فلم يكلمه ، ومضى .

وقالت لُبِّي لزوجها : ويحك ا هذا قيس بن ذَرِيح . فما حَلَّكَ على ما فعلتَ به؟ قال : ما عرفته . وجعل قيس يبكي في طريقه ، ويندُب نفسه ، ويوبِّخُها على فِعْلِهِ ، ثم قال :

أَتَبَكَّى عَلَى لُبِّي وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا وَأَنْتَ عَلَيْهَا بِاللَّأَنْتَ أَقْدَرُ
فَإِنْ تَكُنِ الدُّنْيَا بِلُبِّي تَقْلِبْتُ عَلَى فَلِلدُّنْيَا بَطُونٌ وَأَظْهَرُ
لَقَدْ كَانَ فِيهَا لِلْأَمَانَةِ مَوْضِعٌ وَلِلْكَفِّ مُرْتَادٌ وَلِلْمَيِّنِ مَنَظَرُ
وَلِلْحَائِمِ الْمَطْعَمَانِ رِيٌّ بِرِيقِهَا وَلِلدَّرَجِ الْخُتَالِ خَرٌّ وَمُسْكِرُ
كَأَنِّي لَهَا أَرْجُو حَوْثَ بَيْنِ أَحْبَلٍ إِذَا دُرُكَةُ^(١) مِنْهَا عَلَى الْقَلْبِ تَحْطُرُ

وعاد إلى قومه بعد رُؤْيَيْهِ إِيَّاهَا وقد أنكر نفسه ، وأَسِفَ ، وحقَّقَ أمرَ عَظِيمٍ ا فأنكروه ، وسألوه عن حاله فلم يجبرهم ؛ ومرض مرضاً شديداً أشرف فيه على الموت . فدخل إليه أبوه ورجال قومه فكلموه وعاتبوه وناشدوه الله . فقال : ويحكم ا

(١) الذِّكْرَةُ : ضد النسيان .

أَتَرَوْنِي أَمْرَضْتُ نَفْسِي أَوْ وَجَدْتُ لَهَا سَلَوَةً بَعْدَ الْيَأْسِ فَاخْتَرْتُ الْمَهْمَ وَالْبَلَاءَ ،
أُولَى فِي ذَلِكَ صُنْعَ هَذَا مَا اخْتَارَهُ لِي أَبُو أَيُّ وَقَتَلَانِي بِهِ .

لَجَّلَ أَبُوهُ يَبْكِي ، وَيَدْعُو لَهُ بِالْفَرْجِ وَالسَّلَوَةِ ، فَقَالَ قَيْسُ :
لَقَدْ عَذَّبْتَنِي يَا حَبِّ لُبْسِي قَسَحَ لِمَا مَوْتٍ أَوْ حَيَاةٍ
فَإِنَّ لِلْمَوْتِ أَرْوَحَ مِنْ حَيَاةٍ تَدُومُ عَلَى التَّبَاعِدِ وَالشَّقَاتِ
وَقَالَ الْأَقْرَبُونَ : تَمَزَّ عَنْهَا قُلْتُ لَهُمْ : لِمَ ذَنْ حَانَتْ وَقَاتِي^(١)

(١) قد اختلف في آخر أمر قيس ولبي ، فذكر أكثر الرواة أنهما ماتا على انفراقهما ؛ وذكر
بعضهم أنه تزوجها فلم تزل معه حتى ماتا (راجع الأغاني ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ج ٩) .

٤٦ — ما أبالي ما نيل من شعري ومن بشري *

كان بشر^(١) بن مروان شديداً على المصاة فكان إذا ظفر بالماضي أقامه على كرسى وتمر كفيه في الحائط بمسار، ونزع الكرسى من تحته فيضطرب معلقاً حتى يموت .

وكان فتى من بني عجل مع الهلب زهو يحارب الأزارقة، عاشقاً لابنة عم له، فكتبت إليه تستزيره ؛ فكتب إليها :

لولا مخافة بشر أو عقوبته أو أن بشداً على كفى مسار
إذن لمطلت نفري^(٢) ثم زرتكم إن الحب إذا ما أشاق زوار

فكتبت إليه :

ليس الحب الذي ينشى القاب ولو كانت عقوبته في إلفه النار
بل الحب الذي لا شئ يمنعه أو تستقر ومن يهوى به الدار

فلما قرأ كتابها عطل نفره ، وانصرف إليها ، وهو يقول :

أستغفر الله إذ خفت الأمير ولم أخش الذي أنا منه غير منتصر
فشأن بشر بلحصى فليمد به أو يصف عفو أمير خير مقتدر

* الأماي : ٢ - ٣٠

(١) بشر بن مروان: أمير كان سمحاً بنواداً، ولى امرأة المرافين لأخيه عبد الملك، توفي سنة ٧٥ هـ .

(٢) التفر : موضع الخافقة من فروج البلدان .

فأبالي - إذا أمسيت راضيةً يَهْدُ ما نيل من شعري ومن بشري
ثم قدم البصرة ، فأقام إلّا يومين حتى وثى به واش إلى بشر ؛ فقال :
على به أفأتى به ، فقال : يا فاسق ، عطلت نرك ؟ هلموا إلى الكرسي ، فقال :
أعز الله الأمير إن لي عذراً . فقال : وما عذرك ؟ فأنشده الأبيات ، فرق له وكتب
إلى المهلب فأثبتته في أصحابه .

٤٧ - في القَلْبَيْنِ ثُمَّ هَوَى دَفِين*

كان سببُ عشقِ المجنونِ^(١) ليلي ، أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة ،
وعليه حُلَّتَانِ من حَلَلِ اللوك ، فرأى امرأة من قومه يقال لها : كريمة ، وعندها نسوة
يتحدثن ، فيهنَّ ليلي ، فأعجبهنَّ جهاله وكأله ، فدعوته إلى النزول والحديث ، فنزل
وجلسَ يحدثهنَّ ، وأمر عبداً له كان معه ، فمقرَّ لهنَّ ناقته ، وظل يحدثهنَّ بقية
يومه .

فبينما هو كذلك ، إذ طلع عليهن فتى عليه بُردَةٌ من بُردِ الأغراب يقال له :
« مُنَازِل » يسوقُ مِعْزَى له ، فلما رأيته أقبلنَّ عليه ، وتركنَّ المجنونَ ، فغضب
وخرج من عندهنَّ وأنشأ يقول :

أَأَعْمُرُ مِنْ جَرٍّ^(٢) كَرِيمَةً نَاقَتِي وَوَصَلِي مَفْرُوشٍ^(٣) لَوْضِلْ مُنَازِلِ
إِذَا جَاءَ قَمَقَمِ الْخَلِيٍّ وَلَمْ أَكُنْ إِذَا جِئْتُ أَرْضِي صَوْتَ تِلْكَ الْخِلَازِلِ
مَقَى مَا انْتَصَلْنَا^(٤) بِالسَّهَامِ نَصَلَتْهُ^(٥) وَإِنْ نَزَمَ رَشَقًا^(٦) عِنْدَهَا فَنُو نَاصِلِ

فلما أصبح ليس حُلَّتُهُ ، وركب ناقةً له أخرى ، ومضى متعرضاً لهنَّ ، فالتقى
ليلى قاعدةً بفناء بيتها ، وقد علق حبله بقلبيها وهو يتكلم ، وعندها جَوَّيرِياتٌ يتحدثنَّ

● الأناشي : ١٢ : ٧

- (١) هو قيس بن اللوح من بني عامر ، وصاحبه هي ليل بنت مهدي ، ونسكني أم باقك ، وقد استفاضت كتب الأدب بأخبار عشقه ، واختلف الرواة في صحة نسبها إليه ، توفي سنة ٨٠ هـ .
(٢) من جرا : من أجل . (٣) مفروش : مهد لوصله وسبيل إليه . (٤) انتصلنا : ترامينا .
(٥) نصلته : سبقته . (٦) الرشق : رمى أهل التصال مامهم من السهام في جهة واحدة .

معيها، فوقف بهن^١ وسلم، فدعونه للنزول وقلن له : هل لك في محادثة من لا يشغلُه
عنك مُنازلٌ ولا غيره ؟ فقال : إني لعمري ! فترى فعل مثل ما فعله بالأمس ،
فأرادت أن تعلم ، هل لما عنده مثل ما له عندها، فجعلت تُعرض عن حديثه ساعة
بفد ساعة ، وتحدثت غيره ، وقد كان عليّ بقلبها مثل حبها إياه ، وشفتته
واستملحها .

فبينما هي تُحدثه إذ أقبل فتى من الحى ، فدعته وسارته سِراراً^(١) طويلاً ،
ثم قالت له : انصرف ، ونظرت إلى وجه المجنون فوجده قد تغير ، وانتفع^(٢)
لونه ، وشق عليه فعلها ، فأنشأت تقول :

كَلَّانا مُظَاهِرٌ لِلنَّاسِ بَعْضًا وَكُلٌّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِينٌ^(٣)

تَبَلَّفْنَا الْعِيُونَ بِمَا أَرَدْنَا وَفِي الْقُلُوبِ نَمٌّ هَوَى دَفِينٌ

فلما سمع البيتين شفق شهقة شديدة وأغمى عليه ، فكث على ذلك ساعة .
ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق ، وتمكن حب كل واحد منهما في قلب صاحبه
حتى بلغ منه كل مبلغ .

(١) سراراً : مصدر ساره في أذنه سارة وسراراً . (٢) انتفع : تغير لونه . (٣) فلان مكين
عند فلان : بين المكاينة .

٤٨ — أَخْبَرَنِي عَنْ لَيْلَةِ النَّيْلِ*

اجتاز قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ بِالْمَجْنُونِ وَهُوَ جَالِسٌ وَحْدَهُ فِي نَادَى قَوْمِهِ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُشْتَاقًا إِلَى لِقَاءِ الْآخَرِ، وَكَانَ الْمَجْنُونُ قَبْلَ تَوْخُّشِهِ لَا يَجْلِسُ إِلَّا مُنْفَرَدًا، وَلَا يَحْدُثُ أَحَدًا، وَلَا يَرُدُّ عَلَى مُتَكَلِّمٍ جَوَابًا، وَلَا عَلَى مُسَلِّمٍ سَلَامًا، فَلَمَّ عَلَيْهِ قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ، فَوَيْبٌ إِلَيْهِ فَمَاتَقَهُ وَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ يَا أَخِي، أَنَا وَاللَّهِ مَذْهُوبٌ بِي، مُشْتَرِكُ الْأَلْبِ فَلَا تَلْمِزْنِي؛ فَصَدَقْنَا سَاعَةً وَنَشَاكِيَا وَبَكِيَا.

ثُمَّ قَالَ لَهُ الْمَجْنُونُ: يَا أَخِي؛ إِنْ حَيَّ لَيْلَىٰ مَنَا قَرِيبٌ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَعْفَى إِلَيْهَا فَتَبْلُغَهَا عَنِ السَّلَامِ؟ قَالَ لَهُ: أَفْضَلُ.

فَعَفَى قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ حَتَّىٰ أَتَىٰ لَيْلَىٰ فَلَمَّ وَانْتَسَبَ؛ فَقَالَتْ لَهُ: حَيَّاكَ اللَّهُ، أَلَيْكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ ابْنُ عَمِّكَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ بِالسَّلَامِ؛ فَأُطْرَقْتُ ثُمَّ قَالَتْ: مَا كُنْتَ أَهْلًا لِلتَّحِيَّةِ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ رَسُولُهُ، قُلْ لَهُ عَنِّي: أَرَأَيْتَ قَوْلُكَ:

أَبَتْ لَيْلَىٰ النَّيْلُ^(١) يَا أُمَّ مَالِكٍ لَكُمْ غَيْرَ حَبٍّ صَادِقٍ لَيْسَ بِكَذِبٍ
أَلَا إِنَّمَا أُبَيِّتَ يَا أُمَّ مَالِكٍ صَدَى^(٢) أَبْنَا تَذَهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبُ

أَخْبَرَنِي عَنْ لَيْلَةِ النَّيْلِ، أَيُّ لَيْلَةٍ هِيَ؟ وَهَلْ خَلَوْتُ مَعَكَ فِي النَّيْلِ أَوْ غَيْرِهِ

* الأغانى: ٢ - ٦٣

(١) النيل: اسم وادٍ ببني جفنة. (٢) الصدى يطلق على الرجل التحيف الجسد.

ليلاً أو نهراً ؟ فقال لها قيس : يا بنة عم ، إن الناس تأولوا كلامه على غير ما أراد ، فلا تكوني مثلهم ، إنما أخبر أنه رأى ليلة الفيل فذهبت بقلبه ، لا أنه عناك^(١) بسوء .

فأطرفت طويلاً ودموعها تجري وهي تُكفِّفُها ، ثم انتحبت حتى ظنَّ أنه تقطعت حيازيمها^(٢) ؛ ثم قالت : اقرأ على ابن عمي السلام ، وقل له : بنفسى أنت ! والله إن وجدني بك لتوق ما تجد ، ولكن لا حيلة لي فيك ؛ فانصرف قيس ليخبره فلم يجد .

(١) عنا : قصيد . (٢) حيازيم : جمع حيزوم ، وهو المدر أو وسطه .

٤٩ — أيا شبة ليلي لا تراعى*

مرّ المجنون برجلين وقد صادا غليبةً فربطاهما بحبلٍ وذهبا بها ، فلما نظرا إليها
وهي تركض في حبائلهما دمت عيناها ، وقال لهما : خلّاهما وخذا مكانها شاةً من
غنمي ، ثم أنشدتهما :

يا صاحبيّ اللذين اليوم قد أخذّا في الحبل شبةً ليليّ ثم غلاها
إني أرى اليوم في أعطافِ شاتيكما مشابهاً أشبهت ليلى فعلّاهما
ثم أعطاهما الشاة فعلاها ، فولّت هاربة ، فقال - وقد نظر إليها وهي تمعدو :
أيا شبة ليلي لا تراعى^(١) ؛ فإنني لك اليوم من وخشيّة لصديقي
ويا شبة ليلي لو تلبّثت ساعةً لعلّ فؤادي من جواه يُفيق
فصيناك عيناها وجيدك جيدها ولكنّ عظم الساق منك دقيق
أقول وقد أطلقتهما من وثاقها لأنّ ليلى ما حيت طليق

* الأناشي : ٢ - ٨١ - لأن العرب - مادة روع .

(١) لا تراعى : لا تحاق.

٥٠ - اسْتَبْكَاَنِ السَّيْلُ إِذْ جَرَى *

قال رجل من بني عامر :

مُطِرْنَا مَطَرًا شَدِيدًا فِي رَيْبِيعٍ ، وَدَامَ الْمَطَرُ ثَلَاثًا ثُمَّ أَصْبَحْنَا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ
عَلَى صَحْرَى ، وَخَرَجَ النَّاسُ يَمْشُونَ عَلَى الْوَادِي ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا جَالِسًا حَجَرَةً ^(١)
وَحْدَهُ ؛ فَقَصَدْتُهُ ، فَإِذَا هُوَ الْمَجْنُونُ جَالِسٌ وَحْدَهُ يَبْكِي ، فَوَعظْتُهُ وَكَلَّمْتُهُ طَوِيلًا ،
وَهُوَ سَاكِتٌ لَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ إِلَيَّ ؛ ثُمَّ أَشْدَى بِصَوْتٍ حَزِينٍ لَا أُنْسَاهُ أَبَدًا :
جَرَى السَّيْلُ فَاسْتَبْكَاَنِ السَّيْلُ إِذْ جَرَى وَقَاضَتْ لَهُ مِنْ مُقَلَّتِي غُرُوبٌ ^(٢)
وَمَا ذَاكَ إِلَّا حِينَ أَقْنَتُ أَنَّهُ يَكُونُ بَوَادِي أَنْتَ فِيهِ قَرِيبٌ
يَكُونُ أَجَاجًا ^(٣) دُونَكُمْ فَإِذَا انْتَهَى إِلَيْكُمْ تَلَقَّى طَيْبَكُمْ فَيُعْطِبُ
أَغْلَى غَرِيبَ الدَّارِ فِي أَرْضِ عَامِرٍ إِلَّا كُلُّ مَهْجُورٍ هُنَاكَ غَرِيبٌ
وَلِإِنَّ الْكَثِيبَ الْفَرْدَ مِنْ أَيْمَنِ الْحِمَى إِلَيَّ وَإِنْ لَمْ آتِهِ لَحِيبٌ
فَلَا خَيْرَ فِي الدُّنَا إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزُرْ حَبِيبًا وَلَمْ يَطْرَبْ إِلَيْكَ حَبِيبٌ

* الأغانى : ٢ - ٦٣

(١) حجرة : ناحية . (٢) الغروب : جمع غرب ، وهو الجمع . (٣) ماء أجاج : ملح مر .

٥١ — عهد جبل التَّوْبَادِ*

كان المجنون وليلى ومها صَبِيَّانِ يَرْعَيَانِ غَنَمًا لَأَهْلِهْمَا عِنْدَ جَبَلٍ فِي بِلَادِهِمَا
يُقَالُ لَهُ التَّوْبَادُ^(١)، فَلَمَّا ذَهَبَ عَقْلُهُ وَتَوَحَّشَ كَانَ يَجِيءُ إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ فَيَقِيمُ بِهِ،
فَإِذَا تَذَكَّرَ أَيَّامَ كَانَ يُطِيفُ هُوَ وَلَيْسَى بِهِ جَزَعٌ شَدِيدًا، وَاسْتَوْحَشَ؛
فَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى بَاتَى نَوَاحِيَ الشَّامِ، فَإِذَا تَلَبَّ إِلَيْهِ عَقْلُهُ رَأَى بِلَدًا لَا يَعْرِفُهَا؛
فَيَقُولُ لِمَنْ يَلْقَاهُمْ مِنَ النَّاسِ: يَا أَبَى أَنْتُمْ! أَيْنَ التَّوْبَادُ مِنْ أَرْضِ بَنِي عَامِرٍ؟
فَيَقُلُّ لَهُ: وَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ أَرْضِ بَنِي عَامِرٍ! أَنْتَ بِالشَّامِ! عَلَيْكَ بَنَجَمٌ كَذَا فَأَمَّهُ!
فَيَمْضِي عَلَى وَجْهِهِ نَحْوَ ذَلِكَ النَجْمِ حَتَّى يَقَعَ بِأَرْضِ الْهِنِ، فَيَرَى بِلَادًا يُنْكِرُهَا
وَقَوْمًا لَا يَعْرِفُهُمْ فَيَسْأَلُهُمُ عَنِ التَّوْبَادِ وَأَرْضِ بَنِي عَامِرٍ، فَيَقُولُونَ: وَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ
أَرْضِ بَنِي عَامِرٍ! عَلَيْكَ بَنَجَمٌ كَذَا وَكَذَا، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَقَعَ عَلَى التَّوْبَادِ،
فَإِذَا رَأَاهُ قَالَ فِي ذَلِكَ:

وَأَجْهَشْتُ ^(٢) لِلتَّوْبَادِ حِينَ رَأَيْتُهُ	وَكَبَّرَ لِلرَّحْمَنِ حِينَ رَأَيْتَنِي
وَأُذِرْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ لَمَّا عَرَفْتُهُ	وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ فِدْعَانِي
قُلْتُ لَهُ: قَدْ كَانَ حَوْلَكَ جِيرَةٌ	وَعَهْدِي بِذَلِكَ الْعَصْرِ مِنْذُ زَمَانٍ
قَالَ: مَضَوْا وَاسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ	وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْخَدَعَانِ!
وَأَنِّي لِأَبْكِي الْيَوْمَ مِنْ حَذَرِي غَدًا	فِرَاقَكَ وَالْخِيَارَ مُجْتَمِعَانِ
سَجَا لَا وَهْتَانًا ^(٣) وَوَبْشًا وَدِيمَةً	وَسَكَّ سَجَامًا ^(٤) إِلَى هَمْلَانِ

* الأغانى: ٢ - ٥

- (١) جبل بنجد: (٢) أجهش إليه: فزع إليه وهو يريد البكاء. (٣) هنتت السما: صبت
(٤) سجتت السحابة مطرها إذا صبته

٥٢ — حديث المجنون عن كليل *

قال أحد الرواة : قلت لقيس بن اللوح قبل أن يخالط^(١) : ما أعجب شيء أصابك في وجدك بليلى ؟ قال : طرقتنا ذات ليلة أضياف ، ولم يكن عندنا لهم أدم ، فبعثني أبي إلى منزل أبي ليلى ، وقال لي : اطلب لنا منه أدمًا . فأتيتُه فوقفت على خبائه فصيحته به ، فقال : ما تشاء ؟ قلت : طرقتنا ضيفان ولا أدم عندنا لهم ، فأرسلني أبي أطلب منك أدمًا ، قال : يا ليلى ؛ أخرجني إليه ذلك النحى^(٢) ، فأملت له إناءه من السم . فأخرجته ومعى قعب^(٣) ، فجعلت نعب السم فيه وتحدث ، فألهانا الحديث وهي نعب السم وقد امتلأ القعب ولا نعلم جميعاً ، وهو يسيل حتى استنقعت أرجلنا من السم .

فأتيتهم ليلة ثانية أطلب ناراً ، وأنا متلقع برؤدي ، فأخرجت لي ناراً في عطفة^(٤) لي فأعطيتنيها ، ووقفتنا تحدث ، فلما احترقت العطفة خرقت من رؤدي خرقة ، وجعلت النار فيها ، فكلما احترقت خرقت أخرى ، وأذ كيت بها النار حتى لم يبق على من البرد إلا ما وارى عورتى ، وما أعقل ما أصنع !

* الأناى : ٢ - ٣١

(١) خوط في عقله : فسد عقله . (٢) النحى : الرق يوضع فيه السم . (٣) القعب : القدح الضخم المليظ . (٤) العطفة : خرقة تؤخذ بها النار .

٥٣ - حَلَالٌ لِلْيَلَى شَتْمُنَا

سأل اللوح - أبو الجنون - رجلاً قديماً من الطائف أن يَمُرَّ بالجنون فيجلس إليه فيخبره أنه أتى ليلي وجلس إليها ، ووصف له صفات منها ومن كلامها يسرفها الجنون ؛ وقال له : حدثني بها ، فإذا رأيتَه قد اشتَرَأَبَ^(١) لحديثك واشتهاه فمرَّه أنك ذكرته لها ووصفتَ ما به فشتَمْتَه وسبَّه ، وقالت : إنه يكذب عليها ويُشهرها^(٢) بفعله ، وإنها ما اجتمعت به قط كما يصفُ .

ف فعل الرجلُ ذلك ، وجاء إليه فأخبره بلفاظه إياها ، فأقبل عليه وجعل يُسألُه عنها ، فيخبره بما أمره به اللوح ، فيزداد نشاطاً ويثوبُ إليه عقلُه ، إلى أن أخبره بـبها إياه وشتَمها له ، فقال - وهو غير مُكثِرٍ لما حكاه عنها :

تَمَرُ الْعَبَا صَفْحًا بَسَا كُنْ ذِي الْفَقَى وَيَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهَبَ هُبُوبُهَا
إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ الشَّامِلُ فَأَتَمْنَا جَوَايَ بِمَا تَهْدِي إِلَى جَنُوبُهَا
قَرِيبُهُ عَهْدٌ بِالْحَبِيبِ وَإِنَّمَا هُوَ كُلُّ نَفْسٍ حَيْثُ كَانَ حَبِيبُهَا
وَحَسْبُ اللَّيَالِي أَنْ طَرَحْنَاكَ مَطَرَحًا بَدَارِ قَلْبِي تُمَسِّي وَأَنْتَ غَرِيبُهَا
حَلَالٌ لِلْيَلَى شَتْمُنَا وَانْقَاصُنَا هَنِئْنَا وَمَقُورٌ لِلْيَلَى ذُنُوبُهَا

• الأغانى : ٧ - ٨٥ •

(١) اشتَرَأَبَ إليه : مدَّ يده لينظر ، أو ارتفع .

(٢) الشُّهْرَة : ظهور الشيء في شُمة ، شهره كمنه ، وشهره واشتهره فاشتهر .

٥٤ - إن دأى ودأى أنت *

قال بعض مشايخ بني عامر :

مرَّ المجنونُ في تَوَحُّشِهِ فصادفَ حَيَّ لَيْلى راحِلاً ، ولقيها فجأةً ، فرفها
ومرفقةً ، فصقَّ وخرَّ مغشياً على وجهه .

وأقبلَ فَنَيَّانَ مِنْ حَيِّ لَيْلى ؛ فأخذوه ومَسَحُوا الترابَ عن وجهه ، وأسندوه
إلى صدورهم ، وسألوا لَيْلى أَنْ تَقِفَ لَهُ وَقْفَةً ؛ فَرَفَّتْ لِمَا رَأَتْهُ بِهِ ؛ وقالت : أَمَا هَذَا
فَلَا يَجُوزُ أَنْ أَقْضِىَ بِهِ ، ولكن يا فُلانة - لَأَمَةٍ لَهَا - أذهبى إلى قَيْسِ فَقُولِي لَهُ :
لَيْلى تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ ، وتقولُ لك : أُعِزِّزْ عَلَىَّ بِمَا أَنْتَ فِيهِ ، ولو وَجَدْتُ سَبِيلًا
إِلَى شِفَاءِ دَائِكَ لَوْ قَيْتُكَ بِنَفْسِي مِنْهُ . فَضَضَتِ الْوَلِيدَةُ^(١) إِلَيْهِ ، وأخبرتُهُ بِقَوْلِهَا ،
فَأفاقَ وجلسَ وقال : أَبْلَغِيهَا السَّلامَ وَقُولِي لَهَا : هَيْبَاتِ ! إِنْ دَأَى وَدَأَى أَنْتِ ؛
وإِنْ حَيَاتِ وَوَفَاتِ لَنِي بِدَيْكَ ، ولقد وَكَلْتُ بِي شِفَاءَ لَازِمًا ، وبلاءَ طَوِيلًا ، ثم
بَكَى وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَقُولُ لِأَهْجَانِي هِيَ الشَّمْسُ صَوْرُهَا قَرِيبٌ وَلَكِنْ فِي تَنَاوُلِهَا بُدْءُ
لَقَدْ عَارَضَتْنا الرِّيحُ مِنْهَا بِنَفْحَةٍ عَلَى كَيْدِي مِنْ طَيْبِ أَرْوَاحِهَا بَرْدُ

* الأغانى : ٢ - ٦٤

(١) الوليدة : الجارية .

فَا زَلْتُ مُشِيئًا عَلَىَّ وَقَدْ مَضَتْ
 أَقْلَبُ بِالْأَيْدِي وَأَهْلِي بِمَوَلَةٍ^(٢)
 وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْجِلْدُ وَالْعَظْمُ عَارِيًا
 أَذْنِيَّ مَا لِي فِي انْقِطَاعِي وَرَغْبَتِي
 عِدْبِي - بِنَفْسِي أَنْتِ - وَعَدَا فَرُبَّمَا
 وَقَدْ يُبْتَلَى قَوْمٌ وَلَا كَبِيلَتِي
 غَزَّتْنِي جُنُودُ الْحُبِّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
 أَنَا^(١) وَمَا عَلَيَّ جَوَابٌ وَلَا رَدُّ
 يُفَدُّونَنِي لَوْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُفَدُّوا
 وَلَا عَظْمٌ لِي إِنْ دَامَ مَا بِي وَلَا جِلْدٌ
 إِلَيْكَ ثَوَابٌ مِنْكَ دَيْنٌ وَلَا نَقْدٌ
 جَلَا كُرْبَةُ الْكَرُوبِ عَنْ قَلْبِي الْوَعْدُ
 وَلَا مِثْلَ جَدِّي^(٣) فِي الشَّقَاءِ بِكُمْ جَدُّ
 إِذَا حَانَ مِنْ جَنْدِ قَقُولٍ^(٤) أَتَى جُنْدُ

(١) أَنَا : انتظار . (٢) المولة : رفع الصوت بالبكاء . (٣) الجند : الخط . (٤) الققول : رجوع الجند بعد الفوز .

٥٥ — ما رأيت مثل حُرَّتِها ووجدِها عليه

قال بعضُ أشياخِ بني مُرَّة : خرج منا رجلٌ إلى ناحية الشام والحجاز وما إلى
تيماء والسَّراة^(١) وأرضِ نجد ؛ في طلب بُنيَّةٍ له ، فإذا هو بِبُنيَّةٍ قد رُفِعَتْ له
وقد أصابه المطر ؛ فدخل إليها وتَنَحَّجَ ، فإذا امرأة قد كلمَتْهُ ، قالت : انزل ،
فَنزل - وراحت ، إيلهم وغَنَمهم فإذا أمرٌ عظيم - . قالت : سَلُوا هذا الرجلَ مِنْ
أَيْنَ أَقْبَلْتُ : من ناحية تيماء ونجد ، قالت : ادخل إليها الرجل .

فدخلتُ إلى ناحية من الخَيْمَةِ ، فَأَرَحَّتْ بِنِيَّ وبينها سترٌ ، ثم قالت لي :
يا عبيدَ الله ؛ أَيُّ بلادِ نجدٍ وُلِدْتَ ؟ قلت : كُلِّها ؛ قالت : فِيمَنْ نَزَلْتَ هُنَا ؟
قلت : بِنِيَّ عامر ، فَتَنَفَّسَتِ الصُّدَاءُ ، ثم قالت : فَبِأَيِّ بَنِي طامِرٍ نَزَلْتَ ؟ قلتُ :
بِنِيَّ الحُرَيْشِ ، فَاسْتَمَبَرْتُ^(٢) . ثم قالت : فهل سمعتَ بِذَكَرِ فَنِيٍّ مِنْهُمْ يُقالُ له :
فَنِيٌّ بِنِ المَلُوحِ ويلقَّبُ بالمجنون ؟ قلت : بلى والله ! وعلى أُمِّهِ نَزَلْتُ ، وَأَتَيْتُهُ
فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ بِهَيْمٍ فِي تِلْكَ النَّيَافِ^(٣) ، وَيَكُونُ مَعَ الوَحْشِ لَا يَعْقِلُ وَلَا يَفْهَمُ إِلَّا
أَنَّهُ تَذَكَّرَ امرأة يُقالُ لها : لَيْلى ، فَيَبْكِي وَيُنْشِدُ أَشْعَاراً قالها فيها .

فَرَفَعْتُ السِّتْرَ بِنِيَّ وبينها ، فإذا فَلَقَةٌ قَرْمَلَزَتْ عَيْنِي مِثْلَهَا ؛ فَبَكَتُ حَتَّى
خَلَفْتُ - والله - أَنَّ قَلْبَهَا قد انْصَدَعَ ، قلت : أَيُّهَا الْمَرْأَةُ ؛ اتَّقِ اللَّهَ فَاقْلَتُ بِأَسَا .
فَكَثْتُ طَوِيلًا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ مِنَ الْبُكَاءِ والنَّحِيبِ ، ثم قالت :

* الأغانى : ٢ - ٣٦

(١) السَّراة : الجبال والأرضُ الماخِزة بين تيماء ونجد . (٢) استمبرت : جرت عبرتها وحزنت .

(٣) الصَّحَارَى .

ألا ليت شعري ، ، والخطوبُ كثيرة متى رَحِلُ قَيْسٍ مُسْتَقِلٌ^(١) فَرَا جِمْ
بِنَفْسِي مَنْ لَا يَسْتَقِلُّ بِرَحْلِهِ وَمَنْ هُوَ إِنْ لَمْ يَحْفَظِ اللَّهَ ضَائِعُ
نَمْ بَكَتْ حَتَّى سَقَطَتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا ، قُلْتُ لَهَا : مَنْ أَنْتِ يَا أُمَّةَ اللَّهِ ؟
وَمَا قِصَّتُكَ ؟ قَالَتْ : أَنَا لَيْلَى صَاحِبَتُهُ لِلشُّنْمَةِ - وَاللَّهِ عَلَيْهِ ، غَيْرُ الْوَأْنَسَةِ لَهُ ،
فَارَأَيْتُ مِثْلَ حَزْنِهَا وَوَجْدِهَا عَلَيْهِ قَط .

(١) استقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

٥٦ - عند الكعبة*

رُوي أن أبا الجنون وأمه ورجالَ عشيرته اجتمعوا إلى أبي ليلي ، فوعظوه وناشدوه الله والرحم ، وقالوا له : إن هذا الرجل هالكٌ ، وقَبِلَ ذلك هو في أَفْجَحٍ من الهلاك بذهاب عقله ، وإنك فاجِعٌ به أباه وأهلُه ، فَشَدَّ نَاكَ اللهُ والرحمَ أن تَفْعَلَ ذلك ، فوالله ما هي أشرفُ منه ولا لك مثلُ مالِ أبيه ، وقد حَكَمَك في الهر ، وإن شئت أن يَخْلَعَ نفسه إليك من ماله قَل .

فأبى وحَلَفَ بالله وبطلاقِ أمِّها إنه لا يزوجه إياها أبداً ، وقال : أَفْضَحُ نفسي وعشيرتي وآتي ما لم يَأْتِهِ أَحَدٌ من العرب ، وأَسِمَ^(١) ابنتي بِمَيْسَمٍ فضيحةً فانصرفوا عنه ، وخالفهم لوقتِه فزوجه رجالاً من قومها وأدخلها إليه .

فأُسمى إلا وقد بنى^(٢) بها ، وبلغ الجنونَ انخبرُ فأيس^(٣) منها حينئذٍ وزال عقله ، فقال رجالُ الحى لأبيه : احجُبْ به إلى مكة ، وادعُ الله عزَّ وجلَّ له ، ومُرَّه أن يتعلّقَ بأستارِ الكعبةِ ، فيسألَ الله أن يُعافيه بما به ، ويُبْقِضَها إليه ، فَكَلَّمَ اللهُ أن يَخْلَصَهُ من هذا البلاء .

فحجَّ به أبوه ؛ فلما صاروا بمنى سمعَ صائحاً في الليل يصيح : يا ليلي ! فصرخ صرخةً ظنوا أن نفسه قد تَلَفَتْ ، وسقطَ مَغْشِيًّا عليه ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ثم أفاق حائلُ^(٤) اللون ذاهلاً ، فأنشأ يقول :

* الأغانى : ٣ - ٢١

(١) اسم : أصف . (٢) بنى : دخل بها . (٣) أيس : يش . (٤) حائل اللون : متغيره .

ترخّصت على قلبي التّزاء فقال لي : من الآن فأينأمن لا أعزك من صبر
 إذا بانَ مَنْ يَهْوَى وأصبح نائياً فلا شيء أجدى من حُلُوك في التبر
 وداع دَعَا إذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ ^(١) من مَيّ فمهيّج أحزان القواد وما يدري
 دعا باسمي ليلي غيرها ، فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدرى
 دَعَا باسمي ليلي ضلّ الله سميّه وليسلى بأرضٍ عنه نازحةٍ قفر
 ثم قال له أبوه : تعلق بأستار الكعبة ، واسأل الله أن يمافيك من حبّ
 ليلي ؛ فتعلق بأستار الكعبة ، وقال : اللهم زدني لليلي حباً ، وبها كلفاً ، ولا نفسي
 ذكرها أبداً . فهام حينئذ واختلط .

فكان يهيمُ في البريّة مع الوحش ، ولا يأكل إلا ما ينبت في البرية من بقل ،
 ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت منهاها ، وطال شعرُ جسده ، ورأسه ، وألفته
 الظباء والوحوش ، فكانت لا تنفرُ منه ، وجعل يهيم حتى يبلغَ حدود الشام ، فإذا
 تاب إليه عقله سأل مَنْ يمرُّ به من أحياء العرب عن تَجْد ؛ فيقال له : وأين أنت
 من تَجْد ؟ قد شارقت الشام ! أنت في موضع كذا ، فيقول : فأروني وجهه
 الطريق ، فيرسمونه ويمرضون عليه أن يحمله أو يكسوه فيأبى ، فيدلّونه على
 تَجْد فيتوجه نحوه .

(١) الخيف : ناحية في مَيّ .

٥٧ — زهول*

قال نوفل بن مساحق : قَدِمْتُ الْبَادِيَةَ فَسَأَلْتُ عَنِ الْجَنُّونِ ، قِيلَ لِي : تَوَحَّشَ
وما لنا به عهد ، ولا نَدْرِي إِلَى أَيْنَ صَارَ .
فخرجتُ يوماً أَنْصِيدُ الْأَرْوَى ^(١) ، ومعى جماعةٌ من أَسْحَابِي ، حتى إذا كنتُ
بِجَانِحِيَةِ الْحِمَى إِذَا نَحْنُ بِأَرَاكِةٍ ^(٢) عَظِيمَةٍ ، قد بَدَأَ مِنْهَا قَطِيعٌ مِنَ الظُّبَاءِ ، فيها
شَخْصٌ إِنْسَانِيٌّ يَرَى مِنْ خَلَلِ تِلْكَ الْأَرَاكِةِ ؛ فَجِئِبَ أَسْحَابِي مِنْ ذَلِكَ ، وَفَرَّقَتْهُ
وَأَتَيْتُهُ ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْجَنُّونُ الَّذِي أُخْبِرْتُ عَنْهُ .
فَنَزَلْتُ عَنْ دَابَّتِي ، وَتَخَفَّتُ ^(٣) مِنْ ثِيَابِي ، وَخَرَجْتُ أَمْشِي رُؤُوباً ، حتى
أَتَيْتُ الْأَرَاكِةَ ؛ فَارْتَقَيْتُ حَتَّى صِرْتُ عَلَى أَعْلَاهَا ، وَأَشْرَفْتُ عَلَيْهِ وَهَلَى الظُّبَاءُ ؛
فَإِذَا بِهِ وَقَدْ تَدَلَّى الشَّعْرُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَلَمْ أَكْذِبْ أَعْرِفُهُ إِلَّا بِتَأْمُلٍ شَدِيدٍ ، وَهُوَ يَرْتَعَى
فِي عَمْرِ تِلْكَ الْأَرَاكِةِ ؛ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَتَمَثَّلْتُ بِبَيْتٍ مِنْ شِعْرِهِ :
أَتُبْكِي عَلَى كَيْلِي وَنَفْسِكَ بَاعَدَتْ مَرَارَكَ مِنْ لَيْسَلِي وَشِعْبًا كَأَمَّا
فَفَقَرْتُ الظُّبَاءَ ؛ وَأَنْدَفَعُ فِي بَاقِي الْقَصِيدَةِ بُنْشِدُهَا ، فَمَا أَنْسَى حُسْنَ نَعْمَتِهِ
وَحُسْنَ صَوْتِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ ^(٤) :

فَا حَسَنٌ أَنْ تَأْتِيَ الْأَمْرَ طَانِمًا وَتَجْزَعُ أَنْ دَاعِيَ الصَّبَابَةِ أَتَمًّا

* الْأَثَانِي : ٢ - ٦٦

(١) الْأَرْوَى : الرِّعَافُ ، وَمِنْ ثِيَابِ الْجَبَلِ ، وَاحِدُهُ أَرْوِيَّةٌ . (٢) الْأَرَاكِةُ : وَاحِدَةُ الْأَرَاكِ
وَهُوَ شَجَرٌ كَثِيرُ الْوَرَقِ وَالْأَغْصَانِ . (٣) أَيْ نَزَعْتُ شَيْئًا مِنْهَا . (٤) بِمَنْ هَذِهِ الْآيَاتُ يَنْسَبُ
لِلدَّخِيلِ الْجَنُّونِ (انظر الْأَثَانِي ج ٢٢ ، ص ٦٧ ، وَالْأَمَالِي ج ١ ص ١٩٠) .

بَكَتْ عَيْنِي الْبُسْرَى فَلَا زَجْرُهَا
وَأَذْكَرُ أَيَّامِ الْحَمَى نَمِ أَنْتَنِي
عَلَى كَيْدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا
عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنِكَ تَدَمَّعَا
بَوْصَلِ الْفَوَاقِي مِنْ لَدُنْ أَنْ تَرَعَرَّعَا
إِذَا رَاحَ يَمْشِي فِي الرِّدَاءِ مِنْ أَسْرَعَتْ
نَمِ سَقَطَ مَنَشِيًّا عَلَيْهِ ، فَتَمَثَّلْتُ بِقَوْلِهِ :

يَادَارُ لَيْلِي بِسَقَطِ^(٢) الْحَمَى قَدِ دَرَسَتْ إِلَّا الثَّمَامَ وَإِلَّا مَوْقِدَ النَّارِ^(٣)
فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ : مَنْ أَنْتَ حَيَّاكَ اللَّهُ ؟ قُلْتُ : أَنَا نَوْفَلُ بْنُ مُسْلَحٍ ،
فَخَيَّانِي قُلْتُ لَهُ : مَا أَحَدَنْتَ بَعْدِي فِي يَأْسِكَ مِنْهَا ؟ فَأَنْشَدَنِي يَقُولُ :

أَلَا حُجِبَتِ لَيْلِي وَآلَى أَمِيرُهَا عَلَى يَمِينَا جَاهِدُوا لَا أَزُورُهَا
وَأَوْعَدَنِي فِيهَا رَجَالُ أَبْوْهُمْ أَبِي وَأَبُوهَا خُشِنَتْ لِي صُدْرُهَا
عَلَى غَيْرِ جُرْمٍ غَيْرَ أَنِّي أَحِبُّهَا وَأَنْ فَوَادِي رَهْنُهَا وَأَسِيرُهَا
نَمِ سَنَحَتْ لَهُ ظَبَاءٌ قَامَ يَمْدُو فِي أَثَرِهَا حَتَّى لَحِقَهَا ، فَضَى مَعَهَا .

(١) أُسْبِلَتِ السَّيَاءُ : أَمْطَرَتْ : أَيْ بَكَتْ عَيْنَاهُ . (٢) السَّقَطُ : حَيْثُ انْقَطَعَ مَعْظَمُ الرَّمْلِ وَرَقَّ .
(٣) الثَّمَامُ : نَيْتٌ فِي الْبَادِيَةِ ، كَانَ الْعَرَبُ يَمُونُ بِهِ خِصَامِ الْبُيُوتِ .

٥٨ — خاتمة المجنون*

خرج شيخٌ من بنى مُرَّةَ ليلَئى المجنونَ فى أرضِ بنى عامرٍ ثم حدثَ فقال :
دُلِّتُ على مَحَلَّتِهِ فَأَتَيْتُهَا ، فإذا أبوه شيخٌ كبيرٌ وإخوةٌ له رجال ، وإذا نَمَ
كثيرٌ^(١) وخيرٌ ظاهر ، فسألهم عنه فاستمروا جميعاً .

وقال الشيخُ : والله لقد كان آثر فى نفسى مِنْ هَوْلِهِ وأَجَبِهِمِ إِلَى ! وإِنَّ
هَؤُلَاءِ امرأتَ من قومه ، والله ما كانت تطمَعُ فى مثله ، فلما أنْ قُتِلَ أَمْرُهُ وأمرُها
كُرِهَ أبوها أنْ يُرَوِّجَها منه بعدَ ظهورِ الخبرِ ، فزوَّجَها من غيره ، فذهبَ عَقْلُ ابْنِ
وَلَحِقَهُ خَبَلٌ ، وهامَ فى الفَيَاقِ وجداً عليها ، فحَسَنَاهُ وَقَيَّدْنَاهُ ، فجعلَ يَمُصُّ لسانَه
وَشَفَتَيْه ، حتى خَفِنَا عليه أنْ يَقْطَعَهُمَا ، نَحْلِيْنَا سَبِيلَه ، فهو يَسِيمُ فى هذه الثِّيَابِ مع
الوحوشِ ؛ يَذْهَبُ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ بَطْلَامُهُ فَيُوضَعُ لَهُ حَيْثُ يَرَاهُ ، فإذا تَنَحَّوْا عنه
جاءَ فأكلَ منه .

فسألْتُهُمْ أنْ يَدُلُّونِى عليه ، فدَلُّونِى على فَتًى من الحِمْيِّ كانَ صديقاً لَهُ ، وقالوا :
إِنَّهُ لَا يَأْتِى سِوَايَ وَلَا يَأْخُذُ أَشْعَارَهَ عَنْ غَيْرِهِ ؛ فَأَتَيْتُهُ فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَدُلَّنِى عَلَيْهِ ،
فقال : إِنْ كُنْتَ تَرِيدُ شِعْرَهَ فَكُلُّ شِعْرٍ قاله إِلَى أَمْسٍ عِنْدِى ، وَأَنَا ذَاهِبٌ
إِلَيْهِ غَدًا ، فَإِنْ كَانَ قَدْ شِئْنَا أَنْتُكَ بِهِ . فقلتُ : بَلْ أُرِيدُ أَنْ تَدُلَّنِى عَلَيْهِ لِأَتِيَهَ ؛

* الأغانى : ٢ - ٨٨ ، السعوى : ٢ - ١٧ ؛

(١) النعم : يذكر ويؤث .

قال لى : إِنْ نَرَمَكَ نَرَى فَيَذِبُ شِعْرَهُ ، فَأَيْتُ إِلَّا أَنْ يَدُلَّنِي عَلَيْهِ ، قَالَ :
اطْلُبْ فِي هَذِهِ الصَّحَارَى ، فَإِذَا رَأَيْتَهُ فَادْنُ مِنْهُ مُسْتَأْنِياً ، وَلَا تَرَهُ أَنْتَ تَهَابُهُ ،
فَإِنَّهُ يَهْدُدُكَ وَيَتَوَعَّدُكَ أَنْ يَرَمِيكَ بِشَيْءٍ ، فَلَا يَرُوعَنَّكَ ، وَاجْلِسْ صَارِفًا بَعْرَكَ
عَنْهُ ، وَالْحِظْهُ أَحْيَانًا ، فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ سَكَنَ مِنْ نِفَارِهِ فَأَنْشِدْهُ شِعْرًا غَزَلًا ، وَإِنْ
كَتَبَتْ تَرَهُ مِنْ شِعْرِ قَيْسِ بْنِ ذَرِيحٍ شَيْئًا فَأَنْشِدْهُ إِيَّاهُ فَإِنَّهُ مُعْجَبٌ بِهِ .

خَرَجْتُ فَطَلَبْتُهُ يَوْمِي إِلَى الْمَعْرِ ، فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا عَلَى رَمَلٍ قَدْ خَطَّ فِيهِ بِإِصْبَعِهِ
خُطُوطًا ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ غَيْرَ مُتَقَبِّضٍ ، فَتَفَرَّقَ مِنِّي فُورَ الْوَحْشِ مِنَ الْإِنْسِ ، وَإِلَى
جَانِبِهِ أَحْبَابٌ فَتَنَاولَ حَجَرًا ، فَأَعْرَضْتُ عَنْهُ ، فَكَثَّ سَاعَةً كَأَنَّهُ نَافِرٌ يَرِيدُ
الْقِيَامَ ، فَمَا طَالَ جُلُوسِي سَكَنَ وَأَقْبَلَ يَخْطُ بِإِصْبَعِهِ . فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ : أَحْسَنُ
وَاللَّهِ قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ حَيْثُ يَقُولُ :

لَا يَأْغُرَابُ الْبَيْنَ وَيَحْكُ نَبِيٌّ (١)
بِعَلِّكَ فِي لُبْنَى وَأَنْتَ خَيْرُ
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تُخْبِرْ بِشَيْءٍ عَلَّمْتَهُ فَلَا طِرْتَ إِلَّا وَالْجَنَاحُ كَبِيرُ
وَدُرْتَ بِأَعْدَاءِ حَبِيبِكَ فِيهِمْ كَأَقْدَرَانِي بِالْحَبِيبِ أَدُورُ
فَأَقْبَلَ عَلَيَّ وَهُوَ يَبْكِي ، ثُمَّ قَالَ : وَأَنَا أَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلًا حَيْثُ أَقُولُ :

كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قِيلَ يُفْسِدِي بَلِيْلَى الْعَامِرِيَةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاةٌ عَزَمًا (٢) شَرَكْتُ فَبَاتَتْ تَنَازَعُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ
فَأَمْسَكَتُ عَنْهُ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ : وَأَحْسَنُ وَاللَّهِ قَيْسُ

(١) نَبِيٌّ : نَبِيٌّ وَالْخَبْرَانِ .

(٢) عَزَمًا : غَلَبَهَا .

ابن ذَرِجٍ حيث يقول :

وإني لَمُنِّي دَمْعَ عَيْنِي بِالْبُكَاءِ جِذَاراً لِمَا قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَاتِبُ
وَقَالُوا : غَدَاً أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ بَلِيلُهُ فِرَاقُ حَبِيبٍ لَمْ يَبِينْ وَهُوَ بَائِسُ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي بِكَفِّكَ إِلَّا أَنْ مَا حَانَ حَائِسُ
فَبُكِيَ - وَاللَّهِ - حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ نَفْسَهُ فَاضَتْ ^(١) ، وَقَدْ رَأَيْتُ دُمُوعَهُ
قَدْ بَلَّتِ الرَّمْلَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَحْسَنَ لَمَرُ اللَّهِ ؛ وَأَنَا وَاللَّهِ أَشْعَرُ مِنْهُ
حَيْثُ أَقُول :

وَأَذِنِي حَتَّى إِذَا مَا سَبَيْتُنِي بِقَوْلِ يُحْيِي الْمُتَمِّمِ ^(٢) سَهْلَ الْأَبَاطِحِ
تَنَاهَيْتَ عَنِّي حِينَ لَا إِلَهَ حِيلُهُ وَخَلَقْتَ مَا خَلَقْتَ بَيْنَ الْجَوَانِحِ
ثُمَّ سَمَحْتَ لَهُ ظَلِيمَةً فَوُثِبَ بِعَدُوِّهَا حَتَّى غَابَ عَنِّي ، وَانصَرَفَ .
وَعُدْتُ مِنْ غَدْرِ فُطْلُبَتِهِ فَلَمْ أَجِدْهُ ، وَجَاءَتْ امْرَأَةٌ - كَانَتْ تَضَعُ لَهُ طَلْعَهُ -
إِلَى الطَّلَامِ فَوَجَدْتُهُ بِجَاهِهِ .

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ غَلَبَتْ ، وَجَاءَ أَهْلُهُ مَعِي فُطْلِبْنَاهُ يَوْمَئِذٍ فَلَمْ نَجِدْهُ ، وَغَدَوْنَا
فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ نَسْتَقْرِئُ أَثَرَهُ ^(٣) ، حَتَّى وَجَدْنَاهُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْحِجَارَةِ خَشِنَ وَهُوَ
مَيِّتٌ بَيْنَ تِلْكَ الْحِجَارَةِ ، فَبَيْنَمَا بَقَلْبُونَهُ إِذْ وَجَدُوا خِرْقَةً فِيهَا :
أَلَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الَّذِي مَا بَنَى رِضَى شَفِيتَ وَلَا هُنَيْتَ مِنْ عَيْشِكَ النَّعْصَا
شَفِيتَ كَمَا أَشَقَّقْتَنِي وَتَرَكْتَنِي أَهْمُ مَعَ الْهَلَاكِ لَا أَعْطِمُ النَّعْصَا

(١) فَاضَتْ نَفْسُهُ : خَرَجَتْ وَمَاتَ .

(٢) الْمُتَمِّمُ : جَمْعُ أَعْمَمٍ ، وَهُوَ الرِّعْلُ الَّذِي فِي ذِرَاعَيْهِ بِياضٌ ، يُرِيدُ أَنْ يَقُولَهَا يَحْلِبُ الْعَصَمَ وَيَسْتَرْفِلُهَا
مِنَ الْجِبَالِ وَهِيَ مَا كُنْهَا إِلَى الْأَبْلَاحِ السَّهْلَةِ .

(٣) نَسْتَقْرِئُ أَثَرَهُ : نَتَّبِعُ آثَرَهُ .

كَانَ فَوَادَى فِي مَخَالِبِ طَائِرٍ إِذَا دُكِرَتْ لَيْلِي يَشَدُّ بِهَا قَبْضًا
كَانَ فِجَاجٌ^(١) الْأَرْضِ حَلَقَةُ خَائِمٍ عَلَى فَا تَزْدَادُ طَوْلًا وَلَا عَرْضًا

واحتمله أهله ففسلوه وكفّنوه ودفنوه ؛ فلم تبق فتاة من بنى جمدة ولا بنى
الحريش إلا خرجت حائرة صارخة عليه تندبه ، واجتمع فتیان الحى ليكون
عليه أحرّ بكاء ؛ ويلمسجئون عليه أشدّ نسيج ، وحضرهم حى لى ممزّين ، وأبوها
معهم ، فكان أشدّ القوم جزعاً وبكاء عليه ، وجعل يقول : ما علنا أن الأمر
يبلغ كل هذا ، لكفى كنت امرأ عربياً أخاف من المار ، وقُبِحَ الأحدثنة ،
ما يخافه مثلى ، فزوجتها وخرجت عن بدى ، ولو علمت أن أمره يجرى على هذا
ما أخرجتها عن بده ، ولا احتلت ما كان على فى ذلك .

فأرئى يوم كان أكثر باكية وباكية على ميت من ذلك اليوم .

(١) جمع فيج : وهو الطريق .

٥٩ - اليوم يجمعنا في بطنها الكفن*

قال الطُّفيل^(١) بن عامر العمرى : خرجتُ ذات يوم أريدُ الغارةَ - وكنتُ رجلاً أحبُّ الوحدةَ - فبينما أنا أسير ، إذ ضَلَّْتُ الطريقَ الذى أردتُه ، فسيرتُ أياماً لا أدري أين أتوجّه ، حتى نفدَ زادى ، فجعلتُ أكلُ الحشيشَ وورقَ الشجر حتى أشرفتُ على الهلاك ، ويئستُ من الحياة .

فبينما أنا أسير إذ أبصرتُ قطعَ غنمٍ فى ناحيةٍ من الطريق ؛ فِلْتُ لَهَا ، وإذا شابٌّ حسنُ الوجه ، فصيحُ اللسان .

قال لى : يا بنِ المم ؛ أين تريدُ ؟ قلتُ : أردتُ حاجةً لى فى بعضِ المدن ، وما أغنىنى إلا قد ضللتُ الطريقَ . قال : أَجَلْ . إن يئسك وبين الطريقِ مسيرةُ أيام ، فانزِلْ حتى تستريحَ وتطمئنَّ وترجعَ فرسك .

فنزلتُ فرسى لفرسى حشيشاً ، وجاء إلى بريدٍ كثيرٍ وكَبَنٍ ، ثم قام إلى كبشٍ فذبحه ، وأججَ ناراً^(٢) ؛ وجعل يُكَبِّبُ^(٣) لى ، ويطمئنى حتى اكتفيتُ .

فلما جئنى الليلُ قام وفرش لى ، وقال : قم فارمِ بنفسك ؛ فإنَّ النومَ أذهبَ لعبك ، وأرجعَ لنفسك .

فقدتُ ووضعْتُ رأسى ، فبينما أنا نائمٌ إذا أقبلتُ جاريةٌ لم ترَ عيناى مثلها قط

* الحسن والأضداد : ٧٠ ، مسامرات الأبرار : ٧ - ٦٠ ، نهاية الأرب : ٢ - ١٩٦ .
(١) راوى القصة فى نهاية الأرب جيل النضرى . (٢) أشعل . (٣) أى يجعل له اللحم كباباً .

حُسْنًا وجمالًا ، فَهَدَّتْ إِلَى التَّقَى وَجَبَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَشْكُو إِلَى صَاحِبِهِ مَا يَلْقَى مِنَ الْوَجْدِ بِهِ ؛ فَامْتَنَعَ عَلَى النَّوْمِ لِحَسَنِ حَدِيثِهَا . فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ السَّحَرِ ، قَامَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا دَنَوْتُ مِنْهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَمُنُّ الرَّجُلُ ! قَالَ : أَنَا فَلَانُ ابْنِ فَلَانٍ ؛ وَانْتَسَبَ لِي فَمَرَفَتِهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : وَنَحْنُكَ ! إِنَّ أَبَاكَ لَسَيِّدُ قَوْمِهِ ، فَمَا حَمَلَكَ عَلَى وَضْعِكَ نَفْسَكَ فِي هَذَا الْمَكَانِ ! فَقَالَ : أَنَا وَاللَّهِ أَخْبِرَكَ :

كُنْتُ عَاشِقًا لِابْنَةِ عَمِّي هَذِهِ الَّتِي رَأَيْتُهَا ؛ وَكَانَتْ عَمِّي أَيْضًا لِي وَامِيقَةً^(١) ، فَشَاعَ خَبْرُنَا فِي النَّاسِ ، فَأَتَيْتُ عَمِّي ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَزَوِّجَنِيهَا ، فَقَالَ : يَا بَنِي ؛ وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُ شَطَطًا^(٢) ، وَمَا هِيَ بِأَتَرَّ عِنْدِي مِنْكَ ؛ وَلَكِنَّ النَّاسَ قَدْ تَعَدَّثُوا بِشَيْءٍ ، وَعَمَّكَ بَكْرُهُ الْقَالَةُ الْقَبِيحَةُ ؛ وَلَكِنْ انْظُرْ غَيْرَهَا فِي قَوْمِكَ ، حَتَّى يَقُومَ عَمَّكَ بِالْوَاجِبِ لَكَ .

فَقُلْتُ : لِاحَاجَةٍ لِي فِيمَا ذَكَرْتَ ، وَتَحَمَّلْتُ^(٣) عَلَيْهِ بِجَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِي ، فَرَدَّمْ زَوْجَهَا رَجُلًا مِنْ تَقِيْفٍ لَهُ رِيَاسَةٌ وَفَذَرْهُ غَمْلَهَا إِلَى هُنَا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى خِيَمٍ كَثِيرَةٍ بِالْقَرْبِ مِنَّا - فَضَاقَتْ عَلَيَّ الدُّنْيَا بِرُحْبِهَا ، وَخَرَجْتُ فِي لَيْلِهَا ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ فَرْحًا شَدِيدًا ، فَقُلْتُ لَهَا : لَا تُخْبِرِي أَحَدًا أَنَّكَ مِنْكَ بِسَبِيلٍ ، ثُمَّ أَتَيْتُ زَوْجَهَا ، وَقُلْتُ : أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ ، أَصَبْتُ دَمًا وَأَنَا خَائِفٌ ، وَقَدْ قَصَدْتُكَ لِمَا أَعْرِفُ مِنْ رَغْبَتِكَ فِي اصْطِنَاعِ الْمُرُوفِ ، وَلِي بَصَرٌ بِالْفَنَمِ ؛ إِنْ رَأَيْتَ أَنَّ تَعْطِيَنِي مِنْ غَنَمِكَ شَيْئًا فَأَكُونُ فِي جَوَارِكَ وَكَتِفِكَ فَاقْصِلْ . قَالَ : نَمَّ وَكَرَامَةٌ . فَأَعْطَانِي مِائَةَ شَاةٍ وَقَالَ لِي : لَا تَبْعُدْ بِهَا مِنَ الْحَيِّ ، وَكَانَتْ ابْنَةً عَمِّي

(١) وامِقة : عجة : (٢) شيطا بيدا . (٣) تحملت عليه : أى أتيت به قوم يشفقون لى عنده .

تخرج إلى كل ليلة في الوقت الذي رأيت وتصرف ؛ فلما رأى حسن حال النعم ؛ أعطاني هذه ، فرضيتُ من الدنيا بما ترى .

قال الطافيل : فأقت عنده أياماً فبينما أنا نائمٌ إذ نبهني ، وقال : يا أخا بني عامر . قلتُ له : ما شأنك ؟ قال : إن ابنة عمي قد أبطأت ولم تكن هذه عادتها ، ووالله ما أظنُّ ذلك إلا لأمرٍ حادث ، فحدثني ، فجلت أحدثه ، فأنشأ يقول :

ما بالُ مَيَّةَ لا تأتي كعادتها هل هاجها طرب^(١) أو صدَّ هاشغلُ ؟
لكن قلبي لا يَعتنيه غيرُهم حق الماتِ ولا لي غيرُهم أملُ
لو تعلمين الذي بي من فراقِكُم لما اعتَلَّتْ ولا طابت لكِ المِللُ
نفسى فداؤك اقد هَبَّجَتْ لي سَقَمًا نكاد من حرِّه الأعضاء تنفصلُ
لو كان عادِيه منه على جَبَل زال وانهدَّ من أركانه الجبلُ

فوالله ما اكتحل بضمعي ، حتى انصَجَر عودُ الصبح ، وقام ومرَّ نحو الحى فابطأ عني ساعة ، ثم أقبل ومعه شيء ، وجعل يبكي عليه . قلتُ له : ما هذا ؟ قال : هذه ابنة عمي اقترسها السَّبع ، فأكل بعضها ؛ ووضعها بالقرب مني ، فأوجع والله قلبي !

ثم تناول سيفه ومرَّ نحو الحى فابطأ هَنِيئَةً ، ثم أقبل إلى ، وعلى عاتقه ليش كأنه حار ؛ قلتُ له : ما هذا ؟ قال : صاحبي ، قلت : وكيف عدته ؟ قال : إني قصدتُ للوضع الذي أصابها فيه ، وعلمتُ أنه سيمود إلى ما فَضَّلَ منها ؛ فجاء قاصداً إلى ذلك للوضع ، فعلمتُ أنه هو ، فجلت عليه فقتلته ؛ ثم قام فَخَفَّرَ في

(١) الطرب : خفة تصيب الإنسان لعدة حزن أو سرور .

الأرض فأمّتن ؛ وأخرج ثوباً جديداً ؛ وقال : يا أخا بنى عامر ؛ إذا أنا ميتٌ
فأدرُجنى^(١) معها في هذا الثوب ؛ ثم صمّنا في هذه الحفرة ، وأهّلِ التراب^(٢) ،
وأكتب هذين البيتين على قبرنا وعليك السلام :

كُنّا على ظهرِها والمَيْشُ في مَهْلٍ والدهرُ يَجْمَعُنَا ، والدارُ والوطنُ
نُفاننا الدهرُ في تفريقِ أَلْفَتِنَا واليوم يَجْمَعُنَا في بطنها السكَنُ
ثم التفت إلى الأسد وقال :

ألا أيّها اللئيمُ اللدْلُ بنفسه هَلَكْتَ ، لقد جَرَّتْ يداكَ لَنَا حُرْنَا
وغادرتني فرّداً وقد صكّنتُ أَلْنَا وصيرت أفاقَ البلادِ لنا سِجْنَا
أصحبُ دهرًا خائى بفراقها ممّاذا إلّٰهِي أن أكونَ له خِذْنًا^(٣)

ثم قال : يا أخا بنى عامر ؛ إذا فرغت من شأننا فصيح في أدبار هذه النعم
فرُدّها إلى صاحبها .

ثم مات ، فمّت فأدرجتهما في ذلك الثوب ؛ ووضعتهما في تلك الحفرة ؛
وكتبت البيتين على قبرهما ، ورددتُ النعم إلى صاحبها . وسألني القوم ، فأخبرتهم
الغبر ؛ ففرج جماعة منهم فقالوا : والله لننحرن عليه ؛ نطأها له ، ونخرجوا ؛ وأخرجوا
مائة ناقة ؛ وتسامع الناس فاجتمعوا إلينا ؛ فنحرت ثم انصرفنا .

(١) ادرجنى : اطوئني معها . (٢) هال التراب وأهاله : صبه . (٣) خدنا : مديقا .

٦٠ - العفة في الحب *

سَمِعْتُ أُمَّةً لِبُئْنَةٍ بِهَا إِلَى أَبِيهَا وَأَخِيهَا ، وَقَالَتْ لَهَا : إِنْ حَيَّلَا ^(١) عَنْهَا
الْقِيْلَةَ ، فَأَتَيْاهَا مُشْتَقِلَيْنِ عَلَى سَيْفَيْنِ ، فَرَأَاهُ جَالِسًا حَجْرَةً ^(٢) مِنْهَا يَحْدُثُهَا وَيَشْكُو
إِلَيْهَا بَيْتَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : يَا بُئْنَةُ ؛ أَرَأَيْتِ وَدَّى إِيَّاكَ ، وَشَفَقِي بِكَ ، أَلَا تَحْزِنُنِيهِ ؟
قَالَتْ : بِمَاذَا ؟ قَالَ : بِمَا يَكُونُ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينِ ، فَقَالَتْ لَهُ : يَا حَمِيل ؛ أَهَذَا تَبْنِي أ
وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ عِنْدِي بِعِيدًا مِنْهُ ، وَلَئِنْ عَاوَدْتَ تَمْرِبُضًا بِرَبِيعَةٍ لَا رَأَيْتَ
وَجْهِي أَبَدًا .

فَضَحِكَ وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا قُلْتُ لَكَ هَذَا إِلَّا لِأَعْلَمَ مَا عِنْدَكَ فِيهِ ، وَلَوْ عَلِمْتُ
أَنَّكَ تُحْيِيْنِي إِلَى لَعَلْتُ أَنَّكَ تُجَيِّبُنِي غَيْرِي ، وَلَوْ رَأَيْتُ مِنْكَ مَسَاعِدَةً عَلَيْهِ لَضَرْبُكَ
بِسِيفِي هَذَا مَا اسْتَمْسَكَتُ فِي يَدِي ، وَلَوْ أُلَاعَقْتَنِي نَفْسِي لَمَجَرْتُكَ هِجْرَةَ الْأَبَدِ ، أَوْ
مَا سَمِعْتُ قَوْلِي :

وَأَنِّي لِأَرْضَى مِنْ بُئْنَةٍ بِالَّذِي لَوْ أَبْصَرَهُ الْوَاشِي لَقَرَّتْ بِلَا بَلَه ^(٣)

* الأغانى : ٨ - ١٠٥

(١) هو جيل بن عبد الله بن معمر النمري ، كان شاعراً فصيحاً مقدماً جامعاً للشعر والرواية .
اشتهر بحبه بُئْنَةَ ابنة عمه ، وكان يجتمع بها سرّاً عن أهلها ، فألحوا بالشكوى عليه ، ففر إلى اليمن
ثم اتبع أهل بُئْنَةَ الشام ، فرحل جيل إليهم فترصدوه وشكوه إلى عشيرته ، فنفه أهله وهددوه ،
فاقطع عنها ، وأخيراً لجأ إلى مصر وعاملها عبد العزيز بن مروان ، فأحسن وفادته ، ومرش هناك
ومات بها سنة ٨٢ هـ . (٢) حجرة : ناحية منفرداً . (٣) البلايل : وسواس الصدر .

بِلاَ وَبِأَلَا أَسْتَطِيعُ وَبِأَلَمُنِي وَبِالْأَمَلِ الرَّجْوُ قَدْ خَابَ آمِلُهُ
وَبِالْفُطْرَةِ الْمَجَلَى وَبِالْحَوْلِ تَنْقُصِي أَوْ آخِرُهُ لَا نَلْتَمِصِي وَأَوَائِلُهُ
قَالَ أَبُوهَا لِأَخِيهَا : قُمْ بِنَا ؛ فَنُتَابِعْ نَبِيَّنَا لَنَا بَدَ الْيَوْمُ أَنْ نَمْنَحَ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ
لِقَائِهَا ؛ فَانْصَرَفَا وَتَرَكَاهُمَا .

٦١ — حديث جميل ومُبَيَّنَةٌ*

قال مَعْبُد : خرجتُ إلى مكةَ في طلب لقاءِ القَرِيضِ ^(١) ، وقد بلغتُ حسنُ غنائه في لَعْنته :

وما أنْسَمَ الأَشْيَاءُ ^(٢) لا أنْسَ شَادِنًا بِمَكَّةَ مَكْحُولًا أَسِيلًا مَدَامِعُهُ
وقد كانَ بَلَغَى أَنَّهُ أَوْلُحُنْ صَنَمُهُ ، وَأَنَّ الْجِنَّ نَهَتْهُ أَنْ يَفْتِنَهُ لِأَنَّهُ قَتَنُ
طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ، فَاتَّقَلَوْا عَنْ مَكَّةَ مِنْ أَجْلِ حُسْنِهِ .

فلما قَدِمْتُ مَكَّةَ سَأَلْتُ عَنْهُ ، فَذُلْتُ عَلَى مَنْزِلِهِ ؛ فَأَتَيْتُهُ فَقَرَعْتُ الْبَابَ فَمَا
كَلَّمَنِي أَحَدٌ ، فَسَأَلْتُ بَعْضَ الْجِيرَانِ قُلْتُ : هَلْ فِي الدَّارِ أَحَدٌ ؟ قَالُوا لِي : نَمَ ،
فِيهَا الْقَرِيضُ ، قُلْتُ : إِنِّي قَدْ أَكْثَرْتُ دَقَّ الْبَابِ ، فَمَا أَجَابَنِي أَحَدًا قَالُوا : إِنَّ
الْقَرِيضَ هُنَاكَ ، فَجِئْتُ فَدَقَقْتُ الْبَابَ فَلَمْ يُجِبْنِي أَحَدٌ ، قُلْتُ : إِنْ نَفَعَنِي غَنَائِي
يَوْمًا نَفَعَنِي الْيَوْمَ ، فَفَتَيْتُ لَحْنِي فِي شِعْرِ جَمِيلٍ :

عَلِقْتُ الْهَوَى مِنْهَا وَلِيدًا فَلَمْ يَزَلْ إِلَى الْيَوْمِ يَنْمِي حُبُّهَا وَيَزِيدُ
فَوَاقَهُ مَا سَمِعْتُ حَرَكَةَ الْبَابِ ، قُلْتُ : بَطَلَ سِحْرِي ^(٣) وَضَاعَ سَقَرِي ،
وَجِئْتُ أُطَلِّبُ مَا هُوَ عَسِيرٌ عَلَيَّ ، وَاحْتَقَرْتُ نَفْسِي وَقُلْتُ : لَمْ يَتَوَهَّمَنِي ^(٤) لَضَعْفُ

* الأغانى : ٢ - ٣٨٧ ، تزيين الأسواق : ٣٧

(١) ممن مشهور ، أخذ القناء عن أبي سريح وبرع فيه ، واسمه عبد الملك ، والقرين لقبه ،
قال ابن الكلبي : شبه بالإغريض ، وهو الحمار قسي به ، ثم نقل على الألسنة ، فخذلت الأناث منه .
(٢) أصله : من الأشياء . (٣) بطل سحري : ضاعت حيلتي . (٤) لم يتوهمني : لم يعرفني .

غِنَائِي عنده ، فما شَعَرْتُ إِلَّا بِصَاحٍ يَصِيحُ : يَا مَعْبُدَ الْمُنَى ؛ أَفَهُمْ وَتَلَقَّ عَنِّي شَعَرَ
جَمِيلَ الَّذِي تَمَنَّى فِيهِ يَا شَقِيَّ الْبَحْثِ ، وَعَنِّي :

وَمَا أَنَسِمَ الْأَشْيَاءَ لَا أَنَسَ قَوْلَهَا وَقَدْ قَرَّبَتْ نَفْوَِي^(١) : أَمَصَّرَ تَرِيدُ ؟
وَلَا قَوْلَهَا : لَوْلَا الْعِيُونُ الَّتِي تَرَى أَتَيْتُكَ فَأَعَذَرَنِي قَدَتِكَ جُدُودُ !
خَلِيلًا مَا أَخْنِي مِنَ الْوَجْدِ بَاطِنٌ وَدَمْعِي بِمَا قَلْتُ الْغَدَاةَ شَهِيدُ
يَقُولُونَ : جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بَعَزْوَةٍ • وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرُهُنَّ أُرِيدُ
لِكُلِّ حَدِيثٍ عِنْدَهُنَّ بِشَاشَةٌ وَكُلِّ قَتِيلٍ يَنْهَنُ شَهِيدُ

فسمعتُ شيئاً لم أسمع أحسن منه ، وقصّر^(٢) إلى نفسي ؛ وعلمتُ فضيلته على
بما أحسن من نفسه ، وقلت : إنه لحرى بالاستقار من الناس تنزيهاً لنفسه ، ونمطياً
لقدْره ، وإنَّ مثله لا يستحقُّ الابتذال ، ولا أن تتداوله الرجال ؛ فأردتُ
الانصرافَ إلى المدينة راجعاً .

فلما كنتُ غيرَ بعيدٍ إذا بصَاحٍ يَصِيحُ بِي : مَعْبُدُ ؛ انتظر أكلّمك ، فرجعتُ
فقال لي : إنَّ الغريصَ يدعوك ؛ فأسرعتُ فرحاً ، فدنوتُ من الباب ، فقال لي :
أَتَجِبُّ الدخولَ ؟ قلتُ : وهل إلى ذلك من سبيل ؟ فقرَّع الباب ففتح ، فقال لي :
ادخل ولا تطلِّ الجُلوسَ .

فدخلتُ فإذا شمسٌ طالمةٌ في بيت ، فسلمتُ فردَّ السلام ، ثم قال : اجلسْ
فجلسْتُ ، فإذا أنبلُ الناس ، وأحسنُهُمْ وجهاً وَخُلُقاً وَخُلُقاً ؛ فقال : يا معبدُ ؛ كيف

(١) النضو : الممزول من الإبل . (٢) قصر إلى نفسي : صغرها في عيني .

طَرَأْتُ^(١) إِلَى مَكَّةَ ؟ قُلْتُ : جُمِلْتُ فِدَاءَكَ ! وَكَيْفَ عَرَفْتَنِي ؟ قَالَ : بِصَوْنِكَ ؛
 قُلْتُ : وَكَيْفَ وَأَنْتَ لَمْ تَسْمَعْهُ قَطُّ ؟ قَالَ : لَمْ أَغْنَيْ عِرْفَكَ بِهِ وَقُلْتُ : إِنْ كَانَ
 مَعْبِدٌ فِي الدُّنْيَا هَذَا . قُلْتُ : جُمِلْتُ فِدَاءَكَ ! فَكَيْفَ أَجَبْتَنِي بِقَوْلِكَ :
 وَمَا أَنْسَمَ الْأَشْيَاءَ لَا أَنْسَ قَوْلَهَا . وَقَدْ قَرَّبَتْ نِضْوَى : أَمِصَّرَ تَرِيدُ ؟
 قَالَ : لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَرِيدُ أَنْ أُحْمِيكَ صَوْتِي :
 وَمَا أَنْسَمَ الْأَشْيَاءَ لَا أَنْسَ شَادِيًا . بِمَكَّةَ مَكْحُولًا أَسِيْسَلًا مَدَامِعُهُ
 وَلَمْ يَكُنْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلَ ، لِأَنَّهُ صَوْتٌ نَهَيْتُ أَنْ أُغْنِيَهُ ، فَتَنَيْتُكَ هَذَا
 الصَّوْتُ جَوَابًا لِمَا سَأَلْتَ وَغَنَيْتَ ؟ قُلْتُ : وَاللَّهِ مَا عَدَوْتُ مَا أُرَدْتُ . قَالَ لِي :
 يَا أَبَا عَبَادَ ؛ لَوْلَا مَلَالَةُ الْحَدِيثِ ، وَقَلُّ إِطَالَةِ الْجُلُوسِ لَا سَتَكُنْتُ مِنْكَ فَاعْذِرْ .
 فَفَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ ، وَإِنَّهُ لِأَجَلُ النَّاسِ عِنْدِي ، وَرَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَخَعَدْتُ
 بِحَدِيثِهِ ، وَهَجَبْتُ مِنْ فِطْنَتِهِ وَقِيَافَتِهِ^(٢) ، فَمَا رَأَيْتُ إِنْسَانًا إِلَّا وَهُوَ أَجَلُ مِنْهُ
 فِي عَيْفَى .

وَذَكَرْتُ جَمِيلًا وَبَشِيئَةً قُلْتُ : لِيَقْنَى عَرَفْتُ إِنْسَانًا يَحْدِثُنِي بِقِصَّةِ جَمِيلٍ وَخَبَرِ
 الشَّعْرِ فَكَوْنٌ قَدْ أَخَذْتُ بِفَضِيلَةِ الْأَمْرِ كُلَّهُ فِي الْفَنَاءِ وَالشَّعْرِ ؛ فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ
 فَإِذَا الْحَدِيثُ مَشْهُورٌ ، وَقِيلَ لِي : إِنْ أُرَدْتُ أَنْ تُخَبِّرَ بِخَبَرِهِ قَاتِ بِنَى حَفَظَلَهُ ،
 فَإِنَّ فِيهِمْ شَيْخًا مِنْهُمْ يَقَالُ لَهُ : فُلَانٌ ، يُخَبِّرُكَ الْخَبَرَ .

فَأَنْبَيْتُ الشَّيْخَ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ : نَعَمْ ؛ يَبْنَى أَنَا فِي الْإِلَى فِي الرَّيْعِ إِذَا أَنَا بِرَجُلٍ
 مُنْطَوٍّ عَلَى رَحْلِهِ كَأَنَّهُ جَانٌّ^(٣) ، فَسَلِّمْ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : مِمَّنْ أَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ قُلْتُ :

(١) طَرَأْتُ : أَقْبَلْتُ جَاءَهُ . (٢) قَاتِ الْأَثَرُ قِيَامُهُ : تَبْعُهُ وَعَرَفَهُ . (٣) حِيَّةٌ لَا تُؤْذِي ، كَثِيرَةٌ

أحد بني حَنْظَلَة ، قال : فانتسب ؛ فانتسبتُ حتى بلغتُ إلى فَيْحِذَى الذى أنا منه ؛
ثم سألنى عن بى عُدْرَة أين زلوا ؟ قلت له : هل ترى ذلك الشَّعْخ ؟ فإنهم زلوا
من ورائه ؛ قال : يا أخا بني حَنْظَلَة ؛ هل لك فى خير نصطنعه إلى ؟ فوافقه لو أعطيتنى
ما أصبغتَ نَسُوقَ من هذه الإبل ما كنتُ بأشكرَ منى لك عليه ، فقلت : نعم ،
ومن أنت أو لا ؟ قال : لانسألى من أنا ولا أخبرك لو سألتنى ؛ غير أنى رجلٌ بينى
وبين هؤلاء القوم ما يكونُ بين بى المم ، فإن رأيتُ أن تأزيهم فإنك نجد القوم
فى مجلسهم ، فتَشْدُمُ^(١) بَكْرَة أدماء تجرُ خَفِيهَا غَفْلًا من السَّمة^(٢) ، فإن ذكروا
لك شيئًا فذاك ، وإلا استأذنتهم فى البيوت وقلت : إن المرأة والصبي قد يران
ما لا يرى الرجال فتَشْدُمُ ولا تدعُ أحدا تصيبه عينك ولا يبتا من بيوتهم إلا
نشدتها فيه .

فأنيتُ القومَ فإذا هم على جُزُورٍ^(٣) بَقَسِمُونَهَا ، فسألتُ وانتسبتُ لهم ونشدتهم
ضالتي ، فلم يذكروا لى شيئًا ، فاستأذنتهم فى البيوت وقلت : إن الصبي والمرأة
يران ما لا يرى الرجال ، فأذِنُوا ، فأنيتُ أقصاها بيتًا ، ثم استقريتها بيتًا بيتًا
أنشدُهم فلا يذكرون شيئًا ، حتى إذا انصفَ النهار ، وأذانى حرُّ الشمس وعطشتُ
وفرغتُ من البيوت ، وذهبتُ لأنصرفَ حانتُ منى التفاتةً فإذا بثلاثة أليات
قلت : ما عند هؤلاء إلا ما عند غيرهم ، ثم قلت لنفسى : سوءة أوتيتُ بى رجلٌ
وزعم أن حاجته تعدلُ مالى ، ثم آتني فأقول : عَجَزْتُ عن ثلاثة ألياتِ !

(١) تشدُم : تناديهم وتألّم عنها ، والبكرة : الفتية من الإبل ، والآدم من الإبل : الأيىس .

(٢) السمة : العلامة ، وغفلا من السمة : أى ليست فيها علامة . (٣) الجزور من الإبل يقع على
الذكر والأنثى .

فانصرفتُ عائداً إلى أعظمها بيتاً ، فإذا هو قد أُرْخِيَ مُؤَخَّرُهُ ومقدمُهُ ،
 فسلمتُ فَرُدُّ عَلَى السَّلام ، وذكرتُ ضالَّتِي ، فقالت جارية منهم : يا عبدَ اللهِ ؛
 قد أصبَتْ ضالَّتكَ ، وما أظُنُّكَ إلَّا قد اشتدَّ عليك الحرُّ ، واشتهيتَ الشراب ؛
 قلت : أجل ؛ قالت : ادخل ؛ فدخلتُ ؛ فالتفتي بصَحْفَةٍ فيها تَمَرٌ من تَمَرِ هَجَرَ^(١)
 وَقَدَحٍ فيه لبن ، والصَحْفَةُ مصرية مُقَصَّصَةٌ ، والقَدَحُ مُقَصَّصٌ لم أرَ إناء قطُّ
 أحسنَ منه ، فقالت : دونك . فجمعتُ وشربتُ من اللبن حتى رَوَيْتُ ، ثم قلتُ :
 يا أمةَ اللهِ ؛ والله ما أتيتُ اليومَ أكرمَ منك ولا أحقَّ بالفضل ؛ فهل ذكرتُ من
 ضالَّتِي شيئاً ؟ فقالت : هل ترى هذه الشجرة فوق الشَّرَفِ^(٢) ؟ قلت : نعم ؛ قالت :
 فإنَّ الشمسَ غَرَبَتْ أمس وهي تُطِيفُ حولها ، ثم حال الليلُ بيني وبينها ؛ فقامتُ
 وجزيتُها الخيرَ ، وقلت : والله لقد تَنَدَّبْتُ وروَيْتُ .

فخرجتُ حتى أتيتُ الشجرةَ فَأَطَقْتُ بها ، فوالله ما رأيتُ من أثر ؛ فأنيتُ
 صاحِبِي فإذا هو مُشَيِّخٌ في الإبلِ بكائه وِرافُخُ عَقِيرَتِهِ^(٣) . قلت : السَّلامُ
 عليك . قال : وعليكَ السَّلام ، ما وراءك ؟ قلت : ما ورأى من شيء ؛ قال : لا
 عليك ؛ فأخبرني بما فعلتُ ، فَأَقْتَصَصْتُ عليه القصةَ حتى انتهيتُ إلى ذِكْرِ المرأةِ
 وأخبرته بالذي صَنَعْتُ ؛ فقال : قد أصبَتْ طَلِبَتَكَ ؛ فجمعتُ من قوله وأنا لم أجِدْ
 شيئاً .

(١) هجر : بلد باليمن مشهورة بانتمر . (٢) الشرف : المكان العالي . (٣) عقيرة الرجل :
 صوته إذا غنى أو بكى .

ثم سألني عن صفة الإناءين : الصَّحْفَةُ وَالْقَدَحُ ؛ فوصفتها له ، فتنفس الصُّعداء وقال : قد أصبت طلبتك ، ويحك ! ثم ذكرتُ له الشجرةَ وأنها رأَتْها تُطيفُ بها ، فقال : حَسْبُكَ ! فمكثتُ حتى أَوْتُ إِيلَى إلى مَباركها ودعوته إلى العشاء فلم يذُنْ منه ، وجلس منى يمزَجِرُ ^(١) الكلب .

فلما ظنَّ أَنِي قد نمتُ رَمَقَتْهُ ، فقام إلى عَيْبَةٍ ^(٢) له ، فاستخرج منها بُرْدَيْنِ فَأَنَزَرَ بأحدهما وتردَّى بالآخر ، ثم انطلق عامِداً نحو الشجرة . واستبطنتُ الوادِئَ فجعلتُ أَخْبِي نفسي ، حتى إِذَا خِفْتُ أَن يراني انبطحتُ ؛ فلم أَزَلْ كذلك حتى سَبَقَتْهُ إلى شجرات قريبة من تلك الشجرة ، بحيث أَسْمَعُ كلامَهُما ، فاستترتُ بهنَّ ، وَإِذَا صاحِبُهُ عند الشجرة ، فأقبل حتى كَانَ منها غير بعيد ، فقالت : اجلس ؛ فوالله لَسَكَّانَةٌ لَصِقَ بالأرض ، فلمْ عليها وسألها عن حالها أَكْرَمَ سؤال ، وأبدته عن كلِّ ريبة ، وسألته مثل مسألته ؛ ثم أَمَرَتْ جاريةَ معها ، فقَرَّبَتْ إِلَيْهِ طعاما ، فلما أَكَلَ وفرغ ، قالت : أَنشدني ما قلت ، فَأَنشدتها :

عَلِقْتُ الْهُوَى مِنْهَا وَلِيداً فَلَمْ يَزَلْ إِلَى الْيَوْمِ يَنْمِي حُبُّهَا وَيَزِيدُ
نَمْ لَمْ يَزَالَا يَتَعَدَّانِ ، مَا يَقُولَانِ فُحْشاً وَلَا هُجْراً ، حتى التفتت التفتاة ، فنظرت إلى الصبح ، فودَّع كلَّ واحدٍ منهما صاحبه أحسن وداع ما سمعت به . قط ، ثم انصرفا .

فتمت فضيتُ إلى إِيلَى ، فاضْطَجَعْتُ ، وكلَّ واحدٍ منهما يمشي خطوة ثم يلتفت إلى صاحبه ، فجاء بدماء أَصْبَحَتْ فَرَفَعَ بُرْدِيهِ . ثم قال : يا أَخَا بَنِي تَيْمٍ ؛ حتى مقى

(١) أَي جالس بعيداً . (٢) العيبة : وعاء من جلد يكون فيه اللعاب .

تَنَامُ أَقَمْتُ وَتَوَضَّأتُ وَصَلَيْتُ، وَحَلَبْتُ إِبِلِي، وَأَعَانَنِي عَلَيْهَا، وَهُوَ أَظْهَرُ النَّاسِ
سُرُورًا، ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الْغَدَاءِ فَفَضَدَنِي؛ ثُمَّ قَامَ إِلَى عَيْتِهِ فَافْتَحَهَا فَإِذَا فِيهَا سِلَاحٌ
وَبُرْدَانٌ مِمَّا كَسَتْهُ لِلْمَلِكِ، فَأَعْطَانِي أَحَدَهُمَا وَقَالَ: أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مَعِيَ شَيْءٌ مَا
ذَخَرْتُهُ عَنْكَ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثَهُ وَانْتَسَبَ لِي، فَإِذَا هُوَ جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ وَالرَّأَةُ بُنَيْنَةُ،
وَقَالَ لِي: إِنِّي قُلْتُ أَيْيَاتًا فِي مُنْصَرَفِي مِنْ عِنْدَهَا، فَهَلْ لَكَ إِنْ رَأَيْتَهَا أَنْ تُنْشِدَهَا؟
قُلْتُ: نَعَمْ؛ فَأَنْشَدَنِي:

وَمَا أُنْسِمُ الْأَشْيَاءَ لَا أُنْسَ قَوْلَهَا وَقَدْ قَرَّبَتْ نِضْوِي: أَمَصَرَ تُرِيدُ
وَلَا قَوْلَهَا لَوْلَا الْعِيُونُ الَّتِي تَرَى أَتَيْتُكَ فَأَعْذِرْنِي فَدَنُكَ جُدُودُ
خَلِيلِي مَا أَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ بَاطِنُ وَدَمْعِي بِمَا قُلْتُ الْفِدَاةَ شَهِيدُ
يَقُولُونَ: جَاهِدْ بِجَمِيلٍ بَنَزَوَةٍ وَأَيُّ جِهَادٍ غَيْرُهُنَّ أَرِيدُ
لَا كَلَّ حَدِيثٍ عِنْدَهُنَّ بِشَاشَةٍ وَكُلُّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ
ثُمَّ وَدَعْنِي وَانْصَرَفَ.

فَكُنْتُ حَتَّى أَخَذْتُ الْإِبِلَ مَرَاتِمَهَا، ثُمَّ عَدَدْتُ إِلَى دُهْنٍ كَانَ مَعِيَ فَدَهَنْتُ
بِهِ رَأْسِي، ثُمَّ ارْتَدَيْتُ بِالْبُرْدِ وَأَتَيْتُ الرَّأَةَ، قُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ؛ إِنِّي جِئْتُ أَمَسَ
طَالِبًا وَالْيَوْمَ زَائِرًا، أَفَتَاذَنُونَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَسَمِعْتُ جَوَابِيَّةً يَقُولُ لَهَا: يَا بُدَيْنَةُ؛
عَلَيْهِ وَاللَّهِ بُرْدٌ جَمِيلٌ، فَجَلَسْتُ أُنْثِي عَلَى ضَيْفِي وَأَذْكَرَ فَضْلَهُ، وَقُلْتُ: إِنَّهُ ذَكَرُكَ
فَأَحْسَنَ الذِّكْرِ، فَهَلْ أَنْتَ بَارِزَةٌ حَتَّى أَنْظَرَ لِيكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَلَبَسْتُ ثِيَابَهَا ثُمَّ
بَرَزَتْ وَدَعَتْ لِي بِطَرَفٍ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَخَا بَنِي تَمِيمٍ، وَاللَّهِ مَا ثَوْبُكَ هَذَا بِمَشْتَهَرِينَ
وَدَعَتْ بِمِثْلَيْهَا، فَأَخْرَجْتُ لِي مِلْحَةً^(١) مَرْوِيَّةً مُسَبَّغَةً مِنَ الْمَصْفَرِّ، ثُمَّ قَالَتْ:

(١) المِلْحَةُ: الْإِبَاسُ الَّتِي فَوْقَ الْإِبَاسِ مِنْ دَنَارِ الْبَرْدِ وَنَحْوِهِ، وَمَرْوِيَّةٌ: لِسَبَةِ إِلَى مَرْوٍ.

أقسمت عليك لقومنَّ إلى كِسْرِ البيت ولتَحْلَمَنَّ مِدْرَعَتَكَ^(١) ، ثم لَتَأْتِرَنَّ بهذه
للحفة، فهي أشبه بِرُودِكَ ، ففعلتُ ذلك ؛ وأخذت مِدْرَعِي بيدي؛ فجعلتها إلى جانبي،
وأشدتها الأبيات ؛ فدمعتُ ، وتحدثنا طويلاً من النهار ، ثم انصرفتُ إلى أبي
بِلَحْفَةٍ بُيُوتَةٍ وَبُرْدٍ جَمِيلٍ وَنَظَرَةٍ مِنْ بَيْتَةٍ .

قال معبد : فجزيتُ الشيخ خيراً ، وانصرفت من عنده وأنا والله أحسنُ الناس
حالاً بِنَظَرَةٍ مِنَ الْفَرِيضِ وَاسْتِمَاعٍ لِفَنَائِهِ وَعِلْمٍ بِمَحْدِثِ جَمِيلٍ وَبَيْتَةٍ فِيمَا غَنِيَتْ
أَنَا بِهِ ، وفيما غَنَى بِهِ الْفَرِيضُ عَلَى ذَلِكَ وَصَدَقَهُ ؛ فَا رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بُرُوجِينَ
قَطُّ أَحْسَنَ مِنْ جَمِيلٍ وَبَيْتَةٍ ، وَمِنْ الْفَرِيضِ وَمَنَى .

(١) للدرعة : نوع من الثياب ، ولا تكون إلا من الصوف .

٦٢ — عتاب بين بُئينة وجيل*

لقي جيل بُئينه بعد تهاجر^(١) كان بينها طالت مدته ، فعمانيا طويلا ؛
 قالت له : وَنَحْكَ يَا جِيل ! أَنْزَعُمُ أَنْكَ نَهَوَانِي وَأَنْتَ الَّذِي تَقُول :
 رَمَى اللَّهُ فِي عَيْنِي بُئِينَةً بِالْقُدَى وَفِي الْفَرْمَنِ أَنْبِيَاءُهَا بِالْقَوَادِحِ^(٢)
 فَأَطْرَقَ طَوِيلًا يَبْكِي ، ثُمَّ قَالَ : بَلْ أَنَا الْقَاتِلُ :
 أَلَا كَيْتَنِي أَعْمَى أَصْمٌ تَقُودُنِي بُئِينَةٌ لَا يَخْفَى عَلَى كَلَامِهَا
 قالت له : وَنَحْكَ ! مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذِهِ الْمُنْعِ ! أَوَلَيْسَ فِي سَمَةِ الْعَافِيَةِ
 مَا كَفَانَا جَمِيعًا !

* الأغانى : ٨ - ١٠٤

(١) التهاجر : التقاطع . (٢) القوادح : سواد يظهر في الأسنان .

٩٣ — يَتَذَكَّرَانِ الشَّعْرَ وَالْهَوَىٰ *

التقى جميلٌ وكثيرٌ هذا كَرَّا النسيبُ ؛ قال كثيرٌ : يا جميل ؛ أَمَرَسِي بُحَيْنَةَ
لم تَسْمَعْ يقولك :

بَفَيْكِ جَمِيلٌ كُلُّ سُوءٍ ، أَمَا لَهُ لَدَيْكِ حَدِيثٌ أَوْ إِلَيْكِ رَسُولُ
وَقَدْ قُلْتُ فِي حُبِّي لَكُمْ وَصَبَابَتِي مُحَاسِنَ شَعْرِ ذِكْرُهُنَّ يَطُولُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَوْلِي رِضَاكِ فَعَلَمِي هُبُوبَ الصَّبَا يَا بَنُّ كَيْفَ أَقُولُ
فَاغَابَ عَنِ عَيْنِي خَيَالُكَ لِحَفَاةِ وَلَا زَالَ عَنْهَا ، وَالْخِيَالُ يَزُولُ
قال جميل : أَمَرَسِي عَزَّةُ يَا كَثِيرٌ لَمْ تَسْمَعْ يَقُولُكَ :

يَقُولُ الْعِدَا : يَا عَزُّ قَدْ حَالَ دُونَكُمْ شَجَاعٌ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ مَصْمٌ^(١)
قُلْتُ لَهَا : وَاقِفِي لَوْ كَانَ دُونَكُمْ جَهْمٌ مَا رَاعَتْ فَوَادِي جَهْمٌ
وَكَيْفَ يَرُوعُ الْقَلْبَ يَا عَزُّ رَائِعٌ وَوَجْهَكَ فِي الظَّلَامِاءِ لِلسَّفَرِ مَعْلَمٌ
وَمَا ظَلَمْتُكَ النَّفْسُ يَا عَزُّ فِي الْهَوَى فَلَا تَنْقِمِي حُبِّي فَا فِيهِ مَنَقَمٌ
فَبِكَيِّ قِطْعَةً مِنَ اللَّيْلِ ، ثُمَّ انصَرَفَا .

* الأغانى : ٨ - ٩٠٩

(١) يقال للضارب بالسيف إذا أصاب النظم فأخذ الضريبة : قد صم ، فهو مصمم .

٦٤ - لا أزال أبكيه إلى الممات*

حَدَّثَتْ بُنَيَّةٌ - وكانت صدوقةً اللسان، جميلةً الوجه، حسنةً البيان، عفيفة - قالت : والله ما أُرَادَتِي جميل - رحمة الله عليه - بريئةً قَطُّ ، ولا حَدَّثْتُ أنا نفسى بذلك منه ، وإن الحىَّ انتَجَمُوا موضعا ، وإني لفي هَوْدَجٍ لى أُسِيرُ إِذَا أنا بهاتِفُ يَنْشِدُ أَيْيَاتَا .

فلم أتمالكُ أَنْ رَمِيتُ بنفسى ، وأهلُ الحىَ ينظرون ، فبقيتُ أطلبُ المُنْشِدَ فلم أُنْفِ عليه ، فنَاديتُ : أيها الهاتِفُ بشعرِ جميل ، ما وراءَكَ منه إِنْ أُنْصِبَ قد قُضِيَ نَحْمُهُ ومضى لسبيله - فلم يجبْنى مُجِيبٌ ، فنَاديتُ ثَلَاثًا ، وفى كل ذلك لا يردُّ عَلَى أَحَدٍ شَيْئًا ، فقالت صَوَاحِبَاتِي : أَصَابَكَ يَا بُنَيَّةُ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ! فقلتُ : كَلَّا ، لقد سمعتُ قَائِلًا يَقُولُ اقلن : نحن مَعَكُمْ ولم نَسْمَعْ ، فرجعتُ فركبتُ مِطْلِقِي وَأَنَا حَيْرَى ، والهةُ العقلِ ، كاسفةُ البالِ .

ثم سرنا ، فلما كان فى الليل سمعتُ ذلك الهاتِفَ يَهْتَفِ بِذلك الشعرِ بعينه ، فرميتُ بنفسى ، وسمعتُ إِلَى الصَّوْتِ ؛ فلما قُرِبْتُ مِنْهُ انقطع ؛ فقلتُ : أيها الهاتِفُ اارْزَحْ حَيْرَتِي ، وَسَكُنْ عَيْرَتِي بِخبر هذه الأبيات ؛ فَإِنْ لَهَا شَأْنًا فَلَمْ يَرُدُّ عَلَى شَيْئًا !

فرجعتُ إِلَى رَحْلِي فركبتُ ومِيرْتُ وَأَنَا ذَاهِبَةُ الْعَقْلِ ، وفى كل ذلك لا تخبرنِ صَوَاحِبَاتِي أَنَّهُنَّ سَمِعْنَ شَيْئًا .

فلما كانت الليلة التالية نزلنا وأخذ الحى مضاجعهم ونامت كل عين ، فإذا الهاتف يستف بى ويقول : يا بئنة ؛ أقبل إلى أنينك عما تريدن ، فأقبلت نحو الصوت ؛ فإذا شيخ كأنه من رجال الحى ؛ فسألته عن اسمه وبئته ، فقال : دعى هذا ، وخذى فيما هو أم عليك ، قلت له : وإن هذا لما همشى . قال : اقننى بما قلت لك . قلت له : أنت للنشد الأبيات ؟ قال : نعم . قلت : فاخبر جميل ؟ قال : نعم ! فارقته وقد قضى نحبته ، وصار إلى حفرته - رحمة الله عليه .

فصرخت صرخة أذيت منها الحى ، وسقطت لوجهى ؛ فأغمى على ، فكان صوتى لم يسمعه أحد ، وبقيت سائر ليلتى ، ثم أفتت عند طلوع الفجر ، وأهلى يطلبوننى فلا يلقون على موصى ، ورفعت صوتى بالمويل والبكاء ورجعت إلى مكائى ، فقال لى أهلى : ما خبرك ؟ وما شأنك ؟ فقصصت عليهم القصة ، فقالوا : برح الله جيلاً ، واجتمع نساء الحى وأنشدن الأبيات فأسعدننى بالبكاء^(١) ، فلم نزل كذلك لا يفارقننى ثلاثاً ، وتحزن الرجال أيضاً ، وبكوا ورثوه ، وقالوا كلهم : يرحم الله ! فإنه كان عفيفاً صدوقاً .

فلم أكتحل بمده يأمده^(٢) ، ولا فرقت رأسى بخيط ولا مشط ولا دهنته إلا من صداع خفت على بصرى منه ، ولا لبست خماراً مصبوغاً ولا إزاراً ، ولا أزال كذلك أبكيه إلى المات !

(١) بكين مى .

(٢) الإمد : حجر يكتحل به .

٦٥ — فَعَى وَيَتَكَ مَنْ حَيَّاكَ يَا جَلْ*

أراد زوجُ عَزَّةَ أَنْ يَحْجَّ بِهَا ؛ فَسَمِعَ كَثِيرٌ الْخَبَرَ ؛ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا حُجْنَ ،
لَعَلِّي أَفُوزُ مِنْ عَزَّةَ بِنَفْطَرَةٍ .

فَبَيْنَمَا النَّاسُ فِي الْعُلُوفِ ، إِذْ نَظَرَ كَثِيرٌ عَزَّةَ ، وَقَدْ مَضَتْ إِلَى جِهْلِهِ ، فَخَيَّتَهُ ،
وَمَسَحَتْ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَتْ : حَيَّيتَ يَا جَلْ . فَبَادَرَ لِيَلْحَقَهَا ، فَذَاتَئِهِ فَوْقَ عَلَى
الْجَلِّ وَقَالَ :

حَيَّيْتُكَ عَزَّةُ بَسَدَ الْحَجِّ وَانْصَرَفْتُ فَعَى وَيَتَكَ مَنْ حَيَّاكَ يَا جَلْ
لَوْ كُنْتُ حَيَّيْتُهَا مَا زِلْتُ ذَا مِقَّةً^(١) عِنْدِي وَلَا مَسَكَ الْإِدْلَاجِ^(٢) وَالْعَمَلُ
لَيْتَ التَّحِيَّةِ كَانَتْ لِي فَأَشْكُرَهَا مَكَانَ يَا جَلْ حَيَّيتَ يَا رَجُلُ
فَسَمِعَهُ الْفَرَزْدَقُ ، فَتَبَسَّمَ ؛ وَقَالَ لَهُ : مَنْ تَكُونُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ ! قَالَ : أَنَا كَثِيرُ
عَزَّةَ . فَنَ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ ! قَالَ : أَنَا الْفَرَزْدَقُ بْنُ غَالِبِ التَّمِيمِيِّ ! قَالَ :
أَنْتَ الْقَاتِلُ :

رَحَلْتُ جَهْلًا بِسُكُلٍ أَسِيلَةٍ^(٣) تَرَكْتُ فُؤَادَكَ هَائِمًا مَخْبُولًا
لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُهُمْ إِذَا لَمْ يَرْحَلُوا حَتَّى أُوَدِّعَ قَلْبِي اللَّتْبُولَا^(٤) !
سَارُوا بِقَلْبِي فِي الْخُدُوجِ^(٥) وَغَادَرُوا جَمِي بِسَالِجِ زَفَرَةٍ وَعَوِيلَا

* المتطرف : ٢ : ١٧٩

(١) اللفظة : الحبة . (٢) أدلج : سار من أول الليل . (٣) أسيل الخد : لبن الخد طويله .

(٤) اللتبول : القمامة . (٥) الخدوج : جمع خدج ، وهو مركب النساء كالخففة .

قال الفرزدق : نم . قال كُثَيِّرُ : والله لولا أني في البيت الحرام لأصيحنَّ
صبيحةً أفرعُ هشام بن عبد الملك ، وهو على سريرٍ مُلكِه ؛ قال الفرزدق :
والله لأعرفنَّ بذلك هشامًا .
ثم تَوادعا واقتربا .

ولما وصل الفرزدقُ إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك ، فعرّفه
بما اتفق له مع كُثَيِّر ، قال له : أكتبُ إليه بالحضور عندنا لنطلقَ عَزَّةَ من زوجها
ونزوجه إياها ، فكتب إليه بذلك .

فخرج كُثَيِّرُ يريد دمشق ، فلما خرج مِنْ حَيْهٍ وسار قليلاً رأى غراباً على
بَاقِيَةٍ^(١) ، وهو يفلّي نفسه ، وريشه يتساقط ؛ فاصفرَّ لونه ، وارتاع من ذلك وجَدَّ
في السير ، ثم إنه مال ليسقَى راحلته من حَيٍّ بنِيْ هَندٍ^(٢) - وهم زَجَّةُ الطير - فَبَصُرَ
به شيخٌ من الحَيِّ ، قال : يا بَنَ أَخِي ؛ أَرَأَيْتَ في طريقك شيئاً فَرَأَعَكَ ؟ قال :
نعم يا عم ، رأيتُ غراباً يتفلّى ويَنفِثُ ريشه ، فقال له الشيخ : أما الغرابُ فإنه
اغتراب ، والباقيةُ فرقة !

فازداد كُثَيِّرُ حزنًا على حُزْنِهِ ، لَمَّا سَمِعَ من كلام الشيخ ، وجَدَّ في السير ، إلى
أَن واصلَ إلى دمشق ، ودخل من أحدِ أبوابها ، فرأى الناس يصلُّون على جنازة ،
فزلَّ وصلى معهم ؛ فلما قُضِيَت الصلاة صاح صائحٌ : لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ! ما أَغْفَلَكَ
يا كُثَيِّرُ عَنْ هذا اليوم ! فقال له كُثَيِّرُ : ما هذا اليوم ؟ فقال : إنَّ هذه عزة
قد ماتت وهذه جنازتها !

(١) الباق : شجر .

(٢) هند : قبيلة باليمن ، وهناك رواية أخرى لهذه القصة ، وفيها أنه قدم على حَيٍّ من « لُهب »
(انظر : ١ - ١٣٦ من هذا الكتاب ، والأغاني : ص ٣٤ ج ٩) .

نفرٌ منشياً عليه ، فلما أفاق أنشأ يقول :

فما أعرف النهديّ ! لادرّدرّه ! وأزجرّه للطير لاعزّ ناصره
رأيتُ غراباً قد علّا فوق بانهٍ يُنْتَفُ أعلَى ريشه ويطأيره
فقال : غرابُ اغترابٍ من النوى وبانهٍ يبين من حبيب ناعشره
ثم شفق شفقاً فارقت رُوحهُ الدنيا ، ومات من ساعته ودُفن مع عزّة في
يوم واحد .

٦٦ - إلى الخُلوات يَأْنَسُ فَيْكِ قَلْبِي *

قال يونس الكاتب :

كُنَّا يَوْمًا مُتَنَزِّهِينَ بِالْعَمِيقِ أَنَا وَجَمَاعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَبَيْنَا مَحْنٌ عَلَى حَالِنَا إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَائِشَةَ ^(١) يَمْشِي وَمَعَهُ غِلَامٌ مِنْ بَنِي لَيْثٍ ، وَهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَى يَدِهِ ، فَلَمَّا رَأَى جَمَاعَتَنَا وَسَمِعَنِي أُغْنِي جَاءَنَا فَسَلَّمَ ، وَجَلَسَ إِلَيْنَا ، وَتَحَدَّثَ مَعَنَا ، وَكَانَتْ الْجَمَاعَةُ تُعْرِفُ سُوءَ خُلُقِهِ وَغَضَبِهِ إِذَا سُئِلَ أَنْ يُقْنَى ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَحَدَّثُونَ بِأَحَادِيثٍ كَثِيرٍ وَجَمِيلٍ وَغَيْرُهَا مِنَ الشُّعْرَاءِ ، يَسْتَجِرُّونَ بِذَلِكَ أَنْ يَطْرَبَ فَيْفَنِي ، فَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَهُ مَا أَرَادُوا .

قُلْتُ لَهُمْ : لَقَدْ حَدَّثَنِي الْيَوْمَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ حَدِيثًا بِأَكْلِ الْأَحَادِيثِ ، فَإِنْ شِئْتُمْ حَدَّثْتُكُمْ إِيَّاهُ ؛ قَالُوا : هَاتِي ، قُلْتُ : حَدَّثَنِي هَذَا الرَّجُلُ أَنَّهُ مَرَّ بِنَاحِيَةِ الرَّبْدَةِ ^(٢) فَإِذَا صَبِيحَانِ يَقْفَا طَسُونٌ فِي غَدِيرٍ ، وَإِذَا شَابٌّ جَمِيلٌ مِنْهُوَكُ الْجِسْمِ ، عَلَيْهِ أَثَرُ الْعِلَّةِ وَالتَّحُولُ فِي جِسْمِهِ بَيِّنٍ ، وَهُوَ جَالِسٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ وَقَالَ : مَنْ أَنْ وَضَحَ ^(٣) الرَّاكِبُ ؟ قُلْتُ : مِنَ الْحِمَى ، قَالَ : وَمَتَى عَهْدُكَ بِهِ ؟ قُلْتُ : رَائِحًا ، قَالَ : وَأَيْنَ كَانَ مَبِيتُكَ ؟ قُلْتُ : بِبَنِي فُلَانٍ ،

* سبط اللآلي : ١ - ١٥٢ ، ٢ - ٢٣٢ ، الأملاني : ٣٨

(١) هو محمد بن عائشة ، يكنى أبا جعفر ، ولم يكن يعرف له أب ، فكان ينسب إلى أمه ، وكان حسن الثناء ، عالمًا بفنّه ، طريف المجلس ، طيب الحديث على سوء في خلقه ، ويرى في طبخه ، توفي نحو سنة ١٠٠ هـ . (٢) الربدة : قرية على ثلاثة أميال من المدينة . (٣) أى من أين بدا وطلع .

قال : أوَّه ! وألقى بنفسه على ظهره ، وتنفس الصُّعداء قتل : إنه قد خرَّق حجابَ قلبه ، ثم أنشأ يقول :

سَقَى بِلْدًا أُمِّتٌ سُلَيْمَى تَحُلُّهُ مِنْ لُزْنٍ مَا يَرَوَى بِهِ وَيُسِيمُ^(١)
وإن لم أكن من قاطنيه فإنه يحلّ به شخصٌ على كريمٍ
ألا حيداً من ليس بعدلٍ قُرْبُهُ لدى - وإن شطّ المزارُ - نعيمُ
ومن لامي فيه حميمٌ وصاحبٌ فردّ بغيظٍ صاحبٌ وحميمٌ
ثم سكن كالنفسى عليه ، فصاحت بالصَّديّة ، فأتوا بماء ، فصَدَّتْهُ على وجهه ؛
فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصَّبُّ الغريبُ رأى خُشوعِي وأنفاسي تَرَبَّنَ بالخُشوعِ
ولى عينٌ أضرب بها التَّفَانِي إلى الأَجْزَاعِ^(٢) مُطْلَقَةَ الدَّمُوعِ
إلى الخَلَوَاتِ يَأْنَسُ فِيكَ قَلْبِي كما أُنِسَ الغريبُ إلى الجَمِيعِ
فقلتُ له : ألا أنزلُ فأساعدك ، أو أنكرُ عَوْدِي على بدئي إلى الرِّجْى إن
كانتُ لك فيه حاجةٌ أو رسالة ؟ فقال : جُزِيتَ خيراً وصَحِيحَتِكَ السَّلَامَةُ ! امضِ
لِطَيِّتِكَ^(٣) ، فلو أنى علمتُ أنك تُنفى عني شيئاً لكنتُ موضعاً للرَّغبة وحقيقاً
بإسعاف المسألة ، ولكنك أدركتني في صُبابَةٍ من حياتي يسيرة ، فأنصرفتُ وأنا
لا أراه يُسمى ليلته إلّا ميتاً .

فقال القوم : ما أعجبَ هذا الحديث ! واندفع ابنُ عائشة فتنفى في الشَّعْرَيْنِ
جميعاً ، وطرب وشرب بقيةَ يومه ، ولم يزل يفتننا إلى أن انصرفنا .

(١) يمى : يكون صالحاً للإسامة بما يكون من خصب وكلاء . (٢) الأجزاء جمع جزع : وهو
جانب الرأدى ومنطقته . (٣) لطيتك : لوجهك .

٦٧ — من لم يُقَيِّدْ جوارحه أنعب قلبه *

حجَّ عبد الملك بن مروان ، وحجَّ معه خالد^(١) بن يزيد بن معاوية . وكان من رجال قريش للمدودين وعلمائهم ، عظيم القدر ، جليل المنزلة ، مهيب المجلس ، موقراً معظماً عند عبد الملك ، فينبأ هو بطوف بالبيت إذ بصر برملة بنت الزبير ابن العوام . فمشقها عشقاً شديداً ، وأخذت بجميع قلبه ، وتغير عليه الحال ، ولم يملك من أمره شيئاً ، فلما أراد عبد الملك القول لهم خالد بالتخلف عنه ، فبعث إليه فسأله عن أمره ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ رملة بنت الزبير رأيتها تطوف بالبيت ، فأذهلت عقلي فوالله ما أبدت لك ما بي إلا حين عيل صبري ، ولقد عرَّضت النوم على عيني فلم تقبله ، والسوا على قلبي فامتنع منه .

فأطال عبد الملك التمسُّب من ذلك ، وقال : ما كنت أقول : إن الهوى يستأيرُ مثلك ، فقال خالد : وإني لأشدُّ تعجباً من تعجبك مني ، فلقد كنت أقول : إن الهوى لا يتمكَّنُ إلا من صنفين من الناس : الأعراب والشعراء ، أما الشعراء فإنهم ألزمو قلوبهم الفكر في النساء والنزل ، فال طبعهم إلى النساء ، فضغفت قلوبهم عن دفع الهوى ، فاستسلموا له مُنقادين . وأما الأعراب فإنَّ أحدَهم يخلو بامرأة فلا يكون الغالبُ عنده إلا حبُّها .

وجملةُ أمرى : أنى ما رأيتُ نظرةً حسَّنتُ عندي ركوبَ الإثم مثل نظرتي هذه .

* معاضرات الأبرار : ٢ - ٢٦ ، الأغاني : ١٦ - ٨٥

(١) هو خالد بن يزيد كان من رجال قريش سخاء وعارضة ونصاحه ، وكان قد شغل نفسه بطلب الكتيبة ، فأفنى بذلك عمره ، وأخلَّ ذكره ، توفي سنة ٨٥ هـ .

فتقسم عبد الملك وقال : أوكلُ هذا بَلْعَ بك ؟ قال : والله ما عرفت هذه البليَّة قبل وقتي هذا .

فوجه عبد الملك إلى آل الزبير يخطب رَمْلَةً على خالد ، فذكروا لها ذلك ، فقالت : لا والله أو يُطَلَّق نساءه ، فطلَّق امرأتين كانتا عنده ، وتزوجها وظن بها إلى الشام ، وفيها يقول :

أليس يزيد السَّيرُ في كلِّ ليلة
أحنَّ إلى بنتِ الزبير وقد عدتْ
إذا نزلتْ أرضاً تُحِبُّ أهلها
وإن نزلتْ ماء وإن كان قبلها
تَجُولُ خلاخيلُ النساء ولا أرى
أَقِلُّوا على اللومِ فيها فإني
أحبُّ بنى العوام طراً لحبها
ومن حبها أحببتُ أخوالها كلباً
فلما وقف عبد الملك على هذه الآيات نظم بيتاً ودَّسه ليكيده به خالداً ؛ لأنه كان يروم الخلافة كأيِّه يزيد وجدَّه معاوية ، فقال عبد الملك : يا خالد ؛ أنت القائل :

فإن تُسَلِّى أسلم وإن تَنَصَّرى
تخطَّ رجلٌ بين أعينهم صلباً !
فقال خالد : لمن الله قائله ! فخصَّجِل عبد الملك ولا م نفسه .

(١) الحرق : القلاة الواسعة . (٢) النقب : الطريق في الجبل . (٣) اللبيح : اللع ، ضد المذب . (٤) القلب : سوار المرأة ، يريد أن سافها مليئة ، ويدها علة ، فلا سبيل إلى الجول . (٥) فلها صفات النساء الحسن ، كما سبق ، ولها قلب كقلوب آل الزبير طهارة ، وحفاظ عهد .

٦٨ — غداً يكثر الباكون مِنَّا وَمِنْكُمْ*

قال أبو رِيحانة حاجب عبد الملك^(١) بن مروان : كان عبد الملك يجلس في كل أسبوع يومين جلوساً عاماً للناس ؛ فبينما هو جالس في مُسْتَشْرِفٍ^(٢) له ، وقد أُدْخِلَتْ عليه القِصَصُ إذْ وقفت في يده قصّةٌ ، فيها : « إن رأى أمير المؤمنين أن يأمرَ جارِيَتَه فلانة أن تَغْنِيَنِي ثلاثة أصوات ، ثم يُنْقِذَ في ما شاء من حكمه فلان ! »

فاسْتَشَاطَ من ذلك غضباً ، وقال : ياربّاح ؛ على بصاحبِ هذه القصة ! ففرج الناس جميعاً ، وأُدْخِلَ عليه غلامٌ من أجمل الفتيان وأحسنهم ، فقال له عبد الملك : يا غلام ؛ أهذه قِصَّتُكَ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : وما الذي غَرَّكَ مِنِّي ، والله لأُسلِمَنَّ بِكَ ! ولأُرَدَّعَنَّ بِكَ نظراءَكَ من أهل الجِسَارَةِ ! ثم قال : على الجارية ، فجيءَ بها كأنها فَلَقَةٌ قَمَرٌ ! وبيدها عودُها فطَرَحَ لها الكرسى ، فجلست ، فقال عبد الملك : مُرّها يا غلام ؛ فقال لها : غُنِّيْني يا جارية بشعر قيس ابن ذريح :

لقد كنتِ حَسَبَ النفسِ ، لودامِ ودُنَا ؛ ولكنما الدنيا متاعٌ غرور !
وكنّا جميعاً قبل أن يَظْهَرَ الهوى بأنهم حَالَى غبطةٍ وسُرُورِ
فأُبرِحَ الواشنون حتى بَدَتْ لنا بطونُ الهوى مقلوبةً لِظُهُورِ

* مصارع العشاق : ٢٥٣ ، نهاية الأرب ٢٠ - ١٦٠

(١) عبد الملك بن مروان : من أعظم الخلفاء ، نشأ في المدينة فتيهاً واسع العلم وتوفى سنة ٨٨٦ هـ .

(٢) استمصرف النقي : وقع بهزاه إليه ، والمكان مستصرف ، والمراد بجله العالي .

فَفَتَتْ ، فخرج الغلامُ بجميع ما كان عليه من الثياب تخريباً ، ثم قال له
عبد الملك : مُرْهَا تَفَنِّكَ الصَوْتَ الثَّانِي ، فقال : غَنَيْتُ بِشعر جميل :

أَلَا لَيْتَ شَمْرَى ! هَلْ أُمِيتَتْ لَيْلَةً بُوَادِي الْقُرَى ؟ إِيَّيْ إِيَّيْ لَسَعِيدُ !
إِذَا قُلْتُ : مَا بِي يَا بُلَيَّةَ قَاتِلِي مِنْ الْحُبِّ ! قَالَتْ : ثَابِتْ وَزَيْدُ
وَأِنْ قُلْتُ : رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعْشِ بِهِ مَعَ النَّاسِ ! قَالَتْ : ذَاكَ مِنْكَ بَمِيدُ !
فَلَا أَنَا مُرْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِبًا وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ
يَمُوتُ الْهَوَى مَتَى إِذَا مَا لَقِيَهَا ، وَيَحْيَا إِذَا قَارَقَهَا فَيَعُودُ
فَفَتَنَتْهُ الْجَارِيَةُ ؛ فَسَقَطَ الْغُلَامُ حَفْشِيًّا عَلَيْهِ سَاعَةً ، ثُمَّ أَفَاقَ ؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ :

مُرْهَا فَلْتَفَنِّكَ الصَوْتَ الثَّالِثَ ؛ فَقَالَ : يَا جَارِيَةُ ؛ غَنَيْتُ بِشعر قيس بن الملوِّح :
وَفِي الْجَبْرِ النَّادِينَ مِنْ بَطْنٍ وَجَرٍ^(١) غَزَالُ غَضِيضُ الْمُفْلَتَيْنِ رَيْبُ
فَلَا تَحْسَبِي أَنَّ الْغَرِيبَ الَّذِي نَأَى وَلَكِنْ مَنْ تَنَابَأَ عَنْهُ غَرِيبُ !
فَفَتَنَتْهُ الْجَارِيَةُ ، فَطَرَحَ الْغُلَامُ نَفْسَهُ مِنَ الْمُسْتَشْرِفِ ، فَلَمْ يَصِلْ إِلَى الْأَرْضِ
حَتَّى تَقَطَّعَ ؛ فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : وَيَمْحَ ! لَقَدْ عَجَّلَ عَلَى نَفْسِهِ ! وَلَقَدْ كَانَ تَقْدِيرِي فِيهِ
غَيْرَ الَّذِي فَعَلَ ! وَأَمْرٌ فَأَخْرَجَتْ الْجَارِيَةُ مِنْ قَصْرِه ؛ ثُمَّ سَأَلَ عَنْ الْغُلَامِ ؛ فَقَالُوا :
غَرِيبٌ لَا يُعْرِفُ إِلَّا أَنَّهُ مِنْذُ ثَلَاثِ بَنَادِي فِي الْأَسْوَاقِ وَيَدُهُ عَلَى رَأْسِهِ :

غَدًا يَكْثُرُ الْبَا كَوْنُ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَتَزْدَادُ دَارِي مِنْ دِيَارِكُمْ بَعْدًا !

(١) وجرة : موضع بين مكة والبصرة .

٦٩ — وذو الشوق القديم وإن نعزى

مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى العاشِقِينَ*

بينما عَمَرُ^(١) بن أبي ربيعة يطوفُ بالبيت في حالِ نُسُكِهِ - وكان قد حلف
ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رَقَبَةً - فإذا هو بشابٍ قد دنا من شابة ظاهرة الجمال
فألقي إليها كلامًا ، فقال له عمر : يا عدوَّ الله ؛ في بلد الله الحرام وعند بيته تصنعُ
هذا ! قال : يا عمَّاه ؛ إنها ابنةُ عمي ، وأحبُّ الناس إليَّ ؛ وإني عندها لكذلك ،
وما كان بيني وبينها من سوء قط أكثر مما رأيتَ ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا
فلان ابن فلان ، قال : أفلا تنزَّوجُها ؟ قال : أبى عليَّ أبوها . قال : ولم ؟ قال :
يقول : ليس لك مال ؛ قال : انصرف والقي .

فَلَقِيهِ بعد ذلك ، فدعا بِبَيْتَلْتِهِ فركبها ؛ ثم أتى عمَّ الفتي في منزله ففرج إليه ،
وفرَّح بمجيئه ، ورحَّب وقرب ، ثم قال : ما حاجتُك يا أبا الخطاب ؟ قال : لم أرك
منذ أيام فاشتقتُ إليك ا قال : فانزل . فانزله وألطفه^(٢) ، قال له عمر في بعض
حديثه : إني رأيتُ ابنَ أخيك فأعجبني ما رأيتُ من جماله وشبابه ، قال له :
أجل ! ما يفتيبُ عنك أفضلُ مما رأيتَ ؟ قال : فهل لك من ولد ؟ قال : لا ، إلا

* الأغاني : ١ - ١٤٥ ، المحاسن والأضداد : ٣٥٩ ، المقد الفريد : ١ - ٩

(١) كان عمر بن أبي ربيعة أشعر قريش ، ولكنه اختص في شعره بوصف النساء ، ولم يصف
سواهن ، وله في التشبيب طريقة عرفت باسمه سلكها الشعراء ، وشبَّه بكثيرات من النساء ، توفي
سنة ٩٣ هـ . (٢) ألطفه : بره .

فلانة . قال : فما يملكك أن تزوجه إياها ؟ قال : إنه لا مال له ، قال : فإن لم يكن له مال فلك مال ، قال : فإني أضمن به عنه . قال : لكني لا أضمن به عنه ، فزوجته واحتسبكم ، قال : مائة دينار ، قال : نعم أفدضها عنه ، وتزوجها الفتي .

وانصرف عمر^(١) إلى منزله ، قامت إليه جارية من جواربه ، فأخذت رداءه ، وألقي بنفسه على الفراش وجل يتقلب ، فأنته بطمام فلم يصرض له ؛ فقالت له :
إِنَّ لَكَ لَأَمْرًا ، أو أراك تريد أن تقول شعراً ، قال : هاتي الدواء فكتب :

قول وليدتي لثا رائسي طربت^(٢) وكنت قد أقصرت^(٣) حيناً
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً وهاج لك الهوى داء دفيناً
وكنت زعمت أنك ذو عزاء إذا ما شئت فارقت القربى
بربك هل أذاك لها رسول فشاكك أم لقيت لها خديناً^(٤) ؟
قلت : شكاً إلى أني محبب كعبي زماننا إذ تعلمينا
قصص على ما يلقي بهندي فذكر بعض ما كنا نسينا
وذو الشوق القديم وإن نمرى مشوق حين يلقي العاشقينا
وكم من خلة^(٥) أعرضت عنها لغير قلى وكنت بها ضئينا
أردت بمآذاها فصدت عنها ولو جنّ القواد بها جنونا
ثم دعا تسعة من رقيقه فأعنتهم لكل بيت واحداً

(١) طربت : حزنت . (٢) أقصرت : نزعته عنه وأنا قادر عليه ، وكففت . (٣) الخدين : الصديق ، ومنه الخدن ، وهو محدث الجارية ، وكانت العرب لا يمتحنون من خدن يحدث الجارية ، بل جاء الإسلام بهمه . (٤) الخلة : الخيلة .

٧٠ - قضى كلُّ ذى دَيْنٍ فوقَ غَرِيمَةٍ

وعِزَّةٌ مَمْلُوءَةٌ مُعْفَى غَرِيمِهَا*

كان أول علاقة كُثِيرٌ^(١) بِمِزَّةٍ أَنه خرج من منزله خَلْفَ غَنَمٍ يسوقها إلى الجار^(٢) ؛ فلما كان بِالخَيْبِ^(٣) وَقَفَ على نِسوةٍ من بَنى ضَمْرَةَ ؛ فسألنَّ عن الماء ؛ فقلنَ لِمِزَّةٍ - وهى جاريةٌ حَيْفَ كَعْبٍ^(٤) تَذْيَاهَا : أُرْسِدِيه إلى الماء ، فأرشدتهُ وأعجبتهُ .

فبينما هو يسوق غَنَمَهُ إِذْ جَاءَتْهُ عِزَّةٌ بِدِرَاهِمٍ ، فقالت : يَقلُنَ لَكَ النِّسوةُ ؛ بِمِثْنَا بِهَذِهِ الدِّرَاهِمِ كِبْشًا من ضَأْنِكَ . فَأَمَرَ الْغُلَامَ فَدَفَعَ إِلَيْهَا كِبْشًا ، وقالَ لها : رُدِّي الدِّرَاهِمَ وَقُولِي لَهَا : إِذَا رَحْتُ بِكَفِّهِ اقْتَضَيْتُ حَقِّي .

فلما راحَ مَرَّ بِبَيْنٍ ؛ فقلنَ لَهُ : هَذَا حَقُّكَ فَخُذْهُ . فقالَ : عِزَّةٌ غَرِيمِي ، وَلَسْتُ أَقْضِي حَقِّي إِلَّا مِنْهَا . فزَحْنُ مَعَهُ ، وَقُلْنَ : وَيَحْكُ الْعِزَّةُ جَارِيَةً صَغِيرَةً ، وَلَيْسَ فِيهَا وَفَاءٌ لِحَقِّكَ فَأَحْلِلْهُ عَلَى إِحْدَانَا ، فَإِنَّا أَمْلَأُ بِهِ وَأُسْرِعَ لَهُ أَدَاءً . فقالَ : مَا أَنَا بِمُحْلِلٍ حَقِّي عَنْهَا . ومضى لوجهه ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِنَ حِينَ فَرَغَ مِنْ بَيْعِ جَلْبِجِهِ^(٥) فَأَنْشَدْنَهُ فِيهَا :

* الأغانى : ٩ - ٢٥

(١) هو كثير بن عبد الرحمن ، كان رافضياً شديداً التصب لآل أبي طالب ، ومعرفته عِزَّة بنت حميد من ضَمْرَةَ ، وكانت من أَجْلِ النِّسَاءِ وَأَدْبَهُنَّ وَأَعْقَلُنَّ ، ويقالُ لَهُ لَمْ يَرِ لَهَا وَجْهاً ، إِلَّا أَنَّهُ اسْتَهَامَ بِهَا لَمَّا ذَكَرَ لَهُ عَنْهَا ، توفى سنة ١٠٥ هـ . (٢) الجار : موضعٌ بِساحِلِ الْبَحْرِ قَرِيبٌ مِنَ الْمَدِينَةِ . (٣) الخَيْبُ : الْوَادِي الْمُسَيِّقُ الضَّيِّقُ . (٤) تَهْدُ تَذْيَاهَا . (٥) الْجَلْبَجُ : مَا جَلَبَ مِنَ الْمَيِّتِ .

نظرتُ إليها نظرةً وهي عاتقٌ^(١) على حين أنْ شَبَّتْ وبأنْ نُهوذا
وقد دَرَعوها^(٢) وهي ذاتُ مؤصدٍ^(٣) مجُوبٍ^(٤) ولما يلبسُ الدرعَ ريدُها^(٥)
من الخفِراتِ البيضِ ودَّ جليسا إذا ما اتَّهضتْ أُحدُوثُهُ لو يُعيدُها
وقال :

فَقَصَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوْقِي غَرِيمَهُ وَعَزَّةٌ مَمْطُولٌ مَعْنَى غَرِيمِهَا
قلن له : أَيْتَ إِلَّا عَزَّةٌ أو أَبْرَزْنَهَا إِلَيْهِ وهي كارهة . ثم أَحْبَبَهُ عَزَّةٌ بعد
ذلك أَشَدَّ مِنْ حُبِّ إِبَّاهَا .

(١) المائق : الجارية أو أول ما تمسك . (٢) الدرع : القميص . (٣) المؤصد : صدار تلبيه
الفناء الصغيرة فلذا أهدرت دموعه . (٤) المجوب : التي له جيب . (٥) الريد : الثوب والتند .

٧١ — نُفْتِيهِ فِي مَوْتِ*

كانت بالمدينة قَيْنَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَكْمَلِهِمْ عَقْلًا، وَأَفْضَلِهِمْ أَدَبًا، قَرَأَتْ الْقُرْآنَ وَرَوَتْ الْأَشْعَارَ، وَتَعَلَّمَتِ الْقَرِيبَةَ، فَوَقَعَتْ عِنْدَ يَزِيدَ^(١) بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَأَخَذَتْ بِمِجَامِعِ قَلْبِهِ؛ فَقَالَ لَهَا ذَاتَ يَوْمٍ: وَيْحَكَ! أَمَا لَكَ قَرَابَةٌ أَوْ أَحَدٌ يَحْسُنُ أَنْ أَصْطَنِعَهُ، أَوْ أُسَدِّىَ إِلَيْهِ مَعْرُوفًا؟ قَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ أَمَا قَرَابَةٌ فَلَا، وَلَكِنْ بِالْمَدِينَةِ ثَلَاثَةُ فَرَسٍ كَانُوا أَصْدِقَاءَ لِمَوْلَايَ، كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ يَنْتَالَهُمْ مِنْ خَيْرِ مَا صَرْتُ إِلَيْهِ.

فَكَتَبَتْ إِلَى عَامِلِهِ بِالْمَدِينَةِ فِي إِشْخَاصِهِمْ، وَأَنْ يُعْطِيَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَشْرَةَ آلَافِ دَرَاهِمٍ، وَأَنْ يُسَجِّلَ بِسَرَّاحِهِمْ إِلَيْهِ.

فَفَعَلَ عَامِلُ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ؛ فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى بَابِ يَزِيدَ اسْتَأْذَنُوا، فَأَذِنَ لَهُمْ، وَأَكْرَمَهُمْ، وَسَلَّمَهُمْ حَوَائِجَهُمْ؛ فَأَمَّا الْاِثْنَانِ فَذَكَرَا حَوَائِجَهُمَا قَضَائِهَا لَهَا؛ وَأَمَّا الثَّالِثُ فَسَأَلَهُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ مَالِي حَاجَةٌ. قَالَ: وَلِمَ؟ أَلَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى حَوَائِجِكَ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ حَاجَتِي لَا أَحْسِبُكَ قَضِيئَهَا، قَالَ: وَيْحَكَ! فَسَلْنِي فَإِنَّكَ لَا تَسْأَلُنِي حَاجَةً أَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا قَضِيئَهَا، قَالَ: وَلِي الْأَمَانُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَكَرَامَةٌ. قَالَ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ نَأْمُرَ جَارِيَتَكَ فَلَانَةَ

* القصد القريد: ٤ - ١٧٥

(١) يزيد بن عبد الملك: من ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد في دمشق، وتولى بها سنة ١٠٥ هـ.

التي أكرمتمنا لها أن تمنّيني ثلاثة أصوات أشربُ عليها ثلاثة أرطال فأقبل .

فغَيَّرَ وَجْهَ يَزِيدٍ ؛ وقام من مجلسه - فدخل على الجارية ، فأعْلَمَهَا ، فقالت : وما عليك يا أمير المؤمنين ! أقبل ذلك ، فلما كان من الغد أمر بالفتى فأخضر ، وأمر بثلاثة كراسى من ذهب فألْقِيَتْ ، فقعده يَزِيدُ على أحدها ، وقعدت الجارية على الآخر ، وقعد الفتى على الثالث ، ثم دعا بطعام ففَضُّوا جميعا ، ثم دعا بصنوف الرباحين والطيب فوضِعَتْ ، ثم أمر بثلاثة أرطال ففُتَّتْ ، ثم قال للفتى : قل ما بَدَأَ لك ، وسَلْ حاجتك ، قال : تأمرها أن تنفى :

لا أستطيع سُلوًا عن مودَّتِهَا أو يصنعَ الحُبُّ بي فوق الذي صنعا
أدعو إلى هجرها قلبي فيسعدني حتى إذا قلت : هذا صادقٌ نَزَعَا

فأمرها ففُتَّتْ ؛ فشرب يَزِيدُ ، وشرب الفتى ، ثم شربت الجارية ، ثم أمر بالأرطال ففُتَّتْ ، ثم قال للفتى : سَلْ حاجتك . قال : تأمرها أن تنفى :

تَحْيَرْتُ مِنْ نَعْمَانٍ^(١) عُوْدَ أَرَاكَةِ لهند ، ولكن مَنْ يَبْلُغُهُ هِنْدَا
أَلَا عَرَجًا بِي ؛ بَارِكْ اللهُ فِيكَ وإن لم تكن هند لأرضكَا قَصْدَا

ففُتَّتْ بهما ، وشرب يَزِيدُ ، ثم الفتى ، ثم الجارية . ثم أمر بالأرطال ففُتَّتْ ، ثم قال للفتى : سَلْ حاجتك . قال : يا أمير المؤمنين ، مرّها تُنفى :

مِنَّا الْوَصَالُ وَمِنْكُمْ الْهَجْرُ حتى يَفْرَقَ بَيْنَنَا الْعَمْرُ
وَالله ما أَسْلُوكُم أَبَدًا ما لاحَ نَجْمٌ أو بدا فَجْرٌ

(١) نَعْمَان : اسم واد .

فلم تأتِ على آخر الأبيات حتى خَرَّ النبي مَغْشِيًّا عليه . فقال يزيد
للجارية : انظري ما حاله ؟ قامت إليه ، فخرَّكته فإذا هو ميّت ، فقال لها :
ابكيه . قالت : لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حي . قال لها : ابكيه ،
فوالله لو عاش ما انصرف إلّا بكِ ؛ فَبَكَتْهُ ، وأمر بالقتي فأحسن جِهازه
ودفنه ^(١) !

(١) روى أن مثل هذا حصل مع جارية للرشييد (انظر صفحة ١٦٣ ج ٢ من نهاية الأرب) .

٧٢ - فَاضَتْ نَفْسُهَا عَلَيْهِ *

قال محمد بن قيس :

وجَّهني عاملُ المدينة إلى يزيد بن عبد الملك - وهو إذ ذاك خليفة - فلما خرجتُ عن المدينة إذا أنا بامرأة جالسة على الطريق ، وشابٌ نائم ، وهو يتلوى ، ورأسه يسقط في جِحرها ، وكما سقط أعادته مكانه . فسَلْتُ ، فردَّت السلام - والشابُّ مشغولٌ بنفسه - فسألْتُها عنه ، فقالت : يا عبد الله ؛ هل لك في الأجر والثَّوْبَةُ ؟ قلت : لا أبغى سواهما .

قالت : هذا ولدي ، وكانت له ابنةٌ عم قريباً معا ، وشُفِيتْ به ، وشُفِيتْ بها ، وعلم بذلك أبوها ، وعلم بها أهلُ المدينة ؛ فحَجَّجَها عنه ، وكان يأتي للوضع والخِباء ^(١) فيسكى ، ثم خطبها من أبيها ، فأبى أن يزوجه ؛ لأننا نرى ذلك عيباً ، أن تزوج امرأة لرجل كان يحبها . ثم خطبها رجلٌ غيره ؛ فزوجها أبوها منه منذ خمسة أيام ، وهو على ما ترى ؛ لا يأكل ولا يشرب ولا يعقل ، فلو نزلت إليه ، وتحدثت معه ووعظتَه وسلَّيْتَه ، فلمه يسكنُ إلى حديثك ، ويصوّتُ بشيء من الطعام !

قال محمد : فنزلتُ ودنوتُ منه ، وتلففتُ به ؛ فرجعتُ إلى طرفه وقال بصوت

حزين :

* المختار من نواحر الأخبار ، نهاية الأرب : ٢ - ١٨٧
(١) الخباء من الأبنية ، يكون من وبر أو صوف أو شعر .

أَلَا مَا لِللَّيْحَةِ لَا نَمُودُ أُنْجَلُ بِاللَّيْحَةِ أَمْ صَدُودُ ؟
 مَرَضْتُ فَكَادَ أَهْلُ جَمِيًّا فَالْكِ لَا تَرَى فِيمَنْ يَمُودُ !
 قَدَرْتُكَ بَيْنَهُمْ فَبَكَيْتُ شَوْقًا ، وَقَدَرْتُ الْإِلْفَ يَسْلَى شَدِيدُ
 وَمَا اسْتَبْطَأْتُ غَيْرَكَ فَاعْلَمِيه وَحَوْلِي مِنْ ذَوِي رَحْمَى عَدِيدُ
 فَلَوْ كُنْتُ لِلرَّيْضَةِ كُنْتُ أَسْعَى إِلَيْكَ وَلَمْ يُنْهِنِي الْوَعِيدُ !

ثم سكن ، فنظرت المرأة إلى وجهه وصرخت وقالت : والله فاضت نفسي !
 قالتها والله ثلاث مرات . ففتشني من ذلك هم ثم وغم . ولما رأت العجز ما حل لي
 عليه من الحزن قالت : يا ولدي ؛ هوّن عليك ، والله لقد استراح مما كان فيه ،
 عاش بأجل ، ومات بقدر ، وقدم لي ربّ كريم ، واستراح من تبارجه وغصصه ،
 فهل لك في استكمال الأجر ؟ قلت : قولي ما أحببت ، قالت : هذا الحق منك
 قريب ، فإن رأيت أن تمنعني إليهم تنعني لهم ، وتسلم الحضور ليعينوني على
 مواراته فافعل .

قال محمد : فركبت وأتيت الحق ، فتميتهم لم ، وأخبرتهم بصورة أمره ، فبينما
 أنا أدور في الحق إذا أنا بامرأة خرجت من خبائها تجرّ خمارها ، ناشرة شعرها ،
 فقالت لي : أيها الناعي ؛ من تمنعني ؟ قلت : فلان ، فقالت : بالله عليك ، مات !
 قلت : نعم ، قالت : هل سمعت منه شيئاً قبل موته ؟ قلت : نعم ، وأنشدتها الشعر ،
 فاستعبرت باكية ، وأنشأت تقول :

عَدَانِي أَنْ أَزُورَكَ يَا حَبِيبِي مَعَاشِرَ كُلِّهِمْ وَاشِ حُودُ
 أَشَاعُوا مَا عَلِمْتُ مِنَ الرِّزَايَا وَعَابُونَا ، وَمَا فِيهِمْ رَشِيدُ

فَإِذَا تَوَيَّتَ الْيَوْمَ لِحَدِّكَ فَدَوَّرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ لِحُودُ
فَلَا طَابَتْ لِي الدُّنْيَا حَيَاةً وَلَا سَعَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ الرُّعُودُ

ثم خرجت مع القوم ، وهى تؤلّول حتى انتهينا إلى الغلام ، ففسلناه وصلينا عليه ودفناه ، فلما تفرقنا عن قبره جعلت تصرخ وتعلم .

ثم ركبت ومضيت ، وهى على تلك الحال . فأتيت يزيد بن عبد الملك وناولته الكتاب ، فسألنى عن أمور الناس وما رأيت فى طريقى ، فأخبرته بالخبر ، فقال لى : يا محمد ؛ امضى الساعة قبل أن تشتغل فى غير هذا حتى تمر بأهل الفتى وبنى عمه ونمضى بهم إلى عامل المدينة ، فتأمره أن يثيبهم فى شرف المعطاء ، وإن كان أصاب الجارية ما أصابه فأقل بأهلها كما فعلت بأهله ؛ وارجع حتى تخبرنى بالخبر ، وتأخذ جواب الكتاب .

قال محمد : فخرجت حتى انتهيت إلى قبر الغلام ، فوجدت بجانبه قبراً آخر ، فسألته عنه ، فقالوا : هذا قبر الجارية ، لم تزل تصرخ وتعلم حتى فاضت نفسها ، ودفنت بجانبه ، فدفنت أهلها ومضيت بهم إلى عامل المدينة ، فأثيبهم فى شرف المعطاء ، وعدت فأخبرته ، فأجازنى على ذلك جائزة حسنة .

٧٣ — يموتان في وقت واحد*

قال أبو مالك الراوية :

سمعتُ الفرزدقَ^(١) يقول : أبقِ^(٢) غلامانَ لرجلٍ مِنَّا يقالُ له الخِضرُ ، فخذنِي
قال : خرجتُ في طلبهما ، وأنا على ناقَةٍ عيساءَ كَوْماءَ^(٣) أريدُ الجِمامةَ ، فلما
صرتُ في ماءٍ لبني حنيفةٍ ارتفعتُ سحابةٌ فرعدتُ وبرقتُ وأرختُ عزَّ اليها^(٤) ؛
فشدتُ إلى بعضِ ديارهم وسألتُ القرى ؛ فأجابوا .

فدخلتُ داراً لهم ، وأتحتُ الناقةَ ؛ وجلستُ تحتَ ظِلِّها^(٥) لهم من جريدِ النخلِ ،
وفي الدارِ جُوزِيَةٌ^(٦) لهم سوداءُ ؛ فدخلتُ جاريةً كأنها سبيكةُ فضةٍ ، وكان عينيها
كوكبانِ دُرِّيَّانِ ؛ فسألتُ الجاريةَ : لمن هذه العيساءُ ؟ « نعمى ناقتي » . فقالت :
لضيئكم هذا .

فمدتُ إلىَّ قالت : السلامُ عليكم ، فرددتُ عليها السلامَ ؛ فقالت لي : بمن
الرجلُ ؟ قلت : من بني حنظلة . قالت : من أيَّهم ؟ قلت : من بني نهشل .
فتبسَّمتُ وقالت : أنت إذن من عناءِ الفرزدقِ بقوله :

إن الذي سمك^(٧) السماءَ بنى لها بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ

* الأغانى : ٨ - ٤٤

(١) الفرزدق : جهم بن غالب ، من صعصة ، شاعر عظيم الأثر في اللغة ، وهو صاحب الأخبار
مع جرير والأخطل ، توفي سنة ١١٠ هـ . (٢) أبقِ : أبقِ البعد : هرب . (٣) الكوماء من الإبل :
التي يضرب لونها إلى الأدمه ، والكوماء : عظيمة السنام طويته . (٤) عزَّ : نزلاء ، والنزلاء
في الأصل : مصب الماء من القرية والراوية . (٥) الظلة : الشيء يستتر به من الحر والبرد .
(٦) جوزية : سمك السماء : ونسبها .

يَتَا بَنَاهُ لَنَا الْمَلِكُ وَمَا بَنَى مَلِكُ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يُنْقَلُ
يَتَا زُرَّارَةً مُخْتَبِرٍ بِنَفْسِهِ وَجُجَاشِعٌ وَأَبُو الْفَوَارِسِ نَهْشَلٌ^(١)
قُلْتُ : نَعَمْ ، جُعِلْتُ فِدَاكَ ! وَأَعْجِبْنِي مَا سَمِعْتُ مِنْهَا . فَضَحَكْتُ وَقَالَتْ :
فَإِنْ ابْنُ الْخَطَطِيِّ^(٢) قَدْ هَدَمَ عَلَيْكُمْ بَيْتَكُمْ هَذَا الَّذِي فَخَرْتُمْ بِهِ حَيْثُ يَقُولُ :
أَخَزَنِي الَّذِي رَفَعَ السَّمَاءَ جُجَاشِعًا وَبَنَى بَنَاءَكَ بِالْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ
يَتَا يُحْمَمُ قَيْنُكُمْ^(٣) بِنَفْسِهِ دَنَسًا بِمَقَاعِدِهِ خَيْثَ اللَّدْخَلِ
فَوَجَّهْتُ .

فَمَا رَأَيْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِ ؛ قَالَتْ : لَا عَلَيْكَ ! فَإِنَّ النَّاسَ يَقَالُ فِيهِمْ وَيَقُولُونَ .
ثُمَّ قَالَتْ : أَيْنَ تَوْفُّهُ^(٤) ؟ قُلْتُ : الْهَيْمَامَةُ . فَتَفَنَّنَسْتُ الصَّعْدَاءَ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : هَامَى تِلْكَ
أَمَامَكَ ؛ ثُمَّ أَنْشَأَتْ يَقُولُ :

تُدْكَرُنِي بِلَادًا خَيْرٌ أَهْلُ بِهَا أَهْلُ الْمُرُوءَةِ وَالْكَرَامَةِ
أَلَا نَفَقَى إِلَهُهُ أَجَشَّ صَوْبًا^(٥) يَسُحُّ بِدَرِّهِ بَلَدَ الْهَيْمَامَةِ
وَحَيًّا بِالسَّلَامِ أَبَا نُجَيْدٍ فَأَهْلٌ لِلتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامَةِ
قَالَ : فَأَنْسَتْ بِهَا وَقُلْتُ لَهَا : أَذَاتُ خِدْنٍ أَمْ ذَاتُ بِلَ ؟ فَأَنْشَأَتْ يَقُولُ :

إِذَا رَقَدَ النَّيَّامُ فَإِنَّ حَمْرًا تَوَزَّرُهُ الْهَمُومُ إِلَى الصَّبَاحِ
تَقْطَعُ قَلْبَهُ الذِّكْرَى وَقَلْبِي فَلَا هُوَ بِأَخْلَى وَلَا بِصَاحٍ
سَقَى اللَّهُ الْهَيْمَامَةَ دَارَ قَوْمٍ بِهَا عَمَرُوا يَحْنُ إِلَى الرِّوَااحِ

(١) زُرَّارَةُ وَجُجَاشِعٌ وَنَهْشَلٌ : مِنْ سَادَةِ تَيْمٍ ، قَوْمُ الْفَرَزْدَقِ .
(٢) جَرِيرٌ . (٣) يَحْمَمُ : يَسْخُنُ ، وَالْقَيْنُ : الْمُدَادُ ، يُدِيرُ إِلَى أَنْ جَاشِعًا قَبِيلَةُ الْفَرَزْدَقِ كَانَتْ
قَبِيلًا لَمُبْدٍ كَانَ لِحَصْمَةِ بْنِ نَاجِيَةٍ ، فَغَسِبَ جَرِيرٌ غَالِبًا أَبَا الْفَرَزْدَقِ إِلَى الْقَيْنِ . (٤) تَفَنَّنَسْتُ .
(٥) الصَّوْبُ : مَجَى السَّاءِ بِالطَّرِيقِ ، وَالْأَجَشُّ : الصَّوْتُ الْمُرْتَفِعُ .

قلت لها : مَنْ عمرو هذا ؟ فأنشأت تقول :
سألت ، ولو علمت كَفَفْتَ عنه وَمَنْ لَكَ بِالْجَوَابِ سِوَى الْخَبِيرِ ؟
فإِنْ تَكَ ذَا قَبُولٍ إِنَّ عَمْرًا هُوَ الْقَرُّ الْمَضِيُّ لِلْسَقِيرِ^(١)
وما لى بالتَّبَعُ^(٢) مُسْتَرَاخٌ وَلَوْ رَدَّ التَّبَعُ لى أَسِيرِ
ثم سَكَتَتْ سَكْتَةً كَأَنهَا تَسْمَعُ إِلَى كَلَامٍ ، ثُمَّ تَهَافَّتْ^(٣) وَأَنْشَأَتْ تقول :
يُخَيِّلُ لى هَيَا عَمْرُو بْنُ كَمْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ حُمِلْتَ عَلَى سِرِيرِ
يسير بك المَوَيْئَى الْقَوْمُ لَمَّا رَمَاكَ الْحَبُّ بِالْعَلَقِ^(٤) الْعَسِيرِ
فإِنْ تَكَ هَكَذَا يَاعَمْرُو إِنِّى مُبَكَّرَةٌ عَلَيْكَ إِلَى الْقَبُورِ
ثم شَهَقَتْ شَهَقَةً فَخَرَّتْ مَيِّتَةً .
قلت لم : مَنْ هذه ؟ فقالوا : هذه عَفِيلَةُ بِنْتُ الضَّحَّاك . قلت لم : فَمَنْ عَمْرُو
هذا ؟ قالوا : ابْنُ صُحَا ، فَارْتَحَلَتْ مِنْ عِنْدِهِمْ .
فلما دخلت الِإِيَّامَةَ سَأَلْتُ عَنْ عَمْرٍو هَذَا ؛ فَإِذَا هُوَ قَدْ دُفِنَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ
الَّذِى قَالَتْ فِيهِ مَا قَالَتْ !

(١) قَالَتِ الْبَيْتَ الْإِثْنَاءَ ، وَهُوَ اخْتِلَافُ حَرَكَةِ الرَّوْيِ . (٢) تَبَلَّتِ الْمَرْأَةُ : أَخْلَعَتْ بِلْهَآ أَوْ تَزَيَّنَتْ بِهِ .
(٣) تَسَاهَلَتْ مِنْ ضَعْفِهَا وَخَوَرِهَا . (٤) الْعَلَقُ : الْمَوْتُ ، يَكُونُ لِلرَّجُلِ فِي الْمَرْأَةِ .

٧٤ — رحلت مئة ولم يبق إلا الديار*

قال أبو صالح الفزاري : تَذَكَّرْنَا يوماً ذا الرُّمَّة^(١) ؛ فقال لنا عَصْمَةُ بن مالك الفزاري - وكان قد بلغ عشرين ومائة سنة : إيتاي فاسألوا عنه ؛ كان حُلُوَّ المينين ، خفيفَ العارضين ، بَرَّاقَ الثنايا ، واضحَ الجبين ، حسنَ الحديث ، إذا أنشد برَّبر وجَّشَّ صوته^(٢) .

جمعي وإياه مرَّ تَبَعٌ^(٣) مرةً ، فأتاني فقال لي : هيا عَصْمَةُ ، إن مئةً مِنقريةً وَمِنقرُ أَخْبَتْ حَيَّ ، وَأَفْوَه^(٤) لَأَثَر ، وَأَتَبَّتْهُ في نظر ، وقد عرفوا آثار ليلي ، فهل مِن ناقةٍ زدار عليها مئة ؟ قلت : إني والله ! الجؤذر ، بنتُ يمانيةٍ لجدِّ لي . قال : كَلَّيْ بها .

فأتيتُ بها فركب وردِّفه ، حتى إذا أشرَفنا على منزل مَيٍّ ؛ فإذا الحيُّ خُلُوف^(٥) ، فأمهَلنا وتَفَوَّضَ النساءُ من بيوتهن إلى بيت مَيٍّ ، وإذا فيهن ظريفةٌ جَمَعْنَهُنَّ فنزلنا بها ؛ فقالت : أنشدنا يا ذا الرُّمَّة ؛ فقال : أنشدن يا عَصْمَةُ - وكان عَصْمَةُ راويته - فأنشدتهن قصيدته التي يقول فيها :

* المحاسن : ٢٢٤ ، المقد : ٤ - ٣٦٦ ، الأغانى : ١٦ - ١٢٤ ، الصارح : ١٣٧ ،

ذيل الأمانى : ١٢٤ ، تزيين الأسواق : ١٩

(١) ذو الرمة : هو غيلان بن عتبة الكنتاني ، كان شاعراً رقيقاً خبيراً بأحوال المشق ، والرمة : جبل يجعل في عنق البحر ، وكان كثيراً ما يجهل في عنقه ، ولذلك سمي به ، وصاحبه مئة بنت مقاتل المنقرى . وكان كثير اللدخ لبلال بن أبي بردة ، وكان أحسن شعراء عصره تشبيهاً ، كما رمى التيس في الجاهلية . توفي سنة ١١٧ هـ . (٢) البربرة : التخطيط في الكلام مع غضب وظهور والأجش : التلطيظ الصوت . (٣) المرتبع : الموضع الذي ينزل فيه أيام الربيع . (٤) من خلف الأثر : إذا عرفه . (٥) خلوف : غائبون .

فطرتُ إلى أظنانٍ^(١) مَيَّ كَانَهَا ذُرَا النخلِ أوْ أُنْثَى تَمِيلُ ذَوَائِبُهُ
فَأَسْبَلَتِ الْعَيْنَانِ وَالصَّدْرُ كَأَمِّ بِمُغْرُورِقٍ نَمَتْ عَلَيْهِ سَوَاكِبُهُ
بِكَاءِ الْفَتَى خَافَ الْفِرَاقَ وَلَمْ يَجَلْ جَوَانِلُهَا أَسْرَارُهُ وَمَعَانِيهِ

قالت الظرفية : فالآن فلتَجَلْ ! فقالت لها مَيَّة : فَأَتَاكَ اللَّهُ؟ ما تَجِيبِينَ به منذُ
اليوم ؟ ثم أنشدتُ حتى بلغتُ إلى قوله :
إِذَا سَرَحْتَ مِنْ حُبِّ مَيَّ سَوَارِحُ عَنِ الْقَلْبِ آتَيْتُهُ بَلِيلَ عَوَازِبِهِ
قالت لها الظرفية : قَتَلْتِهِ ، فَأَتَاكَ اللَّهُ ! فقالت مَيَّ : إِنَّهُ لَصَحِيحٌ ،
وهنيئاً له .

فَتَنَفَّسَ ذُو الرُّمَةِ نَفْسًا كَادَ بِطَيْرِ حَرٍّ شَمَرَ وَجْهِي ، ثم أنشدتُ حتى بلغتُ
إلى قوله :
وَقَدْ حَلَفْتَ بِاللَّهِ مَيَّةُ مَا الَّذِي أَحْدَثَهَا إِلَّا الَّذِي أَنَا كَاذِبُهُ
إِذَنْ فَرَمَانِي اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى وَلَا زَالَ فِي أَرْضِي عَدُوٌّ أَحَارِبُهُ
فقالت مَيَّ : خَفَ عَوَاقِبَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَا غَيْلَانُ ، قال : ثم أنشدتُ حتى بلغتُ
إلى قوله :

إِذَا نَارَعَتِكَ الْقَوْلَ مَيَّةُ أَوْ بَدَا لَكَ الْوَجْهُ مِنْهَا أَوْ نَصَا الدَّرْعُ سَالِبُهُ
فِيَا لَكَ مِنْ خِدِّ أَسِيلٍ وَمَنْطِقٍ رَخِيمٍ وَمِنْ خَلْقٍ تَمَلَّلَ جَادِبُهُ^(٢)
قالت الظرفية : هذا الوجهُ قد بَدَا ، وهذا القولُ قد تُنْزِعُ فيه ؛ فمن لنا أن
يَنْضُو الدَّرْعَ سَالِبُهُ ؟ فقالت مَيَّ : مَا أَنْكَرَ مَا تَجِيبِينَ به منذُ اليوم !

(١) أظنان : جمع ظليئة : الموهج كانت فيه امرأة أم لا . (٢) الجادب : العائب ، ويريد أن
الناظر إليها لا يجد في خلقها منقراً ؛ فيتملل بالباطل ، وبالكىء بميِّه وليس بميِّب .

قامت الظريقة وقفن معها ؛ قالت : دَعُوهم ؛ فإن لم لشأنا ؛ قمتُ فجلست ناحيةً ؛ وجلسا بحيث نَرَاهما ولا نسمع من كلامهما إلا الحرفَ بعد الحرف ، ووالله ما رأيتُهما بَرَحاً من مكانهما ، وسمعتُها تقول له : كذبتُ ، فوالله ما أدرى ما الذى كذبتُ فيه إلى الساعة .

ثم خرج ومعه قارورةٌ فيها دُهْن وفلاند ، فقال : يا عِصْمَةُ ؛ هذه دُهْنَةٌ طيبة أتعفنا بها ، وهذه فلاند فليدتهاى الجوؤذر^(١) ، ولا والله لا فليدتهن بغيراً أبداً ، ففقدتهن في دُؤَابَةِ سيفه ، وانصرفنا .

فلما كان بعدُ أنانى ، قال : هَيَّا عِصْمَةُ ؛ قد رحلتِ ، فلم يبق إلا الديار والنظر في الآثار ؛ فانهض بنا ننظر إلى آثارها ، فركب وتبعته ؛ فلما أشرف على المرتفع قال :

ألا يا اسليلى يا دارى على البلى ولا زال مُنْهَلًا^(٢) بجزعائك^(٣) القطرُ
وإن لم نكلواى غيرَ شامٍ^(٤) بققرةٍ تجرُّ بها الأذيالَ صيفيةً^(٥) كُذِرَ^(٦)
ثم انفضحت عيناه بالبكاء ؛ قلت : مَهْ يا ذا الرمة ! فقال : إني لجلدٌ على ما ترى ، وإني لصبور !

فأرايت أشدَّ صبابَةً ، ولا أحسنَ عزاءَ منه .

ثم افترقنا ؛ فكان آخرَ المهدي به .

(١) اسم الناقة التى سارا عليها . (٢) منْهَلًا: نازلاً . (٣) الجزعاء: الرملة السوية لانبتت شيئاً .

(٤) الشام : جمع هامة ، وهى قيمة تخالف لون الأرض . (٥) الصيفية : رياح الصيف .

(٦) الكسندر : جمع كدواء ، وهى التى فى لونها غبرة .

٧٥ — صباية ابن الطثرية*

أصاب الناس سنةً وجَدْبٌ ، فأقبلَ جماعةٌ من جَرَمٍ^(١) يريدون بنى قُشَيْرٍ ،
وكانت بينهما عداوةٌ وحَرْبٌ عظيمةٌ ، ولكنهم لم يَحِدُوا بُدْأً من ذلك ، لما قد
ساقهم من الجُدْبِ والجماعةِ ورقّةِ الأموال ، وما أشرَفُوا عليه من الهَلَكَةِ ،
فنصبتْ^(٢) قُشَيْرٌ لهم الحرب . فقالت جَرَمٌ : إنما جئنا مُستَجِيرِينَ غيرَ محارِبِينَ .
قالوا : يمّ ؟ قالوا : من السنة والجُدْبِ والهَلَكَةِ التي لا باقيةَ لها . فأجارتهم قُشَيْرٌ
وسالمتهم وأرقتهم طرفاً من بلادها .

وكان في جَرَمٍ فتى يقال له مَيَّادُ الجرميُّ ، وكان غزيراً حسنَ الوجه تامِّ
القامة ، أخذاً بقلوبِ النساءِ . والنزَلُ في جَرَمٍ جائزٌ حسنٌ ، وهو في قُشَيْرٍ نائرةٌ^(٣)
فلما نازلت جَرَمٌ قُشَيْراً وجاورتها أصبح مَيَّادُ الجرميُّ يندو إلى القُشَيْرِيَّاتِ يطلب
منهن النَّزْلَ والصَّبَا والحديثَ عند غيبةِ الرجال ، واشتغالهم بالسَّقَى والرَّغِيَةِ وما أشبه
ذلك ؛ فدَقَمَتْهُ عنهن وأسمعنَهُ ما يكره .

وراحتَ رجالهنَّ عليهنَّ وهنَّ مُنْغَصَبَاتٌ ؛ فقالت مجازرُ منهنَّ : واللهِ ما نندري

* الأغانى : ٨ - ١٥٧

اسمه يزيد بن الصمة ، والطثرية أمه ، كان حسن الوجه والشعر ، حلو الحديث ، غزلاً أخفياً
بقلوب النساء ، وقد أحب امرأة من جرم ، وقاسى في سبيلها من الوجد ما قاسى مثله من التبيين
في الحب ، ونظم فيها الشعر الرقيق ، وتوفى سنة ١٢٦ هـ . (١) بطن في طي . (٢) نصب له
الحرب : وضما . (٣) النائرة : العداوة والخصاء ، أى أن النزول في قشير سبب العداوة .

أَرَعَيْتُمْ جَرَمًا لَّسَرَعَى أَمْ أَرَعَيْتُمُوهُمْ نِسَاءً كَمْ أَفَاشَتْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالُوا : وَمَاذَا ؟
قُلْنَا : رَجُلٌ مِنْهُ الْيَوْمَ ظِلٌّ مُجَحَّرٌ^(١) لَنَا مَا يَطْلُعُ مِنْ رَأْسِ وَاحِدَةٍ ، يَدُورُ بَيْنَ
بَيوتِنَا .

قَالَ بَعْضُهُمْ : بَيِّتُوا جَرَمًا فَاصْطَلِمُوهُ^(٢) . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَبِيحٌ . قَوْمٌ قَدْ
سَقَيْتُمُوهُمْ مِيَاهَكُمْ ، وَأَرَعَيْتُمُوهُمْ مَرَاعِيَكُمْ ، وَخَلَطْتُمُوهُمْ بِأَنْفُسِكُمْ ، وَأَجَرْتُمُوهُمْ
مِنَ الْفَحْطِ وَالسَّتَةِ ، تَفْتَأُونَ^(٣) عَلَيْهِمْ هَذَا الْاِتِّحَاتِ لَا تَفْعَلُوا وَلَكِنْ لَتُصْبِحُوا^(٤)
وَتَقْدَمُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي هَذَا الرَّجُلِ ، فَإِنَّهُ سَفِيهُ مِنْ سَفَهَائِهِمْ ، فَلْيَأْخُذُوا عَلَى
يَدَيْهِ ، فَإِنْ فَعَلُوا فَأَنْتُمْ أَلَمْ إِحْسَانَكُمْ ، وَإِنْ يَخْتَنِعُوا وَيُقِرُّوا مَا كَانَ مِنْهُ يَحِلُّ
لَكُمْ الْبَسْطُ^(٥) عَلَيْهِمْ ، وَتَخْرُجُوا مِنْ ذِمَّتِهِمْ . فَأَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ .

فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَاً نَفَرَتْ مِنْهُمْ إِلَى جَرَمٍ قَالُوا : مَا هَذِهِ الْبِدْعَةُ الَّتِي قَدْ
جَاوَزْتُمُونَا بِهَا ! إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْبِدْعَةُ سَجِيَّةً لَكُمْ فَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدَنَا إِعْزَاءٌ وَلَا
إِسْتِغَاءٌ ، فَأَبْدُوا عَنَّا أَنْفُسَكُمْ ، وَأَذْنُوا^(٦) بِمَحْرَبٍ . وَإِنْ كَانَ افْتِتَانًا فَتَقَرُّوا^(٧) عَلَى
مَنْ قَعَلَهُ ..

فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ جَرَمٍ قَالُوا : مَا الْفَى نَالَكُمْ ؟ قَالُوا : رَجُلٌ مِنْكُمْ أَمْسَى ظِلٌّ
يَجْرُ أَذْبَالُهُ بَيْنَ أَيْبَاتِنَا ، مَا نَدْرِي عِلَامَ كَانَ أَمْرُهُ ! فَهَقَّتْ جَرَمٌ مِنْ جَفَاءِ
الْقُشَيْرِيِّينَ وَعَجَّرَتْهَا وَقَالُوا : إِنْكُمْ لَتَحْسُونَ مِنْ نِسَائِكُمْ بِيَلَاءٍ ، أَلَا فَايْتَنُوا إِلَى
بَيوتِنَا رَجُلًا وَرَجُلًا .

(١) مَنْ أَجْرَهُ ، إِذَا أُلْزِمَ أَنْ يَدْخُلَ جَعْرَهُ . (٢) اسْتَأْصَلَوْهَا . (٣) اخْتَلَقَ عَلَيْهِ : اخْتَلَقَ
عَلَيْهِ الْبَاطِلُ . (٤) اللَّامُ لَا أَمْرٍ . (٥) بَسَطَ يَدَهُ عَلَيْهِ : سَلَطَ عَلَيْهِ . (٦) كَوْنُوا عَلَى عِلْمٍ
بِمَحْرَبٍ . (٧) فَنِيَرُوا : أَيْ أَزْجَرُوهُ وَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ مَا فَعَلَ .

قالوا : والله ما نحسُّ من نساءنا ببلاءه ، وما نعرفُ منهن إلا العفة والكرم ، ولكن فيكم الذى قلم .

قالوا : فإننا نبعث رجلاً إلى بيوتكم ، يأتى قُشير ، إذا غدت الرجال وأُخِلِفَ النساء ، وتبعثون رجلاً إلى البيوت ، وتتخالف أنه لا يتقدّم رجلٌ منا إلى زوجة ولا أخت ولا بنت ، ولا يُعلّمها بشيء مما دار بين القوم ؛ فيظَلُّ كلاهما في بيوت أصحابه حتى يردّا علينا عشيّاً الماء وتُخْلِى لهما البيوت ، ولا تبرُز عليهما امرأة ، ولا تُصادقُ منهما واحداً إلا بمؤتقٍ يأخذه عليها علامة تكون معه منها .

قالوا : اللهم نم . فظَلُّوا يومهم ذلك وباتوا ليلتهم ، حتى إذا كان من التد غَدَوْا إلى الماء وتخالفوا أنه لا يعودُ إلى البيوتِ منهم أحدٌ دون الليل .

وغداً ميّاد الجرمى إلى القُشيريات ، وغداً يزيد بن الطَّشِيرية القُشيرى إلى الجُرميات ، وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم حديثاً ، فظلَّ عندهن بأكرم مَقَلٍّ لا يصيرُ إلى واحدة منهن إلا افتُتِنَتْ به ، وتابعتْ إلى المودّة والإخاء ، وقبض منها رهناً ، وسألته ألا يدخل من بيوت جَرَمٍ إلا يئنها ؛ فيقول لها : وأى شيء تخافين وقد أخذتِ منى الموائيق والمهود ، وليس لأحد فى قلبى نصيبٌ غيرك ، حتى صُلِّيتِ العصر .

فانصرف يزيدُ بفتح^(١) كثير وبراقع ، وانصرف مكحولاً مذهبواً شعبان ريان مَرَجَلِ الأَمة^(٢) . وظلَّ ميّاد يدورُ بين بيوت القُشيرياتِ مَرَجوماً مَقْصِي

(١) الفتح واحدة فتحة ، وهى حلقة من فتحة لا فس لها فإذا كان فيها فس فهى الخاتم .

(٢) الأمة : الشر المجاور شعبة الأذن .

لا يقربُ إلى بيتٍ إلا استقبلته الولاةُ بالعمد^(١) والجندل؛ فهالك لمن، وغلن أنه ارتياد^(٢) منهم له، حتى أخذَهُ ضربٌ كثيرٌ بالجندل، ورأى اليأسَ منهم، وجهده المقلش؛ فانصرف حتى جاء إلى سُمرة^(٣) قريباً إلى نصف النهار؛ فتوسد يده ونامَ تحتها نومةً حتى أفرجت عنه الظهيرة، وفات الأخلال، وسكن بعضُ ما به من ألمِ الضرب، وبرَدَ عطشُه قليلاً.

ثم قرب إلى الماء حتى وردَ على القوم قبلَ يزيد، فوجد أمةً تَدوُدُ غنماً في بعضِ الظعن^(٤)، فأخذ يرُقُمها، قال: هذا برقع واحدة من نساءكم، فطرحه بين يدي القوم، وجاءت الأمةُ تَدوُدُ فتعلقتُ برُقُمها فردَّ عليها، وخجل ميثادُ خجلاً شديداً.

وجاء يزيدُ مُسبياً وقد كاد القوم أن يقتلوه، فنذرَ كُفَّهم بين أيديهم ملآن براقع وقفصاً، وقد حلفَ القومُ ألا يعرف رجل شيئاً إلا رقه.

فلما نثر ما معه اسودَّت وجوه جرَّم، وأمسكوا^(٥) بأيديهم إمساكةً قالت قُشَيْر: أنتم تعرفون ما كان بيننا أمس من المهود واللواتيق وتخرج الأموال والأهل؛ فن شاء أن ينصرف إلى حرام فليُمسِك يده، فبسط كلُّ رجل يده إلى ما عرف فأخذه، وقرَّعُوا عن حَرْب؛ وقالوا: هذه مكيدة يا قُشَيْر.

وبلى يزيدُ بِمِشْقٍ جارية من جرَّم في ذلك اليوم يقال لها وَحْشِيَّة، وكانت من أحسنِ النساء. وناقرَهُمْ جرَّم فلم يجدوا إليها سبيلاً، فصار من المشق إلى أن

(١) العمدة: قضبان الحديد. (٢) ارتياد: طلب. (٣) اسمره: شجرة عظيمة. (٤) الظعن: سير البادية للنجاة. (٥) يريد أنهم قبضوا أيديهم؛ ولم يدعوا إلى شيء مما تراءى لهم.

أُشْرِفَ عَلَى الْمَوْتِ ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْجُحْدُ ، فَجَاءَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ يَقَالُ لَهُ : خَلِيفَةُ بْنُ بَوَزَلٍ ،
بِإِخْتِلَافِ الْأَطْبَاءِ إِلَيْهِ وَيَأْسِيهِمْ مِنْهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا بَنَ عَمٍّ ؟ قَدْ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَيَّ
هَذِهِ الْمِرْأَةُ سَبِيلَ ، وَأَنْ التَّمَزَّى أَجْمَلَ ، فَأُزْبِكَ فِي أَنْ تَقْتُلَ نَفْسَكَ وَتَأْتِمَ
عِنْدَ رَبِّكَ !

قَالَ : وَمَا هِيَ يَا بَنَ عَمٍّ بِنَفْسِي وَمَالِي فِيهَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ ؛ وَلَا هِيَ إِلَّا فَنَسْ
الْجُرْمِيَّةُ ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ حَيَاتِي فَأُرِيهَا . قَالَ : كَيْفَ الْحِيلَةُ ؟ قَالَ : تَعْمَلُنِي
إِلَيْهَا ؛ فَعَمَلُهُ إِلَيْهَا وَهُوَ لَا يَطْعَمُ فِيهَا ، إِلَّا لَأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قَالُوا لَهُ نَذَبْ بِكَ إِلَى
وَحْشِيَّةٍ أَبْلَقَ قَلِيلًا ، وَإِذَا أَيْسَ مِنْهَا اشْتَدَّ بِهِ الْوَجَعُ .

فَفَرَجَ بِهِ خَلِيفَةُ بْنُ بَوَزَلٍ فَعَمَلُهُ فَتَغَلَّلَ بِهِ الْبَيْنَ ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ فِي قَبِيلَةِ
انْتَسَبَ إِلَى أُخْرَى وَهُوَ يَخْبِرُ أَنَّهُ طَالِبُ حَاجَةٍ . وَأَبْلَقَ حَتَّى صَلَحَ بِمَضِ الصَّلَاحِ ؛
وَطَمَعَ فِيهِ ابْنُ عَمٍّ ، وَصَارَا بَدَ زَمَانٍ إِلَى حَيِّ وَحْشِيَّةٍ ، فَلَقِيَا الرُّعْيَانَ^(١) ، وَكَمْنَا
فِي جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ . فَجَعَلَ خَلِيفَةُ يَنْزِلُ فَيَتَعَرَّضُ لِرُعْيَانِ الشَّاءِ فَيَسْأَلُهُمْ عَنْ
رَاعِي وَحْشِيَّةٍ ، حَتَّى لَقِيَ غَلَامَهَا وَغَنَمَهَا ؛ فَوَاعَدَهُمْ مَوْعِدًا ، وَسَلَّمَهُمْ مَاحَالُ وَحْشِيَّةٍ ؟
قَالَ غَلَامُهَا : هِيَ وَآلُهَا بَشَرٌ ؟ لَا حَفَظَ اللَّهُ بَنِي قُشَيْرٍ وَلَا يَوْمًا رَأَيْتُهُمْ فِيهِ إِفْازَالَتْ
عَلِيلَةً مِنْدَرَأَيْتُهُمْ - وَكَانَ بِهَا طَرَفٌ مِمَّا بَابِنِ الطَّرِيقَةِ .

قَالَ : وَنَحْنُكَ ! فَإِنَّ هَاهُنَا إِنْسَانًا يَدَاوِيهَا ، فَلَا تَقْتُلْ لِأَحَدٍ غَيْرِهَا . قَالَ : نَمَّ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فأعلمها الراعى ما قال له الرجل حين صار إليها ، فقالت له : ويحك انجى به .
ثم إنه خرج فلقيته ، فأعلمه ، وظلَّ عنده برَّعى غنمه ، وتأخر عن الشاء حتى
قدمته الشاء وجنَّح الليل ، وانحدر بين يدي غنمه ، حتى أراحها . ومشى فيها يزيد
حين قرُبَت من البيت على أربع ، وتجلَّلَ ثَمَلَةٌ سوداء بلون شاة من الغنم !
فصار إلى وحشية ، فسُرَّت به سروراً شديداً ، وجمعت عليه من تَنَقُّى به من
صواحباتها وأثرابها ؛ وقد كان عهد إلى ابنِ عمِّه أن يقيم في الجبل ثلاث ليال ،
فإن لم يره فليَنصَرِفْ .

فأقام يزيد ثلاث ليال ، ورجع إلى أصحَّ ما كان عليه ، ثم انصرف فصار
إلى صاحبه . فقال : ما وراءك يا يزيد ؟ ورأى من سروره وطيب نفسه ما سرَّه .
فقال :

لو أَنَّكَ شاهدت الصُّبا بَابِنَ بَوَزَلٍ بَرَّعَ النِّصَا إِذْ رَاجَعْتَنِي غَيَّاطِلُهُ^(١)
لَشَاهَدْتَ لَهَا بَدَّ شَحَطٍ مِنَ النُّوَى عَلَى سَخَطِ الْأَعْدَاءِ حُلُوءُ شِمَائِلِهِ
بِنَفْسِي مَنْ لَوْ مَرَّ بَرْدُ بَنَانِهِ عَلَى كَيْدِي كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهُ
وَمَنْ هَآبِنِي فِي كُلِّ أَمْرٍ وَهَبْتُهُ فَلَا هُوَ يَمِطُنِي وَلَا أَنَا سَائِلُهُ

(١) النياطل : جمع غيطلة ، وهى الظلمة التراكمة ، استعارها هنا لجهالات المباح .

٧٦ — مَعْبِدُ الصَّغِيرِ وَأَحَدُ الشَّاقِ*

قال مَعْبِدُ^(١) الصَّغِيرُ لِلنَّعْنَى : كُنْتُ مَنَقَطًا إِلَى الْبِرَامِكَةِ أَخَذُ مِنْهُمْ وَأَلْزِمُهُمْ؛
فَبَيْنَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ فِي مَنْزِلِي إِذَا بَابِي يُدَقُّ ، نَفْرَجُ غِلَافِي ثُمَّ رَجَعُ إِلَيَّ ، قَالَ :
عَلَى الْبَابِ فَنِي ظَاهِرُ الْرَوَّةِ ، يَسْتَأْذِنُ عَلَيْكَ ، فَأَذْنْتُ لَهُ .

فَدَخَلَ عَلَى شَابٍّ مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ وَجْهًا ، وَلَا أَنْظَلَ نَوْبًا ، وَلَا أَجَلَ زِيًّا
مِنْهُ ، دَنَيْتُ^(٢) ، عَلَيْهِ آثَارُ السَّخَمِ ظَاهِرَةٌ ، قَالَ لِي : إِنِّي أَرْجُو لِقَاءَكَ مِنْذُ مَدَّةٍ ،
فَلَا أَحَدٌ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَإِنِّي لِي حَاجَةٌ ، قُلْتَ : مَا هِيَ ؟ فَأَخْرَجَ ثَلَاثِمِائَةَ دِينَارٍ فَوَضَعَهَا
بَيْنَ يَدَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْبَلَهَا ، وَتَصْنَعَ فِي بَيْتَيْنِ قَلْبَهُمَا لِحَاكَ تَصْنِيفِي بِهِ .
قُلْتَ : هَاتِمَا ؟ فَأَنْشَدَهُمَا وَقَالَ :

بِأَفْهِ يَاطِرُ فِي الْجَانِي عَلَى بَدَنِي لَتَطْفَنَنَّ بِدَمْعِي لَوْعَةَ الْحَزَنِ
لَا لَا أَبُوحَنَّ حَتَّى يَحْجُبُوا سَكَنِي فَلَا أَرَاهُ وَلَوْ أُدْرِجْتُ فِي كَفْنِي

قال مَعْبِدُ : فَصَنَعْتُ فِيهِمَا لِحْنًا ، ثُمَّ غَنَيْتُهُ إِلَيْهِ ، فَأَغَمِيَ عَلَيْهِ ، حَتَّى غُلِفَتْهُ قَدْ
مَاتَ ، ثُمَّ أَطَاقَ ، فَقَالَ : أَعِيدْ فَدَيْتُكَ ! فَنَاشَدْتُهُ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ وَقُلْتَ : أَخَشَى
أَنْ يَمُوتَ ، قَالَ : هِبَاهُ ! أَنَا أَشَقَى مِنْ ذَلِكَ ! وَمَا زَالَ يَخْفَعُ لِي وَيَتَضَرَّعُ حَتَّى
أَعَدْتُهُ ، فَصِغِقَ صَمْعَةً أَشَدَّ مِنَ الْأُولَى حَتَّى غُلِفَتْ أَنْ نَفْسَهُ قَدْ فَاضَتْ .

* الْأَنَابِيُّ : ١٢ - ١٦١ ، تَرْبِيعُ الْأَسْوَاقِ : ١٢٥ .

(١) كَانَ مَعْبِدُ الصَّغِيرِ غُلَامًا مَوْلَا مِنْ مَوْلَى لِلدِّينَةِ ، شَدَّ بِهَا ، وَأَخَذَ الْفَنَاءَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ
أَهْلِهَا ، وَعَنْ جَمَاعَةٍ أُخْرَى مِنْ عَلَيْهِ الْمَنَيْنِ بِالْمِرَاقِ ، مِثْلَ لِسْعَانٍ وَابْنِ جَامِرٍ ، وَكَانَ أَكْثَرَ انْقِطَاعِهِ
إِلَى الْبِرَامِكَةِ . (٢) دَنَيْتُ : مَرِضُ .

فلما أفاق رددتُ الدنانيرَ عليه ، ووضعتها بين يديه ، وقلت : يا هذا ؛ خذ دنانيرك ، وانصرفْ عني ، فقد قضيتُ حاجتك ، وبلغت ما أردته ، ولستُ أحبُّ أن أشركتُ في دمك ، قال : يا هذا ؛ لا حاجةَ لي في الدنانير ، قلت : لا والله ، ولا بشيءٍ أضاعها إلا على ثلاث شرائط ، قال : وما هنَّ ؟ قلت : أولاً أن تهيمَ عندي وتصعِّمَ بطعامي ، والثانية أن تشربَ أفداحاً من النبيذ يشدُّ قلبك ، ويسكنُ ما بك ، والثالثة أن تحدِّثني بقصتك ، قال : أفعل ما تريد .

فأخذتُ الدنانير ، ودعوتُ بطعام فأصاب منه ، ثم دعوتُ بالنبيذ فشرب أفداحاً ، وغثيته بشعر غيره في معناه ، وهو يشرب ويبيكي ، ثم قال : الشرطُ أعزُّكَ اللهُ . فغثيته ، فجعل يبكي أحراً بكاءً ، وينشيج أشدَّ نشيج وينتصب ، فلما رأيتُ ما به قد خَفَّ عما كان يلحقه ، ورأيتُ النبيذ قد شدَّ من قلبه كررتُ عليه صوته مراراً ، ثم قلتُ : حدِّثني حديثك ، قال :

أنا رجل من أهل المدينة خرجتُ متنزّهاً في ظاهرها ، وقد سالَ العقيق ، في فتيةٍ من أقراني وأخذاني ؛ فبصرنا بفتيات قد خرجنَ لمثل ما خرجنا له ، فجلسنَ حجرةً^(١) منا ، وبصرتُ فيهن فتاةً كأنها قضييبٌ^(٢) قد طله الندى ، تنظرُ بمينين ما ارتدَّ طرفُها إلا بنفسٍ من يلاحظهما ، فأطلنا وأُظْلنَ حتى تفرق الناس ، وانصرفنَ وانصرفنا ، وقد أبقتُ قلبي جُرْحاً بطيئاً اندمأه ، فمدتُ إلى منزلي وأنا وقيدٌ^(٣) .

وخرجت من الند إلى العقيق وليس به أحد ، فلم أرَ لها ولا لصواحيبها أنراً ؛ ثم جعلتُ ألتبها في طرق المدينة وأسواقها ، فكانت الأرض أضمرتُها ، فلم أحسن لها

(١) حجرة : بيتاً . (٢) القضييب : الضئيل . (٣) الوقيد : الشديد الرض للشعر .

بعين ولا أتر ، وسقمتُ حتى أيسَ منى أهلى ، ودخلتُ ظَنْرِي^(١) ، فاستعلمتني حالى ،
وضيئتُ لى السمىَ فيما أحبه منها ؛ فأخبرتها بقصتى ؛ قالت : لا بأس عليك ، هذه
أيام الربيع ، وهى سنَةٌ خصبٍ ، وليس يبعدُ عنك للطير ؛ وهذا المقيق ، فتخرج
حينئذ وأخرج معك ، فإن النسوة سيحجنن ، فإذا فعلن ورأيتهن اتبعتها حتى أعرفَ
موضعها ، ثم أمل بينك وبينها ، وأسعى لك فى تزويجها ؛ فكانتُ نفسى اطمأنت
إلى ذلك ، ووقّعت به ، وسكنتُ إليه ، ثم قويت وطمعت ، وتراجعت نفسى .
وجاء مطرٌ فأسال الوادى ، وخرَجَ الناس ؛ وخرَجْتُ مع إخوانى إليه ،
فجلسنا مجلسنا الأول بَمَيْتِهِ ؛ فأكُنَّا والنسوة إلّا كفرسى رِهان ، وأوماتُ إلى
ظَنْرِي فجلستُ حَجْرَةً منا ومنهن ، وأقبلتُ على إخوانى ، قلت : لقد أحسن القاتل
حيث قال :

رَمَتْنِي بِسَهْمِ أَقْصَدِ الْقَلْبِ وَانْتَه . وقد غَادَرْتُ جُرْحًا به وَدُوبًا^(٢)

فأقبلتُ على صواحبها ، قالت : أحسن والله القاتل ، وأحسن من أجابه
حيث يقول :

بِنَامِثُلٍ مَا تَشْكُو فَصَبْرًا لَمَلْنَا نَرَى فَرَجًا يَشْفِي السَّعَامَ قَرِيبًا
فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْجَوَابِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَظْهَرَ مَا يَفْضَحُنِي وَإِيَّاهَا ، وعرفتُ
ما أَرَادَتْ ، ثم تفرق الناس وانصرفنا .

وتبعتها ظَنْرِي حتى عرفتُ منزلها ، وصارتُ إلى ، فأخذتُ يدي ، ومضينا
إليها فلم تزل تتلطف حتى وصلتُ إليها ، فتلاقينا ، وشاع حديثي وحديثها وظهرَ

(١) الظئر : العالمة على ولد غيرها ، الرضخ له . (٢) الندوب : جم ندبة ، أثر الجرح الباقي على الجلد .

ما بيني وبينها ، فحجبتها أهلها ، وتشددَ عليها أبوها ؛ فازلت أجهدُ في لقائها
فلا أقدرُ عليه ، وشكوتُ إلى أبي لشدةِ ما نالني ؛ وسألتُهُ في خطبتها لي فضى
أبي ومشیخةُ أهلِي إلى أبيها ، فخطبوها ؛ فقال : لو كان بدًّا بهذا الأسعفة بما التمس ،
ولكنه قد شهِرَها^(١) ، فلم أكن لأحقِّ قولَ الناس فيها بتزويجها إياها ؛ فانصرفت
علي يأسٍ منها ومن نفسي .

قال معبد : ثم صارت بيننا عشرة ، وجلس جعفر بن يحيى للشرب ،
فأنتيتُهُ ؛ فكان أولُ صوتٍ غنَّيْتُهُ صوتي في شعر الفتى ؛ فطرب عليه طرباً شديداً ،
وقال : ويحك ! إن لهذا الصوت حديثاً فاهو ! فحدثته به ، فأمر بإحضار الفتى
فأخضر من وقته ، واستماده الحديث فأعاده عليه ، فقال : هي في ذمتي حتى أزوجه
إياها ، فطابت نفسه ، وأقام معنا ليلتينا حتى أصبح ؛ وغداً جعفر إلى الرشيد ، فحدثته
الحديث ، فمجب منه ، وأمر بإحضارنا جميعاً فأخضرنا ، وأمر بأن أغنَّيه الصوت ،
فغنَّيته وشرب عليه ، وسمع حديثَ الفتى ، فأمر من وقته بالكتاب إلى عامل
الحجاز بإشخاص الرجل وابنته ، وجميع أهلِهِ إلى حَضْرَتِهِ ، فلم يَمُضِ إلا مسافة
الطريق حتى أخضر ، فأمر الرشيدُ بإيصاله إليه فأوصل ، وخطب إليه الجارية للفتى
وأقسم عليه ألا يخالف أمره ، فأجابه ، وزوجه إياها ، وحمل إليه الرشيد ألف دينار
لجهازها ، وألف دينار لنفقة طريقه ؛ وأمر للفتى بألف دينار ، وأمر جعفر لي والفتى
بألف دينار ؛ وكان بعدَ ذلك في جملة ندماء^(٢) جعفر بن يحيى .

(١) الشهرة : ظهور الشيء في شئمة . (٢) جمع نديم .

٧٧ — لَعِبَ الْغُرَابُ بِفِرَاقِهَا*

قال زياد بن عثمان النبطاني : كنّا ببابِ بعضِ وُلاةِ المدينة ففَرَضْنَا^(١) من طولِ الثَّوَاءِ^(٢) ، فإذا أعرابِيٌّ يقول : يامعشَرِ العربِ ؛ أما منكم رجلٌ يأتيني أَعَالَهُ إذْ غَرَضْنَا من هذا المكانِ فأخبره عن أمِّ جَحْدَرٍ وعنِّي !
فجئتُ إليه فقلتُ : مَنْ أنتَ ! فقال : أنا الرَّمَّاحُ^(٣) بنُ أبرد . قلتُ : فأخبرني ببدهِ أمركا ؛ قال : كانت أمُّ جَحْدَرٍ من عَشِيرَتِي فَأَعْجَبَنِي ؛ وكانت بيني وبينها خُلَّةٌ^(٤) ، ثم إني عَتَبْتُ عليها في شئٍ بلغني عنها ؛ فَأَيْدَتْهَا فقلتُ : يا أمُّ جَحْدَرِ ؛ إِنَّ الْوَصْلَ عَلَيْكَ مَرْدُودٌ ؛ فقالت : ما قضى اللهُ فهو خير . فلبثتُ على تلك الحال سَنَةً .

ودَهِبَتْ بِهِمْ جُمُعَةٌ فَتَبَاعَدُوا . واشتقتُ إليها شوقًا شديدًا ؛ فقلتُ لامرأةٍ أُخْرَى : واللهِ لئن دَنَتْ دارنا من أمِّ جَحْدَرٍ لَأَتَيْتَهَا ؛ ولأُطَلِّبَنَّ إِلَيْهَا أَنْ تَرُدَّ الْوَصْلَ بيني وبينها ، ولئن رَدَّتْهُ لَا تَقْضَتْهُ أَبَدًا .

ولم يكن يومان حتى رَجَعُوا ، فلما أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَيْهِمْ ، فإذا أنا ببَيْتَيْنِ نازِلَيْنِ إلى سَنَدٍ^(٥) أبيضٍ طویل ، وإذا امرأتان جالستان في كِسَاهٍ واحدٍ بين

* الأغانى : ٢ - ٢٧٣

(١) غرضنا : ضجرنا . (٢) الثَّوَاءُ : طول الإقامة . (٣) كان الرماح بن أبرد أشهر غطفان في الجاهلية والإسلام ، عاصر الوليد بن يزيد ومنحه ، وأدرك أول الدولة العباسية . فتح المنصور واشتهر بشيئته إلى أمه حياذة . توفي نحو سنة ١٤٠ هـ . (٤) الخُلَّةُ : الصداقة . (٥) السند : ما ارتفع من الأرض قبل الجبل أو الوادئ . والأبرق من الجبال : ما كان لهلونان من سواد وبياض .

البيتين ؟ فجئتُ فسلْتُ ؛ فردَّتْ إحداهما ولم ترد الأخرى ، وقالت : ما جاء بك بارمَاح إلينا ؟ ما كنّا حينئذٍ إلا أنه قد انقطع ما بيننا وبينك . قلت : إني جعلتُ على إندرا لثن دنتُ بأم جحدر دار لآتيها ، ولأطلبن منها أن تردّ الوصل بيني وبينها ، ولئن هي فعلتْ لا تقضته أبداً - وإذا التي تكلمني امرأة أخيها ، وإذا السائكة أم جحدر .

قالت امرأة أخيها : فادخل مُقدِّم البيت ، فدخلتُ ، وجاءت من مؤخره فدنتُ قليلاً ، ثم إذا هي قد برزتْ ، فساعة برزتْ جاء غراب فتعب على رأس الأبرق^(١) ، فنظرتُ إليه ، وشهقتُ وتغير وجهها ، قلت : ماشألك ؟ قالت : لاشئ . قلت : بالله إلا أخبرتني ؟ قالت : أرى هذا الغراب يخبرني أنا لا بجمع بعد هذا اليوم إلا ببلد غير هذا البلد ، فتقبَّضتُ نفسي ، ثم قلت : جارية والله ما هي في بيت عيافة^(٢) ولا قيافة^(٣) .

ثم تروحتُ^(٤) إلى أهلي ، فسكنتُ عندهم يومين ، ثم أصبحتُ غادياً إليها ، فقالت لي امرأة أخيها : ويحك بارمَاح أين تذهب ؟ قلت : إليكم ، قالت : وما تريد ؟ قد والله زوّجتُ أم جحدر البارحة ، قلت : بمن ؟ ويحك ! قالت : برجل من أهل الشام من أهل بيتها ، جاءهم من الشام فخطبها فزوّجها ، وقد جعلتُ إليه !

(١) الأبرق : مكان مرتفع فيه حجارة ورمل وطن . (٢) اليعافة : زجر الطير والتناؤل بأسمائها وأصواتها وبمرها ، والمعروف باليعافة من العرب بنو أسدوينو لب . (٣) القيافة : تتبع الآثار وسمرتها ، والمعروف بالقيافة بنو مدلج . (٤) تروحت : سرت في وقت الرواح .

فَضِيتُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا هُوَ قَدْ ضَرَبَ سُرَادِقَاتٍ ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَأَنْشَدَنِي ، وَحَدَّثَنِي
وَعَدْتُ إِلَيْهِ أَيْامًا ، ثُمَّ لَمَّا احْتَمَلَهَا ، فَذَهَبَ بِهَا ؛ فَقُلْتُ :

أَجَارْتَنَا إِنْ ائْتَلَطُوبَ تَنْوُبُ عَلَيْنَا ، وَبَعْضَ الْآمِنِينَ نَصِيبُ
أَجَارْتَنَا لَسْتُ الْفِدَاءَ يَبَارِحُ وَلَكِنْ مَقَسِّمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ^(١)
فَإِنْ تَسْأَلِنِي هَلْ صَبَرْتُ فَإِنِّي صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ^(٢)
جَرَى بَانِيَتَاتٍ^(٣) الْحَبْلُ مِنْ أُمِّ جَعْدٍ رِيْظِيَاءٌ وَطَلِيْرٌ بِالْفِرَاقِ نَمُوبُ
نَظَرْتُ فَلَمْ أَعْتَفْ^(٤) وَعَافَتْ فَيَنْتَ لَهَا الطَيْرُ قُلِي ، وَاللَّيْبُ لَيْبُ
قَالَتْ : حَرَامٌ أَنْ نَرَى بَعْدَ هَذِهِ جَمِيعِينَ إِلَّا أَنْ يَلْمَ غَرِيبُ
أَجَارْتَنَا صَبْرًا ؛ فَيَارُبُّ هَالِكٌ تَقَطَّعُ مِنْ وَجْدٍ عَلَيْهِ قُلُوبُ

ثُمَّ انْعَدَرْتُ فِي طَلِبِهَا ، وَطَمَعْتُ فِي كَلِمَتِهَا : « إِلَّا أَنْ يَجْتَمِعَ فِي بَلَدٍ غَيْرِ
هَذَا الْبَلَدِ » .

فَجِئْتُ فَنَدَرْتُ الشَّامَ زَمَانًا ، فَتَلَقَانِي زَوْجُهَا ، فَقَالَ : مَا لَكَ لَا تَنْسَلُ ثِيَابَكَ
هَذِهِ أَرْسَلُ بِهَا إِلَى الْبَارِ تَنْسَلُ ؛ فَأَرْسَلْتُ بِهَا .

ثُمَّ إِنِّي وَقَفْتُ أَنْتَظِرُ خُرُوجَ الْجَارِيَةِ بِالثِّيَابِ ، قَالَتْ أُمُّ جَعْدٍ لَجَارِيَتِهَا :
إِذَا جَاءَ فَأَعْلِمِينِي ؛ فَمَا جِئْتُ إِذَا أُمُّ جَعْدٍ وَرَاءَ الْبَابِ ، قَالَتْ : وَيَمْلِكُ يَارْمَاتُ !
قَدْ صَكَنْتُ أَحْسَبُ أَنْ لَكَ عَقْلًا ! أَمَا تَرَى أُمْرًا قَدْ حِيلَ دُونَهُ ، وَطَابَتْ أَنْفُسُنَا

(١) عَسِيبُ : اسمُ جَبَلٍ بِمَالِيَةِ نَجْدٍ ، يُقَالُ : لَا أَضِلُّ كَذَا مَا أَقَامَ عَسِيبٌ ، أَيْ لَا أَضِلُّهُ أَبَدًا .

(٢) الصَّيْبُ : التَّحْدِيدُ . (٣) الْبَانِيَتَاتُ : انْقِطَاعُ . (٤) عَافَ الطَّيْرُ : زَجَرَهَا ، وَهُوَ أَنْ يَتَبَرَّأَ
بِأَسْمَائِهَا وَمَسَاقِلِهَا فَيَتَعَدَّى أَوْ يَتَشَاءَمَ .

عنه ؟ انصرف إلى عثرتك فإني أَسْتَحْيِي لك من هذا المَقَام . فانصرفت
وأنا أقول :

عسى إن جَجَجْنَا أن نرى أمَّ جَعْدَرٍ وجمعنا من تَخْلُقِينَ ^(١) طريقُ
وتعطك أَعْضَادُ الْعَلَى وَيُنَنَّا حديثُ مُسَرَّدُونِ كُلِّ رَفِيقٍ ^(٢)

(١) النخلتان : واديان . (٢) في البحجى إقواء .

٧٨ — نَحَلْتُ حُلُوانَ

قال مطيع^(١) بن إياس : كنت بالرّئي^(٢) مع سالم بن قُتَيْبَةَ ، وكانت لي جارية يقال لها جودانة .

و كنت أنشَقُ امرأةً من بنات الدّهاقين^(٣) ، كنتُ نازلاً إلى جنبها في دارها ، فلما خرج إبراهيم بن عبد الله بن الحسن - كتب للنصور إلى سالم بأمره باستخلاف رجلٍ على عمله والقدوم عليه في خاصّته على البريد ، فأمرني سالم بالخروج معه ، فاضطرت إلى بيع الجارية ، فبعتها ، ثم نَدِمْتُ بعد ذلك على خروجي ، وتمنيت أن أكون أَقَمْتُ .

ثم نزلت حُلُوانَ^(٤) ، فجلستُ على العَقَبَةِ أُنَظَرُ قَلْبِي ، وَعَيْنَانُ دَابِقِي فِي يَدِي ، وأنا مُسْتَنِدٌّ إلى نَحْلَةِ العَقَبَةِ ، وإلى جانبها نَحْلَةٌ أُخْرَى ، فتذكرتُ للرّاء واشتقتها وقلت :

أَسْعِدَانِي يَا غُلَّتِي حُلُوانَ وابكيا لي من رَيْبِ هذا الزمان
واعلمَا أن رَيْبَهُ لَمْ يَزَلْ يَفْرُقُ بَيْنَ الْإِلَافِ والجيران
ولعمري لو دُقْنَا أَلَمَ الْفَرْقِ فة أبكا كما الذي أبكيا

* معجم البلدان : ٣ - ٣٢٣ ، الأغاني : ١٢ - ١٠٣

(١) مطيع بن إياس : عرق الأصل يرجع نسبه إلى كنانة ، عاصر الدولتين : الأموية والعباسية ، كان ماجنا خليعا طرفا مليح النادرة . ولكنه متهم بالزندقة والفجور ، توفي سنة ١٦٦ هـ .
(٢) الرّئي : مدينة عظيمة يلاذ الجبال ؛ تخرج فيها كثير من عظام المسلمين . (٣) الدهقان : التاجر ، وزعيم فلاحي النجم ، ورئيس الإقليم (مغرب) وجمعه دهاقين . (٤) حلوان : مدينة كانت مشهورة بالعراق ، وهي غير حلوان مصر .

أَسْفِدَانِي وَأَبْقِنَا نَحْسًا سوف يلتصقا ففترطان
 كم رمتني صروفُ هُذَيِّ اللَّيَالِي بفراقِ الأحيابِ وَالْخِلَانِ
 غيرِ أُنَى لَمْ تَلَقْ نَفْسِي كَالَا قِيَتْ مِنْ فُرْقَةٍ ابْنَةُ الدَّهْقَانِ
 جَارَةٌ لِي بِالرَّيِّ تَذْهَبُ هُمَى وَيَسْلَى دَنُوءُهَا أَحْزَانِي
 فجتمتني الأيامُ أَغْطِ مَا كُنْتُ بِصَدْعٍ لِلْبَيْنِ غَيْرُ مَدَانِي
 وبرغى أَنْ أَصْبَحْتُ لَا تَرَاهَا الْعَيْنُ مِنِّي وَأَصْبَحْتُ لَا تَرَانِي
 إِنْ تَكُنْ وَدَعْتُ قَدْ تَرَكْتُ بِي لَهَبًا فِي الضَّمِيرِ لَيْسَ بِوَانِ
 كَهَرِيقِ الْقَرَامِ فِي قَصَبِ الْفَسَا بَ رَمَتْهُ رِيحَانٌ مُخْتَلِقَانِ^(١)

وسمى سالم قال : ويلك افيمن هذه الأبيات ؟ أفي جاريك ؟ فاستحييت
 أن أصدقه قلت : نعم .

فكتب من وقته إلى خليفته أن يتاعها لي ، فلم ألبث أن ورد كتابه : إني
 وجدتُها قد تداولها الرجال فمزقتْ نفسى عنها .

(١) روى أن المهدي قال : قد أكثر الشعراء في تخلي حلوان ، ولهمت أن آمر بقطبها ،
 فيلع قوله المنصور ، فكتب إليه : بلني أنك هممت بقطع تخلي حلوان ، ولا فائدة لك في قطبها ،
 ولا ضرر عليك في بقائها ، فأنا أعيدك بأفك أن تكون النجس الذي يلقيها تنفرك بينهما .

٧٩ — وَاَرَا حَتَّىٰ لِلْمَاشِقِينَ *

قال الجاحظ^(١) : ذُكِرَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِ لِتَأْدِيبِ بَعْضِ وَلَدِهِ ، فَلَمَّا رَأَى اسْتَبْشَعَ مَنْظَرِي ، فَأَمَرَنِي بِشِرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ وَصَرَفَنِي .

وخرجتُ من عنده ، فلقيتُ محمد بن إبراهيم وهو يُريدُ الانصرافَ إلى مدينة السلام ، فمرض على الخروجِ معه ، والآنحدارَ في حرَّاقته^(٢) ، فركبنا فيها ، فلما أتينا قَمَ نَهْرَ الْقَاطُولِ^(٣) ، وخرجنا من سَامَرَةَ^(٤) نَصَبَ سِتَارَتَهُ ، وأمر بالفناء ، فاندفعتْ عَوَادَةٌ فَفَنَّتْ :

كُلُّ يَوْمٍ قَطِيعَةٌ وَعَتَابُ يَنْقُضِي دَهْرَنَا وَنَحْنُ غَضَابُ
لَيْتَ شِعْرِي أَنَا خُصِمْتُ بِهَذَا دُونَ ذَا الْخَلْقِ أَمْ كَذَا الْأَحْبَابُ !
وسكنت ، فأمر الطنبُورِيَّةَ فَفَنَّتْ :

وَرَا حَتَّىٰ لِلْمَاشِقِينَ مَا إِنِ أَرَى لَهْمُ مَعِينَا !
كَمْ يَهْجَرُونَ وَيُصَرِّمُونَ نَوْيَقَطْعُونَ فَيَصْبِرُونَ !

* للمعدي : ٢ - ٣٧٨ ، نهاية الأرب : ٢ - ١٩٥

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر ، وعرف بالجاحظ لجحوظ عينه ، كان إمام الأدباء في العصر العباسي ، وله أساليب ومذاهب وآراء في الأدب واللغة ، خاصة به ، ومؤلفاته كثيرة ، وتوفى سنة ٢٥٥ هـ . (٢) المراقبة : نوع من السفن . (٣) القاتول : نهر يتفرع من دجلة ، حفره الرشيد . (٤) بلد على نهر دجلة بناه للمقيم سنة ٢٢١ هـ ، حينما صدقت بغداد بأهلها .

فَقَالَتْ هَذِهِ الْمَوَادَّةُ : فَيَصْنَعُونَ مَاذَا ؟ قَالَتْ : هَكَذَا يَصْنَعُونَ ، وَضَرَبَتْ
بِيَدِهَا إِلَى السَّتَارَةِ فَهَتَكَتْهَا ، وَبَرَزَتْ كَأَنَّهَا فَلَقَّةٌ قَرٌ ، فَزَجَّتْ بِنَفْسِهَا إِلَى الْمَاءِ ،
وَعَلَى رَأْسِ مُحَمَّدٍ غِلَامٌ يُضَاهِيهَا فِي الْجَمَالِ ، وَبِيَدِهِ مِذْبََّةٌ ، فَاتَى الْمَوْضِعَ ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا ،
وَهِيَ تَمْرُّ بَيْنَ لَمَاءٍ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَنْتِ الَّتِي غَرَّقْتَنِي بِسِدِّ الْقَضَا لَوْ تَمَلَّيْنَا

وَزَجَّ بِنَفْسِهِ فِي أُنْهَاهَا ، فَأَدَارَ الْمَلَّاحُ الْحِرَاقَةَ ، فَإِذَا بِهَا مُتَتَفِقَانِ ، ثُمَّ غَاصَا .
فَلَمْ يُرِيا !

فَهَالِ مُحَمَّدًا ذَلِكَ وَاسْتَعْظَمَهُ وَقَالَ : يَا غَمْرُو ، لَتَحْدِثَنِي حَدِيثًا يُسَلِّينِي عَنْ فَقْدِ
هَذَيْنِ ؛ وَإِلَّا أَلْحَقْتُكَ بِهِمَا .

فَخَضَرَنِي حَدِيثُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَقَدْ قَعَدَ لِلْعِظَالِمِ ، وَغَرِضَتْ عَلَيْهِ
الْقِصَصُ ، فَغَرَّتْ بِهِ قِصَّةٌ فِيهَا : « إِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - أَنْ يَخْرُجَ
جَارِيَتُهُ فَلَانَةٌ حَتَّى تَضِنِّي ثَلَاثَةَ أَصْوَاتٍ فَمَلْ » ؛ فَاعْتَاطَ يَزِيدُ ، وَأَمَرَ مَنْ يَخْرُجُ
إِلَيْهِ ، وَبَاتِيَهُ بِرَأْسِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُنْقِعَ الرَّسُولُ بِرَسُولٍ آخَرَ بِأَمْرِهِ أَنْ يُدْخِلَ إِلَيْهِ
الرَّجُلَ ؛ فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ : مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : الثَّقَةُ
بِحِمْلِكَ ، وَالْإِتِّكَالُ عَلَى عَفْوِكَ . فَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ
إِلَّا خَرَجَ ، ثُمَّ أَمَرَ فَأُخْرِجَتِ الْجَارِيَةُ وَمَعَهَا عَوْدُهَا ، فَقَالَ لَهَا الْغَيُّ غَيٌّ :
أَقَامْتُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتُ صَرْمِي فَأُجْلِي
فَضْنَتُهُ ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : قُلْ ، قَالَ : غَيٌّ :

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ تَجْدِيًّا قَتَلَتْ لَهُ يَا بَهَا الْبَرْقُ ؛ إِيَّاهُ عَنْكَ مَشْفُولٌ

ففتنته ، فقال : قل ، قال : تأمر لي برطل سحر ، فاستقم شرابه حتى وثب
وصعد على أعلى قبة يزيد ، فرمى بنفسه على دماغه فأت

فقال يزيد : إنا لله وإنا إليه راجعون ! أترأه الأحق الجاهل ظن أني أخرج
إليه جاريتي وأردّها إلى مالي ، يا غلمان : خذوا بيدها ، واحملوها إلى أهلها إن كان
له أهل ، وإلا فبيعوها وتصدقوا بشمنها عنه .

فانطلقوا بها ، فلما توسّطت الدار ، نظرت إلى حفرة في دار يزيد قد أعدت
للمطر ، فجذبت نفسها من أيديهم ، وأنشأت تقول :

مَنْ مَاتَ عِشْقًا فَلَيْمَتْ هَكَذَا لا خـير في عشق بلا موت

ثم زجّت بنفسها على دماغها فأت .

فسرى عن عمد ، وأحسن صلى .

٨٠ — الله يعلم أننى كمد

قال أبو العباس المبرد^(١) : دخلتُ في حدائتي أنا وصديق لي من أهل الأدب إلى دَيْرٍ لَنَنْظُرَ إلى مجانين وصِفُوا لنا فيه ، فرأيتُ منهم مجانب ، حتى انتهينا إلى شاب جالس حَجْرَةً^(٢) منهم ، نظيف الوجه والثياب على حصر نظيف ، يده مرآة ومُشط وهو ينظر في المرآة ، ويُسَرِّحُ لحيته ، قلت : ما بُقِعْدُك هاهنا وأنت مُباين^(٣) لهؤلاء ؟ فرجع طَرَفًا وأمال آخر وأنشأ يقول :

اللهُ يَـلْمُ أنى كمد لا أستطيعُ أبثُ ما أجدُ
نَـفْسَانِ لى : نفس تَصَمَّهَا بلد وأخرى حازها بلد
وأرى للقيمة ليس ينفعها صبر ولا يقوى لها جلد
وأظنُّ ظائيتي كشاهدتي فكأنها تجدُّ الذى أجِدُّ

قلت له : أراك عاشقًا . قال : أجل ، قلت : لِمَنْ ؟ قال : إنك لتسول اقلت : محسنٌ إن أخبرت . قال : إن أبى عقد لي على ابنة عمِّ لي فتوفى قبل أن تزف إلي ، وخلف لي مالا عظيمًا ، فقبض عني على جميع المال ، وحسنى في هذا الدَّير ، وزعم أنى مجنون ، وقبم الدار في خلال ذلك يقول لنا : احذروه فإنه الآن يتغير . ثم قال لي : بالله أنشدتني شيئًا ، فإني أظنك من أهل الأدب ، قلت : لرقيق :

* أمالى الزجاجي : ١٠٥ ، نهاية الأرب : ٢ - ١٩٠

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد ، كان في عصره شيخ أهل النحو والرياسة ، وإليه انتهى علمها ، وكان قوى الذاكرة حسن العبارة ، فصيح اللسان ، توفي سنة ٢٧٥ هـ . (٢) حجرة : ناحية .

(٣) مباين : متباين .

أنشدته فأنشأ يقول:

قبلتُ فاعما على خَوْفِي مُحَالَسَةً كعقاس النار لم يشعر من العجل
ماذا على رصد^(١) في الدار لو غفلوا عني قبلتها عشراً على مهل
غُصِّي جفونك عني وانظري أَمَّا^(٢) فإنما اخضع العشاق بالمقل
فقال لي: أبو من أنت؟ جعلت فداك! قلت: أبو العباس، قال: يا أبا
العباس: أنا وهذا القتي في طرفين؛ هذا مجاور من يهواه، مستقبل لما يناله منه،
وأنا ناه مقصي، فبالله أنشدني أنت شيئاً، فلم يحضرني غير قول ابن أبي ربيعة:
قالت سَكِينَةُ والدموعُ ذوارفٌ تجري على الخدين والجلباب:
ليت للمفريء الذي لم أجزه فيا أطال تصبُّري وطلابي
كانت ترد لنا اللي أيامنا إذ لا ألام على هوَى ونصاب
حُبِّرت ما قالت فبت كأعما يرعى الحشا بصواب النشاب
أسكين ما ماله الفرات وطيبه متى على ظمأٍ وحبٍ شراب
بالذمك وإن نابت وقَلَّما يرعى النساء أمانة الفياب
ثم قلت له: أنشدنا شيئاً آخر، فأنشأ يقول:

أين لي أيها الطللُ عن الأحباب ما فعلوا
تري ساروا؟ تري نزلوا بأرض الشام أرحلوا؟

فقال له رفيقي - مجنوناً ولعباً: ماتوا، فقال: ويلك! ماتوا؟ فقال: نعم! ماتوا، فاضطرب واحمرت عيناه، فجعل يضرب برأسه الأرض، ويقول: ويلك! ماتوا؟ حتى هالنا أمره، وانصرفنا عنه، ثم عدنا بعد أيام فسلنا صاحب الديار، فقال: ما زالت تلك حاله إلى أن مات.

(١) الرصد: الراسدون، أي المراقبون. (٢) الأمم: العبيد.

٨١ - في دار المجانين*

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : ذُكرت للمتوكل منازعةٌ جرت بيني وبين الفتح بن خاقان في تأويل آية ، وتنازع الناس في قراءتها ، فبعث إلى محمد ابن القاسم - وكانت إليه البصرة ، فحملني إليه مكرماً .

فلما اجتزْتُ بناحية النعمان بين واسط وبنداد ، ذُكر لي أن يدِير هرقل جماعةً من المجانين يمالجون ، فلما حاذبته دَعَتْنِي فَمَنِي إِلَى دُخُولِهِ ؛ فدخلته ومعى شابٌ ممن يُوجَّعُ إليه في دينٍ وأدب ، فإذا أنا بمجنون من المجانين قد دنا إليّ ؛ قلت : ما يُفعلُك بينهم ، وأنت بائسٌ عنهم ؟ فكسر جفنه ورفع عَقبَته^(١) وأنشأ يقول :

إِنْ وَصَّوْنِي فَنَاحِلُ الْجَسَدِ أَوْ قَتَّشُونِي فَأَيُّضُ الْكَبَدِ
أَضَعَفَ وَجْدِي وَزَادَ فِي سَقَمِي أَنْ لَسْتُ أَشْكُو الْهَوَى إِلَى أَحَدِ
وَضَعْتُ كَفِّي عَلَى فُؤَادِي مِنْ حَرِّ الْأَسْمَى ، وَأَنْطَوَيْتُ فَوْقَ يَدِي
آهٍ مِنَ الْحُبِّ آهٍ مِنْ كِبَدِي إِنْ لَمْ أَمُتْ فِي غَدٍ فَبِعَدِ غَدِ
كَأَنَّ قَلْبِي إِذَا تَذَكَّرْتُمْ فَرِيصَةً بَيْنَ سَاعِدَيْ أُسْدِ
قُلْتُ : أَحْسَنْتَ ، اللَّهُ دَرَكُكَ إِزْدَنِي ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

مَا أَقْتُلُ الْبَيْنَ لِلنَّفُوسِ ! وَمَا أَوْجَعُ قَدْ الْحَبِيبَ لِلْكَبَدِ !
عَرَضَتْ نَفْسِي مِنَ الْبَلَاءِ لَمَّا أَسْرَفْتُ فِي مُنْجَتِي وَفِي جِلْدِي
يَا حَسْرَتِي أَنْ أَمُوتَ مَمْتَلًا بَيْنَ اعْتِلَاجِ الْمَعْمُومِ وَالْكَبَدِ

* المسمودى : ٢ - ٣٨١

(١) القبر : الصوت .

قلت : أحسنت ، لا قُصَّ فوقَ اِزْدَنِي ، فأنشأ يقول :

الله يعلم أني كد لا أستطيعُ أبثُ ما أجد
فسان لي : نفسُ نضمها بلدٌ وأخرى حازها بلدٌ
وأزى للقيمة ليس ينفعها صبرٌ ؛ وليس يُمينها جلدٌ
وأظنُّ غائبتي كشاهدتي فكأنها تجدُ الذي أجدُ

قلت : والله لقد أحسنت . فاستزدته ، قال : أراك كلما أنشدتك استزدتني ،
وما ذاك إلا لقرط أدب ، وفراق شجن ، فأنشدني أنت أيضاً ، قلت للذي معي :
أنشده ؛ فأنشد يقول :

عَدْلٌ وَبَيْنٌ وَتوديعٌ ومُرُوحٌ أحمى الميون على ذاليس تَهْمَلُ ؟
تالله ما جلدي من بدم جلدٌ ولا اختزان دموعي عنهم يُجَلُّ
وددت أن البحار السبع لي مددٌ وأن جسي دموعُ كلها همَلُ
وأن لي بدلاً من كل جامعٍ في كل جارية يوم النوى مُقَلُّ
لا دَرَّ دَرَّ النوى لو صادفتُ جيلًا لانهتُ منها وشيكاً ذلك الجِلُّ
الهَجْرَ والبين والواشون والإيل طلائعٌ يتراءى أنها الأَجَلُّ

قال للجنون : أحسنت ! وقد حضرني في معنى ما أنشدت إلي شعر ،
فأنشده ؟ قلت : هات ؛ فأنشأ يقول :

ترحلوا ثم نبطت دونهم سُجُفٌ لو كنت أملكهم يوماً لما رَحَلُوا
يا حادي الميس ، مهلا كي نودعها رقتاً ؛ قليلاً ؛ فني تودعها الأَجَلُّ

مارأى اليوم شئاً غير قُذِّمٍ حتى استقلت وطال الدهر ، ما ضلوا
 قال الفتي الذي معي : ماتوا ، قال الجنون : آه ، آه ! إن ماتوا فأسوف أموت ؛
 وسقط ميتاً ، فابرحتُ حتى غُسلَ وكفنَ ؛ وصليت عليه ودفنته .
 ووردتُ سرَّ مَنْ رَأَى ، فأدخلتُ على المتوكل ؛ فسئلت عن بعض ماوردتُ له
 فأجبت ، وبين يديَّ المتوكل البحترى الشاعر ؛ فأبتدأ ينشده قصيدة يمدحه بها ،
 وفي المجلس أبو المنبس الصيمري^(١) فأنشده البحترى :

عن أى نفر تبسمُ وبأى طرف تحكمُ
 حسن يضى بحسته والحسن أشبه بالكرم
 بابائى الجسد الذى قد كان قوَّضَ فانهدم
 اسلمَ لدين عميدٍ فإذا سلَّمتَ قد سلم
 نلنا المُلْدَى بعد المعنى بك والغنى بعد العدم

فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف ، فوثب أبو المنبس ؛ فقال : يا أمير
 المؤمنين ؛ تأمر برده ؛ فقد — والله — عارضته فى قصيدته هذه !

فأمر برده ، فأخذ أبو المنبس ينشد :

من أى سلح تلطم وبأى كف تلطم
 أدخلت رأس البحترى أبى عبادَةَ فى الرَّجَم

(١) عماد بن إسحاق بن إبراهيم الصيمري ، نديم المتوكل ، كان أديباً ظريفاً عارفاً بالنجوم شاعراً
 مجاهداً ، وهو من أهل الكوفة ، ولحقه قضاء الصيرة فغلب إليها . توفي سنة ١٧٥ هـ .

ووصل ذلك بما أشبهه من الشَّتم ، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ،
 وخص برجله اليسرى ، وقال : يُدفع إلى أبي المنبِّس عشرة آلاف درهم ؛
 فقال الفتح : يا سيدي ، البهتري الذي هُجِّي وأسمع المكروه ينصرف خائباً !
 قال : ويدفع إلى البهتري عشرة آلاف درهم ؛ قال : يا سيدي ، وهذا البصري
 الذي أشخصناه من بلد لا يشرِّكهم فيما حصلوه ؟ قال : ويدفع إليه عشرة
 آلاف درهم ! فانصرفا كلنا في شفاعة الهزل ، ولم ينفع البهتريَّ جدُّه واجتهادُه
 وحزمُه .

ثم قال المتوكل لأبي المنبِّس : أخبرني عن حمارك ووفاته ، وما كان من شعره
 في الرؤيا التي رأيتهما ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ كان أعقلَ من القضاة ، ولم
 يكن له جريرة ولا زلة ، فاعتلَّ على غفلة ، فأت منها ، فرأيتُه فيما يرى النائم
 قلت له : يا حماري ؛ ألم أبرِّد لك الماء ، وأنتَ لك الشعر ، وأحسن إليك
 جهدي ؟ فلم متَّ على غفلة ! وما خبرك ؟ قال : نعم ! لما كان في اليوم الذي
 وقفت على فلان الصَّيدلاني تُسكِّلُهُ في كذا وكذا ، مرَّت بي أتان
 حسناء ، فرأيتها فأخذتُ بعجام قلمي فمشقتها واشتدَّ وجدي بها ، فت كذا
 متأسفاً . قلت له : يا حماري ؛ فهل قلت في ذلك شعراً ؟ قال : نعم ،
 وأنشدني :

هام قلمي بأتان عند باب الصيدلاني
 تيمتني يوم رُحنا بثناياها الحسان

وَبَخْدِي ذِي دَلَالٍ مِثْلَ خَدِّ الشَّنْفَرَانِي
فَبِهَامِيَتْ وَلَوْ عَشْرَ لَأَذِنَ طَالِ هَوَانِي

قلت : يا حماري ؛ فإِ الشَّنْفَرَانِي ؟ فقال : هذا من غريب الخير ؟ فطرب
المتوكل وأمر اللّٰهين والفنّين أن يَنْتُوا ذلك اليوم بشعر الجمار ، وفرح في ذلك اليوم
فرحاً وسروراً لم يُرَ مثله ، وزاد في تَكْرمة أبنِي الْعَنْبَسِ وجائزته .

٨٢ — عتاب *

قال أبو الحسن البتاء :

بيننا أنا وصديق لي من قرَّيش نمشى بالبلاط^(١) ليلاً ، إذا بظلم نسوة في القمر ؛ فسمعتُ إحداهن تقول : أهو هو ! فقالت لها أخرى معها : إني والله إنه لهو هو ! فذنتُ مني ثم قالت : يا كهل ، قل لهذا الذي معك :

ليست لياليك في خانج^(٢) بمائدة كما عهدت ولا أباهم ذي سلم^(٣)

فقلت : أجب فقد سمعت . فقال : قد والله قُطِعَ بي وأُرْتِجَ علي فأجِب عني ، قلت :

قلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطئت يوماً لها النفس ذلت

ثم مضينا حتى إذا كنّا بمفرق طريقين مضى الفتي إلى منزله ، ومضيتُ إلى منزلي ، فإذا أنا بجويرة تجذب رداي ، فالتفتُ ، فقالت لي : المرأة التي كلَّتها تدعوك ، فقصيتُ معها حتى دخلتُ داراً واسعة ، ثم صرتُ إلى بيت فيه حصير ، وقد نمتُ لي وسادة فجلستُ عليها . ثم جاءت جارية بوسادة مثنية فطرحتها ، ثم جاءت المرأة فجلستُ عليها ، فقالت لي : أنت الحبيب ، قالت : نعم ، قالت :

* الأغاني : ٢ - ٨٠

(١) البلاط : مكان بالمدينة . (٢) موضع يقال له : روضة خانج بين الحرمين .

(٣) ذو سلم : موضع .

ما كان أنظُّ جوارِك وأغلظه أقلت لها : ما حضرنى غيرُه ، فسكت ، ثم قالت : لا ، والله ما خلق الله خلقاً أحبَّ إلى من إنسان كان معك ! أقلت لها : أنا الضامنُ لك عنه ما تحبين ، قالت : هيهات أن يقعَ بذلك وفاء ! قلت : أنا الضامنُ وعلى أن آتيك به فى الليلة التالية .

فانصرفْتُ فإذا الفتى يبكى ، قلت : ما جاء بك ! قال : ظننتُ أنها ستُرسلُ إليك ، وسألتُ عنك فلم أعرف لك خبراً ، فظننتُ أنك عندها ، فجلستُ أنتظركَ ، قلت له : وقد كان الذى ظننتُ ، وقد وعدتُها أن آتيك فأمضِ بك إليها فى الليلة المقبلة .

فلما أصبحنا تهيأنا وانتظرنا للنساء ، فلما جاء الليلُ رحلنا إليها ، فإذا الجارية منتظرة لنا ، فوضتُ أمامنا حين رأتنا حتى دخلتُ تلك الدار ودخلنا معها ، فإذا رائحة طيبة ومجلسٌ قد أُعدَّ ونُضدٌ ، فجلسنا على وسائدٍ قد مُنِيتْ لنا ، وجلستُ ملياً ثم أقبلتُ عليه ، فعانبتَه ثم قالت :

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتني وأبرزتنى للناس ثم تركتني
وأشمت بى من كان فيك يلوُمُ لهم غرضاً أُرمتى وأنت سليمٌ
فلو كان قول يَكلمُ الجِلدَ قد بدا بحيلدى من قول الوشاة كلُّومُ

ثم سكنتُ وسكت الفتى هنيهة ثم قال :

غدرتِ ولم أغدرِ وخُفَّتِ ولم أخُنْ وفى بعضِ هذا للحبِّ عزاه
جزيتك ضفَّ الوُدُّ ثم صرمتنى فحبك من قلبى إليك أداه^(١)

(١) أداه تأدية : أوصله وقضاه ، والاسم الأداه .

فالتفت إلى قالت : ألا تسمع ما يقول اقد خبرتك ، فَمَرَّته أَنْ كُفَّ
فكف ، ثم أقبلت عليه وقالت :
تجاهلت وصلى حين جدت^(١) حمايتي فهلا صرمت الجبل إذ أنا أبصر
ولى من قوى الجبل الذى قد قطعت نصيبٌ وإذ رأيت جميع موقر
ولكنها آذنت بالمرم بفتنة ولست على مثل الذى جئت أفدر
قال :

لقد جعلت نفسى - وأنت اجترمتها . وكنت أعز الناس - عنك تطيب
فبككت ، ثم قالت : أو قد طابت نفسك إلا ، والله ما فيك بعدها خير ،
ثم التفت إلى وقالت : قد علمت أنك لا تنفى بضمائك ، ولا ينفى به عنك .

(١) جده الأمر : اشد ، والمهابة : الفوابة والضلال .

٨٣ — يا غريب الدارِ عن وطنه*

قال جماعة من أهل البصرة : خرجنا نريد الحج ، فلما كنا ببعض الطريق إذا غلام واقف على الحجّة^(١) ، وهو ينادى : أيها الناس ؛ هل فيكم أحد من أهل البصرة ؟ فلنا إليه وقلنا له : ما تريد ؟ قال : إن مولاي لما به يريد أن يوصيكم ، فلنا معه ، فإذا شخص ملقى على بُعد من الطريق تحت شجرة لا يبعد جواباً ، فجلسنا حوله ، فأحسن بنا ، ورفع طرفه وهو لا يكاد يرقه ضعفاً ، وأنشأ يقول :

يا غريب الدارِ عن وطنه مُفرداً يبكي على شجته

كلما جدَّ البكاء به دبَّت الأسقام في بدنه

ثم أغشى عليه طويلاً ؛ وإنا لجلوس حوله إذا أقبل طائر ، فوقع على أعلى الشجرة ،

وجعل يُبرّد ، ففتح الفتى عينيه ؛ وجعل يسمع تغريد الطائر ثم قال :

ولقد زاد القواد شعبي طائر يبكي على فننه

شقه ما شقني فبكي كلنا يبكي على سكنه

ثم نفث نفثاً فاضت نفسه منه ، فلم نبرح من عنده حتى غسّلناه وكفّناه ،

وتولّينا الصلاة عليه ، فلما فرغنا من دفنه سألت الغلام عنه ، فقال : هذا العباس

ابن الأحنف^(٢)

* المسعودي : ١ - ٢٨٥ ، نثار الأزهار : ٨٢

(١) الحجّة : جادة الطريق ، والمجادة : معظم الطريق . (٢) كان العباس بن الأحنف عربياً شريفاً

النسب ، لم يتكسب بالكرم ، وإنما ينظم ما يجهش في خاطره ، وأكثره في النزل ، ولم يتجاوزوه إلى مدح أو هجاء ، وكان له مذهب حسن ، وله بياضة شعره رونق ، ولما به عذوبة ولطف ، توفي

سنة ١٩٢ هـ .

البَابُ الثَّالِثُ

في القصص التي تحتاج لما اتصفوا به من شدة النيرة
على الحریم ، وبالغ المخافة من التهمة ، إغلاء بالشرف
وضمائنا لوفرة العرض ، وما جره بعض ذلك من إزهاق
الأرواح وسفك الدماء ، دريا للظنة ، واتقاء للسمعة .

٨٤ — لا أحد أذلّ من جدّيس *

كانت منازل طَسَم في موضع البليمة^(١)، وكان يملكهم عَمَلِيق، وكانت معهم جدّيس، ولكنّ عَمَلِيقاً في أول مملكته قد عمّادى في الظلم والنّسَم^(٢) والسيرة بغير الحق.

وكانت امرأة من جدّيس يقال لها هُرَيْبَلَة، ولما زوجّ يقال له مَاشِق، فطلقها وأراد أخذَ ولدها منها، فخاصمته إلى عَمَلِيق، قالت: يا أيها الملك؛ إني حملته نساءً، ووضعتُه دفناً، وأرضعته شفماً؛ حتى إذا تمت أوصاله، ودنا فصاله، أراد أن يأخذه مني كَرْهاً، ويتركني من بعده وَرْهاً^(٣).

فقال لزوجها: ما حجبتك؟ قال: حجّيتُ أيها الملك أُنّى قد أعطيتها للهر كاملاً، ولم أصب منها طائلاً، إلا وليداً خاملاً، فاضل ما كنت فاعلاً. فأمر بالعلام أن يُنزع منها جيباً ويحمل في غلمانها. قالت هُرَيْبَلَة:

أَتَيْنَا أَخَا طَسَم لِيَحْكُمَ بَيْنَنَا فَأَنْفَذَ حُكْمًا فِي هُرَيْبَلَة ظَالِمًا

لِعَمْرِي تَدْحُكُمُكَ لَامْتَوْرَعًا وَلَا كُنْتُ فِيما يُبْرِمُ الْحَكَمَ ظَالِمًا

تَدَمْتُ وَلَمْ أُنْدَمْ وَأُنّى لَعَنَتْنِي وَأَصْبَحَ بَيْتِي فِي الْحُكُومَةِ نَادِمًا

فلا سمع عَمَلِيق قولها أمر ألا تزوّج بكرّ من جدّيس وتهدى إلى زوجها

• مذهب الأغاني: ١ - ١، ابن الأثير: ١ - ٢٢، الخزانة: ٢ - ٢٣٥

(١) البليمة: بلد كبير فيه قرى وحصون وعيون ونخل (المراسد).

(٢) النسَم: الظلم. (٣) وره، كفرح: حق.

حتى يراها هو قبل زوجها ، فلقوا من ذلك بلاءً وجهداً وذلاً ، فلم يزل يفعل هذا حتى زوجت الشمس ، فلما أرادوا حملها إلى زوجها انطلقوا بها إلى عمليق ومعهما القيان يفتنين :

ابْدَى بِسَالِقٍ وَقَوْمِي فَارَكِي وبادري الصبح لأمرٍ مُعْجَب
فسوف تلقينَ الذي لم تَطْلُي وما لي بكرٍ عنده من مَهْرَبٍ

فدخلت عليه ، ثم خلى سبيلها ، فخرجت إلى قومها شاقّةً درعها وهي في أفحج منظر ، وهي تقول :

لَا أَحَدٌ أَذَلُّ مِنْ جَدِيسٍ أَهْكَذَا يُفْعَلُ بِالْعَرُوسِ !
يرضى بهذا يا تقوى حرّ أَهْدَى وَقَدْ أُعْطِيَ وَسِيقَ لِلْمَرْ
لَاخِذَةُ لَوْتَ كَذَا لِنَفْسِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُفْعَلَ ذَا بَعْرِهِ

وقالت - تحرّض قومها فيما أتى إليها :

أَيَحْمِلُ مَا يُوْتَى إِلَى فِتْيَانِكُمْ وَأَنْتُمْ رِجَالٌ فِيكُمْ عَدَدُ النَّمْلِ
وتصبحُ تَمْشِي فِي الدَّمَاءِ عُفَيْرَةً غَشِيَةً زُفَّتْ فِي النِّسَاءِ إِلَى بَعْلِ
ولو أنّا كنّا رجالاتاً وكننّ نساءً لَكُنّا لَا يُقَرُّ بِذَا الْفَعْلِ
فَوُتُوا كِرَامًا أَوْ أَمَيَّتُوا عَدُوَّكُمْ وَدَبُّوا لِنَارِ الْحَرْبِ بِالْحَطَابِ الْجَزْلِ^(١)
وإلا فاضلوا بطنها ، ونحّموا إِلَى بِلَاحِ قَهْرٍ وَمُوتُوا مِنَ الْمَزْلِ
فللبين خيرٌ من تمادٍ على أذى وَلِلْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ مَقَامٍ عَلَى النَّزْلِ
وإن أنتم لم تفضبوا بعد هذه فَكُونُوا نِسَاءً لَا تَنَابِ مِنَ الْكُحْلِ

(١) الحطاب الجزل : اليابس ، أو التليظ منه .

ودونكم طيبُ المَروسي فإِنَّمَا خُلِقَ لاثوابِ المَروس وللنَّسلِ
فَبُغِدًا وَسُخْفًا الَّذِي لَيْسَ دَاخِلًا وَيَخْتَالُ يَمْشِي بَيْنَنَا مَشْيَةً الْفَحْلِ

فَلَمَّا سَمِعَ أَخُوها الْأَسودَ — وَكانَ سَيِّدًا مُطاعًا — قالَ لقومه : يا معشر
جَدِيسَ ، إِنْ هؤُلاءِ القومُ لَيْسوا بِأَعزَّ مِنْكُمْ في دارِكُمْ إِلَّا بِما كانَ مِنْ مُلْكٍ صاحِبِهِم
عَلَيْنا وَعَليهِمْ ، وَلولا عِجْزُنا وإِدْهانُنا^(١) ما كانَ لَهُ فَضْلٌ عَلَينا ، وَلَوْ اِمْتَنَعنا
لَكانَ لَنا مِنَ النَّصَفِ^(٢) ، فَأُطِيعُونِي فيما آمَرَكم بِهِ ؛ فَإِنَّهُ عِزُّ الدَّهْرِ ، وَذِهابُ ذُلِّ
العَمْرِ ؛ وَاقْبَلُوا رَأْيِي .

وَقَدْ أَهَى جَدِيسًا ما سَمِعُوا مِنْ قَوْلِها ، فَقالُوا : نُطِيعُكَ ، وَلَكِنْ التَّوَمُّ
أَكْثَرُ وَأَحْيى وَأَقْوى . قالَ : فَإِنِّي أَصْنَعُ لِلْمالِكِ طَعامًا ثُمَّ أَدْعُوهُمْ لَهُ جَمِيعًا ،
فَإِذا جِاءوا يَرَوْنَ قُلُونَ في الحُلَلِ نُرْنا إلى سِيفِنا ، فَأَهْمَدَناهم بِهِمْ . قالُوا :
نَفْعَلُ .

وَصَنَعَ طَعامًا كَثِيرًا ، وَخَرَجَ بِهِ إلى ظَهْرِ بَلَدِهِمْ ، وَدَعَا عَمَلِيًّا وَسَأَلَهُ أَنْ يَتَنَدَّى
عِنْدَهُ هُوَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ ، فَأَجابَهُ إلى ذَلِكَ ؛ وَخَرَجَ إِلَيْهِ مَعَ أَهْلِ يَرَوْنَ قُلُونَ في الحَلِيِّ
وَالْحُلَلِ ، حَتَّى إِذا أَخَذُوا بِجِالسِهِمْ ، وَمَدَّوا أَيْدِيَهُمْ إلى الطَّعامِ أَخَذُوا سِيفَهُمْ
مِنْ تَحْتِ أَفْئادِهِمْ ، فَشَدَّ الْأَسودُ عَلَى عَمَلِيٍّ قَتَلَهُ ، وَكُلَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى جِلْبِيسِهِ
حَتَّى أَمَاتُوهُمْ ؛ فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنَ الْأَشْرافِ شَدُّوا عَلَى السَّفَلَةِ ، فَلَمْ يَدْعُوا مِنْهُمْ أَحَدًا ،
وَقَالَ الْأَسودُ في ذَلِكَ :

ذُو بَيْتِكَ يا طَاسِمٌ مَجَلَّةٌ قَدْ أَتَيْتَ لِمَ عَمْرِي أَعْجَبَ الْمُعْجَبِ

(١) الإِدْهانُ : إظهارُ خِلافِ ما يُضَمَّرُ ، والنَّشْ . (٢) النِّصْفَةُ : العَدْلُ في الْأُمُورِ .

إنا أتينا فلم تنفك قتلهم والبنى هيج من سوزة النضب
ولن يعود علينا بينهم أبداً ولم يكونوا كذى أخب ولا ذنب
وإن رعيتم لنا قرى مؤكدة كنا الأكارب في الأرحام والنسب

٨٥ — آبي النذل *

قال عمرو بن^(١) هند صاحب الحيرة يوماً لجلسائه : هل تعلمون أن أحداً من العرب من أهل مملكتي يأتي أن تخدم أمه أمي ؟ قالوا : ما نعرفه إلا أن يكون عمرو^(٢) بن كلثوم التغلبي ، فإن أمه ليلي بنت مهلهل بن ربيعة وعمها كليب ، وزوجها كلثوم ، وابنها عمرو . فسكت عمرو على ما في نفسه ، وبث إلى عمرو بن كلثوم يستزيه ، ويأمره أن تزور أمه ليلي أمه هند بنت الحارث .

فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان بني تغلب ، ومعه أمه ليلي ، فنزل على شاطئ الفرات ، وبلغ عمرو بن هند قدومه ، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته ، وصنع لهم طعاماً ، ثم دعا الناس إليه ، فحرب إليهم الطعام على باب السراق ، وجلس هو وعمرو بن كلثوم وخواص أصحابه في السراق ، ويلي أم عمرو بن كلثوم معها في القبة ، وقال عمرو ولأمه : إذا فرغ الناس من الطعام ، ولم يبق إلا الطرف^(٣) فتحي خدمك عنك واستخدم لي لي ومريها

* ابن الأثير : ١ - ٢٣١ ، بلوغ الأرب : ٢ - ١٤٢

(١) عمرو بن هند : ملك الحيرة في الجاهلية ، عرف بنبجه إلى أمه هند . ويلقب بالمرن ، وهو صاحب صحيفة للنس ، وقاتل طرفة بن العبد ، وكان شديد البأس ، كثير الفتك ، هاجته العرب وأطاعته القبائل . وتوفي سنة ٧٨ م .

(٢) عمرو بن كلثوم : صاحب المعلقة المشهورة ، وينتهي نسبه إلى تغلب ، وكان فارساً شاعراً ، وهو أحد فناء العرب ، ومات قبل الإسلام بنحو نصف قرن . (٣) الطرف : جمع طرفة : ما قطعته غيرك ويراد به ما ينتقل به بيد الطعام .

فَلْتَنَاوَلْكَ الشَّيْءَ بَعْدَ الشَّيْءِ ؛ فَفَعَلَتْ هَنْدُ مَا أَمَرَهَا بِهِ ابْنُهَا ، فَلَمَّا اسْتَدْعَى الطَّرْفَ
قَالَتْ هَنْدُ لِلْبَلَى : نَاوَلْنِي الطَّبَقَ ! قَالَتْ : لَتَقُمَّ سَابِحَةُ الْحَاجَةِ إِلَى حَاجَتِهَا !
فَالْتَحَتَ عَلَيْهَا ، قَالَتْ لِبَلَى : وَادَّلاَّهُ يَا آلَ تَغْلِبَ ! فَسَمِعَهَا وَلَدَهَا عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ ؛
فَنَارَ الدَّمَ فِي وَجْهِهِ ؛ وَانْقَامَ بِشَرِيبُونَ ، فَعَرَفَ عَمْرُو بْنُ هَنْدَ الشَّرَّ فِي وَجْهِهِ ،
وَنَارَ ابْنَ كَلْثُومٍ إِلَى سَيْفِ ابْنِ هَنْدٍ وَهُوَ مَمْلُوقٌ بِالشَّرَادِقِ - وَلَيْسَ هُنَاكَ سَيْفٌ
غَيْرُهُ - فَأَخَذَهُ ، ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ رَأْسَ عَمْرُو بْنِ هَنْدٍ فَفَتَلَهُ ، وَخَرَجَ فَنَادَى : يَا آلَ تَغْلِبَ !
فَانْتَهَبُوا مَالَهُ وَخِيْلَهُ ، وَسَبَّوْا النِّسَاءَ ، وَسَارُوا فَلَمَعَمُوا بِالْحَيْرَةِ ^(١) .

(١) لِي هَذِهِ الْوَاثِقَةُ قَالَ عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ مَلَقَتْهُ الْمَمُورَةُ :

أَلَا هِيَ بِسَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تَبْقَى غُورُ الْأَنْدُونِ
وَقَالَ نَبَا :

بَأَى مَشِيقَةَ عَمْرُو بْنِ هَنْدٍ تَرَى أَنَا نَكُونُ الْأَوْدَلِينَ
بَأَى مَشِيقَةَ عَمْرُو بْنِ هَنْدٍ تَطْلُعُ بِنَا الْوَشَاءَ وَتَرْدُونَا
تَهْدِنَا وَتَوَعْدُنَا * رَوَيْدًا مَتَى كُنَّا لَأَمَكِ مَقْتُونَا

٨٦ - أُجِبْنُ النَّاسَ وَأَحِيلَ النَّاسَ وَأُشْجِعِ النَّاسَ

دخل عمرو^(١) بن معد يكرب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال له عمر : يا عمرو ؛ أخبرني عن أشجع من لقيت . قال : والله يا أمير المؤمنين لأخبرنك عن أجبن الناس وأحيل الناس ، وأشجع الناس : خرجت مرة أريدُ النارَ ، فبينما أنا أسيرُ إذ فرس مشدودٌ ، ورُمحٌ مَرَكُوزٌ ، وإذا رجلٌ جالسٌ ، وهو كأعظم ما يكون من الرجال خلقاً ، وهو مُحْتَبٍ بسيف .

قلت له : خذَ حِذْرَكَ فَإِنِّي قَاتِلُكَ . قال : ومن أنت ؟ قلت : أنا عمرو ابن معد يكرب ، فشيئاً شبهة ، فات . فهذا أجبنُ مَنْ رَأَيْتُ يا أمير المؤمنين .

وخرجتُ يوماً حتى انتهيتُ إلى حيٍّ ، فإذا أنا بفرسٍ مشدودٍ ، ورُمحٍ مَرَكُوزٍ ، وإذا صاحبه في وَهْدَةٍ يقضى حاجة .

قلت : خذَ حِذْرَكَ فَإِنِّي قَاتِلُكَ . قال : مَنْ أنت ؟ قلت : أنا عمرو بن معد يكرب . قال : أبا ثور^(٢) ، ما أنصفتني ! أنتَ على ظهرِ فرسك ، وأنا في بئرٍ ، فأعطني عهداً أنك لا تقتلني حتى أركبَ فرسى ، وأخذَ حِذْرِي ؛ فأعطيتُه عهداً ألا أقتله حتى يركب فرسه ، ويأخذ حِذْرَه .

* نهاية الأرب : ٢ - ١٧٦ ، الفرر : ٢٢٧

(١) عمرو بن معد يكرب : فارس مشهور صاحب ولاء مذكورة ، في الجاهلية والإسلام .
توفي سنة ٢١ هـ . (٢) أبو ثور : كنية عمرو .

فخرج من الموضع الذى كان فيه ، حتى احتجب بسيفه وجلس . قلت له :
ما هذا ؟ فقال : ما أنا براكب فرسى ، ولا بمقاتلك ، فإن نكثت عهدك فانت
أعلم ، فتركته ومضيت .

فهذا يا أمير المؤمنين أحيل من رأيت !

ثم إنى خرجت يوماً آخر ؛ حتى انتهيت إلى موضع كنت أقطع فيه ، فلم أر
أحدًا ، فأجريت فرسى يمينًا وشمالًا ، فظهر لى فارس .

فلما دنا منى إذا هو غلام قد أقبل نحو الإمامة . فلما قُرب منى سلم ؛ فرددت
عليه وقلت : من الذى ؟ قال : أنا الحارث بن سَعد ، فارس الشهباء^(١) ؛ قلت له :
خُذْ حِذْرَكَ ، فإنى قاتلك ، فقال : الويلُ لك ! مَنْ أَنْتَ ؟ قلت : أنا عمرو بن
معديكرب . قال : الحخير القليل ؟ وأقم ما يمتنى مِنْ قَتْلِكَ إلا استصنارك ، فتصاغرت
نفسى إلى وعظم عندى ما استقبلنى به .

قلت له : خُذْ حِذْرَكَ ، فوالله لا ينصرف إلا أحدنا . قال : اغرب^(٢) ،
تَكِلْنِكَ أُمُّكَ ! فإنى من أهل بيت ما نَكَلْنَا^(٣) عن فارس قط ! قلت : هو
الذى نسم . قال : اختر لنفسك : إما أن تُطْرِدَ^(٤) لى ، وإما أن أطرد لك ؛
فاغتنمها منه ، قلت : أطرد لى . فأطرد ، وحلت عليه ، حتى إذا قلت : إنى وضعتُ
الرمحَ بين كَتفَيْهِ ، إذا هو قد صار حزاماً لفرسه ، ثم اتبعتُ ، ففرع بالقتار رأسى ،
وقال : يا عمرو ؛ خُذْهَا إِلَيْكَ واحدة ، فوالله لولا أنى أكره قتلَ مثلك لتتلتك ؛

(١) الشهباء : علم على فرس . (٢) اغرب : تنح .

(٣) ما نكلنا : ما حننا . (٤) أطردت الرجل : جعلته طريدًا لا يأمن .

فصاغرتُ إلى نفسى ، وكان الموتُ - والله يا أمير المؤمنين - أحبَّ إلىَّ مما رأيتُ ،
قلتُ : والله لا ينصرفُ إلاَّ أحدُنا ، قال : اختر لنفسك ؛ قلتُ : أطرد لى .

فأطرد لى ؛ فظننتُ أنى قد تمكَّنتُ منه ، واتبعتُه حتى إذا قلتُ : إني قد
وضعتُ الرمحَ بين كفتيه ؛ فإذا هو قد صار لبيباً^(١) لقرسه ، ثم اتبعنى قَرع رأسى
بالقناة ، وقال : يا عمرو ؛ خذها إليك ثانية . فصاغرتُ إلى نفسى ؛ قلتُ : والله
لا ينصرفُ إلاَّ أحدُنا .

قال : اختر لنفسك . قلتُ : أطرد لى . فأطردَ حتى إذا قلتُ : إني وضعتُ
الرمحَ بين كفتيه وثب عن فرسه ، فإذا هو على الأرض ؛ فأخطأته ومضيتُ .
فاستوى على فرسه ، واتبعتنى قَرع بالقناة رأسى ، وقال : يا عمرو ؛ خذها إليك
ثالثة . ولولا أنى أكره قتلَ مثلك لتقتلتك .

قلتُ له : اقتلنى ، فإنَّ الموتَ أحبُّ إلىَّ مما أرى بنفسى ، وأن تسمع فتیان
العرب بهذا . قال : يا عمرو ؛ إنما العفو ثلاث ، وإنى إن استمكنت منك الرابعة
قتلتك وأنشأ يقول :

وَكَدْتُ أَغْلَظًا مِنَ الْإِيمَانِ إِنْ عُدْتَ يَا عَمْرُو إِلَى الطُّغْيَانِ
لَتُوجِرَنَّ^(٢) لَهَبَ السَّيِّئَانِ^(٣) أَوْلَا ، فَلَسْتُ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ

فلما قال هذا كرهتُ الموتَ ، وهيبته هيبَةٌ شديدة ، وقلتُ : إن لى إليك
حاجة . قال : وما هى ؟ قلتُ : أكون لك صاحباً ، ورضيتُ بذلك يا أمير المؤمنين !

(١) اللب: ما يشد فى صدر الدابة لينع استتخار الرجل . (٢) أوجره الرمح: طعنه به فى فيه .

(٣) السيئان : طرف الرمح .

قال : لست من أصحابي . فكان ذلك والله أشدَّ عليَّ وأعظمَ مما صنع .

فلم أزل أطلبُ إليه حتى قال : ويحك ! وهل تدري أين أريد ؟ قلت : لا . قال : أريدُ اللوت عياناً . فقلت : رضيتُ باللوت مملك . فقال : امضِ بنا ؛ فسيرنا جميعَ يومنا وليلتنا حتى جئنا الليل ، وذهب شطرُهُ .

فوردنا على حَيٍّ من أحياء العرب ، فقال لي : يا عمرو ، في هذا الحى اللوت . ثم أوماً إلى قُبَّة في الحى ، فقال : وفي تلك القُبَّة اللوتُ الأحمر ؛ فلما أن تمسك على فرسي ؛ فأترُ ، فأقْبِ بجأقي ، ولما أن أُمسِكَ عليك فرسك ؛ فنزل فأتاني بجأقي . فقلت : لا ، بل انزل أنت ؛ فأنت أعرفُ بموضع حاجتك ؛ فرمى إلى بينان الفرس ونزل ، فرضيتُ لنفسي يا أمير المؤمنين أن أكون له سائلاً .

ثم مضى حتى دخل القُبَّة ؛ فاستخرج منها جارية ، لم تر عيناى قط مثلها حسناً وجالاً ؛ فحملها على ناقه ، ثم قال : يا عمرو . قلت : لبيك ! قال : عليك بزمام الناقة .

وسرنا بين يديه ، وهو خَلَفَنَا حتى أصبحنا ، فقال لي : يا عمرو . قلت : لبيك ! ما تشاء ؟ قال : التفتُّ ، فانظر هل ترى أحداً ؟ فالتفتُّ ، وقلت : أرى جالاً ، قال : أغدِّ السير^(١) ، ثم قال لي : يا عمرو . قلت : لبيك ! قال : انظر ، فإن كان القوم قليلاً ، فالجلد والقوة واللوت . وإن كانوا كثيراً فليسوا بشيء . فالتفتُّ ، فقلت : هم أربعة أو خمسة . قال : أغدِّ السير ، وسمع وقع الخيل ، فقال لي : يا عمرو ،

(١) أغد السير : أسرع فيه .

قلت : لبيك ! قال : كنّ على يمين الطريق وقِفْ ، وحوّل وجوه دوابنا إلى الطريق ، فعملت ، ووقفت على يمين الرحلة ووقف هو عن يسارها .

ودنا القوم منا ؛ فإذا هم ثلاثة نفر فيهم شيخ ، وهو أبو الجارية وأخواها وهما غلامان شابان ؛ فسلموا فرددنا السلام ، ووقفوا عن يسار الطريق .

قال الشيخ : خلّ عن الجارية وابن أخي ؛ قال : ما كنت لأخطيها ، ولا لهذا أخذتها ! فقال لأصغر ابنيه : اخرج إليه ؛ فخرج وهو يجرّ رمحاً ، وحل عليه الحارث ، وهو يقول :

مِنْ دُونِ مَا تَرَجُّوه خَضْبُ الْقَابِلِ^(١) مِنْ فَارِسٍ مُسْتَلِمٍ^(٢) مَقَاتِلِ
يُنْفِئُ إِلَى شَيْبَانَ خَيْرٍ وَائِلٍ مَا كَانَ سَبْرِي نَحْوَهَا يَبَاطِلِ !
نَمِ شَدَّ عَلَيْهِ ؛ فطمنه طمنَةً ، دَقَّ مِنْهَا صُلْبَهُ ؛ فَفَقَطَ مَيْتًا .

قال الشيخ لابنه الآخر : اخرج إليه يابني ، فلا خيرَ في الحياة على النذل ، نَفْرَجْ إِلَيْهِ وَأَقْبِلِ الْحَارِثَ يَقُولُ :

لَقَدْ رَأَيْتُ كَيْفَ كَانَتْ طَمَنِي ! وَالطَّمَنُ لِلْقِرْنِ الشَّدِيدِ مِثْقَى
وَاللَّوْتُ خَيْرٌ مِنْ فِرَاقِ خُلَّتِي فَقَتَلْتَنِي الْيَوْمَ وَلَا مَـذَلَّتِي
ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ ، فطمنه طمنَةً ، سَقَطَ مِنْهَا مَيْتًا .

قال له الشيخ : خلّ عن الظلمية^(٣) يا ابن أخي ؛ فإنّي لستُ كُنْ رَأَيْتُ . قال : ما كنت لأخطيها ولا لهذا قصدت . فقال له الشيخ : احترّ يابن أخي ، فإن شئت

(١) القابل : الفنا الرقيق ، ويقصد بخضبه غشه في الدم . (٢) استلام الفارس : ليس اللامعة ؛ وهي البرق . (٣) الظلمية : المرأة ما دامت في المودج .

طاردتك ، وإن شئت نازلتك ؛ فاعتنمها الفتى ونزل . ونزل الشيخ ، وهو يقول :

ما أرتجى بعد فناء عُمري ؟ سأجعل السنين مثل الشهر
شيخ يحامى دون بيض الخلد^(١) إن استباح البيض قضم الظهر
سوف ترى كيف يكون صبرى

فأقبل الحارث ، وهو يقول :

بعد ارتجالي وطويل سغري وقد ظفرتُ وشفيتُ صدري
وللوت خير من لباس النذر والمار أهديه لحي بكر

ثم دنا ، فقال له الشيخ : يابن أخى ؛ إن شئت نازلتك ، وإن بقيت فيك
قوة ضربتى ؛ وإن شئت فاضربنى ؛ فإن بقيت فى قوة ضربتك .

فاغتنمها الفتى ، فقال : وأنا أبدؤك . قال : هات . فرفع الحارث السيف ،
فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه ، ضرب بطنه ضربةً قدّ معاه ، ووقعت
ضربة الحارث فى رأسه ؛ فسقطا ميتين .

فأخذتُ يا أمير المؤمنين أربعة أفراس ، وأربعة أسياف . ثم أقبلت إلى الناقة
فمقدتُ أعنّه الأفراس بعضها إلى بعض وجعلت أقودها . قالت الجارية : يا عمرو ؛
إلى أين ؟ ولست لى بصاحب ، ولست كمن رأيت ، ولو كنت صاحبي لسلكت
سبيلهم ! قلت : اسكتي ؛ قالت : فإن كنت صادقاً فأعطينى سيفاً ورمحاً ؛ فإن
غلبتني فأنا لك ، وإن غلبتك قتلتك .

(١) بيض الخدر : يريد به النماء .

قلت لهذا ما أنا بمعطيك ذلك، وقد عرفت أصلك، وجراءة قومك وشجاعتهم،

فرمت بنفسها عن البعير، وهي تقول :

أبعد ما شيخى وبعد أخوتى أطلب عيشا بدم في لذة ؟

هل لا تكون قبل دأمني ؟

وأهوت إلى الرمح، فسكادت تنزع من بدى . فلما رأيت ذلك خفت إن

هى غفرت بى أن تلتنى ، قتلها .

فهذا أشد ما رأيته يا أمير المؤمنين . فقال عمر بن الخطاب : صدقت يا عمرو !

٨٧ — خَلَّ سَبِيلَ الْحُرَّةِ الْمُنِيعة*

خرج دُرَيْدٌ^(١) بن الصَّمَّةِ في فوارس بني جُشَمٍ يريد الغارة على بني كِنانة ،
فلما كان بوادٍ لبني كِنانة رُفِعَ له رجلٌ من ناحية الوادي معه ظُفِينة^(٢) . فلما
نظر إليه قال لفارس من أصحابه : صَبَحَ به أن خلَّ عن الظُفِينة وأنجُ بنفسك -
وهو لا يعرفه - فانتهى إليه الرجل وألَّحَّ عليه ؛ فلما أبى ألقى زمام الراحلة ، وقال
للظُفِينة :

سيري على رِسْلِكَ سِيرَ الآمنِ سَبَرٌ رَدَّاحٍ^(٣) ذاتِ جَاشٍ ساكِنِ
إِنْ انْتَبَأَتْ دُونَ قَرْنِي^(٤) شَانِي^(٥) أَبْلَى بِلَائِي وَاخْشِي وَعَايِي

ثم حمل على الفارس فصرَّعه ، وأخذ فرسه فأعطاه الظُفِينة . فبِثَّ دُرَيْدٌ
فارساً آخر لينظر ما صنع صاحبه ؛ فرآه صريعاً ، فصاح به ، فتصامَّ عنه فظنَّ
أنه لم يسمع فَتَشَبَّهَ ، فألقى زمام الراحلة إلى الظُفِينة ، ثم حمل على الفارس فصرَّعه ،
وهو يقول :

خَلَّ سَبِيلَ الْحُرَّةِ لِلْمُنِيعة إِنَّكَ لَا تَدْرِي دُونََهَا رَبِيعة

* الأغانى: ٤ - ١٢٩ ، الأملأى: ٢ - ٢٧١ ، السمط: ٢ - ٩١٠ ، القد الفريد: ٣ - ٣٢٤
(١) دُرَيْدٌ بن الصَّمَّةِ : سيد بني جُشَمٍ وفارسهم وقائدهم : كان مفلحاً ميمون القلبية ، غزا نحو
مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها ، وأدرك الإسلام ولم يسلم . توفى سنة ٨ هـ . (٢) الظُفِينة .
للرَّاء مادامت في المودج . (٣) امرأة رَدَّاح : مجزاء ثقيلة الأوراك تامة الخلق . (٤) القرن :
الكف . (٥) شَانِي : يسبى .

فِي صَكِّهِ خَطْبَةٌ^(١) مُعَلِّمَةٌ أَوْ لَا فَخَذَهَا طَمَنَةً سَرِيحَةً
فَالطَّمَنُ مِثْلُ فِي الرَّحَى سَرِيحَةً
ثُمَّ حُلَّ عَلَيْهِ فَصَرَعَهُ .

فلما أبطل على دُرَيْدٍ بَيْتَ فَارِسًا آخَرَ ؛ لِيَنْظُرَ مَا صَنَعَا ، فَانْتَهَى إِلَيْهَا ، فَرَأَاهَا
صَرِيحِينَ ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ بِقُوَّةِ طَمَئِنَّتِهِ ، وَجِئَتْ رُحْمَتُهُ ، قَالَ لَهُ الْفَارِسُ : خَلَّ عَنْ
الظَّلْمِيَّةِ . فَقَالَ لَهَا رِيحِيَّةٌ : اقْصِدِي قَصْدَ الْبَيُوتِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ قَالَ :
مَاذَا تَرِيدُ مِنْ شَتِيمٍ^(٢) عَابِسٍ أَلَمْ تَرَ الْفَارِسَ بَعْدَ الْفَارِسِ
أَزْدَاهَا عَامِلٌ رُحْمٌ يَابِسٍ
ثُمَّ طَمَنَهُ فَصَرَعَهُ ، فَانْكَسَرَ رُحْمُهُ .

فَارْتَابَ دُرَيْدٌ ، وَظَنَّ أَنَّهُمْ قَدْ أَخَذُوا الظَّلْمِيَّةَ وَقَتَلُوا الرَّجُلَ ، فَلَحَقَ بِهِمْ
فَوَجَدَ رِيحِيَّةً^(٣) بَيْنَ مَكْدَمٍ لَا رُحْمَ مَعَهُ وَقَدْ دَنَا مِنَ الْحَيِّ ، وَوَجَدَ أَصْحَابَهُ قَدْ
قُتِلُوا ، قَالَ لَهُ دُرَيْدٌ : أَيُّهَا الْفَارِسُ ؛ إِنْ مَثَلَ لَا يُقْتَلُ ، وَإِنْ ائْتَلَيْلَ فَائِزَةٌ
بِأَصْحَابِهَا ، وَلَا أَرَى مَمْلُوكَ رُحْمًا ، وَأَرَاكَ حَدِيثَ السِّنِّ قَدْ نَوَّكَ هَذَا الرُّحْمَ ، فَإِنِّي
رَاجِعٌ إِلَى أَصْحَابِي ، فَتُبْطَلْهُمْ عَنْكَ .

فَأَتَى دُرَيْدٌ أَصْحَابَهُ ، قَالَ : إِنْ فَارِسَ الظَّلْمِيَّةِ قَدْ حَمَاهَا وَقَتَلَ فَوَارِسَكُمْ أَوْ انْتَزَعَ
رُحْمِي وَلَا طَمَحَ لَكُمْ فِيهِ ؛ فَانْصَرَفَ الْقَوْمُ ، وَقَالَ دُرَيْدٌ :
مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ حَامِيَ الظَّلْمِيَّةِ فَارِسًا لَمْ يُقْتَلِ

(١) يريد رِجَمًا ، والرماح تنسب إلى الخط ، تنفر بالبحرين . (٢) الشَّيْمُ : الأسد العايس .

(٣) رِيحِيَّةٌ بَيْنَ مَكْدَمٍ : هُوَ أَحَدُ فَرَسَانِ مَضَرَ الْعَدُوِّ ، وَشَجَنَانَهُمَا الشَّهْوَورِينَ . تَوَفَّى سَنَةَ ٥٥٨ هـ .

أَرَدَى فَوَارِسَ لَمْ يَكُونُوا نَهْزَةً^(١) ثم استمرَّ كأنه لم يَقْعَلْ
 مَهْلًا تَبْدُو أَسِيرَةً وَجِبْهَهُ مثل الحسامِ جَلَّتْهُ أَيْدِي الصَّيْقَلِ^(٢)
 يُزْجِي ظُلُمِيَّتَهُ وَيَسْحَبُ رُحْمَهُ متوجِّهاً يَمْنَاهُ نَحْوَ الْمَنْزِلِ
 وَتَرَى الْفَوَارِسَ مِنْ مَخَافَةِ رُحْمِهِ مثلَ الْبُفَاثِ^(٣) خَشِينَ وَقَعَ الْأَجْدَلُ^(٤)
 يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ أَبْرَهُ وَأَمُّهُ؟ يَأْصَحُّ مِنْ يَكُ مِثْلَهُ لَا يُجْهَلُ
 قَال رَيْبَةُ :

إِنْ كَانَتْ يَنْفَعُكَ الْيَقِينُ فَسَأَلِي عَنِّي الظَّمِينَةَ يَوْمَ وَادِي الْأَخْرَمِ
 إِذْ هِيَ الْأَوَّلُ مَنْ أَتَلَهَا نَهْزَةً لَوْلَا طِمَآنُ رَيْبَةَ بْنِ مُكْدَمٍ
 إِذْ قَالَ لِي أَدْنَى الْفَوَارِسِ مَيْتَةً : خَلَّ الظَّمِينَةَ طَائِعًا لَا تَنْدَمُ
 فَصَرَفْتُ رَاحِلَةَ الظَّمِينَةِ بِحِمْوِهِ عَمْدًا لَيْلِمَ بَعْضَ مَا لَمْ يَلِمُ
 وَهَمَكْتُ بِالْمَرْحِ الطَّوِيلِ لِإِهَابِهِ^(٥) فَهَوَى صَرِيحًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ
 وَمَنْعْتُ آخَرَ بِمِدَّةِ جِيَاثَةٍ نَجْلَاءَ قَاغَرَةٍ كَشِدْقِ الْأَضْجَمِ^(٦)
 وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخِرِ ثَانِيٍّ وَأَبَى الْفِرَارَ لِي الْفَدَاءَ تَكَرُّبِي

ثم لم يلبث بعد ذلك بنو مالك بن كنفانة رهط ربيعة بن مُكْدَمٍ أَنْ أَغَارُوا
 عَلَى بَنِي جَسْمٍ رَهْطٍ دَرِيدٍ ، فَتَشَكَّوْا وَأَسْرَوْا وَغَنَمُوا ، وَأَسْرَوْا دُرَيْدَ بْنَ الصَّمَةِ ،
 فَأَخْفَى نَسَبَهُ ، فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَهُمْ إِذَا جَاءَ نِسْوَةٌ يَتَهَادَيْنَ إِلَيْهِ ، فَصَرَخَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ
 فَقَالَتْ : هَلِكُمْ وَأَهْلِكُمْ ، مَاذَا جَرَّ عَلَيْنَا قَوْمُنَا ؟ هَذَا وَاقِلُهُ الَّذِي أَعْطَى رَيْبَةَ

(١) النهزة : التي التي هو لك مرض كالنهيبة ، يقال : فلان نهزة الخنفس ، أي سيد لكل
 أحد . (٢) الصيقل : جلاء السيوف وشعاظها . (٣) البفاث : طائر أغبر . (٤) الأجدل :
 الصقر . (٥) إهابه : جلده . (٦) الضجم : عوج في القم ، وميل الصدق . ويشبه الجرح
 الواسع بالقم الأضجم .

رُحِّمَهُ يَوْمَ الظُّمِينَةِ ، ثُمَّ أَقْبَتُ عَلَيْهِ ثَوْبَهَا وَقَالَتْ : يَا آلَ فِرَاسٍ ، أَنَا جَارَةٌ لَكَ مِنْكُمْ ، هَذَا صَاحِبُنَا يَوْمَ الْوَادِي ، فَسْأَلُوهُ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : أَنَا دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ ، فَمَا لِمِ رَيْبَةٍ بَيْنَ مُكَدَّمَ ؟ قَالُوا : قَتَلْتَهُ بَنُو سُكَيْمٍ ، قَالَ : فَمَنْ الظُّمِينَةُ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُ ؟ قَالَتِ الْمَرْأَةُ : رَيْبَةُ بِنْتُ جَذَلٍ وَأَنَا هِيَ ، خَبَسَهُ الْقَوْمُ ، وَأَمَرُوا أَنْفُسَهُمْ ^(١) وَقَالُوا : لَا يَنْبِي أَنْ تُكْفَرَ نِعْمَةُ دُرَيْدٍ عِنْدَنَا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : وَاللَّهِ لَا يَخْرُجُ مِنْ أَيْدِينَا إِلَّا بِرِضَا الْمُخَارِقِ الَّذِي أَسْرَهُ . فَانْبَعَثَتِ الْمَرْأَةُ فِي اللَّيْلِ فَقَالَتْ :

سَنَجْزِي دُرَيْدًا عَنْ رَيْبَةٍ نِعْمَةً وَكُلُّ فِتْنَى يُجْزَى بِمَا كَانَ قَدَمًا
فَإِنْ كَانَ خَيْرًا كَانَ خَيْرًا جَزَاؤُهُ وَإِنْ كَانَ شَرًّا كَانَ شَرًّا مَذْمُومًا
سَنَجْزِيهِ نِعْمَى لَمْ تَكُنْ بِصَغِيرَةٍ بِإِعْطَانِهِ الرُّمَحَ السَّيِّدَ الْقَوِّمًا
فَقَدْ أَدْرَكْتَ كِفَاءَهُ فِينَا جَزَاءَهُ وَأَهْلًا بَانَ يُجْزَى الَّذِي كَانَ أَنْعَمًا
فَلَا تَكْفُرُوهُ حَقًّا نِعْمَاهُ فَيْكُمْ وَلَا تَرْكَبُوا تِلْكَ الَّتِي تَمَلَأُ النَّعْمَا
فَإِنْ كَانَ حَيًّا لَمْ يَضِقْ بِشَوَابِهِ ذِرَاعًا غَنِيًّا كَانَ أَوْ كَانَ مُدْمِيًا
فَفُكُّوا دُرَيْدًا مِنْ إِسَارِ مُخَارِقٍ وَلَا تَجْعَلُوا الْبُؤْسَى إِلَى الشَّرِّ سُلَمًا
فَأَصْبَحَ الْقَوْمُ ، فَعَمَلُوا بَيْنَهُمْ فَأَطْلَقُوهُ ، وَكَسَتْهُ رَيْبَةُ وَجْهَتُهُ ، وَلَحِقَ بِقَوْمِهِ ، وَلَمْ يَزَلْ كَافًّا عَنْ غَزْوِ بَنِي فِرَاسٍ حَتَّى هَلَكَ .

(١) آمَرُوا أَنْفُسَهُمْ : تَنَازَعُوا .

٨٨ — عند الموت *

مُجِلْ هُدْبَةُ بْنُ خَشْرَمٍ ^(١) الشُّذْرِيَّ إِلَى معاوية، وكان قد قَتَلَ ^(٢) زِيَادَةَ بْنَ
زَيْدِ الْعُدْرِيِّ؛ وقدم عبد الرحمن أخو زيادة؛ فادَّعَى عليه؛ فقال له معاوية: ما تقول؟
قال: أتعجب أن يكون الجوابُ شعراً أم نثراً؟ قال: بل شعراً؛ فإنه أمتع ! فقال
هُدْبَةُ :

فَلَمَّا رَأَيْتُ أُنْمَاهِي ضَرْبَةً مِنْ السَّيْفِ أَوْ غَضَاهُ عَيْنِي عَلَى وَتَرٍ ^(٣)
عَمِدْتُ لِأَمْرِ لَا بِمِيرٍ وَالَّذِي خَزَّابَتُهُ ^(٤) وَلَا يُسَبُّ بِهِ قَبِيرِي
رُمِينَا فَرَامِينَا فَصَادَفَ سَهْمُنَا مَنِيَّةَ نَفْسِي فِي كِتَابٍ وَفِي قَدِيرِ
وَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَهَلْ لَنَا وَرَاءَكَ مَنْ مَعَدِّي وَلَا عِنْدَكَ مَنْ قَصِيرِ
فَإِنْ نَكَ فِي أَمْوَالِنَا لَا نَضِقُ بِهَا ذِرَاعًا وَإِنْ صَبِرَ ^(٥) فَنَصِيرُ لِلصَّبِيرِ

فقال له معاوية: أراك قد أقررت يا هُدْبَةُ؟ قال: هو ذلك، فقال له عبد الرحمن:
أُفِدْتِي ^(٦)؛ فكَرِهَ ذَلِكَ معاوية، وَضَنَّ بِهَدْبَةَ عَنِ الْقَتْلِ.

* رغبة الأمل : ٢ - ٢٢٩ ، الكامل : ٢ - ٣٠٣

(١) هُدْبَةُ : شاعر إسلامي فصيح متقدم من بادية الحجاز ، وكان راوية للحطية ، وكان جميل
راوية هُدْبَةُ - وأما زيادة فينتهي إليه إلى الحارث بن سعد ، وكلاما شاعر إسلامي كان في عهد
بني أمية ، توفي سنة ٥٤ هـ . (٢) كان من أمر قتل هُدْبَةَ لزيادة أنها أقبلت من الشام في ركب من
قومها وكانوا يتماثلون سوق الإبل ، فرجز كلاما بأخت الآخر بما يقع ذكره ، فنضب هُدْبَةُ حتى
أصاب منه غرة فقطع . (٣) الوتر : الثأر . (٤) الخزابة : الاستحياء ، ويقال : رجل خزيان ،
وهو الذي عمل أمراً قبيحاً فاشتد لذلك حياؤه وخزياؤه . (٥) الصبر هنا : الحبس حتى يموت .
(٦) أهد القاتل بالقتل : قتله به .

وكان ابن زيادة صغيراً فوجه به إلى المدينة ؛ وقال : يحبس إلى أن يبلغ .

فلما بلغ كان والى المدينة سميد بن العاص .

فما وقف عليه من قسوته قوله :

ولما دخلت السجن يا أم مالك ذكرتك والأطراف في حلقى سُمير^(١)
وعند سميد غير أن لم أُنَج به ذكرتك ، إن الأمر يُذكر بالأمر

فُسئل عن هذا القول ، فقال : لما رأيت ثمر^(٢) سميد ، ذكرت به نفرها .

ثم إنه عُرِض^(٣) على ابن زيادة عشر ديات ؛ فأبى إلا القود ، فلما خرج
يُهدى به ليقاد بالحرّة^(٤) ، جعل يُنشد الأشعار ، فقالت له حبي^(٥) للمدينة : ما رأيتُ
أُقسى قلباً منك ! أُنشد الأشعار وأنت يمضى بك إلى القتل ، وهذه خلفك كأنها
ظبي عطشانٌ تُؤنزل - نفى امرأته ؛ فوقف ووقف الناسُ معه ، فأقبل على
حبي فقال :

ما وجدتُ وجدي بها أمٌ واحدٍ ولا وجدتُ حبي بابن أمّ كلاب^(٦)
رأته طویل الساعدین شمردلاً^(٧) كما انتعت^(٨) من قوة وشباب
فأغلقت حبي الباب في وجهه وسبته .

(١) الأطراف : يريد يديه ورجليه ، والخلق السر : الثبود والأغلال . (٢) كان سميد من أحسن الناس نفراً . (٣) كان ممن عُرِضت الديات عليه الحسين بن علي ، وعبد الله بن جعفر ، وسميد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، وسائر القوم من قريش والأنصار . (٤) موضع بالمدينة . (٥) حبي : اسم امرأة كانت معروفة بالمدينة ، والمدينة ياتيات الياء ، قل يا قوت : أنه يقال : مدني ، لن تحول عن المدينة وكان منها ، ومدني لن أقام فيها . (٦) ابن أم كلاب : زوج حبي ، وكان شاباً تزوجه وكانت عجوزاً . (٧) الفتي القوى . (٨) المئتمت من الدواب والناس : للموصوف بما يفضل على غيره (اللان - مادة لعت) .

وعرض له عبد الرحمن بن حسان ؟ قال : أنشدني ، قال له : أطلّ هذه الحال ! قال : نعم ، فأنشده :

ولستُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَى وَلَا جَازِعٍ مِنْ صَرَفِهِ ^(١) اللَّتَقَلَّبِ
وَلَا أَتَبَّيُّ الشَّرَّ وَالشَّرُّ تَارِكِي وَلَكِنْ مَتَى أَتَحَلَّ عَلَى الشَّرِّ أَرْكَبِ
وَحَرَّ بَنِي ^(٢) مَوْلَايَ حَتَّى غَشِيَتْهُ مَتَى مَا يُحَرِّبُكَ ابْنُ عَمِّكَ تَحَرَّبِ

فلما قُدِّمَ نَظَرُ إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَدَخَلَتْهُ غَيْرَةٌ ، وَقَدْ كَانَ جُدِيعَ فِي حَرْبِهِمْ ،
قال :

فَإِنْ يَكُ أَنْفِي بَانَ ^(٣) مِنْهُ جِأَلُهُ فَمَا حَسَبِي فِي الصَّالِحِينَ بِأَجْدَعَا
فَلَا تَنْكُحِي إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا أَعْمَ ^(٤) . الْقَوَا وَالْوَجْهَ لَيْسَ بِأَرْعَا ^(٥)

قالت : فَمُتُّوا عَنْهُ سَاعَةً ، ثُمَّ مَضَتْ وَرَجَعَتْ . وَقَدْ اصْطَلَتْ ^(٦) أَنْفُهَا
قالت : أَهَذَا فُلٌّ مَنْ لَهُ فِي الرِّجَالِ حَاجَةٌ ؟ قال : الْآنَ طَابَ لِلْمَوْتِ !

ثم أقبل على أبويه فقال :

أَبْنِيَّانِ الْيَوْمَ صَبْرًا مِنْكَمَا إِنْ حُزْنَا مِنْكَمَا الْيَوْمَ لَنَشْرَ
مَا أَظُنُّ لِلْمَوْتِ إِلَّا هَيْنًا إِنْ بَعْدَ لِلْمَوْتِ دَارَ لِلْمُسْتَقَرِّ

ثم قال :

(١) صرف الدهر : حدثانه ونوائبه . (٢) حريق : حملني على الغضب . (٣) بان : هنا انفصل وذهب عنه . (٤) التمس : سئلان الشعر حتى تضيق به الجبهة والفتا . (٥) الزرع : انحصار الشعر من جانبي الجبهة . (٦) طلع الأذن والأف من أصله . واسططه : استأصله .

أَذَا الرَّشِ إِلَى عَائِدُكَ مُؤْمِنٌ مُعْرِزٌ لِي إِلَيْكَ قَعِيرُ
وإلى وإن قالوا : أميرٌ مُسَلِّطٌ وَحُجَابُ أَبْوَابٍ لَهُنَّ صَرِيرُ
لَا عِلْمُ أَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُكَ إِنْ تَدْرِنَ^(١) قَرَبٌ وَإِنْ كُنْفِرُ فَاثَتْ غَفُورُ
ثم قال لابن زيادة : أثبت قديمك ، وأجد الصَّريَّة ، فإن أَيْتَمَّتْكَ صَغِيرًا ،
وَأَرْمَلْتَ أُمَّكَ شَابَةً !

٨٩ - تَمْدُو الذَّنَابُ عَلَى مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ*

حجَّ أبو الأسود^(١) الأوَّلُ ومعه امرأته - وكانت جميلة - فبينما هي تَلُوفُ بالبيت إذ عرَّضَ لها عمرُ بنُ أبي ربيعة ، فأنت أبا الأسود فأخبرته ، فأناهُ الأسود فأتته ، قال له عمر : ما ضلَّ شَيْئاً ، فلما عادتُ إلى المسجد عاد فكلَّمها فأخبرتُ أبا الأسود ، فأناهُ في المسجد وهو مع قومٍ جالسٌ قال له :

وإني كَيْتَنِيَّي عن الجهل وانلخنا وعن شَمِّ أقوامٍ خلانقُ أربعُ
حياءٍ وإسلامٍ وُقبياً^(٢) وأنتي كَرِيمٌ ، ومثلي قد بَصُرُ وينفعُ
فَشَتَّانِ ما بيني وبينك إني على كل حال أستقيم ونظلمُ^(٣).

قال له عمر : لستُ أعوذُ بِإِمْ لِكَلَامِهَا بعد هذا اليوم ، ثم عاد فكلَّمها ؛ فأنت أبا الأسود فأخبرته ، فجاء إليه قال له :

أنتَ الفتي وابنُ الفتي وأخو الفتي وسيِّدنا لولا خلانقُ أربعُ
نكولُ عن الجلي ، وقربُ من انلخنا وبُحْلُ عن الجدوى ؛ وأنتك تُبْعُ^(٤)
ثم خرجتُ ومها أبو الأسود بُشْتَمِلًا على سيف ، فلما رآها عمرُ
أعرضَ عنها ، فتمثلَّ أبو الأسود :

تَمْدُو الذَّنَابُ عَلَى مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ وتَنَسَّقِي صَوْلَةَ السَّاسِدِ الحامِي

* الأغانى : ١ - ١٤٨

(١) هو ظالم بن عمرو أبو الأسود الأوَّلُ الكنانى صاحب على وواضع النعوى ، وصاحب التواجر
للعمرة في الآداب العمرة . توفي سنة ٦٩ هـ . (٢) يقال : أجبته عليه بقيا : أشقت عليه ورحته .
(٣) ظلم : عرج وغمز في مشيحه . (٤) يقال : هوتج نساء ، إذا جدي فطلبهن .

٩٠ - الأحوص وابن حزم الأنصاري*

شَبَّبَ الأحوص^(١) بامرأة يقال لها : أم جعفر ، قال فيها :
أُدُورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرِ بأبياتكم ما درتُ حيثُ أدور
وما كنتُ زوّاراً ولكن ذا الهوى إذا لم يُزَرَ لا بدَّ أن سيزورُ
وكان لأم جعفر أخ يقال له أيمنُ ، فاستمدى عليه ابن حزم الأنصاري وهو
والى المدينة للوليد بن عبد الملك ، فبعث ابن حزم إلى الأحوص فأتاه - وكان ابنُ
حزم يُبغضه - فقال : ما تقول فيما يقولُ هذا؟ قال : وما يقول؟ قال : يزعم أنك تُشَبِّبُ
بأخته ، وقد فضحتَه وشهرت به ! فأنكر الأحوص ذلك .
فقال لها : قد اشتبه على أمر كما ؛ ولكنني أدفع إلى كل واحدٍ منك ما سوطا ،
ثم اجتهدا - وكان الأحوص قصيراً نحيفاً ، وكان أيمن طويلاً ضخماً - فاجتهدا ،
فغلب أيمنُ الأحوص فضر به حتى صرعه وألحقه .
فلما رأى الأحوص تحامل ابن حزم عليه امتدح الوليد بن عبد الملك ، ثم شخص
إليه في الشام ، ودخل عليه وأنشده :

أهوى أمة إن شطت وإن قربت يوماً وأهدى لها نصعى وأشعاري

* المقد الفريد : ٣ - ٢٩١ ، الأغانى : ٤ - ٢٣٨

(١) كان الأحوص شاعراً سمح الطبع ، سهل الكلام ، صحيح معاني الشعر ، ولشعره رونق
وديباجة صافية ، مع حلاوة وعذوبة ألفاظ ، إلا أنه كان قليل الروعة والدين ، هجاء للناس .
توفي سنة ١٠٥ هـ .

ولو وردتُ عليها الفَيْضُ^(١) ما حُفِلَتْ ولا شَفَتْ عَطَشِي من مائه الجاري
لا تَرَيْنَ الحَزْمِيَّ رَأَيْتَ به ضُرًّا ولو أَلْقَى الحَزْمِيُّ في النارِ
الناخِسِينَ^(٢) بمِروانٍ بَذَى خُشْبٍ^(٣) وللقَحْمِينَ على عَمَّانٍ في الدارِ

فقال له الوليد : صدقت ، والله لقد كُنَّا نغفلنا عن حَزْمٍ وآل حَزْمٍ . ثم دعا
كانبه فقال : اكعب عهد عثمان بن حَيَّان الأُمِّيَّ على المدينة واعزل ابنَ حَزْمٍ ،
واكُتِبَ بَقْبُضِ أمواله وأموال آل حَزْمٍ ، وإسقاطهم أجمعين من الديوان ، ولا
يأخذوا لأُمُومِيٍّ عطائه أبداً . ففعل ذلك ، فلم يزالوا في الحرمان للعطاء مع ذهاب
الأموال والضياع حتى انتفضت دولة بني أمية ، وجاءت دولة بني العباس .

فلما قام أبو جعفر المنصور بأمر الدولة ، قدم عليه أهلُ المدينة ، فجلس لهم ،
وأمر حاجبه أن يقتدِمَ إلى كلِّ رجلٍ منهم أن ينتسب له إذا قام بين يديه ،
فلم يزالوا على ذلك يفعلون حتى دخل عليه رجلٌ قصير قبيح الوجه ؛ فلما مثل بين يديه
قال له : يا أمير المؤمنين ؛ أنا ابن حَزْمٍ الأنصاري الذي يقول فينا الأُخُوصُ :
لا تَرَيْنَ الحَزْمِيَّ رَأَيْتَ به ضُرًّا ولو أَلْقَى الحَزْمِيُّ في النارِ
الناخِسِينَ بمِروانٍ بَذَى خُشْبٍ وللقَحْمِينَ على عَمَّانٍ في الدارِ
ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ حرّمنا العطاء منذ سنين ، وقبضت أموالنا وضيعنا .
فقال للمنصور : أعد على البيتَيْن ، فأعادهما عليه ، فقال : أما والله لئن كان ذلك

(١) الفيض : نهر بالبصرة . (٢) الناخسين بمِروان : يريد الطاردين لمِروان وللمزجمين له ،
يقال : نَحَسُوا بفلان ، إذا نَحَسُوا دابته من خلفه ، وطردوه حتى سيروه في الآفاق . (٣) ذو خشب :
واد على مسيرة ليلة من المدينة ، وكان مروان بن الحَكَمِ في المدينة في خلافة يزيد ، ولما كانت وقعة
الحرّة أخرجه الثامرون هو وعثمان بن محمد بن أبي سفيان وخبية بني أمية عن كان يقيم بالمدينة ،
وكان في الثامرين محمد بن عمرو بن حَزْمٍ .

ضرركم في ذلك الحين لينفَعَنَّكم اليوم . ثم كتب إلى عامل المدينة أن يردَّ جميعَ ما اقتطعه بنو أُمَيَّة من ضياع بنى حَزَم وأموالهم ، ويحسب لهم ماقاتهم من عطايتهم ، وما استغلَّ من غلاتهم من يومئذ إلى اليوم ، فيخلف لهم جميع ذلك من ضياع بنى مروان ، ويفرض لكل واحدٍ منهم في شَرَفِ العطاء^(١) . ثم قال : على الساعة بمشرة آلاف درهم تُدْفَع إلى هذا الرجل لنفقتة ؛ ففرج من عنده بما لم يخرج به أحدٌ مِن دُخُلوا عليه .

(١) كان شرف العطاء يومئذ مائتي دينار في السنة .

البَابُ الرَّابِعُ

في القصص التي أراد بها الكتاب تصويرَ حالة ،
أو شخص ، أو مجلس ، واخترعوا لها من الكلام
ما يبلغ إرادتهم ، ويدخل في ذلك الباب ما وضعوه
على ألسنة الطير والبهائم ، وأنواع الحيوان من محاورات
وأحاديث تحمل في أثنائها المبرة والعظة والنصح .

٩١ - أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلَّ الثَّورُ الْأَبْيَضَ*

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه : إِنَّمَا مَثَلُ وَمَثَلُ عُمَانَ
كَمَثَلِ أَنْوَارِ ثَلَاثَةِ كَنٍّ فِي أَجْجَةٍ : أَبْيَضٌ ، وَأَسْوَدٌ ، وَأَحْمَرٌ ؛ وَمَعْنَى فِيهَا أَسَدٌ ،
فَكَانَ لَا يَقْدِرُ مِنْهُمْ عَلَى شَيْءٍ لِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَيْهِ .

قال للثور الأسود والثور الأحمر : لَا يَدُلُّ عَلَيْنَا فِي أَجْجَتِنَا إِلَّا الثَّورُ الْأَبْيَضُ ،
فَإِنْ لَوْنُهُ مَشْهُورٌ ، وَلَوْ لَوْ عَلَى لَوْنِكَ ، فَلَوْ تَرَكْتُمَا أَكَلَهُ صَفَّتْ لَنَا الْأَجْجَةُ ،
فَقَالَ لَهُ : دُونَكَ فَكُلْهُ ، فَأَكَلَهُ .

فَلَمَّا مَضَتْ أَيَّامٌ ، قَالَ لِلْأَحْمَرِ : لَوْ لَوْ عَلَى لَوْنِكَ فَدَعْنِي أَكَلِ الْأَسْوَدَ لَتَصَفَّوْا لَنَا
الْأَجْجَةُ ! فَقَالَ لَهُ : دُونَكَ فَكُلْهُ ، فَأَكَلَهُ .

ثم قال للأحمر : إِنِّي أَكَلْتُكَ لَا عَمَلَةَ ، فَقَالَ : دَعْنِي أَنْادِيَ ثَلَاثًا ، فَقَالَ : أَفْضَلُ ؛
فَنَادَى : أَلَا إِنِّي أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلَّ الثَّورُ الْأَبْيَضُ ؛ ثُمَّ قَالَ عَلَى رُضَى اللَّهِ عَنْهُ :
أَلَا إِنِّي أَهَنْتُ يَوْمَ قُتِلَ عُمَانُ ! يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ !

٩٢ — حديث السقيفة*

قال أبو حيان^(١) على بن محمد التوحيدى البندادى : سَمَرْنَا لَيْسَةَ عِنْدَ الْقَاضِي أَبِي حَامِدٍ أَحَدَ^(٢) بَنِي بَشْرِ الرَّوْرُوذِيِّ بِنِدَادٍ ، فَتَصَرَّفَ فِي الْحَدِيثِ كُلِّ مُتَصَرِّفٍ ، وَكَانَ غَزِيرَ الرَّوَايَةِ ، لَطِيفَ الدَّرَايَةِ ، فَجَرَى حَدِيثَ السَّقِيفَةِ ؛ فَرَكِبَ كُلُّ مَرْكَبٍ ، وَقَالَ قَوْلًا ، وَعَرَضَ بَشْيَءً ، وَنَزَعَ إِلَى فَنٍّ .

قال : هل فيكم من يَحْفَظُ رِسَالَةَ الْأَبِيِّ بَكْرِ الصِّدِّيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَجَوَابَ عَلِيٍّ عَنْهَا ، وَمُبَايَعَتِهِ إِيَّاهُ عَقِبَ تِلْكَ لِلنَّازِلَةِ ؟ فَقَالَ الْجَمَاعَةُ : لَا وَاللَّهِ ، قَالَ : هِيَ وَاللَّهُ مِنْ بَنَاتِ الْحَقَائِقِ ، وَتُحِبَّاتِ الصِّدَاقِ ، وَمِنْذُ حَفِظْتُهَا مَارَوَيْتُهَا إِلَّا لِأَبِي مُحَمَّدٍ الْمُطَهَّرِيِّ فِي وَزَارَتِهِ ، فَكَتَبْتُهَا عَنْ يَدِهِ وَقَالَ : لَا أَعْرِفُ رِسَالَةً أَعْقَلَ مِنْهَا وَلَا أَبْيَنَ ، وَإِنِّي لَتَدُلُّ عَلَى عِلْمٍ وَحِلْمٍ ، وَفَصَاحَةٍ وَنَبَاهَةٍ ، وَبَعْدُ غَوْرٍ ، وَشِدَّةِ غَوْصٍ .

فَقَالَ لَهُ الْمُبَادَايُ : أَيُّهَا الْقَاضِي ؛ فَلَوْ أَتَمَمْتَ الْمِنَّةَ عَلَيْنَا بِرَوَايَتِهَا ؛ أَسَمِعْنَاها ؛ فَخَنَّا أَوْعَى لَكَ مِنَ الْمُطَهَّرِيِّ ، وَأَوْجِبُ ذِمَامًا عَلَيْكَ ، فَاذْفَعْ ، وَقَالَ :

حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ دَاوُدَ ، قَالَ : سَمِعْتُ مُوَلَّائَ أَبَا عُبَيْدَةَ يَقُولُ : لَا اسْتَقَامَتِ الْخِلَافَةُ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، بَعْدَ فِتْنَةِ كَاذِبِ الشَّيْطَانِ

* ابن أبي الحديد : ٢ - ٥٩٣ ، صبح الأعشى : ٢ - ٢٧٣ ، نهاية الأرب : ٧ - ٢١٣

(١) فيلسوف متصوف ، ولد في نيسابور ، وأقام مدة ببنداد ، وانتقل إلى الري فصحب ابن العميد والصاحب بن عباد ، توفي نحو سنة ٤٠٠ هـ .

(٢) فاض من أكابر الفقهاء أصحاب الشافعي ، أدام زماناً بالبصرة ، ثم رحل إلى بنداد . توفي .

بها ، فدفع الله شرها ، وبسر خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ تلکؤ وشماس^(١) ،
وتهم^(٢) ونفاس^(٣) ، فکره أن يتبادى الحال فبدؤ المودة ، وتشتعل الجرة ،
وتضوق ذات البين ؛ فدعاني بحضرته في خلوة - وكان عنده عمر بن الخطاب ،
رضي الله عنه وحده - قال : يا أبا عبيدة ؛ ما أئمن ناصيتك ، وأبئن الخيرة
بين عينيک ! طلما أعز الله بك الإسلام ، وأصلح شأنه على يدک ، ولقد كنت
من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط ، والمحلّ المغبوط ؛ ولقد
قال فيک في يوم مشهود : « لکل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة » ،
ولم تزل للدين ملقبا ، وللمؤمنين مرتجى ، ولأهلک رکتا ، ولإخوانک
ردءا .

قد أردتک لأمرٍ خطرُه مخوف ، وإصلاحه من أعظم المروف ، ولئن لم
يندمل جرحه يسارك ورفیقک ، ولم تجب^(٤) حيلة برقيتک ، وقمع اليأس ،
وأغضل البأس ، واحتجج ببدلک إلى ما هو أمرٌ منه وأعلق ، وأعسر منه وأغلق ،
والله أسألُ تمامه بك ونظامه على يدک ، فتأت^(٥) له أبا عبيدة وتلطّف فيه ،
وانصع لله عزّ وجلّ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا المصابة غير آلي جهداً ،
ولا قالِ حدأ ، والله كائنتک وناصرک ، وهادیک ومبصرک إن شاء الله .

امضِ إلى عليّ ، واخضِ له جناحک ، واغضضْ عنده صوتک ، واعلم أنه
سلالةُ أبي طالب ، ومكانه من فقدناه بالأمس - صلى الله عليه وسلم - مكانه

(١) النفاس : المائدة والمادة . (٢) التهم : من تهم الشيء : طلبه ونحسه . (٣) نفاس في
العي : رغب فيه على وجه البرارة والفاخرة . (٤) تجب : تقطع . (٥) أتت له تهيأ له وأته
من وجهه .

وقل له : البحر مَفْرَقَةٌ ، والبرُّ مَفْرَقَةٌ ، والجوُّ أَكَلَفٌ ^(١) ، والليلُ أَغْدَفٌ ^(٢) ، والسماءُ جَلَوَاءٌ ^(٣) ، والأرضُ صُلَمَاءٌ ^(٤) ، والصمودُ مَتَمَذَّرٌ ، والمحبوطُ مُتَعَمَّرٌ ، والحقُّ عَطُوفٌ رَمُوفٌ ، والباطلُ عَنُوفٌ عَسُوفٌ ، والمُجَبُّ قَدَاحَةٌ الشَّرُّ ، والصَّنُّ رَائِدُ الْبَرَارِ ، والتعريضُ شَجَارُ الْفِتْنَةِ ، والقِحَّةُ ثَقُوبٌ ^(٥) المداوةُ ؛ وهذا الشيطانُ مُتَكَيٌّ ، على شِمَالِهِ ، مُتَحَيِّلٌ ^(٦) يَبِينُهُ ، نَافِخٌ حِصْنِيَّةٍ ^(٧) ، ينتظرُ الشَّمَاتَ والْفُرْقَةَ ، وَيَذِبُ بينَ الأُمَةِ بِالشَّجْنَاءِ والمداوةِ ، عِنَادًا لَّهِ عزَّ وجلَّ أولاً ، ولأَدَمَ ثانياً ، وَلِنَبِيِّهِ - صلى الله عليه وسلم - ودِينَهُ ثالثاً ، يُوسُوسُ بالفُتُورِ ، وَيُدَلِّي بالفُرُورِ ، وَيَمْنِي أهلَ الشُّرُورِ ، يُوحِي إلى أوليائِهِ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً بالباطلِ ، دَأْباً لَهُ مِنْذُ كَانَ عَلَى عَهْدِ آدَمَ ، وعَادَةً لَهُ مِنْذُ أَهَانَهُ اللهُ تَعَالَى فِي سَافِ الدَّهْرِ ، لَا مَنَجِيٍّ مِنْهُ إِلَّا بِعِضِّ النَّاجِذِ ^(٨) عَلَى الْحَقِّ ، وَغَضِّ الطَّرْفِ عَنِ الْبَاطِلِ ، وَوَطْءِ هَامَةِ عَدُوِّ اللهِ بِالْأَشَدِّ فَالْأَشَدِّ ، وَالْأَكْدِ فَالْأَكْدِ ، وَإِسْلَامِ النَّفْسِ لَهِ عزَّ وجلَّ فِي ابْتِغَاءِ رِضَاهِ .

ولا بد الآن من قولٍ ينفع إذ قد أضرَّ السكوت ، وخيف غيبه ؛ ولقد أُرشدَكَ مَنْ أَقَامَ ^(٩) صَالَتَكَ ، وَصَافَاكَ مِنْ أَحْيَا مَوَدَّتِهِ بِمَتَابِكَ ، وَأَرَادَكَ الْخَيْرَ مِنْ آثَرِ الْبَقَاءِ مَعَكَ .

ماهذا الذي تسوِّلُ لَكَ نَفْسُكَ ؟ وَيُدَوِّي ^(١٠) بِهِ قَلْبُكَ ، وَيَلْتَوِي عَلَيْهِ رَأْيُكَ ،

(١) أَكَلَفٌ : أسودَ تملوه حمره . (٢) أَغْدَفٌ : مظلم . (٣) جَلَوَاءٌ : مصحبة . (٤) صُلَمَاءٌ : خالية لاشجر فيها . (٥) ثَقُوبٌ : ما أشعل به . (٦) التَّحِيلُ : الاحتيال . (٧) نَافِخٌ حِصْنِيَّةٍ : أي مستعد لأن يعمل عمله من الشر . (٨) عِضٌّ عَلَيْهِ النَّوَاجِذُ ، أي تمسك به . (٩) أَقَامَ : أَرَجَعَ . (١٠) دَوَّى الطائر : إذا دار في طيراته .

ويَخَاوِسُ^(١) دونه مَلَرْتُكَ ، وَبَسَرِي فِيهِ غَلَمُكَ ، وَيَبْرَأُ مَعَهُ نَفْسُكَ ، وَتَكْتَرُ
مَعَهُ صُعْدَاؤُكَ ، وَلَا يَفِيضُ بِهِ لِسَانُكَ ؟ أَعْجَبَتْ بِمَدِّ إِبْصَاحِ^(٢) أُنْتَلَيْسُ^(٣) بِمَسَدِ
إِبْصَاحِ ؟ أَدِينُ غَيْرَ دِينِ اللَّهِ ؟ أَخْلَقْتُ غَيْرَ خَلْقِ الْقُرْآنِ ؟ أَهْدَى غَيْرُ هُدَى النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! أُمِثِّلُ تَمْثِلُ لَهُ الضَّرَاءَ وَتَدِيبُ لَهُ الْخَمَرَ^(٤) ! أَمْ حُكِّلَ
يَنْقَبِضُ عَلَيْهِ الْفَضَاءُ ، وَيُكْسَفُ فِي عَيْنِهِ الْقَمَرُ ؟ مَا هَذِهِ الْقَمَقَمَةُ^(٥) بِالشَّيْثَانِ^(٦) !
وَمَا هَذِهِ الْوَعْوَعَةُ^(٧) بِاللَّسَانِ !

إِنَّكَ وَاللَّهُ جِدُّ عَارِفٍ بِاسْتِجَابَتِنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَبَخْرُوجِنَا عَنْ أَوْطَانِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَحِبَّتِنَا ؛ هِجْرَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ،
وَنُصْرَةً لِدِينِهِ فِي زَمَانٍ أَنْتَ فِيهِ فِي كِنِّ الصَّبَا ، وَخِدْرِ الْفَرَارَةِ ، وَغُنْفُوانِ الشَّيْبَةِ ،
غَافِلٌ عَمَّا يُثِيبُ وَيُرِيْبُ ، لَا تَعْيَ مَا يُرَادُ وَيُسَادُ ، وَلَا تُحْصَلُ مَا يُسَاقُ وَيَقَادُ ،
سِوَى مَا أَنْتَ جَارٍ عَلَيْهِ إِلَى غَايَتِكَ الَّتِي إِلَيْهَا عُدِلَ بِكَ ، وَعِنْدَهَا حُطُّ رَحْلِكَ ،
غَيْرَ مَجْهُولِ الْقَدْرِ ، وَلَا مُنْجُودٍ الْفَضْلِ ؛ وَنَحْنُ فِي أَمْنَاءِ ذَلِكَ نُمَاقِ أَحْوَالًا تُزِيلُ
الرَّوَابِي ، وَنُقَاسِي أَمْوَالًا تُثِيبُ النَّوَاصِي ، خَاضِعِينَ غَمَارَهَا ، رَاكِبِينَ تِيَارَهَا ،
تَجَرَّعُ صَاحِبَهَا ، وَنَشْرَجُ^(٨) عِيَابَهَا ، وَنُحْكِمُ أَسَاسَهَا وَنُزِيمُ أَمْرَاسَهَا^(٩) ، وَالْعِيُونَ
تُحْدِجُ^(١٠) بِالْحَسَدِ ، وَالْأَنْوْفُ تَقْطِيسُ بِالْكِبَرِ ، وَالصَّدُورُ تَسْتَعِيرُ بِالْمَيْقُطِ ، وَالْأَعْنَاقُ

(١) يَخَاوِسُ : يَنْصَرِعُ عَنْ بَصَرِهِ . - (٢) التَّلَيْسُ : التَّخْلِيصُ . (٣) الضَّرَاءُ ، أَصْلُ الضَّرَاءِ ، :
الشَّجَرُ اللَّتْفُ فِي الْوَادِي ، وَالرَّادُ الْاسْتِخْفَاءُ . وَالْخَرُّ : مَا وَارَاكَ مِنْ شَجَرٍ ، وَهُوَ مِثْلُ ضَرْبٍ لِمَنْ
يَغْنَعُ صَاحِبَهُ . (٤) الشَّنَانُ : جَمْعُ شَنْ ، وَهُوَ الْقَرِيَةُ الْخَلْقُ الصَّغِيرَةُ ، وَالْقَمَقَمَةُ : الصَّوْتُ . يَرِيدُ
أَنَّهُ لَا يَخُوفُ بِمِثْلِ هَذَا . (٥) أَشْرَجَ اللَّيْبَةَ وَشَرَجَهَا : ضَمَّ بِضَمِّ عَرَاهَا إِلَى بَضْنٍ ، وَالْمِيَابِ : جَمْعُ عِيَةٍ ،
وَهِيَ وَعَاءٌ مِنْ أَدَمٍ تَجِلُّ فِيهِ الثِّيَابُ . (٦) أَمْرَاسَهَا : جَمْعُ مَرَسٍ كَكَتَفٍ : وَهُوَ الْحَبْلُ . (٧) تُحْدِجُ :

تتطاول بالفخر، والشَّفَارُ تُشَحَّدُ بالمكر، والأرض تَمِيدُ بالخوف، لا نَنْتَظِرُ عند النساء صَبَاحًا، ولا عند الصباح مَسَاءً، ولا نَدْفَعُ في نَحْرِ أَمْرٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَحْشُوَ الموتَ دُونَهُ، ولا نَبْلِغُ مُرَادًا إِلَّا بَعْدَ الْإِيَّاسِ مِنَ الْحَيَاةِ عِنْدَهُ، فَادْرَيْنَ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَبِّ وَالْأُمِّ، وَانْخَالِ وَالْمِ، وَالْمَالِ وَالنَّسَبِ، وَالسَّيِّدِ وَاللَّيْدِ^(١)، وَالْهَلَّةِ^(٢)، وَالْبِلَّةِ، بِطَيْبِ أَنْفُسٍ، وَفُرَّةِ أَعْيُنٍ، وَرُحْبِ أَعْطَانٍ، وَثَبَاتِ عَزَائِمٍ، وَصِحَّةِ عُقُولٍ، وَطَلَاقَةِ أَوْجِهٍ، وَذَلَّاقَةِ أَلْسُنٍ.

هذا مع خَفِيَّاتِ أَسْرَارٍ، وَمَكْنُونَاتِ أَخْبَارٍ، كُنْتَ غَنَمًا غَافِلًا، وَلَوْلَا سِنِّكَ لَمْ تَكُنْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا نَاكِيلًا^(٣)، وَكَيْفَ وَفَوَادِكُ مَشْهُومٍ^(٤)، وَعَوْدُكَ مَعْجُومٍ! وَالْآنَ قَدْ بَلَغَ اللَّهُ بِكَ، وَأَنْهَضَ أَنْظِيرَ لَكَ، وَجَمَلَ مَرَادِكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَعَنْ عِلْمِ أَقُولَ مَا نَسْمَعُ، فَارْتَبْ زَمَانَكَ، وَقَلِّصْ أُرْدَانَكَ^(٥)، وَدَعِ التَّعَسُّسَ وَالتَّجَسُّسَ لِمَنْ لَا يَطْلُعُ^(٦) لَكَ إِذَا خَطَا، وَلَا يَبْرَحْزُحْ عَنْكَ إِذَا عَطَا^(٧)؛ فَالْأَمْرُ غَضٌّ؛ وَالنَّفُوسُ فِيهَا مَضٌّ، وَإِنَّكَ أَدِيمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَلَا تَحْمِلْ^(٨) لِبَاجَا، وَسِيْفُهَا الْمَضْبُ، فَلَا تَنْبُ اعْوِجَاجَا، وَمَاوِهَا الْمَذْبُ، فَلَا تَحْمِلْ أُجَاجَا.

وَاللَّهُ لَقَدْ سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، فَقَالَ لِي : يَا أَبَا بَكْرٍ؛ هُوَ لِمَنْ يَرْغَبُ عَنْهُ لَا لِمَنْ يَجَاحِشُ^(٩) عَلَيْهِ، وَلِمَنْ يَتَصَادَلُ عَنْهُ لَا لِمَنْ

(١) البید : الشعر . والاید : الصوف . والراد : قديهِ بكل ما تعلَّك . (٢) يقال : جاءنا فلان فلم يأتنا بهمة ولا بهة ، أى لم يأتنا بشيء ، فاهلة من الفرح والاستهلال ، والبهة من الليل والخير . (٣) نكل عن الشيء : نكس وجين . (٤) مشهور : ذكر متوقد . (٥) الأردن : جمع ردن : وهو أصل الكم أو الكم كله . (٦) ظلم في مشيه : عرج وغمز . (٧) عطا : مد إليك عنقه وأقبل نحوك . (٨) حمل الجمل : فسد وتغيب . (٩) يطلبه ويداهم عنه .

بَيِّنَةٌ^(١) إِلَيْهِ ؛ هُوَ لِمَنْ يُقَالُ هُوَ لَكَ ، لَأَمِنْ يَقُولُ هُوَ لِي .

ولقد شاورني رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّهْرِ ، فَذَكَرْتُ فَيَانَا مِنْ قُرَيْشٍ ، قُلْتُ : أَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَلِيٍّ أَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ أَاكَرَهُ لَفَاطِمَةُ مَيْمَنَةٍ^(٢) شَبَابِهِ ، وَحَدَاثَةِ سِنِّهِ . قُلْتُ لَهُ : مَتَى كُنْفَتُهُ يَدُكَ ، وَرَعْتُهُ عَيْنُكَ ، حَفَّتْ بِهِمَا الْبَرَكَةُ ، وَأُسْبِغَتْ عَلَيْهِمَا النِّعْمَةُ ؛ مِنْ كَلَامٍ كَثِيرٍ خَاطِبْتُهُ بِهِ ؛ رَغْبَةً فِيكَ ، وَمَا كُنْتُ عَرَفْتُ مِنْكَ فِي ذَلِكَ لَا حَوْجَاءَ^(٣) وَلَا لَوْجَاءَ ، قُلْتُ مَا قُلْتُ وَأَنَا أَرَى مَكَانَ غَيْرِكَ ، وَأَجِدُ رَاحِمَةً سِوَاكَ ، وَكُنْتُ إِذْ ذَاكَ خَيْرًا لَكَ مِنْكَ الْآنَ لِي .

وَلَمَّا كَانَ عَرَضَ بِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، فَلَمْ يَكُنْ مُعْرِضًا عَنْ غَيْرِكَ ؛ وَإِنْ كَانَ قَالَ فِيكَ فَمَا سَكَتَ عَنْ سِوَاكَ ؛ وَإِنْ تَلَجَّلَجَ^(٤) فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ فَهَلُمَّ ، فَالْحُكْمُ مَرْضَى^(٥) ، وَالصَّوَابُ مَسْمُوعٌ ، وَالْحَقُّ مُطْلَعٌ .

وَلَقَدْ نُقِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهُوَ عَنِ الْعَصَابَةِ رَاضٍ ، وَعَلَيْهَا حَدِيبٌ ، يَسْرُهُ مَا سَرَّهَا ، وَيَسُوءُهُ مَا سَاءَهَا ، وَيَسْكِيْدُهُ مَا كَادَهَا ، وَيَرْضِيهِ مَا أَرْضَاهَا ، وَيُسِخْطُهُ مَا أَسْخَطَهَا .

أَمَّا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَدْعُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ وَأَقْرَابِهِ وَسُجْرَانِهِ^(٦) ، إِلَّا أَبَانَةً بِفَضِيلَةٍ ، وَخَصَّةً بِمِزْيَةٍ ، وَأَفْرَدَهُ بِجَاهِلَةٍ ، لَوْ أَصْفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَيْهِ لِأَجْلِهَا لَكَانَ عِنْدَهُ إِيَالَهَا

(١) يتطلع ويرتفع إليه . (٢) ميمة الثياب : أوله . (٣) أى ما كنت عرفت منك شيئاً .

(٤) تلجلج : تردد . (٥) سجرانه : أصفياته .

وَكَفَّالَهَا^(١) . أَنْظَنُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ الْأُمَّةَ سُذًى بَدَاً ؛ عِبَاهِل^(٢)
مِبَاهِلَ ، طَلَّاحَى^(٣) مَعْتُونَةً بِالْبَاطِلِ ، مَعْتُونَةً^(٤) عَنِ الْحَقِّ ؛ لَا رَائِدَ وَلَا ذَائِدَ ،
وَلَا ضَابِطَ وَلَا حَانِطَ ، وَلَا سَاقِيَ وَلَا وَاقِيَ ، وَلَا هَادِيَ وَلَا حَادِيَ إِلَّا كَلَالًا وَاللَّهُ
مَا اشْتَقَّ إِلَى رَبِّهِ ، وَلَا سَأَلَ الْمَصِيرَ إِلَى رِضْوَانِهِ وَقُرْبِهِ ؛ إِلَّا بَعْدَ أَنْ ضَرَبَ لِلَّذِي ،
وَأَوْضَحَ الْمُهْدَى ، وَأَبَانَ الصُّوَى^(٥) ؛ وَأَمَّنَ لِلسَّالِكِ وَلِلطَّارِحِ ؛ وَسَهَّلَ الْمُبَارِكَ
وَلِلْمُهَاجِرِ^(٦) ؛ وَإِلَّا بَعْدَ أَنْ شَاخَ بِأَفْوَحِ^(٧) الشُّرْكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَشَرَمَ وَجْهَ الْبَغَاةِ
لُوجِهِ اللَّهِ ، وَجَدَعَ أَنْفَ الْفِتْنَةِ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَتَقَلَّ فِي عَيْنِ الشَّيْطَانِ بَعُونِ اللَّهِ ،
وَصَدَعَ بِلْمٍ فِيهِ وَيَدِهِ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَبَعْدُ فَيُؤَلِّمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ عِنْدَكَ ؛ وَمَعَكَ فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَدَارٍ
جَامِعَةٍ ، إِنْ اسْتَقَالُوا لِي لَكَ وَأَشَارُوا عِنْدِي بِكَ ، فَأَنَا وَاضِعٌ يَدِي فِي يَدِكَ ،
وَصَائِرٌ إِلَى رَأْيِهِمْ فِيكَ .

وَأِنْ تَكُنِ الْآخَرَى فَادْخُلْ فِيهَا دَخَلَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ ؛ وَكُنِ الْعَوْنَ عَلَى
مَصَالِحِهِمْ ، وَالْفَاتِحَ لِمَعَا لِقِهِمْ ، وَالْمُرْتَدَّ لِمَصَالِحِهِمْ ، وَالرَّادَّ لِمَوَائِبِهِمْ ؛ فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْعَمَلِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَالتَّنَاصُرِ عَلَى الْحَقِّ ، وَدَعَا قَضَى
هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِصُدُورِ بَرِيَّةٍ مِنَ الْغُلَّةِ ؛ وَتَلَقَّى اللَّهُ تَعَالَى بِقُلُوبِ سَلِيمَةٍ مِنْ
الضُّغْنِ .

(١) اسْتَفْعَوْا عَلَى كَذَا : أَطْبَقُوا ، وَآلَ عَلَى الْقَوْمِ لِيَالَةً : وَلَى . (٢) عِبَاهِلُ مِبَاهِلُ : مُهْمَلَةٌ .
(٣) الطَّلَّاحَى : السَّكَاةُ الْمَلِيَّةُ . (٤) مَعْتُونَةٌ : مَنْ خَفَتِ الْفَرَسَ : حَيْثُ بِهِ الْبَتَانُ . (٥) الصُّوَى :
الْأَعْلَامُ . (٦) الْمُهَاجِرُ : الطَّارِقُ . (٧) الْيَا فَوْخُ : مَلَقَى عَظْمَ مَقْدَمِ الرَّأْسِ وَمُؤَخَّرِهِ .

وبعد فالناس نُكَّامةٌ^(١) فارزق بهم ؛ واخُنْ عليهم ، وإنْ لم ، ولا تُشَقْ
نفسك بنا خاصة منهم ؛ واتركْ نَاجِمَ^(٢) الحقدِ حصيداً ؛ وطائرَ الشرِّ واقفاً ؛ وبابَ
الفتنَةِ مغلقاً ، فلا قال ولا قيل ؛ ولا لَوَمَ ولا تَعْنِيفَ ، والله على ما نقول شهيد ،
وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عُبَيْدَةَ : فلما تَأَهَّبْتُ للنهوض قال عُمر - رضى الله عنه : كُنْ لَدَى
البابِ هَذِيهً ، فلي معك دورٌ من القول ، فَوَقَفْتُ وما أدري ما كان بَعْدِي ، إلا
أنَّهُ لحقني بوجهٍ يُبْدِي تَهَلُّلاً ، وقال لي : قلْ لِمَ لِي : الرقادُ مَحَلَّةٌ ، والمهوى
مَقَحَّةٌ^(٣) ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وحقٌّ مشاعٌ أو مَقْسُومٌ ، وَنَبَأٌ ظاهر
أو مكتومٌ ؛ وإنْ أَكْبَسَ الكَيْسَ من مَنَحِ الشاردِ تَأَلُّفاً ، وقاربَ البعيدِ تَلَطُّفاً ،
وَوَزَنَ كلَّ شَيْءٍ بِمِزَانِهِ ، ولم يخلطْ خَبْرَهُ بَعْيَانِهِ ، ولم يجعلْ فِتْرَهُ مكانَ شَرِيرِهِ ؛
دِينًا كان أو دنيا ؛ ضلَّالًا كان أو هُدًى .

ولا خير في عِلْمٍ مُسْتَعْمَلٍ في جهل ، ولا خير في معرفةٍ مَشُوبَةٍ بِنُكْرٍ .
ولسنا كَعْبِلَةَ رُفِعَ^(٤) البعير بين العِجانِ والدَّنبِ . وكلٌّ صالٍ قَبِنَارِهِ ؛ وكلُّ
سَيِّلٍ إلى قَرَارِهِ . وما كان سكوتُ هذه المصَابَةِ إلى هذه الغَايَةِ لِيٍّ ، ولا
كلامها اليومَ لثِقَ أو رَفِيٍّ . وقد جَدَعَ اللهُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أَفْئَةً كلَّ ذِي كِبَرٍ ،
وقصمَ ظَهْرَ كلِّ جَبَّارٍ ؛ وقطعَ لسانَ كلِّ كَذُوبٍ ، فإِذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ !

(١) التَّامة : واحدة التَّام ، وهو نبت ضئيف وهو على التشبيه . (٢) نجم : طلع وظهر ،
والحصيد : المهورد . (٣) قعم في الأمر : رى نفسه فيه جَاءَ بلا روية . (٤) الرفغ : أمل
الغفد من بطن ، والعِجان : الالست ، يريد أن مزلتهم بين الأحياء ليست حقيرة مهينة .

ما هذه الخنزُورُ^(١) التي في فراش^(٢) رأسك ! ما هذا الشَّجَا للمعترض في مدارج
أنفاسك ! ما هذه القَذَاة التي أعشَّتْ نَافِثَكَ ! وما هذه الوَحْرَةُ^(٣) التي أكلتْ
شراسيفك^(٤) ! وما هذا الذي لبستَ بسببه جِلْدَ النَّمْرِ ، واشتَمَلتَ عليه بالشَّحْنَاءِ
والنُّكْرَا

ولسنا في كِسْرِيَّةٍ كِسْبَرِي ، ولا في قِصْرِيَّةٍ قَيْصَر ! تأمل لإخوان فارس
وأبناء الأصغر ، قد جعلهم الله جَزَراً^(٥) لسيوفنا ، ودَرِيَّةً^(٦) لرماحنا ، ومرمى لطمائنا ،
وتبعاً لسلطاننا ؛ بل نحن في نورِ نُبُوَّةٍ ، وضياءِ رسالةٍ ، وثمرَةِ حِكْمَةٍ ، وأثرَةِ رحمةٍ ،
وعُنوانِ نعمةٍ ، وظلِّ عِصْمَةٍ ، بين أمةٍ مهديَّةٍ والحقِّ والصدق ، مأمونة على الرِّتْقِ
والفتقِ ، لها من الله قلبُ أبيّ ، وساعد قوى ، ويدُ ناصرةٍ ، وعين ناظرةٍ .

أُنظُنْ غُلَّنا يا عليّ أن أبا بكر وثبَ على هذا الأمرِ مُفْتَاتًا على الأمة ، خادعًا
لها أو مُسَلِّطًا عليها ! أُنْزَاه حلَّ عقودها ، وأحَالَ عقولها ! أُنْزَاه جعلَ نهارها ليلا ،
ووزنها كيلا ، وبَقَطَها رُقَادًا ، وصلاحيها فسادًا ! لا والله ! سَلَا عنها قولُها
له ، وتطامن لها فَلَصِقَتْ به ، ومال عنها فالتت إليه ؛ واشتَمَزَ دونها فاشتملت عليه ،
حَبَوَةَ حَبَاءِ الله بها ، وعاقِبَةُ بَلَمَةِ الله إليها ، ونِعمَةُ سَرَبِله الله جمالك ، ويدُ أَوْجِبَ
الله عليه شكرها ، وأمةٌ نظر الله به إليها ، والله أعلم بخلقِهِ ، وأرَأَفُ بعباده ،
يختار ما كان لهم الخَيْرَةُ .

وإنك بحيث لا يُجْهَلُ مَوْضِعُكَ من بيت النبوة ، ومعدنِ الرسالة ، ولا يُجْحَدُ

(١) الخنزورة : الكبر . (٢) فراش الرأس : عظام رفاق تلى النصف . (٣) الوحرة : وزعة ،
والمراد العدواة والمقصد . (٤) الشراسيف : جمع شرسوف ، وهو الطرف المشرف على البطن
من الصلع . (٥) الجزر : كل شيء مباح للتدبير . (٦) الدريرة : الحلفة تعلم عليها العلم والري .

حَقُّكَ فَيَا آتَاكَ اللَّهُ؛ وَلَكِنْ لَكَ مِنْ يَزَاحُكَ بِمَنْسَكِبٍ أَضْمَمَ مِنْ مَنَكِبِكَ ،
وَقُرْبَى أَمْسَ مِنْ قُرْبِكَ ، وَسَنَ أَعْلَى مِنْ سَنِّكَ ، وَشِبْهَ أَرْوَجَ مِنْ شَيْتِكَ ؛
وَسِيَادَةِ لَهَا أَسْلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفَرَعَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمَوَاقِفَ لَيْسَ لَكَ فِيهَا جُلٌّ وَلَا
نَاقَةٌ ، وَلَا تَذْكَرُ فِيهَا فِي مَقْدَمَةٍ وَلَا سَاقَةِ ^(١) ، وَلَا تَضْرِبُ فِيهَا بِذِرَاعٍ وَلَا إِبْصَعٍ ،
وَلَا تَخْرُجُ مِنْهَا يَبْتَازِلُ وَلَا هُبَّعَ ^(٢) ، وَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ حَبَّةَ قَلْبٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَلَاقَةً نَفْسِهِ ، وَعَيْبَةَ سِرِّهِ ، وَمَفْزَعَ رَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ ، وَرَاحَةَ كَفِّهِ ،
وَمَرْمَقَ طَرَفِهِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَحْضَرِ الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ مِنَ الْمَاهِجِينَ وَالْأَنْصَارِ ؛
شُهُرَتُهُ مَغْنِيَةٌ عَنِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ .

وَلِعَمْرِي إِنَّكَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَابَةً ، وَلَكِنَّهُ أَقْرَبُ
مِنْكَ قُرْبَةً ^(٣) ، وَالتَّوْبَةُ لِحَمِّ دَمٍ ، وَالتَّوْبَةُ نَفْسٍ وَرُوحٍ .

وَهَذَا فَرَقٌ عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلِلَّهِ صَارُوا إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ . وَمَهْمَا شَكَّكَتَ
فِي ذَلِكَ ، فَلَا تَشْكُ فِي أَنْ يَدَّ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، وَرِضْوَانَهُ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ . فَادْخُلْ فِيهَا
هُوَ خَيْرُ لَكَ الْيَوْمَ ، وَأَنْفَعُ لَكَ غَدًا ، وَالْقِفْظُ مِنْ فَيْكِ مَا يَصِلُقُ بِلَهَانِكَ ، فَإِنْ يَكُ
فِي الْأَمَدِ طَوْلٌ ، وَفِي الْأَجْلِ فُسْحَةٌ ، فَسْتَأْكُلُهُ مَرِيئًا أَوْ غَيْرَ مَرِيءٍ ، وَسَتَشْرِبُهُ
هَبِيئًا أَوْ غَيْرَ هَبِيءٍ ، حِينَ لَا رَادَّ لِقَوْلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ آيِسًا مِنْكَ ، وَلَا تَتَابِعْ لَكَ إِلَّا
مَنْ كَانَ طَامِعًا فَيْكَ ، يَمُضُ ^(٤) إِيَّاكَ ، وَيَمْرُكُ ^(٥) أَدِيمَكَ ، وَيَزُرِّي عَلَى
هَدْيِكَ ، هُنَالِكَ تَقْرَعُ السَّنَّ مِنْ نَدَمٍ ، وَتَجَرَّعُ اللَّاءَ مَمْزُوجًا بِدَمٍ ، وَحِينَئِذٍ تَأْسَى ^(٦)

(١) سَاقَةُ الْجَبِيشِ : مَوْخَرُهُ . (٢) الْبَازِلُ : الْجَبَلُ الْقَوِيُّ الَّذِي دَخَلَ فِي سَنَتِهِ التَّاسِعَةِ ،
وَالْمَجْبُ : الْفَصِيلُ الَّذِي يَقْتَعُ فِي الصَّيْفِ فَيَكُونُ ضَعِيفًا . (٣) التَّوْبَةُ : الْوَسِيلَةُ . (٤) يَمُضُ إِيَّاكَ :
يَجْرُفُ جِلْدَكَ . (٥) يَمْرُكُ أَدِيمَكَ : يَدُكَ . (٦) تَأْسَى : تَحْزَنُ .

على ما مضى من عرك ودارج قوتك ، فهوذا أن لو سقيت بالسكاس التي أيتها ،
وَوَرَدَتْ إِلَى حَالَتِكَ الَّتِي اسْتَفَوَيْتَهَا . وَلِلَّهِ تَعَالَى فِينَا وَفِيكَ أَمْرٌ هُوَ بِالْغَيْهِ ، وَغَيْبٌ
هُوَ شَاهِدُهُ ، وَعَاقِبَةٌ هُوَ الرَّجْوُ لِسَرَّائِهَا وَضَرَائِهَا ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ، الْغَفُورُ
الْوَدُودُ .

قال أبو عبيدة : فتمشيتُ مَترَمَلاً^(١) ، أنوء كأنما أخطو على رأسي ، فَرَاقًا
من التُّرُقَّةِ ، وشققاً^(٢) على الأمة حتى وصلت إلى على رضى الله عنه في خلاء ،
فَابْتَشَنَتْهُ^(٣) بَنَى كَاهٍ ، وَبَرِثَتْ إِلَيْهِ مِنْهُ ، وَرَفَقَتْ بِهِ ؛ فَلَمَّا سَمِعَهَا وَوَعَاها ، وَسَرَتْ
فِي مَفَاصِلِهِ حُيَّيْهَا قَالَ : حَلَّتْ مَمْلُوعَةٌ^(٤) ، وَوَلَّتْ مُخْرُوعَةٌ^(٥) ، وَأَنشَأَ يَقُولُ :
إِحْدَى لِیَالِیْكَ فِیْهِسَى^(٦) هِیْسَى لَا تَنْعَمِی اللَّیْلَةَ بِالتَّعْرِیسِ^(٧)
نَمِ یَا أَبَا عُبَیْدَةَ ، أَكَلْتُ هَذَا فِی أَفْسِ التَّوَمِ ، وَیَحْسُونُ بِهِ ، وَیَضْطَلِعُونَ^(٨)
عَلَيْهِ !

قال أبو عبيدة :

قَلْتُ : لَا جَوَابَ لَكَ عِنْدِي ، إِنَّمَا أَنَا قَاضٍ حَقَّ الدِّينِ ، وَرَاتِقٌ فَتَى
الْمُسْلِمِينَ ، وَسَادٌّ ثُلَمَةُ الْأُمَّةِ ، يَعْلَمُ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ جُلْجُلَانٍ^(٩) قَلْبِي ، وَفَرَارَةٍ
نَفْسِي .

فَقَالَ عَلَى رَضَى اللَّهِ عَنْهُ : وَأَلَهُ مَا كَانَ قَمُودِي فِي كِسْرِ هَذَا الْبَيْتِ قَصْداً لِلتَّخْلُافِ

(١) مَترَمَلاً : تَرَمَلٌ . تَلَفَفٌ . (٢) الشَّقَقُ : الشَّقَّةُ . (٣) أَبَتْنَتْهُ السَّرُّ : أَظْهَرَتْهُ لَهُ . وَابْتَشَنَتْهُ :
الْحَالُ . (٤) مَمْلُوعَةٌ : مَقْتَحَةٌ مِنْ غَيْرِ رُوحَةٍ . (٥) مُخْرُوعَةٌ : مَسْرُوعَةٌ . (٦) هِیْسَى : سَبِيحَةٌ
أَوْ سَبْرٌ كَانَ . (٧) عَرَسَ الْقَوْمُ : نَزَلُوا فِي آخِرِ اللَّيْلِ لِلِاسْتِرَاحَةِ . (٨) أَيْ يَنْطَلِقُونَ عَلَى الْفَتَنِ
وَهُوَ الْمَقْدُ . (٩) جُلْجُلَانٌ قَلْبِي : أَيْ حَبْتِهِ .

ولا إنكاراً للمعروف ، ولا زِرَاية على مُسْلِمٍ ، بل لما قد وَقَدَنِي ^(١) به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لِقَدِّهِ . وذلك أني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد على حزناً ، وذكرني شَجَنًا ، وإن الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره ، وفد عَكَفْتُ على عَهْدِ الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرق ، رجاء ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لملك ومشيئته ، وأمرِهِ ونَهْيِهِ ، على أني ما علمت أن التظاهر على واقعٍ ، ولا عن الحق الذي سبق إلى دافع .

وإذ قد أُنْقِمَ الوادي بي ، وحُشِدَ النّادى من أجلى ، فلا مرحباً بما ساء أحدًا من المسلمين وسرني . وفي النفس كلامٌ لولا سابقُ عَقْدٍ وسالفُ عَهْدٍ ، لشفيتُ غيظي بِخَنْصَرِي وَبِنَصْرِي ، وخُضْتُ لُجَّتَهُ بِأَخْمَصِي وَمَغْرَقِي ، ولكني مُلْجِمٌ إلى أن أُلْقَى الله ربّي ، وعنده أحْسِبُ ما نزل بي . وإني غاد إلى جماعتكم ، فبايع صاحبكم ، صابرٌ على ما ساءني وسركم ، ليقضَى الله أمرًا كان مفعولاً .

قال أبو عُبَيْدَةَ: فَمَدَّتْ إلى أبي بكرٍ رضى الله عنه ، فقصصت عليه القول على غَرَّةٍ ^(٢) ، ولم أختزل شيئاً من حُلُوهِ ومُرَّةِ ، وبَكَرْتُ غُدُوَّةً إلى المسجد ، فلما كان كان صباح يومئذٍ إذا على يَمْتَرِقُ الجماعةَ إلى أبي بكرٍ رضى الله عنهما ، فبايعه ، وقال خيراً ، ووصف جميلًا ، وجلس زميتًا ، واستأذن للقيام ، فضى وتبعه عمر مُكْرِمًا لَهُ ، مستثيرًا لما عنده .

وقام أبو بكرٍ إليه فأخذ بيده وقال : إن عصابةً أنتَ منها يا أبا الحسن

(١) وقده : تركه عليلاً ، وصرعه . (٢) على غرة : أى كما هو ، وكما قص على .

لمعصومة^(١)، وإن أمة أنت فيها لرحومة، ولقد أصبحت عزيراً علينا، كريماً لدينا، نخافُ الله إذا سَخِطَ، ونرجوه إذا رَضِيت، ولولا أنى شُدِّهت^(٢) لما أُجِبتُ إلى ما دُعِيتُ إليه، ولكنى خِفْتُ الفُرْقَةَ، واستثنَّارُ الأنصارِ بالأمرِ على قريش، وأُعْجِلْتُ عن حضورك ومشاورتك، ولو كنتَ حاضراً لبائتُك ولم أعدلْ بك، ولقد حطَّ الله عن ظَهرك ما أُنْقِلَ كاهلي به، وما أسدَّ مَنْ ينظرُ الله إليه بالكفاية؛ وإنا إليك لمتُحاجون، وبفضلك عالون، وإلى رأيك وهدْيِك في جميع الأحوال راغبون، وعلى حاجتك وحَفِظَتُك^(٣) معوّلون. ثم انصرف وتركه مع عمر؛ فالتفت على عمر فقال:

والله ما قعدتُ عن صاحبكم كارهاً، ولا أتيتُهُ فرقاً، ولا أقولُ ما أقولُ
تَعْلَةً^(٤).

وإني لأعرف منتهى طَرْفي، ومَحْطَ قَدَمي، ومَنْزِعَ قَوْمي، ومَوْقِعَ سَهْمِي؛
ولكن قد أَرَمْتُ^(٥) على قَاسِي؛ فِقَّةَ بَرِّئِي في الدنيا والآخرة.

فقال له عمر رضى الله عنه: كَفَّكَ غَرْبُكَ، واستَوْفَ مِرْبُكَ، ودع
العِصَى بلعائها، والدُّلَاءَ على رشاها^(٦)، فإنَّا من خَلْفِها وورائها، إن قَدَحْنَا
أورينا، وإن مَتَحْنَا أروينا، وإن قَرَحْنَا أَدَمِينَا، ولقد سمعتُ أُمَامِيكَ^(٧)
التي لَزَزَتْ بها صادرة عن صدرٍ أُكِلَ بالبجوى، ولو شئتُ لَقُلْتُ على مَقَالَتِكَ
ما إن سَمِعْتَهُ نَدِمْتُ على ما قُلْتُ، وزَعَمْتَ أَنَّكَ قَعَدْتَ في كَنٍّْ يَبْتَكَ لِمَا وَقَدَّكَ
به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من قَدَرِهِ، فهو وقْدُكَ ولم يَقْدُ غَيْرُكَ ابل مصابهُ

(١) شُدِّهت: دُمِيت. (٢) الحفيظة: اسم بمعنى المحافظة. (٣) التملة: ما يمتل به.
(٤) أَرَمْتُ: أَرَمْتُ الفرس على فأس اللجام: إذا عضها وقبض عليها، وفأس اللجام: الحديد المرفوعة منه
في المنك، يريد أنه كتم ماني نفسه. (٥) الرشاء: حبل اللؤلؤ. (٦) قرح: جرح.
(٧) أماميل: جمع أمثلة، تمل: إذا أنشد بيتاً ثم آخر ثم آخر وهي الأمثلة.

أعظم وأعمُّ من ذلك . وإنَّ من حقِّ مُصابه ألا تصدع شملَ الجماعةِ بِفِرقةٍ لا عصامَ لها ، ولا يؤمِّنُ كيدُ الشيطان في بقائها ، هذه المربُّ حولنا ، والله لو تداعت علينا في صُبْحِ نهارٍ لم نلتق في مساءه .

وزعمت أن الشوقَ إلى اللّٰحق به كافٍ عن الطمع في غيره ! فينَّ علامةَ الشوقِ إليه نُصرةُ دينه ، وموازرةُ أوليائه ، ومعاونتهم .

وزعمت أنك عكفت على عهدِ الله تجمعُ ما تفرَّق منه ؛ فمن المُكوف على عهدِ الله النصيحةُ لمبادِ الله ، والرأفةُ على خلقِ الله ، وبذلُ ما يصلحون به ويرتشدون عليه .

وزعمت أنك لم تعلم أنَّ التظاهر واقعٌ عليك ، أيُّ حقٍّ لُطِّ^(١) دونك ! قد سمعت وعلت ما قال الأنصارُ بالأمس سرًّا وجهرًا ، وتقلبت عليه بطنًا وظاهرًا ، فهل ذكرنك أو أشادت بك ، أو وجدت رِضامَ عنك ؟ هل قال أحدٌ منهم بلسانه : إنك تصلحُ لهذا الأمر ، أو أومأ بيمينه ، أو همَّ في نفسه ؟ أنظنُّ أن الناسَ ضلُّوا من أجلك ، وعادوا كفارًا زُهْدًا فيك ، وباعوا اللهَ تمامًا عليك ؟ لا والله ! لقد جاءني عَقِيل بن زياد الخَزرجي في نفرٍ من أصحابه ، ومعهم شُرَحْبِيل بن يعقوب الخَزرجي وقالوا : إنَّ عليًّا ينتظر الإمامةَ ويزعمُ أنه أولى بها من غيره ، ويُتكل على من ينفذُ الخلافهَ ؛ فأبكرتُ عليهم ، ورددتُ القولَ في تحريمِ حيثُ قالوا : إنه ينتظر الوحي ، ويتوكَّفُ^(٢) مُناجاةَ اللّٰك .

قلت : ذاك أمرٌ طوَّاهُ الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أكان الأمر

(١) لُطِّ جعد . (٢) يتوكَّف : ينتظر .

محقوقاً بأنشوطه^(١) ، أو مشدوداً بأطراف ليطه^(٢) ؟ كلا والله لا يحجاء بحمد الله إلا أنفصحت ، ولا شوكاء إلا وقد تفتحت .

ومن أعجب شأنك قولك : « ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفيت غيظي » ! وهل ترك الدين لأهله أن يشفوا غيظهم بيد أو بلسان ؟ تلك جاهلية ، وقد استأصل الله شأقتها ، واقطع جرتومها ، وهو^(٣) ليها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان ، والهدى والبرهان . وزعت أنك ملجم ؛ ولمرى إن من اتقى الله ، وآثر رضاه ، وطلب ما عنده ، أمسك لسانه ، وأطبق فاه ، وجعل سعيه لما وراءه .

وأما قولك : إني لأعرف منزع قوسى ، فإذا عرفت منزع قوسك عرف غيرك مضرِب سيفه ومطمن رمح ؛ وأما ما تزعمه من الأمر الذى جملة رسول الله لك فتخلقت إعذاراً إلى الله وإلى العارفة به من المسلمين ، فلو عرفه للسلون لجنحوا إليه وأصفقوا عليه ، وما كان الله ليجمعهم على العصى ، ولا ليضربهم بالضلال بعد الهدى ، ولو كان لرسول الله فيك رأى ، وعليك عزم ، ثم بعثه الله ، فرأى اجتماع أمته على أبى بكر لما سقه آراءهم ، ولا ضلل أحلامهم ، ولا آثرك عليهم ، ولا أرضاك بسخطهم ، ولا مراك باتباعهم والدخول معهم فيما ارتضوه لديهم .

قال على رضى الله عنه : مهلاً يا باحقص ، والله ما بذلت ما بذلت وأنا أريد نكثته ، ولا أقررت ما أقررت وأنا أبقى حيولا عنه ؛ وإن أخسر الناس صفقة

(١) الأنشوطه : عقده يسهل انحلالها إذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت (٢) اليطه : تشرية

القصة التى تليط بها أى تنزق . (٣) هور : أذهب .

عند الله مَنْ آثَرَ النِّفَاقَ ، واحتَضَنَ الشَّقَاقَ ، وفي الله خَلَفَ من كل فائت ،
وعَوَضَ من كل ذاهب ، وسَلَوَةُ عن كل حادث ، وعليه التوكّل في جميع الحوادث .
ارجع يا أبا حفص إلى مجلسك ناقِعَ الْقَلْبِ ، مَبْرُودَ اللَّيْلِ ، فسيح اللّبان^(١) ،
فصيح اللسان ؛ فليس وراء ما سمعتْ وقلتْ إلا ما يشدُّ الأزرَ ، ويحطُّ الوزرَ ،
ويضع الإصرَ^(٢) ، ويجمع الألفَةَ بِمُشِيئَةِ اللهِ وحسن توقيفه .

قال أبو عبيدة : فأنصرف على وعمر رضى الله عنهما ، وهذا أصعب ما مر على
بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) .

(١) اللّبان : الصدر . (٢) الإصر : القنب والتقل . (٣) قال ابن أبي الحديد في نهاية هذه
القصة : الذي يفتب على ظني أن هذه المراسلات والمحاورات والكلام كله موضوع مصنوع ،
وأنه من كلام أبي حيان التوحيدي لأنه بكلامه ومذهبه في الخطابة والبلاغة أشبه (انظر صفحة
٥٩٧ من ج ٢) .

٩٣ - يَمْنُ أَسْتَجِيرُ مِنْ جَوْرِكَ ؟ *

جلس معاويةُ بنُ أبي سفيان في مجلس كان له بدمشق ، وكان ذلك للوضع
مفتَّح الجوانب بدخل منه النسيم ، فبينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات في يومٍ
شديد الحرِّ ، وقد اشتدَّ قَحُّ الهجير ^(١) ، إذ نَظَرَ إلى رجل يمشى نحوه وهو يَطْلُظُّ
بالنار من حرِّ التراب ، ويَحْجِلُ في مَشْيِهِ حافياً ، فتأملهُ معاوية وقال لجلسائه : هل
خَلَقَ اللهُ أَشَقَّيَّ مَنْ يَحْتَاجُ إلى الحركة في هذه الساعة ؟ فقال بعضهم : لعله يَفْصِدُ
أُمير المؤمنين ، قال : والله لئن كان قاصدي سائلاً لَأَعْطِيَنَّهُ ، أو مستجيراً لأَجِيرَنَّهُ ،
أو مظلوماً لأنصِرَّه . . . يا غلام ؟ قف بالباب ؟ فإن طلبني هذا الأعرابي فلا تمنعه
الدخول هليّ .

فخرج الغلامُ فَوَاقَى الأعرابيَّ ، وقال : ما تريد ؟ قال : أُمير المؤمنين . قال :
ادخل ، فدخَلَ وسَلَّمَ على معاوية ، فقال له : مَن الرجل ؟ قال : من تميم ، قال : ما الذي
جاء بك في مثل هذا الوقت ؟ قال : جئتُكَ مشتكياً وبك مستجيراً . قال : بمن ؟
قال : من مَرْوَانَ بنِ الحكم ، ثم أنشد هذه الأبيات :

معاوي ، ياذا الفضلِ والحلمِ والعقلِ . وذا البرِّ والإحسانِ والجودِ والبذلِ
أتيتُكَ لا ضاقَ في الأرضِ مذْهَبِي . وأنكرتُ مما قد أصبْتُ به عقلِ
فَرَجٍّ - كَلَّاكَ اللهُ - عَنِّي فَإِنِّي لَعَيْتُ الذي لم يَلْقَهُ أَحَدٌ قَبْلِي

* المختار من نوادر الأخبار « مخطوط » ، نهاية الأرب : ٢ - ١٥٦

١٠٦ ح : نصف النهار عند اشتداد الحر .

وَحَذَنِي - هَذَاكَ اللَّهُ - حَتَّى مِنْ أَلَنِي رَمَانِي بَسْمِهِ كَانَ أَيْسَرَهُ قَتَلِي ١
وَكُنْتُ أَرْجِي عَذْلَهُ إِنْ أُنَيْتُهُ فَأَكْثَرَ تَرَدَّادِي مَعَ الْحَبْسِ وَالْكَبْلِ
سَبَّانِي سَعْدِي وَأَنْبَرِي لِخُصُومَتِي وَجَارَ وَلَمْ يَدْلِ وَغَاصِبِي أَهْلِي
فَطَلَّقْتُهَا مِنْ جَهْدٍ مَا قَدْ أَصَابَنِي فَهَذَا ، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَنْ الْعَدْلِ ؟

فلما سمع معاوية إنشاده والنارُ تَهْوَقُ مِنْ فِيهِ قَالَ : مَهْلًا يَا أَخَا الْعَرَبِ ، أَذْكَرَ
قَسَمَتِكَ وَأَفْصَحَ عَنْ أَمْرِكَ .

قال : يا أمير المؤمنين ، كانت لي زوجة وهي ابنة عَمِي وكنت لها محبًّا وبها
كَلِيفًا ؛ وكنتُ بها قَرِيرَ الْعَيْنِ ، طَيِّبَ الْعَيْشِ ، وكانت لي صِرْمَةً ^(١) مِنَ الْإِبِلِ
أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى قِيَامِ حَالِي وَإِصْلَاحِ أَوْدِي ^(٢) ؛ فَأَصَابَتْ سَنَةً ذَاتَ قَحْطٍ شَدِيدٍ ،
أَذْهَبَتْ الْخُفَّ وَالظَّلْفَ ، وَبَقِيَتْ لَا أَمْلَكَ شَيْئًا ؛ فَلَمَّا قَلَّ مَا بِيَدِي ؛ وَذَهَبَ حَالِي
وَمَالِي ، بَقِيَتْ مَهْنًا ثَقِيلًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ؛ قَدْ أَبْعَدَنِي مَنْ كَانَ يَشْتَهِي الْقُرْبَ
مَنِي ، وَازْوَرَّ عَنِّي مَنْ كَانَ يَرْغَبُ فِي زِيَارَتِي !

فلما علم أبوها ما بِي مِنْ سُوءِ الْحَالِ وَشَرِّ اللَّكَالِ أَخَذَهَا مَعِي ، وَسَأَلَنِي الْفِرَاقَ
وَجَعَدَنِي وَطَرَدَنِي ، وَأَغْلَظَ عَلَيَّ ؛ فَأَنْتَيْتُ إِلَى عَامِلِكَ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ مُسْتَصْرِخًا ،
وَبِهِ رَاجِعًا لِيَنْصُرَنِي ، فَأَحْضَرَ أَبَاهَا وَسَأَلَهُ عَنْ حَالِي ، فَقَالَ : مَا أَعْرِفُهُ قَبْلَ الْيَوْمِ ،
فَقُلْتُ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! إِنْ رَأَى أَنْ يُحْضَرَهَا وَيَسْأَلَهَا عَنْ قَوْلِ أَبِيهَا فَلْيَفْعَلْ .

(١) الصرمة : القطعة من الإبل ، وهي ما بين العشرين إلى الثلاثين . (٢) الأود : الموج .

فبعث إليها مَرْوَانَ وأحضرها مجلسه ، فلما وقفت بين يديه وقعت منه موقع
الإعجاب ؛ فصار لي خصماً وعلى منكرًا ۱ وانتهرتني وأظهر لي الغضب وبعث بي
إلى السجن ، فبقيت كأنما خَرَزْتُ من السماء في مكان سحيق ۱

ثم قال لأبيها : هل لك أن تزوجها مني على ألف دينار وعشرة آلاف درهم
لك ؟ وأنا ضامن لك خلاصها من هذا الأعرابي . فرغب أبوها في البذل وأجابته
لتلك ۱

فلما كان من الندم بعث إليّ وأخرجني من السجن ؛ وأوقفني بين يديه ، واطر
إليّ كالأسد النضبان ؛ وقال : يا أعرابي ، طلق سُمْدِي ؛ قتلت : لا أقدر على هذا ،
فسلط على جماعة من غلمانه ، فأخذوا يمدُّونني بأنواع المذاب ، فلم أجد بُدًّا من
ذلك فقتلت ؛ ثم عادوا بي إلى السجن ؛ فكثت فيه إلى أن اغضت عيُنَهَا ،
فتزوجها ودخل بها . وقد أتيتك مستجيرًا وإليك ملجئًا ، ثم أنشد :

في القلب منى نار والنار فيها استعار
والجسم منى سقيم واللون فيه اصفرار
وفي فؤادي بحر والجر فيه شرار
والعين تبكي بشجو فدمعها مدرار
والحب داء عير فيه عطيب يحار
حملت منه عظيمًا فما عليه اصطبار
فليس ليلى كليل ولا نهاري نهاري

ثم اضطرب وخر مغشيًا عليه ، وأخذ يتلو كالحيَّة المتقولة ؛ فلما سمع كلامه
وإنشاده قال : تدنى فظلم مَرْوَانَ بن الحكم في حدود الدِّين ، واجترأ على حُرْم

المسلمين ، ثم قال : والله يا أعرابي ، لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله قط ؛ ثم دعا بدواة وقرطاس ، وكتب إلى مروان بن الحكم : قد بلغني أنك اعتديت على رعيقتك ، وانتهكت حرمة من حرم للمسلمين ؛ وتعديت حدود الدين ، وينبغي لمن كان والياً أن يفض بصره عن شهواته ، ويزجر نفسه عن لذاته ، وكتب في آخره :

رَكِبْتُ أَمْرًا عَظِيمًا لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ جَوْرِ أَمْرِي زَانِي
قَدْ كُنْتُ تَشْبَهُ صُوفِيًّا لَهُ كُتُبٌ مِنَ الْفَرَائِضِ أَوْ آيَاتِ فُرْقَانِ
حَتَّى أَتَانِي الْفَقِي الْعُذْرِيُّ مُنْتَحِبًا بِشِكْوِي إِلَى بَحْقٍ غَيْرِ بُهْتَانِ
أَعْطَى إِلَهَ عَهْدًا لَا أَخِيْسُ بِهَا أَوْ لَا فَبَرَنْتُ مِنْ دِينٍ وَإِيمَانِ
إِنْ أَنْتَ رَاجَعْتَنِي فِيمَا كُتِبْتُ بِهِ لِأَجْمَلَتُكَ لِحَا بَيْنَ عِقْبَانِ
طَلَّقْتُ سَعَادَ ، وَعَجَّلْتُهَا مَجْهَرَةً مَعَ الْكُتُبِ وَمَعَ نَصْرِ بْنِ ذُبْيَانَ
فَاسْمَعْتُ كَمَا بُلِّغْتُ مِنْ عَجَبٍ وَلَا فِعَالِكَ حَقًّا فَعَلَ إِنْسَانُ

ثم طوى الكتاب وطبعه بخاتمه ، واستدعى الكهيت ونصر بن ذبيان - وكان يستنهضهما في قضاء الحوائج لأمانتهما - فأخذهما وسارا حتى قدما المدينة ؛ ودخلا على مروان وسلما إليه الكتاب ، فقضه وقرأه ، ثم ارتدت فرائضه ، وطلّقها في الحال وبعث بها إلى أمير المؤمنين ، وكتب إلى معاوية كتاباً فيه :
حوراء تبصر عنها الوصفُ إن وُصِفَتْ أقولُ ذلك في سرٍّ وإعلانِ
فلما قرأه قال : لقد أحسن في الطاعة ؛ وأطنب في حسن الجارية .

ولما رأى معاوية الجارية رأى صورة لم يرمثلها في الحسن والقدر والجمال ؟
وخطبها فوجدتها أفصح النساءِ بُدْوَية منطلق ، ثم قال : على بالأعرابي ؛ فأتى إليه

وهو على غاية من سوء الحال ، قال : يا أعرابي ؛ هل لك عنها من سَلَوَةٍ ، وأعوْضُكَ
ثلاث جوارٍ مع كل جارية ألف دينار ، وأقسِمُ لك من بيت المال في كل سنة
ما يكفيك ويُمِينُكَ على صحبتين ؟

فلما سمع الأعرابي كلام معاوية شفقَ شَفَقَةً ظَنَ معاوية أنه قد مات ، ولما أفاق
قال له : ما بالكَ ؟ قال : شرَّ بال ، وأسوأ حال ؛ استجرتُ بِمَذَلِّكَ من جور
ابن الحكم ، فِيمَنَ أَسْتَجِيرُ من جَوْرِكَ ! ثم أنشد :

لا تَجْمَعَنَّيَ والأَمْثالُ تُضْرَبُ بِي كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرِّمَاءِ بالنَّارِ
ارْزُدْ سُمَادَ عَلَى حَيْرَانَ مَكْتَنِبٍ يُنْمِي وَيَصْبِحُ فِي هَمٍّ وَتَذْكَارِ
قد شَفَى قَلْقٌ مَا مَثَلُهُ قَلْقٌ وَأُسْعِرَ الْقَلْبُ مَنَى أَى إِسْمَارِ
كيف السَّوْءُ وقد هَامَ الْفَوَادُ بِهَا وَأَصْبَحَ الْقَلْبُ عَنْهَا غَيْرَ صَبَارِ !
ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ لو أعطيتني ما حوته الخِلافة ما اعْتَضْتُه دُونَ
سُعْدَى .

فقال معاوية : يا أعرابي ؛ إِنَّكَ مُقَرَّبٌ أَنْكَ طَلَقَهَا ، ومروان مُقَرَّبٌ أَنَّهُ طَلَقَهَا ،
ونحن نَحْيَرُهَا ، فَإِنْ اخْتَارْتَ سَوَاكَ زَوْجَتَاهُ بِهَا ، وَإِنْ اخْتَارْتَكَ رَجَعْنَا بِهَا إِلَيْكَ .
قال : افعل ، ولا حول ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

ودعاها معاوية وقال لها : ما تقولين ياسعدى ؟ أَىُّ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ أمير المؤمنين
في عزِّه وشرفه وسلطانه وقُصُورِهِ وما تصيرين عنده ، أو مروان بن الحكم في
عُسْفِهِ وجوره ، أو هذا الأعرابي مع جُوعِهِ وقفره وسوء حاله ؟ فأنشدت هَذَيْنِ
البيتين :

هَذَا وَإِنْ كَانَ فِي قَرْيَةٍ وَإِضْرَارٌ أَغْنَىٰ عِنْدِي مِنَ قَوْمِي وَمِنْ جَارِي
وَصَاحِبِ النَّجَاحِ أَوْ مَرْوَانَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكُلُّ ذِي دَرَاهِمٍ عِنْدِي وَدِينَارٍ
ثُمَّ قَالَتْ : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مَا أَنَا بِخَازِنَةِ لِحَادِثَةِ الزَّمَانِ ، وَلَا لِنَدَرَاتِ
الْأَيَّامِ ؛ وَإِنِّي لِي مَعَ صَاحِبَةٍ قَدِيمَةٍ لَا تَنْسَى ، وَحَبِيبَةٍ لَا تَبْلَى ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ صَبَرَ
مَعَهُ عَلَى الضَّرَاءِ ، كَمَا تَنَعَّمْتُ مَعَهُ فِي السَّرَّاءِ .

فَتَمَجَّبَ مَعَاوِيَةُ مِنْ عَقْلِهَا وَمُرُوءَتِهَا ، وَأَمَرَ لَهَا بِبَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ ، وَرَدَّهَا
بَعْدَ جَدِيدٍ ، فَأَخَذَهَا الْأَعْرَابِيُّ وَانصَرَفَ يَقُولُ :

خَلُّوا عَنِ الطَّرِيقِ لِلْأَعْرَابِيِّ أَلَمْ تَرَوْهَا وَيَحْكُمُ ، مِمَّا بِي !

٩٤ - خذعة لماوية*

سمع يزيدُ بن معاوية بن أبي سفيان بحمال زينب بنت إسحاق زوج عبد الله ابن سلام القرشي؛ وكانت من أجمل النساء في وقتها، وأحسن أدباً، وأكثرهن مالا؛ ففتن بها؛ فلما عيل صبره ذكر ذلك لبعض خاصة أبيه، واسمه رفيق، فذكر ذلك لماوية، وقال له: إن يزيد قد ضاق ذرعُه بها.

فبعث معاوية إلى يزيد، فاستفسره عن أمره؛ فبث له شأنه؛ فقال: مهلاً يا يزيد؛ فقال له: علام تأمرني بالسهل وقد اقطع منها الأمل؟ فقال له معاوية: فأين مروءتك وحججك وثقاك؟ قال: قد عيل الصبر، ولو كان أحد ينفع فيما يُبتلى به من الهوى بقاءه، أو يدفع ما أقصده^(١) بحججه، لكان أولى الناس به داود^(٢) حين ابتلى به.

قال: اكنتم يا بني أمرك؛ فإن البوح به غير نافع، والله باللعن أمره فيك، ولا بد مما هو كائن.

وأخذ معاوية في الاحتيال في تبليغ يزيد مناه، فكتب إلى زوجها عبد الله ابن سلام - وكان قد استعمله على العراق: أن أقبل حين تنظر كتابي لأمر فيه حفظك إن شاء الله تعالى، فلا تتأخر عنه.

* نهاية الأرب : ٦ - ١٨٠

(١) أقصده: أقصدت الرجل لما طمته أو رميته بسهم فلم يخطئ مكانه. (٢) يشير إلى داود عليه السلام، حينما تروج من خطيئة أحد جنوده، ولقد عاتبه الله في ذلك، فاستغفره، فغفر له.

فَأَعْدَّ^(١) السَّيْرَ وَقَدَّمَ ، فَأَنْزَلَهُ مَعَاوِيَةَ مِنْزِلًا كَانَ قَدْ هَيَّأَ لَهُ ، وَكَانَ عِنْدَ مَعَاوِيَةَ يَوْمَئِذٍ بِالشَّامِ أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَبُو الدَّرْدَاءُ ، قَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : إِنْ أَلَّهِ قَدْ قَسَمَ بَيْنَ عِبَادِهِ قَسَمًا ، وَوَهَبَهُمْ نِسْمًا أَوْجِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا شُكْرَهُ ، وَحَتَمَ عَلَيْهِمْ حِفْظَهَا ، فُجِبَانِي مِنْهَا عَزَّ وَجَلَّ بِأَتَمِّ الشَّرَفِ وَأَفْضَلِ الذِّكْرِ ، وَأَوْسَعَ عَلَى الرِّزْقِ ، وَجَعَلَنِي رَاغِبِي خَلْقِهِ ، وَأَمِينِهِ فِي بِلَادِهِ ، وَالْحَاكِمِ فِي أَمْرِ عِبَادِهِ ، لِيُبَلِّغَنِي أَكْثَرَ أَمْ أَكْفَرَ^(٢) ؟ وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلرَّءِ أَنْ يَتَفَقَّدَ وَيَنْظُرَ مِنْ اسْتِرْعَاءِ اللَّهِ أَمْرَهُ ، وَمِنْ لَأَغْنِي بِهِ عَنْهُ .

وَقَدْ بَلَغْتُ لِي ابْنَةُ أَرِيدَ زَوَاجَهَا وَالنَّظَرَ فِي اخْتِيَارِ مَنْ يُبَاعِلُهَا^(٣) ، لَعَلَّ مِنْ يَكُونُ بَعْدِي يَقْتَدِي فِيهِ بِهَدْيِي ، وَيَتَّبِعُ فِيهِ أَثَرِي ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَ هَذَا اللَّيْلَ بَعْدِي مِنْ يَنْبَغِي عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى تَمْضِيلِ الْبَنَاتِ^(٤) ، فَلَا يَرُونَ لَهَا كِفْثًا وَلَا نَظِيرًا . وَقَدْ رَضِيتُ لَهَا ابْنَ سَلَامٍ الْقُرَشِيَّ ؛ لِدِينِهِ وَشَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَمُرُوءَتِهِ وَأَدَبِهِ ؛ فَقَالَتْ لَهُ : إِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِرِعَايَةِ نِعْمِ اللَّهِ وَشُكْرِهَا ، وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ فِيهَا اخْتَصَمَهُ لَأَنْتَ .

قَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : فَأَذْكُرُكَ لَهُ ذَلِكَ عَنِّي ؛ وَقَدْ كُنْتُ جَعَلْتُ لَهَا فِي نَفْسِي شُورَى ، غَيْرَ أَنِّي أَرْجُو أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ رَأْيِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَتَيَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ ، وَذَكَرَا لَهُ الْقِصَّةَ .

ثُمَّ دَخَلَ مَعَاوِيَةُ عَلَى ابْنَتِهِ ، وَقَالَ لَهَا : إِذَا دَخَلَ عَلَيْكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَأَبُو هُرَيْرَةَ ، فَضَرَا بِكَ أَمْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ، وَحَضَّاكَ عَلَى السَّارِعَةِ إِلَى اتِّبَاعِ رَأْيِي فِيهِ ؛

(١) أَعْدَدَ السَّيْرَ وَفِيهِ : أَسْرَعَ . (٢) يُبَاعِلُهَا : يَتَخَفَّضُ زَوْجًا وَبِلَا . (٣) تَمْضِيلُ الْبَنَاتِ : حَيْسَمِنْ مِنَ الزَّوْجِ ظَلَمًا .

فقولى لها : إنه كفء كريم ، وقريب حميم ، غير أن تحتة زينب بنت إسحاق ، وأخاف أن يمرض لى من الفيرة ما يمرض للنساء ؛ فأتناول منه ما يستخط الله تعالى فيه ، فيعذبني عليه ، ولست بقاعلة حتى يفارقها .

فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله ، وأعلماه بقول معاوية ، ردهما إليه يخطبان له منه ، فأتياه ، فقال : قد علمنا رضائي به ، وجرمى عليه ، وكنت قد أعلمتكما الذى جعلتُ لها فى نفسها من الشورى ؛ فادخلا عليها ، واعرضا عليها التى رأيتُ لها .

فدخلتا عليها وأعلماهما ، فقالت لهما ما قاله معاوية لها ؛ فرجعا إلى ابن سلام ، وأعلماه بما قالته .

فلما ظنَّ أنه لا يمنعها منه إلا فراقُ زينب أشهدهما بطلاقها ، وأعادها إلى ابنة معاوية .

فأتيا معاوية ، وأعلماه بما كان من فراق عبد الله زوجته ؛ رغبة فى الاتصال بابنته ؛ فأظهر معاوية كراهة فعله ، وفراقه لزينب ، وقال : ما استحسنْتُ له طلاق امرأته ، ولا أحببته ؛ فانصرفت فى عافية ، ثم عودا إليها ، وخذا رضاها .

فكما ثم عادا إليه ؛ فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها ؛ وقال : لم يكن لى أن أكرهها ، وقد جعلتُ لها الشورى فى نفسها .

فدخلتا عليها فأعلماهما بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرها ؛ وذكرنا من فضله وكال مروءته وكرم تحته ؛ فقالت لهما : إنه فى قریش لرفيع القدر ، وقد نمرقان أن الأناة فى الأمور أرفق لما يخاف من المخذور ؛ وإنى سائلة عنه حتى

أعرف دِخْلَهُ أمره ، وأعلمك بالذي يُزِيَنُهُ اللهُ لِي ، ولا قوة إلا بالله ، قالا :
وقفك الله ، وخار لك . وانصرفا عنها ، وأعلمنا عبد الله بقولها ، فأنشد :
فإن يك صدرُ هذا اليوم ولِّي فإن غداً لناظره قريبُ

وتحدث الناس بما كان من طلاق عبد الله زينب ، وخطبته ابنة معاوية ،
ولأموه على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه .

ثم استحثَّ عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء ، فأتياها وقالا لها : اصنعي ما أنتِ
صانعه واستخيري الله ، فإنه يهدي من استهداه ؛ قالت : أرجو أن يكون الله
قد خار لي ، وقد استبرأت^(١) أمره، وسألت عنه، فوجدته غير ملائم ولا موافق
لما أريد لنفسى.

ولقد اختلف من استشرته فيه ، فنهى الناهي عنه ، ومنهم الأمر به ، واختلفوا
أول ما كرهت .

فلما بلغناه كلامها علم أنه تخدوع ، وقال : ليس لأمر الله رادٌّ ، ولا لما لا بدَّ
منه صائدٌ ؛ فإن للزء وإن كملَ حِلْمُهُ ، واجتمع له عقله واستد رأيه ، ليس بدافع
عن نفسه قدراً برأي ولا كيد ، ولعل ما سُرُّوا به واستجذلوا له لا يدم لهم
سروره ، ولا يصرف عنهم محذوره .

وذاع أمره ، وفشا في الناس ، وقالوا : خدَّعه معاوية حتى طلق امرأته ا
وإنما أرادها لابنه ، وقبحوا فعله .

(١) لعل أنها استفتت جميع أموره حتى عرفته كل المعرفة .

فتمت مكيدته تلك ، ولكن القادير أتت بخلاف تدييره ؛ وذلك أنه لما اقضت أقرأ^(١) زينب ، وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطبها لما على ابنه يزيد ؛ فخرج حتى قدم الكوفة ، وبها يومئذ الحسين بن علي رضي الله عنهما ، فبدأ أبو الدرداء بزيارته ، فسلم عليه الحسين ، وسأله عن سبب مقدمه ؛ فقال :

وجئني معاوية خاطباً على ابنه يزيد زينب بنت إسحاق ؛ فقال له الحسين : لقد كنت أردت نكاحها ، وقصدت الإرسال إليها إذا اقضت أقرأها ، فلم يمنعني من ذلك إلا تخير^(٢) مثلك ؛ فقد أتى الله بك ؛ فاطلب - رحمك الله - على وعليه ، لتتخير من اختاره الله لها ، وهي أمانة في عنقك حتى تؤديها إليها وأعطيها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه ؛ فقال : أفضل إن شاء الله .

فلما دخل عليها أبو الدرداء ، قال : أيتها المرأة ؛ إن الله خلق الأمور بقدرته ، وكونها بمرتته ، فجعل لكل قدراً ، ولكل قدر سبباً ؛ فليس لأحد عن قدر الله محيص ، ولا للخروج عن أمره مهرب ؛ فكان مما سبق لك ، وقدر عليك ، الذي كان من فراق عبد الله بن سلام إليك ، ولعل ذلك لا يضرك ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ؛ وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها ، وولى عهده والخليفة من بعده : يزيد بن معاوية ، والحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب أهل الجنة ، وقد بلك شأنهما وسنأوهما وفضلهما ، وقد جئتكم خاطباً عليهما فاختراني أيهما شئت .

فسكتت طويلاً ، ثم قالت : يا أبا الدرداء ؛ لو أن هذا الأمر جاءني وأنت

(١) للازد عندها . (٢) التخير : الانتقاء .

غائب لأشخصتُ فيه الرسل إليك ، وانبتُ فيه رأيك ، ولم أقطعهُ دونك ،
فأما إذ كنتَ أنتَ للرسل ؛ قد فوّضتُ أمرى بعد الله إليك وجملتهُ في يديك ؛
فاختَرْتُ لى أرضاهما لديك ، والله شامد عليك ، فاقضِ فى أمرى بالتحرى ،
ولا يصدّنك عن ذلك اتباعُ هوى ، فليس أمرهما عليك خفياً ، ولا أنتَ عما
طوّقتك غيباً .

قال : أيتها المرأة ؛ إنما علىّ إعلامُك ، وعليك الاختيار لنفسك . قالت :
عفا الله عنك ! إنما أنا ابنةُ أخيك ، ولا غنى لى عنك ، فلا تمنعك رهبةُ أحدٍ عن
قول الحق فيما طوّقتك ، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك ؛ والله خير من
رؤى وخيف ، إنه بنا خير لعليف .

فلما لم يجد بُدّاً من القول والإشارة قال : أى بنية ؛ إن ابنَ بنت رسول الله
صلّى الله عليه وسلم أحبُّ إلىّ وأزقى عندى والله أعلم بخيرها لك .

قالت : قد اخترته وأردته ورضيته .

فتزوَّجها الحسين ، وساق لها مهرأ عظيماً . فبلغ ذلك معاوية ، فتماطله ولام
أبا الدرداء لوماً شديداً ، وقال : من يرسل ذابلاً وعمى يركب خلاف ما يهوى .

ثم اطرح معاوية عبد الله بن سلام ، وقطع عنه جميع روافده ، لسوء قوله فيه ،
وتهمته أنه خدعه ، ولم يزل يجرُّوه حتى عيّل صبره ، وقلّ ما فى يده .

فرجع إلى العراق ، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه مالا عظيماً ، ودراً
كثيراً ؛ فظن أنها تجتصده ؛ لسوء فعله بها ، وطلاقها من غير شيء كان منها .

فلقي حسيناً فلم عليه ، ثم قال : قد علمت ما كان من خبري وخبر زينب ، وإني كنت قد استودعتها مالا ، ولم أقبضه - وأتني عليها - وقال له : ذاكِ رَها أمري ، واحضضها حل رد مالي .

فلما انصرف الحسين إليها ، قال لها : قد قدم عبد الله بن سلام ، وهو يُحسِنُ الثناء عليك ، ويحمل النِّشرَ عنك في حسن صحبتك ، وما آنسَه قديماً من أمانتك ؛ فسرني ذلك وأعجبني ، وذكر أنه كان قد استودعك مالا ، فأدّى إليه أمانته ، وردّى عليه ماله ، فإنه لم يقل إلا صدقاً ، ولم يطلب إلا حقاً .

فالت : صدق ، استودعني مالا لا أدري ما هو ، فادفعه إليه بطايقه ، فأتني عليها حسين خـميراً . وقال : ألا أدخله إليك حتى تتبرئتي إليه منه كما دفعه إليك ؟

ثم لقي عبد الله وقال : ما أنكرت مالك ، وإنها زعمت أنه بطايقك فأدخل إليها ، وتسلم مالك منها .

فقال : أو ما تأمر من يدفعه إلي ؟ قال : لا ؛ بل قبضه منها كما دفعته إليها . ودخل عليها حسين ، وقال : هذا عبد الله قد جاء يطلبُ وديعته ؛ فأخرجت إليه الیدر ، فوضعتها بين يديه ، وقالت : هذا مالك ، فشكر وأتني .

وخرج حسين عنهما ، وفضَّ عبد الله بن سلام خواتم بدره^(١) ، وحشي لها ذلك ، وقال : خذِي فهو قليل مني ؛ فاستعبرا جميعاً ، حتى علَّت أصواتهما أسفاً على ما ابتلياً به ، فدخل الحسين عليهما ، وقد رقَّ لهما ، فقال :

(١) البدره : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف .

أشهد الله أني طلقته ؛ اللهم إنك تعلم أني لم أتزوجها رغبة في مالها ولا جمالها ،
ولكني أردت إحلالها لبسليها .

فسألها عبد الله أن تصرف إلى حسين ما كان قد ساقه إليها من مهر ؛ فأجابته
إلى ذلك ؛ فلم يقبله الحسين ، وقال : الذي أرجوه من الثواب خير لي .
فلما انقضت أقرأها زوجها عبد الله ، وحرّمها الله يزيد بن معاوية .

٩٥ - مَنْ صَدَّقَ اللَّهَ (١) نَجَا *

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أنه قال : إن ثلاثة نفرٍ انطلقوا إلى الصحراء فمطَّروهم السماء ؛ فلبثوا إلى كهفٍ في جبلٍ ينتظرون إقلاعَ المطر ؛ فبينما هم كذلك إذ هبطت صخرةٌ من الجبل ، وجثَّتْ على باب النار فيسوا من الحياة والنَّجاة ، قال أحدهم : لينظر كلُّ واحدٍ منكم إلى أفضلِ عملٍ عملهُ فليذكره ، ثم ليدعُ الله تعالى عسى أن يرَّحِّمنا وينجيننا .

قال أحدهم : اللهم إنك تعلم أنى كنت بارًّا بوالدي ، وكنت آتيهما بنُبوِّهما (٢) فَيُنْتَبِئَانِي ، فأُتيت ليلةً بنُبوِّهما ، فوجدتهما قد ناما ، وكرهتُ أن أوقظهما ، وكرهتُ الرجوع ؛ فلم يزل ذلك دأبى حتى طلع الفجر ؛ فإن كنتُ عملتُ ذلك لوجهك ، فأفرج عنا ؛ قالت الصخرةُ عن مكانها حتى دخل عليهم الضوء .

وقال الآخر : اللهم إنك تعلم أنى هويت امرأة ، ولقيت في شأنها أهوالاً حتى ظنرتُ بها ، ولكنى تركتها خوفاً منك ؛ فإن كنتَ تعلم أنه ما حلتى على ذلك إلا مخافتُك فأفرج عنا فانفرجت الصخرةُ حتى لو شاء القوم أن يخرجوا لتدروا .

* جمع الأمثال : ٢ - ١٦٧

(١) صدق الله : نبي الله بالصدق ، وهو أن يحقق قولهُ عمله . (٢) الذوق : شراب المعنى .

وقال الثالث : اللهم إنك تعلم أني استأجرتُ أَجْرَاءَ ، فَمِيلُوا لِي فَوْقَتَهُمْ
أَجُورَهُمْ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا تَرَكْتُ أَجْرَهُ عِنْدِي ، وَخَرَجْتُ مُعَاذِبًا ، فَوَيْتُ أَجْرَهُ حَتَّى
نَمَّا وَبَلَغَ مَبْلَغًا ، ثُمَّ جَاءَ الْأَجِيرُ ، فَطَلَبَ أَجْرَتَهُ ؛ فَقُلْتُ : هَاكَ مَا تَرَى مِنَ الْمَالِ ؛
فَإِنْ كُنْتُ عَمِلْتُ ذَلِكَ لَكَ فَأَفْرَجْ عَنَّا ؛ فَالَتِ الصَّخْرَةُ وَانْطَلَقُوا سَالِمِينَ ! فَقَالَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ صَدَّقَ اللَّهَ نَجَا » .

٩٦ — عمر بن أبي ربيعة في مضرب فاطمة بنت عبد الملك*

كان عمر^(١) بن أبي ربيعة جالساً بمئى في فناء^(٢) مضربه ، وغلبته حوله إذ أقبلت امرأة برزة^(٣) عليها أثر النعمة ؛ فسلمت فرد عليها عمر السلام ، فقالت له : أنت عمر بن أبي ربيعة ؟ فقال لها : أنا هو ؛ فباحجتك ؛ قالت له : حيّاك الله وقرّبك ؛ هل لك في محادثة أحسن الناس وجهاً ، وأعمهم خلقاً ، وأكملهم أدباً ، وأشرفهم حسباً ؟ قال : ما أحبّ إلىّ ذلك ؛ قالت : على شرط ؛ قال : قولى ، قالت : مُسَكِّنِي من عينيك فأشدّهما وأقودك ، حتى إذا تَوَسَّطْتَ للوضع الذى أريدُ حَلَّتْ الشدةُ ، ثم أقبلُ ذلك بك عند إخراجك حتى أنتهى بك إلى مضربك ، قال : شأنك . قطعت ذلك به .

قال عمر : فلما انتهت بي إلى المضرب الذى أرادتُ كَشَفْتُ عن وجهي فإذا أنا بامرأة على كرسي لم أر مثلاً قطُ جمالاً وكالاً ، فسلمتُ وجلستُ ، فقالت : أأنت عمر بن أبي ربيعة ؟ قلت : أنا عمر ، قالت : أنت الفاضح للحرائر ؟ قلت : وما ذلك . جملنى الله فداءك ؛ قالت : ألسن القاتل :

* الأغانى : ١ - ١٩٠

(١) هو عمر بن أبي ربيعة ، اختص شعره بوصف النساء وعد أنسب الشعراء ، وكان يغم بحكة ويتعرض للحجاج ، وله في ذلك أخبار كثيرة . توفي سنة ٩٣ هـ . (٢) الفناء : الساحة على باب الدار . (٣) برزة : بارزة الجمال .

قالت: وعَيشِ أَخِي وَنِعْمَةِ وَالِدِي لِأَنْبَنَ الْحَيُّ إِنْ لَمْ تَخْرُجْ
فَجَرْتُ خَوْفَ يَمِينِهَا فَتَبَسَّمتُ فَعَلْتُ أَنْ يَمِينِهَا لَمْ تَخْرُجْ^(١)
فَتَأَوَّلْتُ رَأْسِي لِتَعْرِفَ مَسَّه بِمُخَضَّبِ الْأَطْرَافِ غَيْرِ مُشْنَجِ^(٢)
فَلَمَّسْتُ قَاها أَخِيَذَا بِقَرُونِهَا شَرِبَ الزَّيْفُ^(٣) بِبَرْدِ مَاءِ الْحَشْرِجِ^(٤)

ثم قالت : قم فاخرج عني ، ثم قامت من مجلسها وجاءت للرأفة فشددت
عيني ، ثم أخرجتني حتى انتهت بي إلى مضربتي وانصرفت وتركني ، فخلت
صيني وقد دخلني من السكابة والحزن ما الله به أعلم ؛ وبث ليلتي ؛ فلما أصبحت
إذا أنا بها ، فقالت : هل لك في العود ؟ قلت : شأنك ، فعملت بي مثلَ فِئليها
بالأمس حتى انتهت بي إلى اللوض ، فلما دخلت إذا بتلك الفتاة على كرسى ،
فقلت : إيه يا فضاح الحرائر ! قلت : بماذا - جعلني الله فداءك ؟ قالت : بقولك .
« وناهدة الثديين » .

ثم قالت : قم فاخرج عني .

فقلت فخرجت ثم رددت ، فقالت لي : لولا وشك الرحيل ، وخوف القوت ،
ومحبتتي لئلا جانك ، والاستكثار من محادثتك لأقصيتك ، هات الآن كلمتي
وحدثني وأنشدني ، فكلمت أدب الناس وأعلمهم بكل شيء ، ثم نهضت

(١) لم تخرج : لم تفض ولم تكن جادة في حلفتها . (٢) مشنج : متقيس . (٣) الزيف :
الزئوف ، وهو من عيش حتى ييس عروقه وجف لسانه . (٤) الحشرج : الثرة في الجبل
يجتمع فيها الماء فيصير .

وأبطأت المجوز وخَلَا لِي البيت ، فأخذت أنظر ، فإذا أنا بثور^(١) فيه خَلُوق^(٢) ،
فأدخلتُ يدي فيه ثم خبأتها في رُذْئِي^(٣) ؛ وجاءت تلك المجوز فشَدَّتْ عيني
ونَهَضَتْ بِي تَقْوَدُنِي ، حتى إذا صرْتُ على باب للضرب ، أخرجت يدي فضربتُ
بها على المَضْرَبِ ثم صرْتُ إلى مَضْرِي ، فدَعَوْتُ غِلْمَانِي قُلْتُ : أَيْكُمْ يَقْنِي عَلَى
باب مضرب عليه خَلُوق ، كأنه أتركف فهو حرٌّ وله تَحْسِنَاتُهُ دَرَم .

فلم أَلْبِثُ أَنْ جَاءَ بِمَضْمِهِمْ قَتَال : قَم ، قَهَضَتْ مَعَهُ فَإِذَا أَنَا بِالْكَفِّ طَرِيقَةً ؛
وإذا للضرب مضربُ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَأَخَذْتُ فِي أَهْبَةِ
الرَّحِيلِ ، فَلَمَّا نَفَرْتُ نَفَرْتُ مَعَهَا فَبَصُرْتُ فِي طَرِيقِهَا بِقَبَابٍ وَمَضْرَبٍ وَهَيْئَةٍ جَمِيلَةٍ ،
فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقِيلَ لَهَا : هَذَا عَمْرُ بْنُ أَبِي رَيْمَةَ ، فَاسْأَلِيهَا أَسْرَهُ ؛ وَقَالَتْ
لِلْمَجُوزِ الَّتِي كَانَتْ تُرْسِلُهَا إِلَيْهِ : قَوْلِي لَهُ : نَشَدْتُكَ اللَّهُ وَالرَّحِمَ أَلَا نَصَحَنِي ،
وَنَحْنُكَ ! مَا شَأْنُكَ ؟ وَمَا الَّذِي تُرِيدُ ؟ انصرف ولا تَفْضَحْنِي وَتُشَيِّطُ^(٤) بِدَمَكِ .

فَسَارَتْ الْمَجُوزُ إِلَيْهِ فَأَدَّتْ إِلَيْهِ مَا قَالَتْ لَهَا فَاطِمَةُ ، فَقَالَ : لَسْتُ بِمَنْصَرَفٍ
أَوْ تَوَجَّهْتُ إِلَى بَقْمِيصِهَا ، فَوَجَّهْتُ إِلَيْهِ بِقْمِيصٍ مِنْ ثِيَابِهَا ، فَزَادَهُ ذَلِكَ شَفَقًا ؛ وَلَمْ يَزَلْ
يَبْقِعُهُمْ وَلَا يَخَالِطُهُمْ حَتَّى إِذَا صَارُوا عَلَى أُمِّيَالٍ مِنْ دِمَشْقٍ انصرف ، وَقَالَ ذَلِكَ :

ضَاقَ النَّدَاءُ بِحَاجَتِي صَدْرِي وَبُسْتُ بَعْدَ تَقَارُبِ الْأَمْرِ
وَذَكَرْتُ فَاطِمَةَ الَّتِي عُلِقْتُهَا عَرَضًا فَيَا لِحَوَادِثِ الدَّهْرِ
وَكُنُّ فَاهَاً عِنْدَ رَقْدِهَا تَجْرِي عَلَيْهِ سُلَافَةُ الْجَمْرِ

(١) الثور : إناء صغير . (٢) الخَلُوق : نوع من الطيب . (٣) الرذن : الكم . (٤) أَشَاط

بَدَمَهُ : أَهْمَرَهُ .

فَسَبَتْ فَوَادِي إِذْ عَرَضْتُ لَهَا يَوْمَ الرِّحِيلِ بِسَاحَةِ الْقَصْرِ
بِمَزِينٍ رَدَعٌ^(١) الْعَبِيرُ بِهِ حَسَنَ التَّرَائِبِ^(٢) وَاضِحَ النُّعْرِ
وَبِجِيدِ آدَمَ^(٣) شَادِنٍ^(٤) خَرَقٍ^(٥) يَرَعَى الرِّيَاضَ بَيْلِدَةً قَفَرٍ
لَهَا رَأَيْتُ مَطِيئَهَا حِزْقًا^(٦) خَفَقَ الْفَوَادُ وَكَفْتُ ذَا صَبْرِ
وَتَبَادَرَتْ^(٧) عَيْنَايَ بَعْدَهُمْ وَانْهَلَّ دُمْعُمَا عَلَى الصَّدْرِ
وَلَقَدْ عَصَيْتُ ذَوِي الْقَرَابَةِ فِيكُمْ طُرًّا وَأَهْلَ الْوُدِّ وَالْمَصْرِ
حَتَّى لَقَدْ قَالُوا وَمَا كَذَبُوا : أَجْنَفَتْ أُمُّ بَكٍ دَاخِلَ السُّحْرِ !

(١) الردع : أثر الطيب في الجسد . (٢) الترائب : جمع تريبة، وهي موضع الفلادة من الصدر.
(٣) الآدم : الأسمر . (٤) شدن الظلي : ترعرع وشب . (٥) الخرق : الخائب المتحير .
(٦) حزقاً : جماعات . (٧) تبادرت : سالت دموعها .

٩٧ - عمارة*

كانت عند عبد الله^(١) بن جعفر جارية مُنْعِيَةٌ يقال لها عمارة ، وكان لما منه مكان لم يكن لأحد من جواريه .

فلما وقد عبد الله بن جعفر على معاوية خرج بها معه ، فزاره يزيد ذات يوم فأخرجها إليه ، فلما نظر إليها وسمع غناها وقعت في نفسه ، وجعل لا يمنعه من أن يبوَحَ بما يجدُ بها إلا مكانُ أبيه ، مع يأسه من الظفر بها ، فلم يزل يكتأتم الناس أمرها إلى أن مات معاوية ، وأفضى الأمرُ إليه ، فاستشار بعض من قدم عليه من أهل المدينة وعامة من يثق به في أمرها ، وكيف الحيلةُ فيها ، فقيل له : إن أمر عبد الله ابن جعفر لا يُرام ، ومنزلته من الخاصة والعامة ومنك ما قد علمت ، وأنت لا تستجيز إكراهه ، وهو لا يبيعها بشئ أبداً ، وليس يُغني في هذا إلا الحيلة .

فقال : انظروا لي رجلاً عراقياً له أدبٌ وطرْفٌ ومعرفة ، فطلبوه فأتوه به ؛ فلما دخل رأى بيانا وحلاوة وفهما ، فقال يزيد : إني دعوتك لأمرٍ إن ظفرتَ به فهو حظك آخر الدهر ، وبدُ أكافئك عايتها إن شاء الله ؛ ثم أخبره بأمره ، فقال له : عبد الله بن جعفر ليس يُرام ما في قلبه إلا بالخذِية ، ولن يقدر أحدٌ على ما سألت ، فأرجو أن أكونه والقوة بالله ، فأعني بالمال . قال : خذما أحببت .

* مصارع المشاق : ٣١٠

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كان كريماً جواداً ، يميل إلى سماع الفناء ، وأخبار في الكرم والسماع كثيرة ، توفي سنة ٨٩٠ هـ .

فأخذ من طُرَف الشام وثياب مصر، واشترى متاعاً للتجارة من رقيق ودواب وغير ذلك ، ثم شخص إلى المدينة ، فأناخ بِمَرْصَةِ^(١) عبد الله بن جعفر ، واكترى منزلاً إلى جانبه ، ثم توسَّل إليه ، وقال : إني رجلٌ من أهل العراق قدمتُ بتجارة ، وأحببتُ أن أكونَ في عزِّ جوارك وكنفك ، إلى أن أبيع ما جئتُ به .

فبعث عبد الله بن جعفر إلى قَهْرْمَانِه : أن أكرم الرجل ، ووسَّع عليه في نُزُلِه^(٢) . فلما اطمأنَّ العراق سلم عليه أياماً ، وعرفه نفسه ، وهَيَّأَ له بِسَلَّةَ فَاَرِهَةٍ ، وثياباً من ثياب العراق وألطافاً ؛ فبعث بها إليه ، وكتب معها : « ياسيدي ؛ إني رجلٌ تاجرٌ ، ونعمةُ الله عليَّ سائبة ، وقد بعثتُ إليك بشيء من تحف ، وثياب وعطر ، وبعثتُ بِبَغْلَةٍ خفيفة العنان ، وطِيئَةِ الظَّهْرِ ؛ فَاتَّخِذْهَا لِرُكُوبِكَ ؛ فَأَنَا أَسْأَلُكَ بِقَرَابَتِكَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله إلَّا قَبْلَتَ هَدِيَّتِي ، فَإِنْ أَعْظَمَ أَمَلِي في سَفَرِي هَذِهِ أَنْ أُسْتَفِيدَ الْإِنْسَانُ بِكَ ، وَالتَّحَرُّمُ بِمَوَاصِلَتِكَ .

فأمَر عبد الله بِقَبْضِ هَدِيَّتِهِ ، وخرج إلى الصلاة ، فلما رجع مرَّ بالعراق في منزله فقام إليه ، وقبل يده ، واستكثر منه ، فرأى أدباً وطرفاً وفصاحة ، فأعجب به وسُرَّ بنزوله عليه ، فجعل العراق في كل يوم يبعث إلى عبد الله بهدية طريفة . فقال عبد الله : جزى الله ضيفنا هذا خيراً ، فقد ملأنا شُكْرًا ، وما نقدر على مكافأته ؛

(١) المَرْصَة : كل بقعة بين الدور ليس بها بناء . (٢) النَزْل : مامي " للضيف أن ينزل فيه .

وإنه لكذلك إلى أن دعاه عبد الله ، ودعا بُماره في جواربه ، فلما طاب لها المجلس وسمع غناء عمارة ، تعجب وجعل يزيد عجبه ، فلما رأى ذلك عبد الله سرَّ به إلى أن قال له : هل رأيت مثل عمارة ؟ قال : لا والله يا سيدي ، ما رأيتُ مثلها وما تصلح إلا لك ، وما ظننت أن يكون في الدنيا مثل هذه الجارية : حُسن وجه ، وحُسن عمل . قال : فكم تساوى عنده ؟ قال : ما لها ثمن إلا الخلافة ، قال : تقول هذا لِتَزِين لي رأياً فيها وتجتلب سروري ؟ قال له : يا سيدي ؛ والله إني لأحب سرورك ، وما قلت لك إلا الجِد ، وبند فإني تاجر أجمع الدراهم إلى الدراهم ، طلباً للربح ولو أعطيتها بمسرة آلاف دينار لأخذتها ، فقال له عبد الله : عشرة آلاف ؟ قال : نعم - ولم يكن في ذلك الزمان جارية بهذا الثمن - فقال له عبد الله : أنا أبيعكها بمسرة آلاف . قال : قد أخذتها . قال : قد وجب البيع . وانصرف العراق .

فلما أصبح عبدُ الله لم يشعر إلا بالمال قد حى به ، فبيل لعبد الله : قد بعث العراق بمسرة آلاف دينار ، وقال : هذا ثمن عمارة . فردَّها ، وكسب إليه : إنما كنتُ أمزح معك ، وبما أعلمك أن مثلي لا يبيع مثلها ، فقال له : جُعِلت فداك ! إن الجِد والمزَل في البيع سواء ، فقال له عبد الله : ويحك ! ما أعلم جاريةً تساوى ما بذلتَ ، ولو كنتُ بائعها من أحد لآثرتك ، ولكني كنتُ مازحاً ، وما أبيعها بملك الدنيا لحرمتها بي ، وموضعها من قلبي . فقال العراق : إن كنتُ مازحاً فإني كنتُ جاداً ، وما اطلعتُ على ما في نفسك ، وقد

ملكْتُ الجارية ، وبشتُ إليك بضمنها ، وليست تحمل لك ، ومالي من أخذها من يَدٍ .

فأنه إياها قال له : ليست لي بيّنة ، ولكنني أَسْتَحْلِفُكَ عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنبره ، فلما رأى عبدُ الله الجدّ قال : بئس الضيفُ أنت ! ما طرقتنا طارق ، ولا نزل بنا نازل ، أعظمُ بليّة منك ، أمحلّني فيقول الناس : اضلعهد عبدُ الله ضيفه وقهره ، وأجأه إلى أن استحلّقه ، أما والله لتعلمن أُنّى سأعتصم في هذا الأمر بالصبر وحسن العزاء .

ثم أمر قهرمانه بقبض اللال منه ، وبتجهيز الجارية بما يُشبهها من الخدم والياب والطيب ، فجهّزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار .

فقبض المراق الجارية ، وخرج بها ؛ فلما برز من المدينة ، قال لها : يا مُحرّمة : إني والله ما ملكْتُك قط ، ولا أنت لي ، ولا مثلي يشتري جارية بمشرة آلاف دينار ، وما كنت لأقدم على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله فأسلبه أحبّ الناس إليه لنفسى ، ولكنني دَيسِسُ^(١) من يزيد بن معاوية ، وأنتِ له ، وفي طلبك بعثَ بي ، فاستترى مني .

ثم مضى بها حتى وردَ دمشق ، فقلّعهَا الناسُ بمنازة يزيد ، وقد استخلف ابنه معاوية بن يزيد ؛ فأقام الرجلُ أياماً ، ثم تلطّف للدخول عليه ، فشرح له القصة — ولم يكن أحدٌ من بني أمية يمدل بمعاوية بن يزيد في زمانه نبلاً ونُسكاً — فلما

(١) الدسيس : من تمسه لآتيك بالأخبار .

أخبره قال : هي لك ، وكل ما دضه إليك من أمرها فهو لك ، وأرحل من يومك فلا أسمعُ بخبرك في شيء من بلاد الشام .

فرحل العراقي ، ثم قال للجارية : إني قلتُ لك ما قلت حين خرجتُ بك من المدينة ؛ فأخبرتُك أنك ليزيد ، وقد صرت لي ، وأنا أشهد أنك لعبد الله بن جعفر ، وأني قد ردّدتُك عليه ، فاستترى مني .

ثم خرج بها حتى قدم المدينة ، فنزل قريباً من عبد الله ، فدخل عليه بعضُ خدمه ، فقال له : هذا العراقي ضيفُك الذي صنع بنا ما صنع ، وقد نزل المَرَصَة لاجيء الله ! فقال عبد الله : مَهْ ! أنزلوا الرجل وأكرموا ! فلما استقرَّ بسث إلى عبد الله : جعلتُ فداءك ! إن رأيت أن تأذن لي لأشأفك بشيء فعلت ؛ فأذن له ؛ فلما دخل سلم عليه ، وقبّل يده فقرّبه عبد الله ، ثم اقتص عليه القصة حتى إذا فرغ ، قال : قد والله وهبنا لك قبل أن أراها وأضع يدي عليها ، فهي لك ومردودة عليك ، وقد علم الله تعالى أني ما رأيتُ لها وجهاً إلا عندك .

فبعث إليها ، فجاءت ، وجاء بما جهزها به مؤثراً ، فلما نظرت إلى عبد الله ، خرجت مشياً عليها ، وأهوى إليها عبد الله ، وخرج العراقي وتصايح أهل الدار : عُمارَة ! عُمارَة ! فحصل عبد الله يقول ، ودموعه تجري : أحلمُ هذا ؟ أحقُّ هذا ؟ ما أصدقُ بهذا ! فقال له العراقي : جعلتُ فداءك ! قد ردها عليك إيتارك الوفاء ، وصبرك على الحق ، واعتيادك له .

فقال عبد الله : الحمد لله ، اللهم إنك تعلم أني تصبّرت عنها ، وآثرت الوفاء ،

وأسلمت لأمرك ، فرددتها على يمينك ؛ فلك الحمد . ثم قال : يا أخا العراق ؛ ما في الأرض أعظم منةً منك ، وسيجزيك الله تعالى .

وأقام المراقى أياماً وباع عبدُ الله غنماً لهُ بثلاثة عشر ألف دينار ، وقال لقهرمانه : احملها إليه ، وقل له : اعذر ، واعلم أني لو وصلتك بكل ما أملك رأيتك أهلاً لأكثر منه ؛ فرحل المراقى محموداً وافر المال .

٩٨ — عمر بن أبي ربيعة في لبسة أعرابي*

قال عثمان بن إبراهيم الخطابي :

أَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ أَبِي رَيْعَةَ بَسْدَ أَنْ نَسَكَ بَسْنِينَ ، وَهُوَ فِي مَجْلَسِ قَوْمِهِ مِنْ
بَنِي مَخْزُومٍ ، فَانْتَظَرْتُ حَتَّى تَفَرَّقَ الْقَوْمُ ، ثُمَّ دَنَوْتُ مِنْهُ وَمَعِيَ صَاحِبٌ لِي طَرِيفٌ ،
وَكَانَ قَدْ قَالَ لِي : تَعَالَ حَتَّى نَهْبِجَهُ عَلَى ذِكْرِ النَّزْلِ ، فَانْتَظَرْتُ هَلْ بَقِيَ فِي نَفْسِهِ
مِنْهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبِي : يَا أَبَا الْخَطَّابِ ، أَكْرَمَكَ اللَّهُ ؟ لَقَدْ أَحْسَنَ الْمُعْذِرِيُّ
وَأَجَادَ فِيمَا قَالَ . فَانْظُرْ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَمَاذَا قَالَ ؟ قَالَ : حَيْثُ يَقُولُ :

لَوْ جُذِّ بِالسِّيفِ رَأْسِي فِي مَوْكِهَا لَمْ يَهْوِ سَرِيحًا مَحْشُورًا رَأْسِي
فَارْتَنَحَ عَمْرُؤُا إِلَى قَوْلِهِ وَقَالَ : هَاءُ ! لَقَدْ أَجَادَ وَأَحْسَنَ . قُلْتُ : وَهَلْ دَرَجُنَادَةٌ
الْمُعْذِرِيُّ ! فَقَالَ عَمْرُ : حَيْثُ يَقُولُ مَاذَا ؟ وَيَحْكُ ! قُلْتُ : حَيْثُ يَقُولُ :

سَرَرْتُ لِمَيْتِكَ سَلَى بَسْدَ مَمْنَعًاهَا فَيْتُ مُسْتَنْبَهًا^(١) مِنْ بَسْدٍ مَسْرَاهَا
وَقُلْتُ : أَهْلًا وَسَهْلًا مِنْ هَذَاكَ لَنَا . إِنْ كُنْتَ تَمْنَاهَا أَوْ كُنْتَ إِلَيْهَا
تَأْتِي الرِّيحَ الَّتِي مِنْ نَحْوِ بِلَادِنَا حَتَّى أَقُولَ دَنْتُ مِنَّا بَرِيغًا
وَقَدْ تَرَاخَتْ بَنَاهَا نَوَى قُدْفُ^(٢) هِيَاهُ مُصْبَحُهَا مِنْ بَسْدٍ مُسَاهَا
مِنْ حُبِّهَا أَعْنَى أَنْ يُلَاقِيَنِي مِنْ نَحْوِ بِلَادِهَا نَاعٍ فَيَنْعَاهَا
كَيْمَا أَقُولُ فِرَاقُ لَا قَاءَ لَهُ وَتُضْمِرُ النَّفْسُ يَأْسًا ثُمَّ تَسْلَاهَا

* الأغانى : ١ — ١٧٤ ، الأمالي : ٢ — ٥٠ .

(١) مستنبهًا : مستيقظًا . (٢) نوى قذف : بيعة .

ولو تموت لراعنسى وقلتُ ألا يا بؤس الموت ! ليت الموت أبقاها

قال : فضحك عمر ، ثم قال : وأبيك لقد أحسنَ وأجاد وما أبقي ، ولقد هَيَّجْتُكُمْ عَلَى سَاكِنَا ، وَذَكَّرْتُكُمْ بِمَا كَانَ عَنِ غَائِبَا ، وَلَأَحَدُنَّكُمْ حَدِيثًا حَلُوءًا :

بينما أنا منذ أعوام جالس إذ أتاني خالد الخريّيت فقال لى : يا أبا الخطاب ؛ مرت بى أربعُ نِسوة فَبَيْلُ الْعِشَاءِ يُرَدُّنَ مَوْضِعَ كَذَا وَكَذَا ؛ وَلَمْ أَرَ مِثْلَهُنَّ فِي بَدْوٍ وَلَا حَضَرٍ ، فِيهِنَّ هُنْدُ بِنْتُ الْحَارِثِ اللَّزُّيَّةُ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَأْتِيَهُنَّ مُتَنَكِّرًا ، فَتَسْمَعَ مِنْ حَدِيثِهِنَّ ، وَتَعْتَمِقَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِنَّ ، وَلَا يَظُنَّنَّ مِنْ أَنْتَ ؟ قُلْتَ لَهُ : وَيْحَكَ ! وَكَيْفَ لِي أَنْ أَخْفِيَ نَفْسِي ؟ قَالَ : تَلْبِسُ لِبْسَةَ أَعْرَابِي ؛ ثُمَّ تَجْلِسُ عَلَى قَعُودٍ ^(١) ، فَلَا يَشْعُرُونَ إِلَّا بِكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَيْهِنَّ .

فَعَلْتُ مَا قَالَ ؛ وَجَلَسْتُ عَلَى قَعُودٍ ، ثُمَّ أَتَيْتُهُنَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِنَّ ، ثُمَّ وَقَفْتُ بِقُرْبِهِنَّ ، فَسَأَلْنِي أَنْ أُنْشِدَهُنَّ وَأُحَدِّثَهُنَّ ، فَأَنْشَدْتُهُنَّ لِكَثِيرٍ وَجَمِيلٍ وَالْأَحْوَصِ وَنُصَيْبٍ وَغَيْرِهِمْ ؛ فَحَلَنَ لِي : وَيْحَكَ يَا أَعْرَابِي ! مَا أَمْلَحَكَ وَأُظْرَفَكَ ! لَوْ نَزَلْتُ فَتَحَدَّثْتُ مَعَنَا يَوْمَنَا هَذَا ! فِإِذَا أُمْسِيَتْ أَنْصَرَفْتَ فِي حَفْظِ اللَّهِ !

فَانْحَتُّ بِبَيْرِي ، ثُمَّ تَحَدَّثْتُ مَعَهُنَّ ، وَأَنْشَدْتُهُنَّ فَمَرَرْنَ بِي وَجَدَلْنَ بِقُرْبِي ، وَأَعْجَبْنِي حَدِيثِي ، ثُمَّ لِهِنَّ تَفَامُزْنَ ، وَجَعَلَ بَعْضُهُنَّ يَقُولُ لِبَعْضٍ : كَأَنَّا نَعْرِفُ هَذَا الْأَعْرَابِي ! مَا أَشْبَهَهُ بِعَمْرِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ! فَقَالَتْ لِإِحْدَاهُنَّ : هُوَ وَاللَّهِ عَمْرٍ ! قَدَدْتُ هُنْدَ يَدَهَا فَانْتَزَعَتْ عِمَامَتِي فَأَلْفَتْهَا عَنْ رَأْسِي ثُمَّ قَالَتْ لِي : هِيَ يَا عَمْرٍ !

(١) القعود من الإبل : ما يمتد به الراعى في كل حاجة .

أُتراك خدعتنا منذ اليوم ! بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد ؛ فأرسلناه
إليك لتأينينا في أسوأ هيئة ، ونحن كما ترى . قال عمر : فحادثهن ساعة ،
ثم انصرفت ، فذلك قولى :

ألم تسأل الأطلالَ وللتربما بيطن^(١) حلياتِ دوارس بَلَقَمَا
فبيخلن أو يُخزِنَ بالمِ بدمَا نكأن فؤادا كان قِدَمًا مُفَجَمَا
بهند وأترابٍ هند إذ الهوى جيعٌ وإذ لم تخش أن يصدَمَا
وإذ نحن مثلُ لواء كان مِزاجُه^(٢) كاصفَق^(٣) الساقِ الرحيقُ المَشَمَمَا^(٤)
وإذ لا تُطِيع الماذلين ولا نرى لوأشٍ ليدينا يطلب الصَّرم^(٥) مَوْضِمَا
تُتَوَعَّنَ حتى عاود القلبَ سُفْمُه وحتى تذكُرُ الحديثَ للودَمَا
قلت لظريهين بالحسن : إنمما صرَرَتَ فهل تَسْطِيعُ نَفْعًا فَنفَمَا
وهيبت قلبًا كان قد ودع الصِّبا وأشياعه ، فاشْفَعِ عسى أن تُشَفَمَا
لئن كان ما قد قلتَ حقًا فما أرى كمثل الآلى أطربتَ فى الناس أربَمَا
قال : نعال ، انظر ، وكيف لى ! أخافُ مقامًا أن يشيعَ فَيَشَمَمَا
قال : اكْتَفِلْ^(٦) ثم التَمَّ وأت باغِيَا فلم ، ولا تكثُرْ بأن تَورَمَا
فإنى سأخفى العينَ عنك فلا تُرى مخافة أن يَفْشُو الحديثَ فَيَسَمَمَا

(١) بطن حليات : اسم موضع قرب مكة . (٢) مزاج الصراب : ما يمزج به . (٣) الصفيق :
الزج . (٤) الرحيق : أطيب الخمر ، والشمع : للزوج . (٥) الصرم : القطع . (٦) اكْتَفِلَ
البعير : إذا أدار على ظهره كاه وركب عليه .

فَأَقْبَلْتُ أَهْرَئِي مِثْلَ مَا قَالَ صَاحِبِي لَوْعَدَهُ أَزْجِي قَعُودًا مَوْقِعًا^(١)
فَلَمَّا تَوَاقَفْنَا وَسَلْتُ أَشْرَقَتْ وَجْوهُ زَهَاهَا الْحَسَنُ أَنْ تَقْتَنَعَا
تَبَاكَهِنَّ بِالْعِرْفَانِ لَمَّا عَرَفْنِي وَقَلْنَ أَمْرُو بَايَغٍ أَكَلٌ وَأَوْضَعَا^(٢)
وَقَرَّبَنِ أَسْبَابَ الْمَسْوَى لِنَتِمِّهِ بَقِيسُ ذِرَاعًا كَمَا قِيسَ لِمَصْبَعَا
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْأَحَادِيثَ قُلْنَ لِي : أَخِفْتَ عَلَيْنَا أَنْ نَفْرَ وَنُغْدَعَا ؟
فَبِالْأَمْسِ أُرْسَلْنَا بِذَلِكَ خَالِدًا إِلَيْكَ وَيَقْتَنَا لَهُ الشَّانَ أَجْمَعَا
فَاجْتَنَعْنَا إِلَّا عَلَى وَفْقِ مَوْعِدِهِ عَلَى مَلَأٍ مَتَا خَرَجْنَا لَهُ مَعَا
رَأَيْنَا خِلَاءَ مِنْ عَيُونٍ وَمَجْلِسًا دَمِيثًا^(٣) الرُّبَا سَهْلَ الْمَحَلَّةِ مُمَرَّعَا^(٤)
وَقَلْنَ : كَرِيمٌ نَالَ وَصَلَ كَرَامِهِ فَحَقُّ لَهُ فِي الْيَوْمِ أَنْ يَشْتَقَعَا^(٥)

(١) القعود المرقوم : الذي يظهره آثار الجروح لكثرة ما حمل عليه وركب ، فهو غير ذلول .
(٢) أكل وأوضع : أسرع في سيره . (٣) دمت المكان : سهل . (٤) ممرع : مخصب .
(٥) هذه القصيدة تقسمها قصة ممتعة تحدثت عما كان في الشعر أنشروا من قصص .

٩٩ - حديث يوم النوحه*

قال حماد الراوية :

أتيت مكة ، جلستُ في حَلَقَةٍ فيها عمرُ بنُ أبي ربيعة ، وإذا هم يتذاكرون
المُغزيرين^(١) وعشقم وصبايتهم ، فقال عمر : أحدثكم عن بعض ذلك :
كان لي خليلٌ من عُذرة يقال له : الجعد بن مِهْجَع ، ويكنى أبا مُسهر ،
وكان يلتقي مثل الذي ألقى من الصباية بالنساء والوجدِ بهن ؛ على أنه كان لاعابراً
الخلوة ، ولا سريع السَّوَةِ ؛ وكان يوافق للوسم في كل سنة ، فإذا رآته^(٢) عن
وقته ترجمت عنه الأخبارُ ، وتوَكَّفت^(٣) له الأسفار^(٤) حتى يَقْدَم ؛ فَمَضَى ذات
سنةٍ إبطاؤه حتى قَدِمَ حُجَّاجُ عُذرة ، فأتيتُ القومَ أَنشدُ^(٥) صاحبي ، وإذا غلام
تنفس الصُّمُداء ! ثم قال : أعنَّ أبي للمسير تَسألُ ؟ قلت : عنه أشألُ ، وإياه
أردتُ . قال : هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! أصبحَ والله أبوالمسير لاموئساً فيهمَل ، ولا مرجوا
فيمَلل ، وأصبحَ والله كما قال القائل :

* الأغانى ١٠ - ٤٨ ، مصارع العشاق : ٥٦ ، المقد الفريد ٤ : ٣٨٤ ، تزيين الأسواق : ٢٤٨
(١) عُذرة : قبيلة اشتهر فيها العشق . قيل لأعرابي : بمن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا
ماتوا ، قال : عُذري ورب الكعبة ! ثم قيل له : ولم ذلك ؟ قال : لأنني ناسئنا صباحة ، و
فتياتنا عفة . وقيل لمروة بن حزام : أصبح ما يقال فيكم : إنكم أرق الناس قلوباً ؟ قال : نعم ،
وإنه لقد تركت ثلاثين شاباً في الحى ، قد خامرهم اللوث ، ما لهم داء إلا الحب ! (٢) رأت :
أُطلأ . (٣) يقال : توكت لفلان ، أى تعرض له حتى يلقاه . (٤) قوم أسفار : ذوو سفر
(٥) أَنشدته : أطلبه .

لمرك ما حيي لأئمة تارك أئيش ولا أفضى به فأموت

قلت : وما الذى به ؟ قال : مثل الذى بك ؛ من تهورك فى الضلال ،
وجركم أذيال الخسار ؛ فكأنكم لم تسمعا بجنة ولا نار ! قلت : من أنت منه
يا بن أخى ؟ قال : أخوه . قلت : أما والله يا بن أخى ما يمنعك أن تسلك مسلك
أخيك من الأدب ، وأن تركب منه مركبه إلا عجزك عن مجارته . ثم صرفت
وجه ناقتى وأنا أقول :

أراحت حجاج عذرة وجهة ولما يرخ فى القوم جعد بن مهجع
خيلان نشكو ما نلاق من الهوى متى ما يقل أسمع وإن قلت أسمع
ألا ليت شعرى أى شئ أصابه فلى زافرات هجن ما بين أصلى
فلا يبعدنك الله خيلاً فإنتى سألنى كالأيت فى الحب مصرعى

ثم انطلقت حتى وقفت موقفي من عرفات ؛ فبينما أنا كذلك إذ يانسان
قد تغير لونه ، وسامت هيئته ، فأدنى ناقتي من ناقتي حتى خالف بين أعناقهما ،
ثم عانقتي حتى اشتد بكاؤه ، فقلت : ما وراءك ؟ فقال : برح العذل ، وطول المظل ،
ثم أنشأ يقول :

لئن كانت عذيلة ذات مظل لقد علمت بأن الحب داه
ألم تنظر إلى تغيير جسى وأنى لا يفارقتى البكا
وإنك لو نكلت الذى بى لزال السر وانكشف الفطاه
وإن معاشرى ورجال قونى حقوهم الصباية واللقاه

قلتُ : يا أبا السَّهَرِ ! إنها ساعة تُضرب إليها أكبادُ الإبل من شرق الأرض
وغربها ، فلو دعوتُ اللهَ كنتُ قَينًا بِمُحاجتك ، وأن تُنصِّرَ على عدوك ؛ فتركني
وأقبل على الدعاء ، فلما نزلت الشمسُ للغروب ، وهم النَّاسُ أن يُفيضوا سمعتهُ
يشكلمُ بشيء ، فأصغيتُ إليه ، فإذا هو يقول :

يا ربَّ كلِّ غَدَوَةٍ وروحه من محرمٍ يشكو الصَّبَا ونوحَه
أنت حبيبُ الخلقِ يومَ الدَّوحه

قلت له : وما يومُ الدَّوْحَةِ ؟ قال : والله لأخبرنك ولو لم تسألني !

فيممنا نحو مُزْدَلِيَّة^(١) ، فأقبل على وقال : إني رجلٌ ذو مال كثيرٍ ؛ من نَعَمٍ
وشأه ، وقد خشيتُ على أموالِي التَّلَفَ ، فأتيتُ أخوالي كَلْبًا ، فأوسموا لي عن
صدر المجلس ، وكنتُ فيهم في خير أخوال ؛ ثم إني خرجتُ يومًا إلى ماء لم ،
وركبتُ فرسي ، وسمعتُ^(٢) خلفي شرابًا كان أهدها إليَّ بمضهم ثم مضيتُ حتى
إذا كنتُ بين الحَيِّ ومرعى النِّعم ، رُفِعتُ لي دَوْحَةٌ عظيمة ، فنزلتُ عن فرسي ،
وشدَّدتُه بفضنٍ من أغصانها ، وجلستُ في ظلِّها ؛ فبينما أنا كذلك إذ سطع غبارٌ
من ناحية الحَيِّ ، ورُفِعتُ لي شخوص ثلاثة ، ثم تبينتُ فإذا فارس بطرُدُ أُناتَيْنِ ،
فأما ملته فإذا عليه درعٌ أصفر ، وعمامة خَزْءٍ سوداء ، وإذا فروعُ شره تُضرب خَصْرِيه
قلت : غلامٌ حديثُ عهدٍ بِرُس ، أعجلته لَذَّةُ الصيد ، فترك ثوبه ؛ وليس ثوبٌ
امراته ؛ فما جاز عليَّ إلا يسيرًا حتى طمن الأتبان ، وأقبل راجعًا نحوى .

(١) مزدلفة : موضع بين عرفات ومنى ، ههنا بذلك لأنه يتقرب فيه إلى الله تعالى . (٢) سمعتُ
الشيء ؛ علقه .

قلت له : إنك قد تعبت وأنتعبت ، فلو نزلت أفتنى رجله ونزل ، ثم شدة فرسه بنفس من أغصان الشجرة ، وألقى رمح وأقبل حتى جلس ، فجعل يحدثنى حديثاً ذكرتُ به قولَ أبى ذؤيب :

وإنَّ حديثاً منك لو تبدلنيته جنى النحل في ألبان عوذ^(١) مطافيل

فمضتُ إلى فرسى فأصلحتُ من أمره ثم رجعتُ ، وقد حَسَرَ العِمامة عن رأسه ؛ فإذا غلامٌ كان وجهه الدينار للفقوش ، قلت : سبحانك اللهم ! ما أعظمَ قدرَ تلك ! وأحسنَ صنعتك ! فقال : مِمَّ ذاك ؟ قلت : مما راعى من جمالك ، وبهرنى من نُورك . قال : وما الذى يروءك من حبيس التراب وأكيل الدواب ، ثم لا بدرى بعد ذلك أينعم أم يئأس ؟ قلت : لا يصنع الله بك إلا خيراً .

ثم تحدثنا ساعة ، فأقبل على وقال : ما هذا الذى أرى قد سَمِطت في سرجك ؟ قلت : شراب أهداه إلى بعض أهلك ، فهل لك فيه من أرب ؟ قال : أنت وذاك ، فأتيته به ، فشرب منه ، وجعل ينسكت أحياناً بالسوط على ثناياه ؛ فجعل والله يقبى لى ظلُّ السوط فيهن ، قلت : مهلاً ، فإنى خائف أن تكسبرهن ، فقال : ولم ؟ قلت : لأنهن رقائق ، وهن عذاب ؛ ثم رفع عَغيرته يفتقى :

إذا قبل الإنسان آخر يشتهي ثناياه لم يَأْتَمْ وكان له أجرا

فإن زاد زاد الله في حسنة مثاقيل يحو الله عنه بها الوزر

(١) العوذ : الحديثات التاج ، وللطافل جمع مطلق : ذات الطفل .

ثم قام إلى فرسه ، فأصلح من أمره ، ثم رجع .

قال أبو مسهر : فبرقت لي بارقة تحت الدُّرُوع ، فإذا ندى ، قلت : نشدتك الله ! امرأة ! قالت : إني والله ؛ إلا أنني أكره العشير . ثم جلست ، فجعلت تشرب معي ، وما أفقد من أنسها شيئاً ، فلما لبثت إلا يسيراً حتى انتبهت فزعة ، فلامت عمامتها برأسها ، وجالت في مَتْنِ فرسها ، وقالت : جزاك الله عن الصُّعْبَةِ خيراً . قلت : أو ما تزوديني منك زاداً ، فناولتني يدها فقَبَّلَتْهَا ، فشممت والله منها ريح المسك المفقوت ، فذكرت قول الشاعر :

كأنها إذا قَفَضَ النومُ وانتَبَهَتْ سحابةً ما لها عينٌ ولا أثرٌ

ثم قلت لها : وأين للوعد ؟ قالت : إن لي إخوة شُرساً ، وأباً غَيُوراً ، والله لأن أسرك أحبُّ إلي من أن أضرك ، ثم انصرفت ، فجعلت أنبئها بصرى حتى غابَتْ ، فهي والله يا بن أبي ربيعة حَلَّتْني هذا الحلُّ ، وأبلغتني هذا المبلغ !

قال عمر : قلت له : يا أبا الدَّهْر ؛ إن القدرَ بك مع ما تذكُرُ للريح ، فبكي واشتدَّ بكأوه . قلت : لا تَبْكُ ، فما قلتُ لك ما قلتُ إلا مازحاً ، ولو لم أبلغ في حاجتك بمالي لسمعتُ في ذلك حتى أقدرَ عليه ، فقال : خيراً .

قال عمر : فلما انقضى الوسمُ شددتُ على ناقتي ، وشدَّ على ناقته ، ودعوت غلامي ، فشدَّ على بعير له ، وحملت عليه قَبَّةَ حِراءٍ من أَدَمَ ^(١) ، كانت لأبي ربيعة الخزومي ، وحملت معي ألفدينار ومُطَرَفٌ ^(٢) خَزٍ ، وانطلقنا حتى أتينا بلادَ كلب ،

(١) الأدم : الجلف . (٢) المطرف : وداء من خز مريم ذو أعلام .

فَنَشَدْنَا أَبَا الْجَارِيَةِ ، فوجدناه في نادى قومه ، وإذا هو سَيِّدُ الْحَيِّ ، وإذا الناس حوله ، فوقفْتُ على القوم ، فسَلَّمْتُ فَرَدَّ الشَّيْخُ السَّلامَ ، ثم قال : مَنْ الرجل ؟ قلت : عمر بن أبي ربيعة بن النُّفَيْرَةِ ، فقال : للمعروف غير للنُّكَّرِ ! فما الذى جاء بك ؟ قلت : خاطبًا ، قال : الكفء والرغبة ، قلت : إني لم آتِ ذلكَ لنفسي عن غير زَهادَةٍ فيك ، ولا جهالةٍ بشرفك ؛ ولكنى أتيتُ فى حاجة ابن أختكم التُّذْرَى ، وها هو ذاك . فقال : والله إنه لَكَفءُ الحسبِ ؛ رفيع البيت ، غير أن بَنَاتِي لم يقعن إلّا فى هذا الحى من قريش .

فَوَجَّهْتُ لَذلكَ ، وعَرَفْتُ التُّذْرَى فى وجهي ، فقال : أما إني صانع بك ما لم أصنعه مع غيرك ، قلت : وما ذاك ؟ فقلنى مَنْ شُكر . قال : أخيرها ، فعى وما اخترت ، ثم خيرها ، فقالت : وما كنتُ لأستبِدَّ برأى دون القرشى ، فالخيارُ والحكمُ له . فقال لى : إنها وقد وَلَّتْكَ أمرها ، فاقضِ ما أنتَ قاضٍ . فحمدتُ الله عز وجل وأثنيتُ عليه ، وقلت : اشهدُوا أنى قد زَوَّجْتُها من الجعد بن مجعع ، وأصدقْتُها هذا الألفَ الدينارَ ، وجعلتُ تَكْرِمَتَها المبد والبعير والقُبَّة ؛ وكسوتُ الشَّيْخَ المُطَرَفَ ، وصالَّتهُ أن يبنى بها فى ليلته ؛ فأرسل إلى أمها ؛ فقالت : انمخرج ابنتى كما تخرج الأُمَّة ! فقال الشَّيْخُ : قومى فى جهازها ، فما برحت حتى ضربت القبة فى وسط الحرم ؛ ثم أَهْدَيْتُ إليه ليلاً ؛ وبِتَ عند الشَّيْخِ ؛ فلما أصبحتُ أَتَيْتُ القبة ، فصَحَّتُ بصاحبى فخرج إلى وقد أَثَّرَ السرورُ فيه ، فقلت : كيف كنتَ بعدى ؟ وكيف هى بعدك ؟ فقال لى : أَهْدَيْتُ لى والله كثيراً مما كانت

أخفته عنى يوم لقيتها؛ قلت: أقيم على أهلك ، بارك الله لك فيهم ، وانطلقت وأنا أقول :

كيفيت أخى المذرى ما كان نأبهُ وإنى لأعْبَاءُ العوائِبِ حَتَالِ
قَالَ الْمَذْرَى :

إذا ما أبو الخطاب خَلَى مكانه فَأُفِرَّ لَدُنْيا لَيْسَ مِنْ أَهْلِها عُمْرا

١٠٠ - لولا فصاحتهم لضربت أعناقهم*

أمر الحجاج^(١) صاحبَ حرسِهِ أن يطوف بالليل ؛ فمن رآه بعد العشاء سكران ضربَ عنقه ؛ فطاف ليلةً من الليالي ، فوجد ثلاثةً فتيانٍ يتمايلون ، وعليهم أمارات السكر ؛ فأحاطت بهم الفيلكان ، وقال لهم صاحبُ الحرس : من أنتم حتى خالفتُم أمرَ أمير المؤمنين ، وخرجتم في مثل هذا الوقت ؟ قال أحدهم :

أنا ابنٌ من دانتِ الرقابُ له ما بين غزومِها وهاشِمِها
تأنيه بالرغمِ وهى صاغرةٌ يأخذ من مالِها ومن دَمِها

فأمسك عنه ، وقال : لعله من أقارب أمير المؤمنين ! ثم قال للآخر : وأنت من تكون ؟ قال :

أنا ابنٌ لمن لا تنزلُ الدهرَ قِدْرُهُ وإن نزلت يوماً فسوف تمـود
ترى الناسَ أفواجاً إلى ضوءِ ناره ففهم قيساً حولها وقعود

فأمسك عنه ، وقال : لعله ابنُ أشرف العرب . ثم قال للآخر : وأنت من تكون ؟ فأنشد على البديهة :

أنا ابنٌ لمن خاضَ الصفوفَ بزمِهِ وقومُها بالسيفِ حتى استقامتِ
وركبناه لا ينفكُ رجلاً منها إذا اغلغلُ في يومِ الكريهةِ ولَّت

* مجازي الأدب : ٣-١٥

(١) الحجاج بن يوسف : نثراً بالطائف ، وولى العراق والمشرق ، وملك بواسط سنة ٩٥ .

فأمسك عنه أيضاً ، وقال : لله ابن أشجع العرب ؛ واحتفظ عليهم .
فلما كان الصباح رفع أمرهم إليه ؛ فأحضرهم ، وكشف عن حالم ؛ فإذا الأول
ابن حجام ، والثاني ابن فوّال ، والثالث ابن حائك !
فتمجب من فصاحتهم ، وقال لجلسائه : علموا أولادكم الأدب ، فوالله لولا
فصاحتهم لضربتُ أعناقهم .

١٠١ - يوم دَارَةِ جُلْجُل*

قال الفرزدق^(١) : أصابنا بالبصرة مطر جَوْدٌ^(٢) ، فلما أصبحت رُكبتُ بئلتى ، وسرتُ إلى المَرَبْدِ^(٣) ، فإذا أنا بآثار دوابٍ ، وقد خرجت إلى ناحية البرية ، فظننتُ أنهم قوم خرجوا للنزعة وهم خُلُقَاءُ أن يكون معهم سُرَّةٌ^(٤) ، فانبعت آثارهم حتى انتهت إلى بنال عليها رحائل^(٥) موقوفة على غدير . فاسرعتُ إلى الغدير ، فإذا فيه نسوة مستنقعات في الماء ، فقلت : لم أراك اليوم قط ولا يوم دارة جُلْجُل ، وانصرفت مستحيياً .

فناديتنى : يا صاحب البئلة ! ارجعْ نسا لك عن ثي . فرجعتُ إليهن ، فتمدن في الماء إلى حُلوقهن ، ثم قلن : بالله إلا ما أخبرتنا ، ما كان من حديث دارة جُلْجُل .

قلت : حَدَّثَنِي جدى - وأنا يومئذ غلامٌ حافظ - أن امرأ القيس كان عاشقاً لابنة عمه - ويقال لها عُنيزة - وأنه طلبها زماناً فلم يصل ، حتى كان يوم الغدير - وهو يوم دارة جُلْجُل - وذلك أن الحَيَّ تحملوا ، فتقدم الرجال ، وتحلف النساء والحلم والثقل ، فلما رأى ذلك امرؤ القيس تحلف بعدما سار مع رجال قومه غُلوةً ، فكمن في غابة من الأرض حتى مرَّ به النساء ، وفيهن عُنيزة ، فلما وَرَدَنَ الغدير

* المقد الفريد : ٤ - ٣٥٢

(١) هو أبو فراس حماد بن غالب نفقاً بالبصرة وأخذهُ أبوه برواية الشعر وظلمه فرواه ونبح فيه . مات سنة ١١٠ هـ . (٢) الجود : المطر الغزير . (٣) المربد : سوق بالبصرة ، كان يقصد للبيع ، وفيه يشتد الشعر . (٤) السرة : طعن المسافر . (٥) الرحالة : السرج .

قلن : لو نزلنا واغسلنا في هذا الندير فذهب عنا بعض الكلال ! فنزلن في الندير ، ثم تجردن فوقفن فيه ، فأتاهن امرؤ القيس ، فأخذ نيايهن فجمعها ، وقعد عليها ، وقال : والله لا أعطى جارية منكن ثوبها ، ولو قعدت في الندير يَوْمَها حتى تخرج متجردة فتأخذ ثوبها ، فأئين ذلك عليه حتى تعالى النهار ، وخشين أن يقهرن عن المنزل الذي يردنه ، فخرجن جميعاً غير عُنيزة ، فناشدته الله أن يطرح ثوبها ، فأبى ، فخرجت فنظر إليها مُقبلة مدبرة ، وأقبلن عليه ، فقأن له : إناك عذبتنا وحسبتنا وأجمعتنا ، قال : فإن نحرث لكن نأفقي أنا كلن معي ؟ قلن : نعم ، فجرد سيفا فمرقبتها ونحرها ، ثم كشطها ، وجمع الخدم حطباً كثيراً ، فأججن ناراً عظيمة ، فجعل يقطع أطايبها ، ويلقى على الجمر ، ويأكلن ويأكل معهن ، ويشرب من فضلة كانت معه ، ويسقيهن وينبذ إلى العبيد من الكباب^(١) ، فلما أرادوا الرحيل قالت إحداهن : أنا أحمل طِنْفسته ، وقالت الأخرى : أنا أحمل رَحْله ونساعده ، ففقسمن متاعه وزاده ، وبقيت عُنيزة لم تحمل له شيئاً ، فقال لها : يا بنت السكرام ؛ لا بد أن تحمليني معك ، فأبى لا أطيق للشئ ، فخلته على غارب بغيرها فكان يمنح إليها فيميل حدجها^(٢) ، فقول : « عقرت بعيري ، فانزل » ، وفي ذلك يقول :

ألا ربَّ يومٍ لي من البيض صالحٍ ، ولا سِيا يومٍ بدارةٍ جُبُجِلٍ^(٣)
وبومٍ عقرتُ للمذارى مطيقي^(٤) فيا عجبا من كُورها اللقمة —

(١) الكباب : ضرب من قلى اللحم . (٢) الحدج : مركب لنساء كالخففة . (٣) دارة جلجل : مكان يجعد . (٤) مطيقي : ناقته ، والمذارى : الأبقار ، والسكرور : الرجل ، والتجمل : المحمول .

فَقُلَّ الْمَذَارِيُّ يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَخِرَ كَهْدَابٍ ^(١) الدَّمْعُ الْمَقْتَلِ
وَبِوَيْمٍ دَخَلْتُ الْخَذَرُ ^(٢) خَذَرٌ عَنِيزَةٌ قَالَتْ: لَكَ الْوِيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي ^(٣)
تَقُولُ وَقَدْ مَالَ النَّبِيطُ ^(٤) بِنَامِعًا عَقَرْتُ ^(٥) بِمِيرَى يَا مِرَا الْقَيْسَ فَأَنْزَلِ
فَقُلْتُ لَهَا: سِيرِي وَأَرْضِي زِمَامَهُ وَلَا تُبْعِدِيَنِي مِنْ جَنَّاكَ الْمَلَلُ ^(٦)

(١) هداب الدمعس : أطراف الحوير ، والقتل : القتول . (٢) الخذر : المودج ، وهو في الأصل الستر . (٣) مرجلي : من أرجلته : سيرته راجلا . وقيل منناه : فأضحي بين رجالي .
(٤) النبيت : الرجل . (٥) عقرت بميرى : أدميت ظهره لثقله . (٦) الجني : الثمر ، والمطل : المطيب مرة بعد أخرى .

١٠٢ - دَعْنِي وَرَبِّي الْفَتَى لَا يَنْخَلْ وَلَا يَذْهَلْ*

لما بلغ الوليد^(١) بن يزيد أن يزيد بن الوليد بن عبد الملك قد شرّد عنه القلوب ، واستعجاش^(٢) عليه أهل اليمن ، ونازعه في ملكه ؛ احتجب عن مُتَّارِهِ ، ودعا في بعض الليالي خادماً له ؛ فقال له : انطلق مقنكراً حتى تقف بيمض الطُّرُقِ ؛ وتأمل من يمرُّ بك من الناس ؛ فإذا رأيت كهلًا رثَّ الهيئَةِ ؛ يمشي الهُوَيْفَى ؛ وهو مطَّرِق ، فسلم عليه ؛ وقل له في أذُنِهِ : أمير المؤمنين يدعوك ؛ فلنُأسرِعَ في الإجابة فأتني به ، وإن استراب^(٣) فدعه ، واطلب غيره ؛ حتى تجد رجلاً على الشَّرْطِ الذي ذكرت لك .

فانطلق الخادم ؛ فأتاه برجل على الشرط .

فلما دخل الرجل على الوليد حيَّاه بتحيةة الخلافة ، فأمره الوليد بالجلوس والذُّنُوء منه ؛ وصبر إلى أن ذهب رَوْعُهُ ، وسكن جَأَشُهُ ، ثم أقبل عليه ، فقال له : أنحني للمسامرة للغلفاء ؟ فقال . نعم يا أمير المؤمنين . قال الوليد : إن كنت تُحَسِّنُهَا فأخبرنا ما هي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ؛ المسامرةُ إخبارُ لمنصِبٍ ، وإنصافٌ لِصُخْرٍ ؛ ومفاوضة فيما يحبب ويبيع .

* نثرات الأوراق : ١٧٤

(١) كان الوليد بن يزيد - ويكنى أبا الصباس - ماجناً سفياً يقطع دهره بالهم والفرح ، ويغرل أخصار المتنبي بمل فيها الألمان . مات مقتولاً سنة ١٢٦ هـ . (٢) استعجاش أهل اليمن : حليم على الهياج . (٣) استراب به : رأى منه ما يريه .

قال له الوليد : أحسنت ! لا أزيدك امتحاناً ! قتل : أسمع لقولك .

فقال الكهل : نعم يا أمير المؤمنين ؛ ولكن للسامرة صِنْفان لا ثالث لهما : أحدهما الإخبار بما يوافق خبراً مسموعاً ، والثاني الإخبار بما يوافق غرضاً من أغراض صاحب المجلس ، وإني لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين طريقةً فأخوَّ نحوها ، وألزم أسلوبها .

فقال الوليد : صدقت ، وها نحن أولاء نقترح لك ما تقتضيه .

قد بَلَّغْنَا أن رجلاً من رَعِيَّتِنَا سعى في ضرر مُلْكِنَا ، فأثر سعيه ؛ وشقَّ ذلك علينا ، فهل سمعتَ ذلك ؟ فقال الكهل : نعم يا أمير المؤمنين ! فقال له الوليد : قل الآن على حَسَب ما سمعتَ ، وعلى ما ترى من التدبير .

فقال : بلنفي عن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان : أنه لما ندب الناس لقتال ابن الزبير ؛ وخرج بهم متوجِّهاً إلى مكة - جرسها الله - استنصحب عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان عمرو قد انطوى على فساد نية ، وخُذِّط طويةً ، وطامعيةً في نبيل الخلافة ، وكان أمير المؤمنين عبدُ الملك بن مروان قد فِطِنَ لذلك ، إلا أنه كان يحترمه .

ولما بعدُ أميرُ المؤمنين عن دمشق تمارَض عمرو بن سعيد ، واستأذن في المودِ إلى دمشق ؛ فأذن له .

فلما دخل عمرو دمشق صعد المنبر ، فخطب الناس خطبةً ، نال فيها من الخليفة ، واستولى على دمشق ، ودعا الناس إلى خلع عبد الملك ؛ فأجابوه إلى ذلك ،

وبأيامه ، وحصن بمد ذلك سور دمشق وحى حوزتها .

فبلغ ذلك عبد الملك ، وهو متوجه إلى ابن الزبير ؛ وبلغه مع ذلك : أن وإلى حصص قد نزع يده من الطاعة ؛ وأن أهل الثغور قد تشوقوا للخلاف ؛ فأحضر وزرائه ؛ فأطلعهم عليه ما بلغه ، وقال لهم : دمشق قد استولى عليها عمرو بن سعيد ، وهذا عبد الله بن الزبير قد ملك الحجاز والعراق واليمن ومصر وخراسان ، وهذا النعمان بن بشير أمير حمص ، وزفر بن الحارث أمير فلسطين قد خرجا عن الطاعة وبايما الناس لابن الزبير .

فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم ، فقال لهم عبد الملك : مالكم لا تنطقون؟ هذا وقت الحاجة إليكم .

فقال أفضلهم : وددت أن أكون طياراً على عود من أعواد بهيمة حتى تنفضى هذه الفتن !

فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه قام ، وأمرهم بلزوم موضعهم ، وركب منفرداً ، وأمر جماعة من شجعانه أن يبقوه متباعدين ، ففعلوا .

وسار عبد الملك حتى انتهى إلى شيخ ضعيف ، سمي الحال ، وهو يجمع شملهم^(١) ؛ فسلم عليه عبد الملك وآتاه بحديثه ، ثم قال له : أيها الشيخ ، ألك علم بنزول هذا المسكر ؟ فقال الشيخ : وما سؤالك عنه ؟ فقال عبد الملك : إني أردت الانضمام في سلكه ؛ فقال له : إني أرى عليك سمة الرياسة ، فيبني لك

(١) السباك ، كرمان : ثمر يسهى .

أن تصرف نفسك عن هذا الرأي ؛ فإن الأمير الذى أنت قاصده قد انحلت
عرا ملكه ؛ والسلطان فى اضطرابِ أموره كالبحر إذا هاج !

قال عبد الملك : أيها الشيخ ؛ قد تافت نفسي إلى محبة هذا الأمير ؛ فهل
لك أن ترشدني إلى رأي ؟ فقال له الشيخ : إن هذه النازلة التى نزلت بهذا الأمير
من النوازل التى لا تنفذ فيها العقول ، وإني لأكره أن أرد مسألتك بالخبية . فقال
له عبد الملك : قل جزاك الله خيراً !

فقال الشيخ : إذا قصدت هذا الأمير ، وانتظمت في سلكه ؛ فانظر في أمره
فإن رأيته قد أصر على قصده ابن الزير فاعلم أنه مخذول فاجتنبه ؛ وإن رأيته قد
رجع من حيث جاء ، وترك قصده الأول ؛ فانج له النصر والسلامة .

قال عبد الملك : ياشيخ ، وهل رجوعه إلى دمشق إلا كسيره إلى ابن
الزير ؟ قال الشيخ : إن الذى أشكل عليك لواضح ؛ وهأنذا أزيل عنك اللبس ؛
إن عبد الملك إذا قصد ابن الزير كان في صورة ظالم ؛ لأن ابن الزير ما وثب له
على مملكته ؛ فإذا قصد ابن سعيد كان في صورة مظلوم ؛ لأنه نكث بيمينته ، وخان
أمانته ، ووثب على دار ملك لم تكن له ولا لأبيه من قبله ؛ بل كانت لجد الملك
ولأبيه من قبله ؛ وعمره عليها متمدة .

وفي الأمثال : سمين النصب مهزول ، وولي التدر معزول ، وسأضرب
لك مثلاً بشئ النفس ، ويزيل اللبس :

زعموا أن ثعلباً كان يسمى ظالماً ، وكان له جحر يأوى إليه ، وكان مقتطعاً به ؛

فخرج يوماً يتنقى ما يأكل، ثم رجع؛ فوجد فيه حية، فانظر خروجها، فلم تخرج؛ فلم أنها استوطنته، ولنا لم يمكنه السكنى معها ذهب يطلب لنفسه مأوى؛ فانتهى به السير إلى جحر حسن الظاهر، حصين في أرض منيرة ذات أشجار ملتفة وماء معين^(١)؛ فأعجبه، وسأل عنه؛ فقالوا: هذا الجحر يملكه ثعلب اسمه مفوض، وأنه ورثه عن أبيه؛ فناداه ظالم فخرج إليه، ورحب به، وأدخله إلى جحره، وسأله عن حاله؛ قص عليه خبره مع الحية؛ فرق له مفوض، وقال له: الموت خير من الحياة في العار، والرأي عندى: أن تنطلق معى إلى مأواك الذى أخذ منك غضباً، حتى أنظر إليه، فلى أهدى إلى مكيدة تخلص بها مأواك.

فانطلقا معاً إلى ذلك الجحر؛ فتأمله مفوض، وقال لظالم: اذهب معى فبت الليلة عندى لأنظر ليلتى هذه فيما يستح من الرأي والمكيدة.

ففعلاً ذلك، وبات مفوض مفكراً، وجعل ظالم يتأمل مسكن مفوض فرأى من سمته، وطيب هوائه وحصاته ما اشتد به حرصه عليه، ووفق بدبر في حيلة لاغتصابه، ونقى مفوض عنه.

فلما أصبحا قال مفوض لظالم: إني رأيت ذلك الجحر بعيداً من الشجر واللواء فأصرف نفسك عنه، وهلم أعينك على احتقار جحر في هذا المكان المشتهى.

فقال ظالم: غير هذا يمكن؛ لأننى نفساً تهلك لبعد الوطن حينئذ؛ فلستمع مفوض

(١) ماء معين: جار.

مقالة ظالم^١، وما يتظاهر به من الرغبة في وطنه، قال: إني أرى أن نذهب يومنا هذا، فنحتطب حطباً، ونربط منه حزمتين، فإذا جاء الليل انطلقنا إلى بعض هذه الخيام؛ فأخذنا قَبَسَ نار، واحتملنا الحطب والقَبَسَ إلى مسكنك؛ فنجعل الحزمتين في يابيه، ونُضْرِم النار؛ فإن خرجت الحية احترقت، وإن لَازمت الجُحْرَ قتلها الدخان.

فقال له ظالم: نَعَمْ الرَّأْيُ !

فذهبا واحتطبا حزمتين، ولما جاء الليل انطلق مفوض إلى ظاهر تلك الخيام، فأخذ قَبَساً؛ فعمد ظالم إلى إحدى الحزمتين، فأزالها إلى موضع غيبها فيه، ثم جرّ الحزمة الأخرى إلى باب مسكن مفوض، فسده بها سداً مُحْكَمًا، وقدر في نفسه أن مفوضاً إذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول إليه لحصانته، فإذا يس منه ذهب فنظر لنفسه مأوى.

وكان ظالم قد رأى في منزل مفوض طعاماً أدخره لنفسه؛ فمَوْل على أنه يَتَقَاتُ به إن حاصره مفوض، وهو من داخل؛ وأذْهَلَهُ الشَّرُّ والحِرْصُ عن فساد هذا الرَّأْيِ.

ثم إن مفوضاً جاء بالقَبَسِ فلم يجد ظالماً؛ فظن أنه قد حمل إحدى الحزمتين تخفيفاً عنه، وأنه سبقه إلى مسكنه الذي فيه الحية، إشفاقاً عليه، فشق ذلك عليه، وظهر له من الرَّأْيِ أن يُبادِرَ إليه ويلحقه؛ ليحمل معه الحطب.

فوضع القَبَسَ بالقرب من الحطب، ولم يشعر أن الباب مسدود به؛ لشدة الظلمة، فابْعَدَ عن الباب إلا وضوء النار وشدة الدخان قد لَحِقَا به، فماد وتأمل الباب، فرأى الحطب قد صار ناراً، فلم مكيدة ظالم، ورآه قد احترق من داخل

الجحر ، وحق به مَكْرُهُ ؛ قال : هذا الباحث على حَقِّهِ ^(١) بِظُلْمِهِ .

ثم إن مفوضاً صبر حتى انطفاأت النار ؛ فدخل جُحْرَهُ ؛ فأخرج جثة ظالم ؛
فألقاها ؛ واستوطن جحره آمناً .

فهذا المثل ضربته لك ؛ لأنه ملائم لفعل عمرو بن سعيد في بَفْيِهِ ومُخَادَعَتِهِ
عبد الملك ، وحيلته في أخذ دار ملكه وتحصينها منه .

فلما سمع عبد الملك حكمة الشيخ في ضرب أمثاله سُرَّ بذلك سروراً عظيماً ،
ثم أقبل عليه ؛ فقال : جُزَيْتَ عني خيراً ؛ وإني أريد أن تجعل بيني وبينك موعداً
وتعرفني مكانك ؛ لأتاك به بعد بومى هذا .

فقال الشيخ : وما تريدُ بذلك ؟ قال له عبد الملك : إني أريد مكاناً لك على
ما كان منك ؛ فقال الشيخ : إني أعطيتُ اللهَ عهداً ألا أقبلَ مِنَّه لبخيل .

فقال عبد الملك : ومن أين علمتَ أنى بخيل ؟ قال : لأنك أخرتَ صلتي مع
القدرة ؛ فاعليك لو واصلتني ببعض ما عليك ؟ فقال عبد الملك : أقسم لقد ذَهَلْتُ !
ثم نزع سيفه ، وقال له : أقبل منى هذا واحرص عليه ؛ فقيمتُهُ عشرون ألف درهم .
فقال الشيخ : إني لا أقبلُ صلةَ ذاهل ، فدعني وربى الذى لا يذهل ولا يبخل ؛

فهو حسي !

فلما سمع عبد الملك كلام الشيخ عَظُمَ في عينه ، وعلم فضله في دينه ، فقال له :
انا عبد الملك ؛ فأرفع حوائجك إلى ، فقال الشيخ : وأنا أيضاً عبد الملك ؛ فلم
نرفع حوائجنا إلى من أنت وأنا له عَبدَان .

١٠ فانطلق عبد الملك وعمل برأى الشيخ ؛ فانجح الله قصده ، وانتصر على أعدائه .
فلما سمع الوليد ما أخبره به الكهل استرجع عقله ، واستظرف أدبه ، واستحسن
محاضرتة ، وسأله عن نفسه ؛ فقص له وانساب ؛ فلم يعرفه الوليد ، فاستحيا منه ،
وقال له : من جمل مثلك في رعيته ضاع .

فقال له الكهل : يا أمير المؤمنين ؛ إن للولك لا تعرف إلا من تعرف إليها ،
ولزم أبوابها .

فقال له الوليد : صدقت ، ثم أمر له بصدقة مُمَجَّلة ، وعهد إليه في ملازمته ؛
فكان يتمتع بأدبه وحكمته .

١٠٣ — أبو جعفر المنصور في المرأة*

قال شبيب بن شيبنة: حججت عام هلك هشام؛ وولى الوليد بن يزيد، وذلك سنة خمس وعشرين ومائة، فبينما أنا مريحٌ ناحيةً من السجد، إذ طلع من بعض أبوابه فتى أسمر، رقيق السمرة، موفور اللمة^(١)، خفيف اللحية، رطب الجبهة، أفى^(٢) بين القنا، أعين^(٣) كأن عينيه لسانان ينطقان، يخالط أبهة الأملاك^(٤) يزري الناسك، تقبله القلوب، وتقبه العيون، يعرف الشرف في تواضعه، والمغو^(٥) في صورته، وألب^(٦) في مشيته؛ فمالكتُ نفسى أن نهضتُ في أثره، سائلاً عن خبره، وسبقنى فخرتم بالطواف؛ فلما سبغ^(٧) قصد اللقائم، فركم وأنا أراعه ببصرى، ثم نهض منصرفاً، فكان عيناً أصابته، فكبا كبوة دَمِيتُ لها إصبعه؛ فقد لها القرفصاء، فدنوتُ منه متوجِّعاً لما ناله، متصلاً به؛ أمسحُ رجله من التراب، فلا يمتنع علىّ، ثم شقت حاشية ثوبه، فمصبتُ بها إصبعه، وما يشكر ذلك ولا يدفعه، ثم نهض متوكئاً علىّ، واقتدتُ له أماشيته، حتى إذا أتى داراً بأعلى مسكة ابتدره رجلان تكاد صدورهما تنفرج من هيئته، ففتحا له الباب، فدخل واجتذبنى، فدخلتُ بدخوله، ثم خلى يدي، وأقبل على القبلية، فصلى ركعتين أوجز فيهما في تمام.

* المقد الفريد : ٣ - ٢٨٩

(١) اللمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن . (٢) قنا الأتف : ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه . (٣) الأعين : عظيم سواد العين في سمة . (٤) الأملاك : للزرك . والأبهة : النظفة والكبر . (٥) المغو : الفضل . (٦) الألب : القل . (٧) سبغ الشيء : جعله سبعة .

ثم استوى في صدر مجلسه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أتم صلاة وأطيبها ، ثم قال : لم يخف على مكانك منذ اليوم ولا فطك بي ؛ فمن تكون يرحمك الله ؟ قلت : شبيب ^(١) بن شيبَةَ التميمي . قال : الأختي ؟ قلت : نعم . فرحب وقرب ، ووصف قومي بأبين بيان وأفصح لسان ، قلت له : أنا أجلك أصلحك الله - عن المسألة ، وأحب للمعرفة ؟ فتبسم وقال : لطف أهل العراق أنا عبد الله ^(٢) بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ! قلت : بأي أنت وأمي ما أشبهك بنسبك ، وأدلك على منصبتك ! ولقد سبق إلى قلبي من محبتك ما لا أبلغه بوصفي لك . قال : فاحمد الله يا أخا تميم ، فإننا قوم يسعد الله بحبنا من أحبه ويشتي ببنفسنا من أبغضه ، ولن يصل الإيمان إلى قلب أحدكم حتى يحب الله ويحب رسوله ، وإن ضعفنا عن جزائه قوى الله على أداؤه .

قلت له : أنت توصف بالعلم ، وأنا من سحلته ، وأيام الموسم ضيقة ، وشغل أهل مكة كثير ، وفي نفسي أشياء أحب أن أسأل عنها ، أفتأذن لي - جعلت فداك ! قال : نحن من أكثر الناس مستوحشون ، وأرجو أن تكون للسرا موصفاً وللأمانة راعياً ، فإن كنت كارجوت فافضل !

قد كنت من وثائق القول والأيمان ما سكن إلي ، فقل قول الله : ﴿ قُلْ أُمِرْتُ أَنْ أَكْبُرُ شَهَادَةً ۚ قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ ﴾ . ثم قال : سل عما بدا لك

(١) هو خطيب البصرة في زمانه ، نشأ في البصرة ، وامتاز بنبالة فقهه ، وسخاء كفه ، وحسن نواضع ، عرف أبا جعفر النعمان قبل خلافته ، ثم اتصل به بعدها فجعله في حاشية ولي عهده المهدي حتى ولي المهدي الخلافة ، فصار من خيرة سماره وجلسائه ، إلى أن مات سنة ١٧٠ هـ .

(٢) أبو جعفر النعمان .

قلت : ما ترى فيمن على اللوم - وكان عليه يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى -
فتنفس الصعداء وقال : عن الصلاة خلفه تسألنى ، أم كرهت أن يتأمر^(١) على آل
الله من ليس منهم ؟ قلت : عن كلاً الأمرين .

قال : إن هذا عند الله لعظيم ، فأما الصلاة ففرض لله نعيم به خلقه ، فأد
ما فرض الله تعالى عليك فى كل وقت مع كل أحد ، وعلى كل حال ، فإن الذى
ندبك لحج بيته وحضور جماعته وأعياده لم يخبرك فى كتابه بأنه لا يقبل منك
نسكاً إلا مع أكل المؤمنين إيماناً ؛ رحمة منه لك ؛ ولو قل ذلك بك ضاق الأمر
عليك ؛ فاصبر يسبح لك . ثم كررت فى السؤال عليه ؛ فما احتجبت أن أسأل
عن أمر ديني أحداً بعده .

ثم قلت : يزعم أهل العلم أنها ستكون لكم دولة ؛ فقال : لا شك فيها ؛ تطلع
طلوع الشمس ، وتظهر ظهورها ؛ فسأل الله خيرها ونموذ بالله من شرها ، فخذ
بحظ لسانك ويدك منها إن أدر كنتها . قلت : أويتخلف عنها أحد من العرب وأنتم
ساداتها ؟ قال : نعم ، قوم يأبون إلا الوفاء لمن اصطنعهم ، ونأبى إلا طلباً بحقنا
فننصرهم ويخذلون ؛ كما نصير بأولنا أولهم ؛ ويخذل بمخالفتنا من خالف منهم ؛
فاسترحمت ، فقال : سهل عليك الأمر ، « سنة الله التى قد خللت من قبل ،
ولن نجد لسنة الله تبديلاً » ، وليس ما يكون لهم مجاز لنا عن صلة أرحامهم ،
وحفظ أعقابهم ؛ وتجديد الصنعة . قلت : كيف تسلم لهم قلوبكم ؛ وقد قالوا مع
عدوك ؟ قال : نحن قوم حبيب إلينا الوفاء وإن كان علينا ، وبغض إلينا العدو

(١) تأمر : ناط .

وإن كان لنا، وإنما يشذ عنا منهم الأقل ، فأما أنصار دولتنا وتبنا شيمتنا، وأمرنا جيوشنا ، فهم مواليتهم ، وموالى القوم من أنفسهم ، فإذا وضعت الحرب أوزارها صفحتنا عن المي ، ووهبنا للرجل قومه ، ومن اتصل بأسبابه ؛ فتذهب المناهضة ، وتحبو الفتنة ، وتطعن القلوب .

قلت : ويقال إنه يبطل بكم من أخلص لكم المحبة . قال : قدروى أن البلاء أسرع إلى محبتنا من الماء إلى قراره . قلت : لم أرد هذا . قال : فه ؟ قلت : تقوم بالوى ، وتحظون بالمدو . قال : من يصدق بنا من الأولياء أكثر ، ومن يسلم لنا من الأعداء أقل وأيسر ، وإنما نحن بشر ، وأكثرنا أذن ولا يعلم الغيب إلا الله ، وربما استترت عنا الأمور ، فنفع فيما لا نريد ، وإن لنا لإحساننا يأسو^(١) الله به ما نكلم^(٢) ، ويرم^(٣) ما ننزل ، ونستغفر الله مما لا نعلم ، وما أنكرت من أن يكون الأمر على ما بلفك ، ومع الولي التمرز والإدلال ؛ والثقة والاسترسال ، ومع العدو التحرز والاحتياط ، والتذلل والاعتقال ؛ وربما أمل للدير ؛ وأخل المسترسل ، وتجانب لتنازب ، ومع المقة^(٤) تكون الثقة ، وعلى أن العاقبة لنا على عدونا ، وهى لوليتنا ، وإنك لسئول يا أخاتيم .

قلت : لى أخاف ألا أراك بعد اليوم . لى لأرجو أن أراك وتراى كما تحب عن قريب إن شاء الله . قلت : عجل الله ذلك ! قال : آمين ! قلت : ووهب لى السلامة منكم فإنى مجيكم . قال : آمين ؛ وتيسم ! وقال : لا بأس عليك ما أعاذك الله من ثلاث . قلت : وما هى ؟ قال : قدح فى الدين ، أو هتك للملك ، أو تهمة فى حرمة . ثم قال : احفظ عنى ما أقول لك : اصدقنى وإن ضرك الصدق ،

(١) يأسو : يداوى . (٢) نكلم : نجرح . (٣) يرم : يصلح . (٤) المقة : المحبة .

وانصح وإن باعدك النصيح ، ولا تجالس عدونا وإن أحظيناك فإنه مخذول ، ولا تمخذل ولينا فإنه منصور؛ واصحبنا بترك الماكرة، وتواضع إذا دفعوك ، وصل إذا قطعوك ، ولا تسخف فيمقتوك ، ولا تنقبض فيحشموك^(١) ، ولا تبدأ حتى يبدءوك ، ولا تخطب الأعمال ، ولا تعرض للأموال ؛ وأنا راضع من عشيتي هذه فهل من حاجة ؟ فنهضت لوداعه فودعته ، ثم قلت : أترقب لظهور الأمر وقتاً ؟ قال : الله المقدر الوقت ، فإذا قامت النواحي بالشم فيها آخر العلامات . قلت : وما هما ؟ قال : موت هشام العام ، وموت محمد بن علي^(٢) مستهل ذي القعدة . قلت : فهل أوصى ؟ قال : نعم ، إلى أخيه إبراهيم .

قال : فلما خرجت ، فإذا مولى له يقبض حتى عرف منزلي ، ثم أتاني بكسوة من كسوته ، فقال : يأمرك أبو جعفر أن تصلي في هذه .

قال شبيب : وافترقنا ، فوافقه ما رأيت إلا وحرسين قابضان على يدني ، منه في جماعة من قومي لأبائهم ، فلما نظر إلي أثبتني^(٣) ، ثم قال : خلياً عن صحت مودته ، وتندمت حرمته ، وأخذت قبل اليوم بيمنه ، فأكبر الناس ذلك من قوله ، ووجدته على أول عهده لي .

ثم قال لي : أين كنت عني في أيام أخى أبي المباس ؟ فذهبت أعتذر . قال : أمسك ؛ فإن لكل شيء وقتاً لا يعدوه ، ولن يفوتك إن شاء الله حظاً

(١) فيمضوك ما تكره . (٢) هو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي والد السفاح والمنصور ، وكان يرأس جماعة سرية تدعى باني المباس واعتقله هشام بن عبد الملك حين انكشف أمره فات مقتلاً . (٣) عرفني حتى المرفة .

مودتك ، وحق مسابقتك ؛ فاختر بين رزقي يسعك ؛ أو عمل يركبك . قلت :
أنا حافظ لوصيتك . قال : وأنا لما أحفظ ؛ إيمانيتك أن تخطب الأعمال ، ولم
أنهك عن قبولها . قلت : الرزق مع قرب أمير المؤمنين أحب إلى . قال : ذلك
لك ، وهو أجمل قلبك ، وأودع لك ، وأعفى إن شاء الله .

ثم قال : هل زدت في عيالك بعدى شيئاً ؟ وكانت قد سألت عنهم
فذكرتهم له . فمجت من حفظه ! ثم قلت : القرس والخادم ! قال : قد ألحقنا
عيالك بعيالنا ، وخادمك بخادمتنا ، وفرسك بمخيلنا ، ولو وسعني لملت لك من بيت
السال ، وقد ضمتك إلى للهدى ، وأنا أوصيه بك فإنه أفرغ لك منى .

١٠٤ — واعظ أبي جعفر المنصور*

بينما للنصور يطوف ليلاً ، إذ سمع قائلاً يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور
البغى والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع انفرج للنصور ،
مجلس ناحية من السجد ، وأرسل إلى الرجل يدعو ، فصلى الرجل ركعتين ،
واستلم الركن^(١) ، وأقبل مع الرسول ؛ فسلم عليه بالخلافة .

فقال للنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغى والفساد في الأرض
وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني^(٢) ،
قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن أمتني على غسي أنباتك بالأمور من أصولها ، وإلا
احتجرت منك ، واقتصرت على غسي ، فقيها لي شاغل .

فقال : أنت آمن على نفسك ؛ قل ا فقال : إن الذي دخله الطمع حتى حال
بينه وبين ما ظهر من البغى والفساد لأنت ا قال : ويحك ا وكيف يدخلني الطمع ،
والصفراء والبيضاء في قبضتي ، والخلو والحامض عندي ؟ قال : وهل دخل أحد
من الطمع ما دخلك ! إن الله تبارك وتعالى استرعاك للسلين وأمواهم ، فأغفلت
أمورهم ، واهتممت بجمع أمواهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجبس والآجر ؛
وأبواباً من الحديد ، وحجبة معهم السلاح ؛ ثم سجدت نفسك فيها عنهم ، وبشت

* عيون الأخبار : ٢ - ٣٣٣

(١) استلم الركن : له ؛ بالقبلة أو باليد . (٢) ما أرمضني : ما أوجسني وآلني .

مُحَالِّكَ فِي جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا ، وَقُوَّةِهِمْ بِالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ وَالسَّكْرَاعِ ^(١) ،
وَأَمَرْتُ بِالْأَلَا بِدُخُلٍ عَلَيْكَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، نَفَرَتْ سِمَتُهُمْ وَلَمْ تَأْمُرْ بِإِصَالِ
الْمُظْلُومِ ؛ وَلَا لِلْهَوَفِ ، وَلَا الْجَانِحِ الْمَارِي ، وَلَا الضَّعِيفِ الْفَقِيرِ ، وَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ فِي
هَذَا لِلَّاحِ حَقٌّ .

فَلَا رَأْيَ هَؤُلَاءِ النَّفَرُ الَّذِينَ اسْتَخْلَصَتْهُمْ لِنَفْسِكَ ، وَآثَرَتْهُمْ عَلَى رِعْيَتِكَ ،
وَأَمَرْتُ أَلَا يُحْجَبُوا عَنْكَ - تَجَنَّبِي الْأَمْوَالِ وَتَجَمُّعِهَا وَلَا تَقْسِمِهَا قَالُوا : هَذَا قَدْ
خَانَ اللَّهَ ، قَا بِالْأَلَا لَانْخَوْتُهُ ، وَقَدْ سَجَنَ لَنَا نَفْسَهُ !

فَأْتَمَرُوا بِالْأَلَا يَصِلَ إِلَيْكَ مِنْ عِلْمِ أَخْبَارِ النَّاسِ شَيْءٌ ؛ إِلَّا مَا أَرَادُوا ، وَلَا يَخْرُجُ
لَكَ عَامِلٌ فِيخَالَفَ أَمْرَهُمْ إِلَّا قَصَبُوهُ ^(٢) عَنْكَ ، وَنَفَوْهُ حَتَّى تَسْقُطَ مَنَزِلَتُهُ وَيَصْغُرَ
قَدْرُهُ ؛ فَلَمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَعَنِهِمْ أَعْظَمُهُمُ النَّاسِ وَهَابُومٌ ؛ ذَكَانَ أَوَّلَ مَنْ
صَانَهُمْ عَمَّا لَكَ بِالْهَدَايَا وَالْأَمْوَالِ ، لِيَقْوُوا بِهَا عَلَى ظُلْمِ رِعْيَتِكَ .

ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ذُووُ الْقُدْرَةِ وَالثَّرْوَةِ مِنْ رِعْيَتِكَ ، لِيُنَالُوا بِهِ ظُلْمَ مَنْ دُونِهِمْ ؛ فَامْتَلَأَتْ
بِلَادُ اللَّهِ بِالطُّعَمِ ، بَنِيًا وَفَسَادًا ، وَصَارَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ شُرَكَاءُكَ فِي سُلْطَانِكَ ، وَأَنْتَ
غَافِلٌ ؛ فَإِنْ جَاءَ مُتَطَلِّمٌ حَيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ مَدِينَتِكَ ؛ فَإِنْ أَرَادَ رَفْعَ قِصَّتِهِ
إِلَيْكَ عِنْدَ ظَهْرِكَ وَجَدَكَ قَدْ نَهَيْتَ عَنْ ذَلِكَ ؛ وَأَوْقَفْتَ لِلنَّاسِ رِجَالًا يَنْظُرُ فِي
مُظَالِمِهِمْ ؛ فَإِذَا جَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ فَيُلْبِغُ بِطَانَتِكَ خَبْرَهُ سَأَلُوا صَاحِبَ الْمُظَالِمِ
أَلَا يَرْفَعُ مُظَالِمَتَهُ إِلَيْكَ ، فَإِنَّ لِلتَّظْلَمِ مِنْهُ لَهُ بِهِ حُرْمَةٌ ، فَأَجَابَهُمْ خَوْفًا مِنْهُمْ

فَلَا يَزَالُ الْمُظْلُومُ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ وَيُلَوِّذُ بِهِ ، وَيَشْكُو وَيَسْتَفِيثُ ، وَهُوَ يَدْفَعُهُ
وَيَسْتَلْثِمُ بِهِ ، فَإِذَا أَجْعِدَ وَأُخْرِجَ وَظَهَرَتْ صَرْخَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَضْرَبَ صَرْبًا

(١) السَّكْرَاعُ : السَّلَاحُ ، وَقِيلَ : هُوَ اسْمُ جَمْعِ الْحَيْلِ وَالسَّلَاحِ . (٢) قَصَبُوهُ : طَابَعُوهُ وَشَتَمُوهُ .

مُبْرَحًا ؛ لِيَكُونَ نِكَالًا لِنَفْسِهِ ؛ وَأَنْتَ تَنْظُرُ فَلَا تُنْكِرُ ، فَمَا بَقَاءُ الْإِسْلَامِ
بَعْدَ هَذَا !

وَقَدْ كُنْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَسَافِرُ إِلَى الصَّيْنِ ، قَدَّمْتُهَا مَرَّةً ، وَقَدْ أُصِيبَ مَلِكُهَا
بِسَمْعِهِ ؛ فَبَكَى يَوْمًا بَكَاءَ شَدِيدًا ، غَضَّ جِلْسَاؤُهُ عَلَى الصَّيْرِ ، قَالَ : أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَبْكِي
لِلْبَلِيَّةِ النَّازِلَةِ بِي ، وَلَكِنِّي أَبْكِي لِمَظْلُومٍ بِالْبَابِ يَصْرُخُ وَلَا أَسْمَعُ صَوْتَهُ ، ثُمَّ قَالَ :
أَمَا إِذَا ذَهَبَ سَمْعِي ؛ فَإِنْ بَصُرَى لَمْ يَذْهَبْ ! نَادُوا فِي النَّاسِ أَلَّا يَلْبَسَ ثَوْبًا أَحْمَرَ
إِلَّا مَظْلُومٌ . ثُمَّ كَانَ يَرْكَبُ الْقَيْلَ طَرَفَ نَهَارِهِ وَيَنْظُرُ هَلْ يَرَى مَظْلُومًا !

فَهَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ غَلِبَتْ رَأْفَتُهُ بِالْمُشْرِكِينَ شُحَّ نَفْسِهِ ؛ وَأَنْتَ
مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ ، ثُمَّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ لَا تَغْلِبُ رَأْفَتُكَ بِالْمُسْلِمِينَ عَلَى شُحِّ نَفْسِكَ إِنْ
كُنْتُ إِنَّمَا تَجْمَعُ الْمَالَ لِلْوَلَدِ ، قَدْ أَرَاكَ اللَّهُ عَيْرًا فِي الطُّفْلِ يَسْفُطُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ، وَمَالُهُ
عَلَى الْأَرْضِ مَالٌ ، وَمَا مِنْ مَالٍ إِلَّا وَدُونَهُ يَدٌ شَحِيحَةٌ تَحْوِيهِ ؛ فَمَا يَزَالُ اللَّهُ يُلْطِفُ
بِذَلِكَ الطُّفْلِ حَتَّى تَعْلَمَ رَغْبَةُ النَّاسِ إِلَيْهِ ؛ وَلَسْتَ بِالَّذِي تَعْلَى ، بَلِ اللَّهُ يَمِطُّ مِنْ
يَشَاءُ مَا يَشَاءُ . وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّمَا أَجْمَعُ الْمَالَ لِتَشْدِيدِ السُّلْطَانِ قَدْ أَرَاكَ اللَّهُ عَيْرًا فِي
بَنِي أُمِيَّةَ ؛ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا جَمَعُوا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَأَعْدُوا مِنَ الرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ
وَالْكِرَاعِ ، حَتَّى أَرَادَ اللَّهُ بِكُمْ مَا أَرَادَ . وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّمَا أَجْمَعُ الْمَالَ لِطَلَبِ غَايَةٍ
أُجْسِمُ مِنَ الْغَايَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا ، فَوَاللَّهِ مَا فَوْقَ مَا أَنْتَ فِيهِ إِلَّا مَنْزِلَةٌ لَا تَدْرِكُ إِلَّا
بِخِلَافٍ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَلْ تَعَاقِبُ مَنْ عَصَاكَ بِأَشَدِّ مِنَ الْقَتْلِ ؟

قَالَ الْمَنْصُورُ : لَا . قَالَ : فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِالْمَلِكِ الَّذِي خَوَّلَكَ مَلِكَ الدُّنْيَا وَهُوَ لَا يَتَعَاقَبُ
مَنْ عَصَاكَ بِالْقَتْلِ ! وَلَكِنْ بِالْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، قَدْ رَأَى مَا قَدْ عَقَدَ عَلَيْهِ قَلْبُكَ

وعلمته جوارحك ، ونظر إليه بصرك ، واجترحتَه يدك ، ومشتُ إليه رجلاك ؛ هل
يعنى عنك ماشِحتٌ عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب !
فبكى المنصور وقال : يا ليتنى لم أخلق ! ويحك ! فكيف أحتال لنفسي ؟
قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينهم ، ورضون بهم ؛
فاجملهم بطاقتك يرشدوك ، وشاورهم في أمرك بسدّوك . قال : قد بعثتُ إليهم
فهرّبوا منى . قال : خافوا أن تحملهم على طريقتك ؛ ولكن افتح بابك ،
وسهّل حجابك ، وانصر المظلوم ، واقم الظالم ، وخُذ النِّىء والصدقات مما حلّ
وطاب ، واقسمه بالحق والسدل على أهله ، وأنا الضامنُ عنهم أن يأتوك ،
ويسعدوك على صلاح الأمة .

وجاء المؤذنون فسلموا عليه ، فصلى ، وعاد إلى مجلسه وطُلب الرجل فلم يوجد !

١٠٥ — لماذا سلبوا الملك*

سَمَرَ المنصورُ ذاتَ ليلةٍ ، فذكرَ خلفاءَ بنى أمية وسيرهم ، وأنهم لم يزالوا على استقامة ؛ حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم للترفين ، وكانت همهم - مع عظم شأنِ الملك وجلالةِ قدره - قصْدَ الشهوات ، وإثارةِ اللذات ، والدخولِ في معاصي الله ومساخطِهِ ، جهلاً باستدراجِ الله ، وأمثالِ مكرِهِ ، فسلبَهُمُ الله العزَّ ، ونقلَ عنهم النعمة .

فقال له صالح بن علي : يا أمير المؤمنين ؛ إن عبدَ الله بن مروان لما دخل التوبة هارباً فيمن تبعه ، سأل ملكَ النوبة عنهم ، فأخبر ، فركب إلى عبد الله فسلمه بكلامٍ عجيبٍ في هذا النحو ، لا أحفظه ، وأزججه عن بلده ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة ، ويسأله عن ذلك .

فأمر المنصور بإحضاره ، وسأله عن القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قدِمنا أرضَ النوبة ، وقد أخبر الملكُ بأمرنا ، فدخل على رجلٍ أقي^(١) الأنف ، طَوَّالٌ ، حسن الوجه ، قعد على الأرض ، ولم يقرب الثياب ، قلت : ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا ؟ قال : لأنى ملك ، ويحق على الملك أن يتواضع لعظمة الله إذا رفعه الله ، ثم قال : لأى شيء تشربون الخمر وهي مُحَرَّمَةٌ عليكم ؟ قلت : اجترأ على

* القعد التريد : ٣ - ١٩٣ ، عيون الأخبار : ١ - ٢٠٥ ، ابن أبي الحديد : ٢ - ٢١٦

(١) قنا الأنت : ارتفاع أعلاه ، واحديداب وسطه .

ذلك عبيدنا وغلماننا وأتباعنا ؛ لأنَّ للآلِكَ قد زال عنا . قال : فلم تَطْشون الزروع
بدوابكم ، والفسادُ محرم عليكم في كتابكم ؟ قلت : يفعل ذلك عبيدُنا وأتباعُنا
بجهلهم . قال : فلم تلبسون اللهَ بياج والحرير ، وتستعملون الذهب والفضة ، وذلك
محرمٌ عليكم ؟ قلت : ذهبَ للآلِكَ عنا ، وقلَّ أنصارُنا ؛ فانتصرنا بقوم من المعجم
دخلوا في ديننا ، فلبسوا ذلك على الكُفْرِ منا .

قال : فأطرق ملياً ، وجعل يَلْبُ بده ، وينكت الأرض ويقول : عبيدنا
وأتباعنا وقومُ دخلوا في ديننا ، وزال الملكُ عنا ؛ يردده مراراً .

ثم قال : ليس ذلك كذلك ؛ بل أنتم قومٌ قد استعظمت ما حرم الله ، وركبتم
مأنهاكم عنه ، وغلظتم منْ مُلْككم أمرهم ؛ فسلبكُم اللهُ المِز ، وألبسكم القل
بذنوبكم ، واللهُ فيكم ثمة لن تَبْلُغ غايَتها ، وأخاف أن يحل بكم المذاب ، وأنتم
لدى ، فيصيبني ممكم ؛ وإنما للضيافة ثلاثة أيام ، فزودوا ما احتجتم ، وارتحلوا
عن بلدى .

١٠٦ - جعفر البرمكي والرشيد*

قال إبراهيم بن المهدي : قال لي جعفر بن يحيى^(١) يوماً : إني استأذنتُ أمير المؤمنين في الحِجامة ، وأردتُ أن أخلُوَ بنفسى ، وأفرِّ من أشغال الناس ، وأنوحَ^(٢) ، فهل أنت مساعدى ؟ قلتُ : جعلني الله فداك ! أنا أسعدُ بمساعدتك وأنسُ بمخالّتك^(٣) ، قال : بَكَرُ إلى بُكورِ الفراخ .

قال : فأتيتُ عند القَجَرِ الثاني ، فوجدتُ الشمعةَ بين يديه ، وهو قاعدٌ ينتظرني لليماد ؛ فصلينا ، ثم أفضنا في الحديث حتى أتى وقت الحِجامة ، فأتى الحِجَّامُ فحجّنا في ساعة واحدة ، ثم قدم إلينا الطعام ، فطمِئنا ، فلما غسلنا أيدينا خلع علينا ثيابَ المنادمة ، وضُمُّخنا^(٤) باتَّلوق ؛ وظلَّنا بأسرَّ يومٍ مرَّ بنا .

ثم إنه تذكَّرَ حاجةً ، فدعا الحاجبَ ؛ فقال له : إذا جاء عبدُ الملك القَهْرمان ، فأذنْ له ، فسميَ الحاجبُ . وجاء عبد الملك بن صالح^(٥) الهاشمي - على جلالته وسنّه وقدره - فأذن له الحاجبُ ، فإِراعنا إلا طلعةَ عبد الملك بن صالح ! فتغيَّرَ لئلك وجهُ جعفر ، وتنقَّصَ عليه ما كان فيه .

* القصد الرشيد : ٣ - ٢٦٨

(١) جعفر بن يحيى كان على القدر عظيم الكرم ، ذا منزلة قريبة عند الرشيد ، فصيحاً لساناً ، قتله الرشيد سنة ١٨٧ هـ . (٢) توحّد : بقى مفرداً . (٣) الخالة : المصادقة . (٤) تضيخ بالخلوق : تطلّخ به ، والخلوق : نوع من الطيب . (٥) عبد الملك بن صالح : أمير من أمراء بني العباس ، تولى عدة ولايات ، ثم عزله الرشيد حين علم أنه يطعم في الخلافة ، توفى سنة ١٩٦ هـ .

فلما نظر إليه عبْدُ الملك على تلك الحالة دعا غلامه ، فدفع إليه سيفه وسواده^(١) وجمامته ، ثم جاء فوقف على باب المجلس ، قال : اصنعوا بنا ماصنمٌ بأنفسكم .

قال : جاء الغلام ، فطرح عليه ثياب المنادمة ؛ ودعا بعلمام فطعم ، ثم دعا بالشراب فشرب ثلاثاً ، ثم قال : لينخف عني فإنه شيء ماشرئته قط ، قهلاً وجه جعفر فرحاً . وقد كان الرشيد حاورَ عبد الملك على المنادمة ، فأبى ذلك ، ونزّه عنه . ثم قال له جعفر بن يحيى : جعلني الله فداك ! قد فضلتَ وتطوأتَ ، فهل من حاجة تبلئها مقدري ، وتحيط بها نعمتي ، فأقضيها لك مكافأة لما صنعت؟ قال : نعم ؛ إن قلب أمير المؤمنين عاتبٌ عليّ فتساله الرضا عني . قال : قد رضى عنك أمير المؤمنين . ثم قال : وعلى أربعة آلاف دينار . قال : هي حاضرة ، ولكن من مال أمير المؤمنين أحب إليّ من مالي . قال : وابن إبراهيم أحب أن أشدّ ظهره بمصاهرة أمير المؤمنين . قال : قد زوجته أمير المؤمنين ابنته الغالية . قال : وأحب أن تحفّق الألوية على رأسه بولاية . قال : وقد ولّاه أمير المؤمنين مصر ؛ فأنصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدام جعفر على الرشيد من غير استئذان .

فلما كان الندى وقفنا على باب أمير المؤمنين ، ودخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبي يوسف القاضي ، ومحمد بن الحسن ، وإبراهيم بن عبد الملك ، فمقد له على ابنة الرشيد ، وحملت البدر^(٢) إلى عبد الملك ، وكتب سجل إبراهيم على مصر .

(١) سواد الأمير : قلعه وجماعه . (٢) البيرة : كيس فيه ألف دينار .

وخرج جعفر فأشار إلينا ، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه نزل ونزلنا بنزوله ،
فالتفت إلينا وقال : تعلقت قلوبكم بأول أمر عبد للالك فأحببتم أن تعرفوا آخره ،
وإني لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه سألتني عن أمسى ، فابتدأت
أحدثه بالقصّة من أولها إلى آخرها ، فجعل يقول : أحسن والله ؛ ثم قال :
فأجبتة ؟ فجعلت أخبره وهو يقول في كل شيء : أحسن . وخرج إبراهيم واليا
على مصر ا

١٠٧ — إخوان الصفاء *

روى أبو العباس محمد بن يزيد اللبّرد :

ذكروا أن فتياناً كانوا مجتمعين في نظام واحد ، كلهم ابنُ نعمة ؛ فذكر ذا كبرٍ منهم ، قال : كنا أكثرين دأراً شائعة^(١) على أحد طرق بغداد للمصورة بالناس ، وكنا نُفلس^(٢) أحياناً ، ونُوسِر أحياناً ، على مقدار ما يمكن الواحد من أهله ، وكنا لا نُفكر أن تقع مثوثننا على واحدٍ منا إذا أمكنه ، ويبقى الواحدُ منا لا يقدر على شيء ، فيقوم به أصحابه الدهر الأطول ، وكنا إذا أيسرنا أكلنا من الطعام أليته ، ودعونا لللهين ولللهيات ؛ وكان جلوسنا في أسفل الدار ، فإذا عدمننا الطرب جلسنا في غُرّة لنا تتمتع منها بالنظر إلى الناس ، وكنا لا نُخل^(٣) بالنيذ في عُسر ولا يسر .

فإننا لكذلك يوماً إذا بقى يستأذن علينا ، قلنا له : اصعد ؛ فإذا رجل نظيف حلو الوجه ، سرى الهيئة ، يني^{*} رواؤه أنه من أبناء النعم ، فأقبل علينا ، وقال : إني سمعت مجتمعكم وحسن منادمتكم ، وصحة ألفتكم ، حتى كأنكم أدرجتم في قالب واحد ، فأحييتُ أن أكون واحداً منكم ، فلا تحتشموا^(٤) عني .

● القيد الفريد ٤ : — ٣٤٥

(١) دار شائعة ، أي على طريق نافذ . (٢) أنلس الشخص : إذا لم يبق معه مال . (٣) لا نخل بالنيذ : لا تتركه . (٤) احتشم عنه ومنه : اتقي .

ومصادف ذلك منا إختاراً من القوت وكثرة من النبيس وقد كان قال لنلام له :
 أول ما يأذنون لي أن أكون كأحدهم هات ما عندك ، فغاب الغلام عنا غير كثير ،
 ثم أتانا بسلة خيزران ، فيها طعام للطبخ من جلدى ودجاج وفراخ ورقاق
 وشنان^(١) وتخلب^(٢) وأخلة^(٣) ؛ فأصبنا من ذلك ؛ ثم أفضنا في شرابنا ، وانبط
 الرجل ؛ فإذا أحلى خلق الله إذا حدث ، وأحسنهم استماعاً إذا حدث ، وأمسكهم
 عن ملاحاة إذا خولف ، ثم أفضينا منه إلى أكرم غناقة ، وأجل مساعدة ، وكنا
 ربما امتنعناه بأن ندعوه إلى الشيء الذى نعلم أنه يكرهه ، فيظهر لنا أنه لا يجب
 غيره ، ويرى ذلك في إشرأق وجهه ؛ فكنا ننفى به عن حسن الفناء ، وتدارس
 أخباره وآدابه ، فشفطنا ذلك عن تعرف اسمه ونسبه ، فلم يكن منا إلا تعرف
 الكنية ، فلما سألناه عنها ، قال : أبو الفضل .

وقال لنا يوماً بعد اتصال الأنس : ألا أخبركم بم عرفتكم ؟ قلنا : إنا لنعجب
 ذلك . قال : أحببت جارية في جواركم ؛ فكنت أجلس لها في الطريق أتمس
 اجتيازها ، فأراها حتى أخلقى الجالوس على الطريق ، ورأيت غرفكم هذه ،
 فسألت عن خبرها ، فخبرت عن اختلافكم وتماثلتكم ، ومساعدة بكم بعضاً ،
 فكان الدخول فيما أنتم فيه أسراً عندي من الجارية ، فسألناه عنها فخبرتنا ،
 قلنا له : نحن نظفر بك بها ، فقال : يا إخواني ؛ إني والله على ما ترون مني من

(١) الشنان : اللام البارد . (٢) التخلب : السبل . (٣) الأخلة : جمع خلال ، وهو
 "بجذ الذى يتخلل به ."

شدة الشنف والسكف بها ما قدّرت فيها حراماً قط ، ولا تقديري إلا مطالبتها
ومصابتها إلى أن يمن الله على بثرة فأشترىها .

فأقام معنا شهرين ، ونحن على غاية الاغتياب بقربه ، والسرور بصحبته إلى
أن اختلس منا ، فالتنا بفراقه ثكل مُحض ، ولوعة مؤلمة ، ولم نعرف له منزلاً
ناقمه فيه ؛ فكدر علينا من العيش ما كان طاب لنا به ، وقبح عندنا ما كان
حسن بقربه ، وجعلنا لا نرى سروراً ولا غماً إلا ذكرنا السرور بصحبته ، والنم
بفراقه ؛ فحسنا فيه كما قال الشاعر :

يذكرُ نهم كلّ خسير رأيتُه وشرّ فما أشكُّ منهم على ذكر

فصاب عنا زهاء عشرين يوماً ؛ فبينما نحن مجتازون يوماً من الرضافة^(١) إذهاهو
قد طلع في موكب نبيل ، وزيّ جليل ، فلما بصر بنا انحطّ من دابّته ، وانحطّ
غلمانُه ، ثم قال : يا إخواني ؛ والله ما هنا لي عيشٌ بعدكم ، ولست أُميط لكم عن خبري
حتى آتي المنزل ، ولكن ميلوا بنا إلى المنزل ، فمِلنا معه ، فقال : أعرفكم أولاً
بنفسى ، أنا العباس^(٢) بن الأحنف ، وكان من خبري بعدكم أني خرجت إلى
منزلي من عندكم ، فإذا الشرطة مُحيطَة بي ، فمضى بي إلى دار أمير المؤمنين ، فصرتُ
إلى يحيى بن خالد ، فقال لي : ويحك يا عباس ! إنما اخترتُك من غرقاء الشعراء
لقرب مأخذك وحسن تأتيك ، وإن الذي تدبتك له من شأنك ، وقد عرفت
خطرات الخلفاء ، وإني أخبرك أن ماردة هي الغالبة على أمير المؤمنين اليوم ،

(١) الرضافة : حلة يقداد . (٢) كان مقيّوّه يقداد وكان صاحب غزل ، ويثبه من المتقدمين
عمر بن أبي ربيعة ولم يكن يمدح ولا يهجو . توفي سنة ١٩٢ هـ .

وأنه جرى بينهما عتب ، فعى بذلة المشوق تأبى أن تتسذر ، وهو بمنزلة الخلافة
وشرف الملك بأبى ذلك ، وقد رمت الأمر من قبلها فأعياى ، وهو أخرى أن
تستعبده الصباية ؛ فقل شعراً سهلاً يسهل عليك هذه السبيل .

ثم دعانى إلى أمير المؤمنين فصرتُ إليه ، وأعطيت قرطاساً ودواة ، فاعتراى
الزَّمع^(١) ، وتعدّرت على كل عروض ، وغرت عنى كل قافية ، ثم انفتح لى شىء
والرسل تتمقنى ، فجاءتني أربعة أبيات رصيتها ، وقمت صحيحة العنى ، سهلة
الألفاظ ، ملائمة لما طَلَبَ منى ، فقلت لأحد الرسل : أبلغ الوزير أنى قلت أربعة
أبيات ، فإن كان بها مَقْنَعٌ وجهتُ بها ، فرجع إلى الرسولُ بأن هاتما ، فى أقل
منها مَقْنَعٌ ، وفى ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير ذلك الروى ، فكتبتُ
الأبيات الأربعة فى صدر الرقعة ، وعَقَبْتُ بالبيتين ، قلت :

الماشقان كلاهما متغضبٌ وكلاهما متوجّدٌ مُتَمَشِّبٌ
صدت مغاضبةً وصد مغاضباً وكلاهما مما يمالجُ متعَبٌ
راجع أحببتك الذين هجرتهم إن التيم قَلَمٌ يتجنب
إن التجنب إن تطاول منك دَبُّ السلو له وعزُّ المطلب
ثم كتبت تحت ذلك :

لا بد لماشق من وقفة تكون بين المعجر والصَّرم
حتى إذا المعجر تمادى به راجع من يهوى على رَغَرٍ
ثم وجهت بالكتاب إلى يحيى بن خالد ، فقدمه إلى الرشيد ، فقال : والله

(١) الزم : وعدة تأخذ بالإنسان .

ما رأيتُ شمرًا أشبهَ بما نحن فيه من هذا ، والله لكأني قصِدتُ به ، فقال له يحيى :
وأنت والله يا أمير المؤمنين للتصود به ، هذا يقوله العباس بن الأحنف في هذه القصة ؛
فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قوله : « راجع من يهوى على رَغمٍ » : استغرب ضحكا
حتى سمِعَ ضحكك ، ثم قال : إني والله ! أراجع على رَغمٍ ، يا غلام ؛ هاتِ نملِي ؛
فنهض وأذهله السرور عن أن يأمر لي بشيء ؛ فدعاني يحيى ، وقال : إن شعرك قد
وقع بناية للواقعة ، وأذهل أمير المؤمنين السرور عن أن يأمر لك بشيء ؛ ثم جاء
غلام فساره ، فنهض وثبت مكانه ، فنهضت بنهوضه ، ثم قال : يا عباس ؛ أُمِيتَ
أنبل الناس ، أتدري ما سارني به هذا الرسول ؟ قلت : لا ، قال : ذكر لي أن ماردة
تلقت أمير المؤمنين لما علمت بمجيئه ، ثم قالت له : يا أمير المؤمنين ؛ كيف كان هذا ؟
فناولها الشعر ، وقال : هذا أتى بي إليك ، قالت : فمن يقوله ؟ قال : عباس
ابن الأحنف ، قالت : فِيمَ كوفي ؟ قال : ما فعلت شيئا بسد ، قالت : إذن والله
لا أجلسُ حتى يكافأ - قال : فأمر المؤمنين قائم لقيامها ، وأنا قائم لقيام أمير
للمؤمنين ، وما يتناظران في صِلتك ، فهذا كله لك . قلت : مالي من هذا إلا الصلّة !
فقال : هذا أحسنُ من شعرك . قال : فأمر لي أمير المؤمنين بمالٍ كثير ، وأمرت لي
ماردة بمال دونه ، وأمر لي الوزير بمال دون ما أمرتُ به ، وحملتُ على ما ترون من
الظَّهر ، ثم قال الوزير : من تمام اليدِ عندك ألا تخرج من الدار حتى يكون لك من
هذا اللال ضِياع ، فاشتريتُ لي ضياعاً بشربن ألف درهم ، ودفع لي بقية اللال ، فهذا
الخبر الذي عاقني عنكم ، فلهوا حتى أقاسمكم الضياع وأفرق فيكم اللال . قلنا له : هناك
الله ، فكل منا يرجع إلى نعمة من أبيه ، فأقسم وأقسمنا . قال : فامضوا بنا إلى

الجارية حتى نشترها ، فشيننا إلى صاحبها ، وكانت جارية جميلة حلوة ، لا تحسن شيئا ، أكثر ما فيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل ؛ وكانت تساوى على وجهها خمسين ومائة دينار ، فلما رأى مولاهم الميلى المشتري استام بها خمسمائة ، فأجبتاه بالعجب ؛ فخط مائة ، ثم خط مائة ، ثم قال العباس : يا هتيان ، إني والله أحتشم أن أقول بدم ما قلم ، ولكنها حاجة في نفسي ، بهائم مرورى ، فإن ساعدتم فلت ، قلنا له : قل ، قال : هذه الجارية أنا أعطينها منذ دهر ، وأريد إثارة غنى بها ، فأكره أن تنظر إلى بعين من قد ما كس في ثمنها ، دعوى أعطه بها خمسمائة دينار كما سأل ، قلنا له : وإنه قد خط مائتين . قال : وإن فعل . قال : فصادفت من مولاهما رجلا حرا ، فأخذ ثلاثمائة ، وجهرها بالمساكين ، فما زال إلينا محسنا حتى فرق الموت بيننا .

١٠٨ — لأحب تخديش وجه الصاحب*

زعت العرب أن الثعلب رأى حجراً أبيض بين لصبين^(١) ، فأراد أن
ينقل به الأسد ، فأتاه ذات يوم ، قال له : يا أبا الحارث ، الفئيمة الباردة ! شحمة
رأيتها بين لصبين ، فكرهت أن أدنو منها ، وأحببت أن تتولى ذلك أنت !
فهل لأريكها !

فانطلق به حتى جاء به إليها ؛ قال : دونك يا أبا الحارث !
فذهب الأسد ليدخل ، فضاقت به المكان ؛ قال له الثعلب : ادفع برأسك !
فأقبل الأسد يدفع برأسه حتى نشب ، فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر .
ثم أقبل الثعلب يخدش خوزانه^(٢) ؛ قال الأسد : ما تصنع يا ناعلة^(٣) ؟
قال : أريد لأستفذك ؛ قال : فن قبل الرأس إذن ! قال الثعلب : لا أحب
تخديش وجه الصاحب !

* بحج الأمثال : ٢ - ١٧١

(١) القصب : الشعب الصغير في الجبل . (٢) المراد مؤخره . (٣) ناعلة : ثعلب الثعلب .

١٠٩ — حكومة الضب*

زعموا أن أرنبا التقطت ثمرة؛ فاختمها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضب؛ فقالت الأرنب: يا أبا الحسل^(١)! قال: «سميما دعوت». قالت: أئيناك لنحتكم إليك. قال: «عاولا حكمتما». قالت: فاخرج إلينا. قال: «في بيته يؤت الحكم»، قالت: إني وجدت ثمرة، قال: حوة فكليها. قالت: فاختمها الثعلب. قال: «لنفسه بنى الخير»، قالت: فلطمته. قال: «بحقك أخذت»، قالت: فلطمني، قال: «حز انتصر»، قالت: فاقض بيننا؛ قال: قد قضيت!

* يجمع الأمثال: ٢ - ١٧

(١) كنية الضب، والحسل: ولد الضب.

١١٠ — أعلمك ثلاث خصال*

قالوا : إن رجلا صاد قُبْرَةً ؛ قالت : ما تريد أن تصنع بي ؟ قال : أذهبك وأكلك ! قالت : والله ما أشقى من قَرَم^(١) ، ولا أشبع من جوع ، ولكن أعلمك ثلاث خصال ؛ هي خير لك من أكلِي : أما الأولى فأعلمك إياها وأنا في يدك ، وأما الثانية فإذا صرتُ على الشجرة ؛ وأما الثالثة فإذا صرتُ على الجبل .

قال : هاتي الأولى ، قالت : لا تَلَهْفَنَّ على ما فات ؛ ففعلها ؛ فلما صارت على الشجرة ؛ قال : هاتي الثانية ؛ قالت : لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت على الجبل ، قالت : يا شقي ؛ لو ذبحني لأخرجت من حوصلي دُرَّيْن وزنُّ كل واحدة ثلاثون مثقالا !

فصنَّ على يديه وتَلَهَفَ تلهفاً شديداً ، وقال : هاتي الثالثة ، فقالت : قد نسيت الاثنين ، فما تصنع بالثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تلهفنَّ على ما فات ! وقد تلهفت ، ألم أقل لك : لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون ! وأنا ولجى ودمى وريشى لا يكون عشرين مثقالا ، فكيف صدقت أني حوصلتي درتين كل واحدة منهما ثلاثون مثقالا ! ثم طارت وذهبت .

* ابن أبي الحديد : ٤ - ٣٧٤

(١) القرم : عدة شهوة العجم .

١١١ — بحير أم عامر *

خرج قوم إلى الصيد في يوم حار؛ فلنهم لذلك؛ إذ عرضت لهم أم عامر^(١) - وهي كنية الضبع - فطردوها؛ فانتبهم حتى ألبأوها إلى خباء أعرابي، فاقصعته؛ فخرج إليهم الأعرابي وقال: ما شأنكم؟ قالوا: صيدنا وطريدتنا؛ فقال: كلا؛ والذي نفسي بيده لا تصلون إليها ما ثبت قائم سيفي في يدي، فرجعوا وتركوه، وقام إلى لقعة^(٢) خلفها، وماء قرب منها، فأقبل تلخ مرة في هذا ومرة في هذا حتى رويت واستراحت، فبينما الأعرابي نائم في جوف بيته، إذ وثبت عليه فبقرت بطنه، وشربت دمه وتركته!

فجاء ابن عم له يطلبه، فإذا هو في قبر في بيته؛ فالتفت إلى موضع الضبع، فلم يرها، فقال: صاحبتي والله، فأخذ قوسه وكنائته وانبمها، فلم يزل حتى أدركها فقتلها، وأنشأ يقول:

ومن يصنع للمروف مع غير أهله يلاق الذي لاق بحير أم عامر!

* جمع الأشال: ٢ - ٨٢

(١) عامر: جرو الضبع، وأم عامر: كنيته.

(٢) اللقعة: الناقة الملوحة التزيرة اللبن، ولا يوصف به.

١١٢ - كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ! *

حكى أن أخوين كانا في إبل لها ، فأجذبتهما بلادهما ، وكان بالقرب منهما وادٍ خصيب ، وفيه حية تحميه من كل أحد ، قال أحدهما للآخر : يا فلان ؛ لو أني أتيت هذا الوادى للسكر^(١) فرعيت فيه إبل وأصلحتها ، قال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لا يهبط ذلك الوادى إلا أهلكته ؟ قال : فوالله لأفعلنّ ! فهبط الوادى ورعى به إبله زماناً .

ثم إن الحية نهشته فقتلته ، قال أخوه : والله ما في الحياة بمد أخى خير ، فلا طابنّ الحية ولا قتلها أو لأتبعنّ أخى ، فهبط ذلك الوادى وطلب الحية ليقتلها ؛ فقاتل الحية : ألسن ترى أنى قتلت أذاك ؟ فهل لك في الصلح فأدعك بهذا الوادى تكون فيه وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت ؟ قال : أو فاعلة أنت ! قالت : نعم . قال : إني أفعل ، وحلف لها وأعطاهما اللوائيق لا يضرهما ، وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالاً ، ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى ؟ ثم عمد إلى فأس فأخذها ، ثم قصد لها ؛ فرمت به فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر ، ووقعت الفأس فوق جحرها فأثرت فيه ، فلما رأته ما فعل قطعت عنه الدينار ؛ فخاف الرجل شرها وندم ؛ فقال لها : هل لك أن تتوائقي ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ! »^(٢) .

* بحج الأمثال : ٢ - ٨٢ .

(١) للسكر : الكثير السكر . (٢) ساوت مثلاً .

١١٣ - حكيم *

لما مات بعض الخلفاء ، اختلفت الروم ، واجتمعت ملوكها ؛ فقالوا : الآن
يشغل المسلمون بعضهم ببعض ، فتمكنتا الفرقة ^(١) منهم والوثبة عليهم ، وعقدوا
لذلك المشورات ، وترجعوا فيه بالنناظرات ، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر .

وكان رجل منهم من ذوى العقل واللمعة غائباً عنهم ، فقالوا : من الحزم عرضُ
الرأى عليه ؛ فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال : لأرى ذلك صواباً ؛ فسألوه عن ملة
ذلك ؛ فقال : فى غير أخبركم .

فلما أصبحوا أتوا إليه ، وقالوا : قد وعدتنا أن نخبرنا فى هذا اليوم بالرأى فيما
عولنا عليه ؛ فقال : سمعاً وطاعة ! وأمر بإحضار كلبين عظيمين ، كان قد أعدهما ؛
ثم حَرَّشَ ^(٢) بينهما ، وحَرَّضَ كل واحد منهما على الآخر ؛ فتوثبا وتهاشبا ^(٣) ،
حتى سالت دماؤهما .

فلما بلغنا الغاية فتح باب بيت عنده ، وأرسل على الكلبين ذئباً كان قد
أعدّه لذلك ، فلما أبصره تركا ما كانا فيه ، وتألقت قلوبهما ووثبا جميعاً على
الذئب قتلاه .

* المستطرف : ١

(٢) الفرقة : النحلة . (٣) التحريش : الإغراء . (٤) للهاشمة : تحريش الكلاب
بعضها على بعض .

فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال : مثلكم مع المسلمين مثلُ هذا
الذئب مع الكلاب ؛ لا يزال الهرَج^(١) بين المسلمين ما لم يظهر
لهم عدو من غيرهم ؛ فإذا ظهر تركوا المداوة بينهم ، وتألفوا على
العدو .

فاستحسنوا قوله ، واستصوبوا رأيه ، واتبعوا مشورته .

(١) الهرج : الفتنة والاختلاف .

البَابُ الْخَامِسُ

في القصص التي يعرف بها منهم في شياطين الشر
وأصوات الجن في النياقي ، وأحاديثهم عن القول ،
ورؤية من رآها منهم ، وما إلى ذلك مما يصور سمعة
أخيلتهم ، وسميهم وراء المجهول بأجنحة التفكير
والتصور .

١١٤ — تَابِطُ شَرًّا يَقْتُلُ النُّوْلَ*

قال عمرو بن أبي عمرو الشيباني : نزلت على حمزة من قهم ، فسألهم عن خبر تَابِطُ شَرًّا^(١) ، فقال لي بعضهم : وما سؤاكت عنه ؟ أتريدُ أن تكونَ لصاً ! قلت : لا ، ولكن أريد أن أعرف أخبارَ هؤلاء المدائين فأحدثَ بها . فقالوا : نُحدثُكَ بخبره .

إن تَابِطُ شَرًّا كان أعدى ذى رجلين وذى ساقين وذى عَيْنَيْن ، وكان إذا جاع لم تَقمْ له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء فيَنْتَقِي على نظره أُمَمَهَا ، ثم يجرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله .

وإنما سمي تَابِطُ شَرًّا ؛ لأنه فيما حكى لنا : لقي النُّوْلَ في ليلة ظلماء في موضع يقال له : رَحَى بِطَان^(٢) ، في بلاد هُدَيْل ، فأخذت عليه الطريق ، فلم يزل بها حتى قتلها ، وبات عليها . فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه ، فقالوا له : لقد تَابِطُ شَرًّا ، وقال في هذا :

أَلَا مَنْ مَبْلَغُ فُتَيَانَ قَهْمٍ بما لاقيتُ عند رَحَى بِطَانٍ
وَأَنْى قَدْ لَقِيتُ النُّوْلَ تَهْوَى بِسَهْبٍ^(٣) كالصَّحْفَةِ صَحْصَحَانٍ
قُلْتُ لَهَا : كَيْلَانَا نَضُو أَيْنَ^(٤) أخو سَفَرٍ فَخَلَّى لِي مَكَانِي

* الأناض : ٨ - ٣٠٩ ، معجم البلدان : ٤ - ٢٣٦

(١) هو ثابت بن جابر ، وتَابِطُ شَرًّا لقبه ، توفي نحو سنة ٨٠ ق . هـ . (٢) رَحَى بِطَان : موضع لهذيل . (٣) السَّهْبُ : الغلالة ، والصَّحْفَان : ما استوى من الأرض واسع . (٤) الأَيْن : الإعياء والتعب .

فشلت شدة نحوى فأهوى لمباكنى بمصول يمانى
فأضربها بلا دهرٍ فخرت صريماً للدين وللجيران^(١)
فقال: عذقت لها: رويداً^(٢) مكانك! إني تبتُ الجفانِ
فلم أنفك متكتاً عليها لأنظر مُصنِجاً ماذا أتانى
إذا عينان في رأسٍ قبيح كرأس المرء مشقوق اللسانِ
وساقاً مخدج وشواة كلب^(٣) وثوبٌ من عباة أو شنانِ

(١) الجران البحر: مقدم عتقه من مذبحه إلى منحره . (٢) زعمت العرب أن القول إذ ضربت ضربة واحدة ماتت بها ، فإذا ضربت ضربة أخرى عاشت . (٣) مخدج: ناقص الخلق، والشواة: جلدة الرأس ، والشنان: جمع شن، وهو القرية الخلق.

١١٥ - رُبِّي (١) الْأَعشى *

قال جرير بن عبد الله البجلي : سافرتُ في الجاهلية فأقبلتُ على بَعير ليلَة
أريدُ أن أستقيهُ ، فجعلتُ أريدُهُ على أن يتقدم ، فوالله ما يتقدم ، فقدمتُ فدنوتُ
من الماء وعَقَلته ، ثم أتيتُ للماء فإذا قومٌ مشوّحون عند الماء قصدت .

فبينما أنا عندهم إذ أتاهم رجل أشدُّ تشويهاً منهم فقالوا : هذا شاعرُهم . فقالوا
له : يا فلان ؛ أنشدْ هذا فإنه ضيف ؛ فأنشد :

• ودّعَ هريرةَ إن الركبَ مُرْتَحِلُ •

فلا والله ما خرم منها بيتاً واحداً ، حتى انتهى إلى هذا البيت :

نسمع للحليّ وسواساً إذا انصرفتُ كما استعنانَ برجعٍ عَشْرِقَ زَجِلٍ (٢)

فأنجِبَ به . قلت : من يقول هذه القصيدة ؟ قال : أنا . قلت : لولا ما تقول
لأخبرتُك أن أعشى بنى ثعلبة أنشدنيها عاماً أوّلَ بنجران . قال : فإنك صادق ، أنا
الذي ألقيتها على لسانه ، وأنا مسَحَلٌ صاحبه ، ما ضاع شعر شاعر وضعه عند مَيِّمون
ابن قيس !

* الأغانى : ٩ - ١٥٦

(١) الرُّبِّي : الجبى . (٢) الوسواس : صوت الخيل ، والمشرق : شجيرة مقدار ذراع ، لها
أكام فيها حب صغار إذا جفت فرت بها الريح تحرك الحب ، فسمِعَ له خشخشة على الحصى . شبه وسواس
حليها بصوته إذا خربت الريح . والزجل : رفع الصوت بالطرب ، والزجل بالكسر : صفة منه .

١١٦ — هاجس الأعشى*

قال الأعشى^(١) : خرجتُ أريدُ قَيْسَ بنَ مَعْدِيكَرْبَ بمَحْضَرِ مَوْتٍ ، فَضَلَلْتُ
فِي أَوَائِلِ أَرْضِ الْهَيْمَنِ ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ سَلَكَتُ ذَلِكَ الطَّرِيقَ قَبْلُ ، فَأَصَابَنِي مَطَرٌ ،
فَرَمِيتُ بِيَصْرَى أَطْلُبُ مَكَانًا الْجَاءَ إِلَيْهِ ، فَوَقِفْتُ عَيْنِي عَلَى خِيَابٍ^(٢) مِنْ شَعَرٍ ،
فَقَصَدْتُ نَحْوَهُ ، وَإِذَا أَنَا بِشَيْخٍ عَلَى بَابِ الْخِيَابِ ، فَسَلَّتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَى
السَّلَامِ ، وَأَدْخَلَ نَاقَتِي خِيَابَهُ آخِرَ كَانَ بِمَنْحَابِ الْيَتِ ، فَحَطَطْتُ رَحْلِي وَجَلَسْتُ ،
قَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَقْصِدُ ؟ قُلْتُ : أَنَا الْأَعْشَى ، أَقْصِدُ قَيْسَ بنَ مَعْدِيكَرْبَ .
قَالَ : حَيَّاكَ اللَّهُ ! أَطَلَّكَ امْتَدَّحَتَهُ بِشَعَرٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَأَنْشِدْنِيهِ ، فَأَجِدْتُ
مَطْلِعَ الْقَصِيدَةِ :

رَحَلْتُ مُمَيَّةً غُدْوَةً أَجَاهَهَا غَضَبًا عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بِدَائِلِهَا

فلما أنشدته هذا المطلع قال : حسبك ! أهذه القصيدة لك ؟ قلت : نعم ، قال :
مَنْ مُمَيَّةٌ الَّتِي تَذْسُبُ بِهَا ؟ قُلْتُ : لَا أَعْرِفُهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ اسْمُ الْفَتَى فِي رُوعِي^(٣) ؛
فَنَادَى : يَا مُمَيَّةُ ! أَخْرِجِي ، وَإِذَا جَارِيَةٌ خَمَاسِيَّةٌ^(٤) قَدْ خَرَجَتْ ، فَوَقِفْتُ وَقَالَتْ :

* خزانة الأدب : ٣ - ٤٤٩ (طبعة بولاق) .

(١) هو أبو بصير ميمون الأعشى بن قيس بن جندل القيسي من غول شعراء الجاهلية ، ومال
عمره حتى كان الإسلام ، فأعد قصيدة يدح بها النبي وقصده بالمجاز فلقبه بكفار قريش وصدوه عن
وجهه على أن يأخذ منهم مائة ناقة حراء ، ويرجع إلى بلده ففعل ، ولا قرب من الإمامة سقط من
ناقه فدفعت عنقه ومات . (٢) الخباء من الأبنية : يكون من وبر أو صوف أو شعر .

(٣) الروع : القلب والعقل . (٤) خماسية : طولها خمسة أخبار .

ما تريد بأبٍ؟ قال : أنشدني علك قصيدتي التي مدحتُ بها قيس بن مديكوب ،
ونسبتُ بك في أولها ، فاندفعت تُنشدُ القصيدة حتى أتت على آخرها لم تحزرم منها
حرفاً ، فلما أتممتها قال : انصرفي ، ثم قال : هل قلت شيئاً غير ذلك ؟ قلت : نعم ،
كان يني وبين ابن عمي يقال له يزيد بن مسهر ، ما يكون بين بني الم ،
فهجاني وهجوته فأفحمته . قال : ماذا قلت فيه ؟ قال : قلت :

ودع هُريرةَ إن الركبَ مرَّ علَّوْهُ وهل تُطيقُ وداعاً أيُّها الرَّجُلُ !

فلما أنشدته البيتَ الأول ، قال : حسبك ! من هُريرةَ هذه التي نسبتَ بها ؟
قلت : لا أعرفها وسبيلها سبيل التي قبلها ؛ فنادی : باهريرة ؛ فإذا جاريةٌ قريبة
السن من الأولى خرجت ، فقال : أنشدني علك قصيدتي التي هجوتُ بها يزيد بن
مسهر ، فأنشدتها من أولها إلى آخرها لم تحزرم منها حرفاً ، فسقط في يدي وتمحورت
وتشتقَّى رعدة .

فلما رأى ما نزل بي قال : ليُفرِّخ رَوْعُك^(١) يا أبا بصير ؛ أنا هاجسك مسحل
ابن أئامة ، الذي ألقى على لسانك الشعر .

قال الأعشى : فسكنتُ نفسي ورجعتُ إلى ، وسكن المطر ، فدلّني على
الطريق ، وأراني نمتَ مقصدي ، وقال : لَا تَعْجُ مِمَّنْ وَلَا شَمَالاً حَتَّى تَقَعَ بِلَادُ
قَيْس .

(١) ليُفرِّخ رَوْعك : ليذهب رعبك وفزعك ، فإن الأمر ليس على ما تعاود .

١١٧ — عبيد بن الأبرص والشجاع*

قال القاضى يحيى بن أكرم : دخلت يوماً على هارون الرشيد ، وهو مطرق .
مفكر ، فقال لى : أتعرف قائل هذا البيت :

الخير أبقى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد

قلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص ! فقال :

أخبرنى عنه . قلت : يا أمير المؤمنين ؛ حدث عبيد قال :

كنتُ فى بعض السنين حاجًا ، فلما توسّطت البادية فى شديد الحر سمعتُ
ضجّةً عظيمة فى القافلة ألحقتُ أولها بآخرها ، فسألتُ عن القصة ، فقال لى رجل
من القوم : تقدم ترّما بالناس . فتقدّمت إلى أول القافلة فإذا أنا بشجاع^(١) أسود
فاغبر فاه كالجدع ، وهو يخور كالمجنون الثور ، ويرغو كزغاء البعير ؛ فهالنى أمره ،
وبقيت لا أهدى إلى ما أصنع ؛ فمدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى ، فمارضنا
ثانيًا ؛ ولم يحسّر أحد من القوم أن يقرّبه ، قلتُ : أفدى هذا العالم بنفسى ،
وأهرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة منه .

فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسلّلت سيفى ، فلما رآنى قرّبتُ منه سكّن ،
وبقيت متوقفاً منه وثبة يتلمنى فيها ، فلما رأى القربة ففتح فاه ، فجعلت فم القربة

* المختار من نواهد الأخبار (مخطوط) ، الأغاني : ١٩ - ٨٦ ، المستطرف : ١ - ٢٤٤

(١) الشجاع : التذكر من الحيات .

في فيه ، وصببتُ الماءَ يا يُصَبِّ في الإناء . فلما فرغت القربة نسيب في رمل ومضى ؛ فصببت من تمرُّضه لنا وانصرافه عنا عن غير سوء لحفنا ، ومضينا لحبنا .

ثم عدنا في طريقنا ذلك ، وحططنا في منزلنا ذلك ، في ليلة مظلمة مدهمة ، فأخذت شيئاً من الماء وعدلتُ إلى ناحية عن الطريق ، فأخذتني عيني ؛ فتمتُ مكاني ؛ فلما استيقظت من النوم لم أجِد للقافلة حساً ، وقد ارتحلوا ، وبقيتُ منفرداً لم أر أحداً ، ولم أهتمد إلى ما أفله ، وأخذتني حيرة ، وجعلت أضطربُ ، وإذا بصوت هاتف أسمعُ صوته ولا أرى شخصه يقول :

يا أيها الشخصُ للضلِّ مركبُهُ ما عنده من ذى رشادٍ يصحبه
دونك هذا البكرُ منا تركبه وبسكرُك لليوم حقاً تجنبه^(١)
حتى إذا ما الليل زال غيبه^(٢) عند الصباح في القلأ تسيبه^(٣)

فنظرت فإذا يبسكرُ قائم عندي وبسكرى إلى جانبي ، فأخفته وركبته ، وجنبتُ بكرى ؛ فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة ، وانفجر الفجر ، ووقف البكر ، فسلمت أنه قد حان نزولى فتحولت إلى البكر ، وقلت :
يا أيها البكرُ قد أُنجمتَ من كُرب ومن غمومِ تضلُّ اللذالج الهادى
ألا فخبِّرني بالله خالقنا من ذا الذى جاد بالمرور في الوادى

(١) جنب البعير : فاده إلى جنبه . (٢) الضيب : شدة سواد الليل . (٣) سيب الشيء : تركه .

وارجع حميداً قد بَلَّغْتَنَا مِنَّا بوركْتَ من ذى سنام رافع غادى
فالتفت البكر إلى ، وهو يقول :
أنا الشجاع الذى أَلْقَيْتَنِي رَمِيحاً والله يكشفُ ضرَّ الحائر الصَّادى
فجَدْتَ بالماء لما ضنَّ حَامِلُهُ نصف النهار على الرَّمْضاءِ فى الوادى
الخيرُ أبقى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخْبِتُ ما أوعيتَ من زادِ
هَذَا جزاؤك مِنَّا لا يُمنُّ به لك الجليلُ علينا إنك البادى
فحجب الرشيدُ من قوله ، وأمر بالقصة والأبيات فكَتَبَتْ ، وقال : لا يضع
للمروف أين وضع !

١١٨ — وَمَنْ عَيَّدَ لَوْ لَا هَيِّدَ*

قال رَأَوِ :

خرجتُ على بَيْرِ لِي صعبٍ يَرَّ لَا يُمْلِكُنِي مِنْ أَمْرِ غَمِي شَيْئًا ، حتى مر
على جماعةٍ ظُباءٍ في سَفْحِ جَبَلٍ ، على قُلَّتِهِ زَجَلٌ عَلَيْهِ أَطْمَارٌ^(١) ، فلما رَأَيْتِي الظُّباءَ
هربت ، فقال : ما أردتِ إلى ما صنعتِ ؟ إنكم لتعرضون بمن لو شاء قدَعكم^(٢) عن
ذلك ! فداخِلِي عليه من النِيْظِ ما لم أَقْدِرْ أَنْ أَحِلَّهُ ، قلت : إِنْ تَقَعْلِي فِي ذَلِكَ
لَا أَرْضِي لَكَ ؛ فضعك ، ثم قال : امض - عافاك اللهُ - لِبَالِكَ .

فجئتُ أَرْدَدَ البَيْرِ في مراعى الظُّباءِ ، لأُعْضِبُهُ ، فبهض وهو يقول : إناك
للجليد القلب ؛ ثم أتاني فصاح ببيمري صيحة ، ضرب بجرانه^(٣) الأرض ، ووثبت عنه
إلى الأرض ، وعلت أنه جَانٌّ ، قلت : أيها الشيخ ؛ إناك لَأَسْوَأُ مِنِّي صَنِيعًا ؛
فقال : بل أنت أظلم والأُمُّ ، بدأت بالظلم ، ثم لَوُئِمت في تركك للنصي ، قلت :
أجل ! عرفتُ خطي ، قال : فاذا ذكر الله فقد رُغِنَاكَ ، وبذا ذكر الله نطمئن القلوب ،
فذكرت الله تعالى ، ثم قلت دهشًا : أتروى من أشعار العرب شيئًا ؟ فقال :
نعم ، أروى وأقول قولاً قائمًا مبرزا ، قلت : فأرني من قولك ما أحبيت ؛ فأنشأ
يقول :

● الجهرة : ٢٣

(١) الأطمار : جمع طمر ، وهو الثوب الخلق . (٢) قدَعكم : كفكم ومخكم . (٣) جران البير :
مقدم عتقه من مذهبه إلى منخره .

طافَ الخيالَ علينا ليلةَ الوادى من آل سُلَى ولم يُلِمَّ بجمعاد
إني اهتمدتُ إلى مَنْ طالَ ليْلُهُم في سَبَسٍ^(١) ذاتَ كَدَّكْ وأَعْقَادٍ^(٢)
يكلّفونَ مُراها كلَّ يَمَلَةٍ^(٣) مثلَ اللَّهَاءِ إذا ما حثَّها الحادى
أبلغَ أبا كَرْبٍ^(٤) عنى وأمرته قولا سَيَذْهَبُ غَوْرًا بعدَ إنجاد
يأتمروا مَراحَ من قومٍ ولا اجكروا إلا وللموتِ فى آمّارهم حادى
لأعرفنَّك بعدَ اليومَ تَدُنِي وفى حَيَاتِي ما زوَدَتْنِي زَادِي
أما حَماكَ يوماً أنتَ مُدْرِكُهُ لاحْضِرْ مُقِلَّتْ منه ولا بادِي

فلما فرغ من إنشاده قلت : لَهَذَا الشعرُ أشهرُ في معدنِ بنِ عدنانَ من ولدِ الفرسِ
الأبْلَقِ^(٥) فى الدُّمِّ^(٦) العِرابِ^(٧) ، هذا لَمَبِيدِ بنِ الأبرصِ الأَسَدِيّ ، قال : ومن
عَبِيدِ لولا هَبِيدُ ! قلتُ : ومن هَبِيدُ ؟ فأنشأ يقول :

أنا ابنُ الصّلامِ أدعى الهبيد حيوتُ القوافِ قَرَمِي^(٨) أَسَدِ
عبيداً حبوتُ بمأثورة وأنطقتُ بِشِراً^(٩) على غيرِ كَدِّ
ولاقى بِمُدْرِكِهِمُ الكَمِيتُ^(١٠) ملاذاً عَزِزاً ومجداً وجَدِّ
منجّناهمُ الشعرُ عن قُدْرَةٍ فهل تشكروا اليومَ هذا مَعَدِّ !

قلت : أما عن نفسك فقد أخبرتني ، فأخبرني عن مُدْرِكِ ، قال : هو مُدْرِكُ
ابنِ واغَم صاحبِ الكَمِيتِ ، وهو ابنُ عَمِي ، وكان الصّلامِ وواغَم من أشعرِ الجِنِّ .

(١) السَّبَسُ : اللِّقَازَةُ . (٢) الكَدَّكْ : أرضٌ فيها غُلظٌ . الأَعْقَادُ : جَمْعُ عَقْدٍ ، مانعٌ مِنَ الرَّمْلِ .
(٣) اليَمَلَةُ : النّاتَةُ التَّجْبِيَّةُ . (٤) أَبُو كَرْبٍ : عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَمْرُو بْنِ حَجْرٍ أَكَلَ الرِّارَ .
(٥) الأَبْلَقُ : ما فيه سِوَادٌ وَبَيَاضٌ . (٦) الدُّمُّ : السُّودُ . (٧) العِرابُ : الأَصْلَةُ . (٨) القَرَمُ :
البَيْدُ ، وَرَبِيدُ بَقَرَى أَسَدٍ عَبِيداً وَبَشِراً فَهَما مِنْ قَبِيلَةِ أَسَدٍ . (٩) بَشِراً : هُوَ بَشَرُ بْنُ أَبِي
خازِمِ الدَّاعِرِ . (١٠) الكَمِيتُ : هُوَ الْكَمِيتُ بْنُ زَيْدِ الأَسَدِيّ .

ثم قال : لو أنك أصبت من لبن عندنا ا فقلت : هات ، أريد الأنس به ، فذهب
فأتاني بفس^(١) فيه لبن غلي ، فكرهته زُهوته^(٢) ، فقلت : إليك ا وتَجِبْتُ
ما كان في في منه ، فأخذه ثم قال : امض راشداً مصاحباً ، فوليت منصرفاً ،
فصاح بي من خلفي ؛ أما إنك لو شربت ما في العس لأصبحت أشعر قومك .
قال : فندمت على أني لم أشرب ما في عس في جوف على ما كان من زُهوته ،
وأنشأت أقول في طريقى :

أسفت على عس الهيب وشربه لقد حرمته صروف القادر
ولو أتى إذ ذاك كنتُ شربه لأصبحتُ في قومي لم خير شاعر

(١) عس : إنا . (٢) الزهومة : رائحة طير مقبولة .

١١٩ — لافظ بن لاحظ ١ *

حدث أحد الرواة قال : خرجت في طلب لِقَاح^(١) لي على فحلٍ كأنه قد ن^(٢) ،
يمرُّ بي بسبق الريح ، حتى دفعت إلى خيمة وإذا بفناها شيخٌ كبير ، فسَلَّمتُ فلم يرد
عليّ ، فقال : من أين ؟ وإلى أين ؟ فاستحمته ؛ إذ يجِلُّ بردُ السلام ، وأسرع إلى
السؤال . فقلت : مِنْ هنا ! وأشرتُ إلى خلفي ، وإلى ههنا ! وأشرتُ إلى أمامي ؛
فقال : أَمَّا مِنْ ههنا فنم ، وأما إلى ههنا فوا لله ما أراك تبهج بذلك ، إلا أن يسهل
عليك مُدَاراة من تَرُدُّ عليه ! قلت : وكيف ذلك أيها الشيخ ؟ قال : لأن الشكلَ
غير شكليكَ ، ، والزيَّ غيرُ زيِّكَ ، ففرض قلبي أنه من الجن ، وقلتُ : أتروى من
أشعار العرب شيئاً ؟ قال : نعم وأقول ، قلت : فأنشدني - كالمستهرزِ - به ! فأنشدني
قول امرئ القيس :

فَقَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ يَسْقُطُ^(٣) الْأَوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِي
فلما فرغ قلت : لو أن امرأ القيس يُنْشَرُ لِرَدْعِكَ عَنْ هَذَا الْكَلَامِ . فقال :
ماذا تقول ؟ قلت : هذا لامرئ القيس ، قال : لستُ أولُ من كُفِرَ نعمة أسداها !
قلت : ألا تستحي أيها الشيخ ، أَلَيْسَ لامرئ القيس يقال هذا ؟ قال : أنا والله
منحْتُهُ ما أُعْجِبُكَ مِنْهُ ! قلتُ : فما اسمك ؟ قال : لافظ بن لاحظ ، فقلت : اسمان
منكران ! قال : أجل ! فاستحمتُ نفسي له ، بعد ما استحمته لها ، وَأَنْسَتُ بِهِ

* الجمهرة : ٢٣

(١) اللقاح : الإبل . (٢) التدن : القصر . (٣) سقط الأوى والدخول وحومل : مواضع

ينجد .

لطول محاورتي إياه ، وقد عرفت أنه من الجن ، قلت له : مَنْ أَشْمَرُ الْعَرَبِ ؟
فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

ذَهَبَ ابْنُ حَجَرٍ ^(١) بِالْقَرِيضِ وَقَوْلِهِ وَلَقَدْ أَجَادَ فَمَا يُمَكِّدُ زِيَادُ ^(٢)
لِلَّهِ هَازِرٌ إِذْ يُجَسِّدُ بِقَوْلِهِ إِنَّ ابْنَ مَاهِرٍ بَدَّهَا الْجِسَادُ

قلت : من هاذر؟ قال : صاحب زياد الذي أتى وهو أشمر الجن ، وأضنهم بشعره ،
ولقد علم بنية لي قصيدة له من فيه إلى أذنها ، ثم صرخ بها : اخْرُجِي فَدَى لَكَ
مَا وَلَدْتُ حَوَاءَ ! قلت له : ما أنصفت أيها الشيخ ، قال : ما قلتُ بأساً ، ثم رجعت
إلى نفسي فعرفتُ ما أراد ، فسكت ، ثم أنشدتني الجارية :

نَأْتُ بِسَادَ عَنْكَ نَوَى شَطُونٍ ^(٣) فَبَاتَتْ وَالْفَوَادُ بِهَا حَزِينٌ
حَتَّى أَتَتْ عَلَى قَوْلِهِ مِنْهَا * كَذَلِكَ كَانَ نَوَاحٍ لَا يَمُحُونَ * قال : لو كان رأيُ
قومٍ نوحٍ فيه كَرَأَى هَازِرٌ مَا أَصَابَهُمُ الْفَرْقُ ! خَفِظْتُ الْبَيْتَيْنِ ، ثم نهض بي الفحلُ
فَعَدْتُ إِلَى لِقَائِهِ .

(١) ابن حجر : امرؤ القيس . (٢) زياد : النابتة القبياني . (٣) شطون : بيدة .

١٢٠ - تابع زهير بن أبي سلمى *

قال علي بن الجهم القرشي : دخلتُ على للتوكل يوماً ، وهو جالسٌ وحده ، فسلمتُ عليه فردّ السلام ؛ وأجلسني ، فخانَت مني التفاتة ، فرأيتُ الفتح بن خاقان^(١) واقفاً في غير رتبته التي كان يقوم فيها ، متسكناً على سيفه مطّرفاً ، فأنكرتُ حاله ، فكنتُ إذا نظرتُ إليه نظر إلى الخليفة ، فإذا صرفتُ وجهي نحو الخليفة أطرق .

قال : يا علي ، أنكرت شيئاً ؟ قلتُ : نعم يا أمير المؤمنين ! قال : ما هو ؟ قلتُ : وقوفُ الفتح في غير رُتبتِهِ التي كان يقومُ فيها !

قال : سوء اختياره أقامه ذلك المقام . قلتُ : ما السببُ يا أمير المؤمنين ؟ قال : خرجتُ من عند قبيصة^(٢) آنفاً ، فأسررتُ إليه سرّاً ، فاعداى السرُّ إذ عادَ إلى ! قلتُ : لعلَّ أسررتَهُ إلى أحد غيره يا أمير المؤمنين ! قال : ما كان هذا ؟ قلتُ : فلعلّ مُستمعاً استمعَ عليك ! قال : ولا هذا أيضاً .

فأطرقتُ ملياً ؛ ثم رفعتُ رأسي ، قلتُ : يا أمير المؤمنين ، قد وجدتُ له مما هو فيه مخرجاً ! قال : ما هو ؟ قلتُ : حدثنا الفضل بن دُكين ، قال أبو الجوزاء : طلّقتُ امرأتِي في نفسي ، وأنا في المسجد ، ثم انصرفتُ إلى داري ، فقالت لي امرأتِي : أطلّقتني

* معجم الأدباء : ١٦ - ١٨٠

(١) هو الفتح بن خاقان بن أحد القناد ، كان في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب ، وكان من أولاد الملوك ، اتخذه التوكل أخاً ، وكان يقدمه على جميع أولاده وقتل مع التوكل سنة ٢٤٧ هـ وهو غير الفتح بن خاقان الأندلسي . (٢) قبيصة : جارية التوكل .

يا أبا الجوزاء ؟ قلت : من أين لك هذا ؟ قالت : خبرتني جارتى الأنصارية اقلت :
ومن خبرها بذلك ؟ قالت : ذكرت أن زوجها خبرها بذلك !

فشدت على ابن عباس قصصت عليه القصة ؛ فقال : علت أن وسواس^(١)
الرجل يحدث وسواس الرجل ، فمن ههنا يفسو السر .

قال أبو نعيم : فكان في نفسي من هذا شيء حتى حدثني حمزة الزيات ،
قال : خرجت سنة من السنين أريد مكة ، فلما جرت في بعض الطريق ضلت
راحلتى ، فخرجت أطلبها ، فإذا بثنين قد قبضا على أحسن حصما ؛ وأسمع
كلامهما ، ولا أرى شخصهما ! فأخذاني وجاءا بى إلى شيخ قاعد على تلمة^(٢) من
الأرض ، حسن الثبينة ؛ فسلت عليه فرد السلام ؛ فأفرخ^(٣) روعى ؛ ثم
قال : من أين ؟ وإلى أين ؟ قلت : من الكوفة أريد مكة .

قال : ولم تحلفت عن أضحابك ؟ قلت : ضلت راحلتى فحثت أطلبها !

فرفع رأسه إلى قوم على رأسه ؛ فقال : زامة^(٤) ؛ فأنيخت بين يدي ؛ ثم
قال لى : أقرأ القرآن اقلت : نعم ! قال : هاته اقرأت حتى انتهيت إلى هذه
الآية : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ؛ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا :
أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ .

فقال لى : على رسلك ! تدرى كم كانوا ؟ قلت : اللهم لا اقال : كنا أربعة ؛
وكنت المخاطب لهم ، قلت : « يا قومنا أجيئوا داعى الله » .

(١) وسواس الرجل : الشيطان الذى يوسوس له . والوسوسة : الصوت الخفى والهمس .

(٢) التلمة : ما ارتفع من الأرض . (٣) الروح : القلب ، وأفرخ : أخرج ما به من خوف .

(٤) منادى عذوف منه حرف النداء ، اسم ناقه .

ثم قال لى : أقول الشعر ؟ قلت : اللهم لا ! قال : أفقرّوبه ؟ قلت : نعم !
قال : هاته ! فأنشدته قصيدة :

أَمِنْ أُمٍّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْتَمَنَّا^(١)

فقال : لمن هذه ؟ قلت : زهير بن أبى سُلَيْمٍ ! قال : الجنى ؟ قلت : بلى
الإنسى ! مراراً .

ففرغ رأسه إلى قومٍ على رأسه ، قال : زهير ! فأنى بشيخٍ كأنه قطعة لحمٍ ؛
فألتى بين يديه ، فقال له : يا زهير ! قال : لبيك ! قال : « أَمِنْ أُمٍّ أَوْفَى » لمن ؟
قال : لى ! قال : هذا حمزة الزيأتُ يذكرُ أنها زهير بن أبى سُلَيْمٍ الإنسى ، قال :
صدق هو ، وصدقت أنت !

قال : وكيف هذا ؟ قال : هو لائى من الإنس ، وأنا تابعه من الجن ، أقول
الشيء فألقيه فى رُفْغِهِ ، ويقولُ الشيء فأخذه عنه ؛ فأنا قائلها فى الجن ، وهو قائلها
فى الإنس .

قال أبو نعيم : فصدق عندى هذا الحديثُ حديثُ أبى الجوزاء إن وسواس
الرجل يحدثُ وسواس الرجل ! فن ها هنا يفشو السر !

فاستفرغ^(٢) للتوكل ضحكاً ، وقال : إلى يافصح ! فصب عليه خلماً^(٣) ، وحمل
على شيء من الظلّز ، وأمر له بمال ، وأمر لى بدون ما أمر له به .
فانصرفت إلى منزلى ، وقد شاطرنى الفتح ما أخذ ، فصار الأكثر لى ،
والأقلّ عنده .

(١) أم أوفى : على حذف مضاف ، أى آمن منازل أم أوفى ، والدمنة : ما بين من أثار الديار ،
وحومانة الدراج : ماء فى طريق البصرة إلى مكة ، وللتلم : موضع أول أرض الصمان . (٢) بذل
جهده فى الضحك . (٣) ما يخلع على الإنسان من التياب وغيرها .

١٢١ — حاتم يقرى الضيف بعد موته*

مرّ نفرٌ من عبد القيس بقبر حاتم^(١) ، فنزلوا قريباً منه ، فقام إليه رجل يقال له أبو الخيبري^(٢) ، وجعل يركض^(٣) برجله قَبْرَهُ ؛ ويقول : أَقْرَبْنَا ، فقال له بعضهم : وبك ! ما يدعوك أن تمرض لرجل قد مات ؟ قال : إن طيًّا تزعم أنه ما نزل به أحدٌ إلا قرأه ، ثم أجنهم الليل ، فناموا .

فقام أبو الخيبري فزعاً ، وهو يقول : وارا حلتاه ! فقالوا له : مالك ؟ قال : أنا حاتم في النوم ، وعقرنا قتي بالسيف ؛ وأنا أنظرُ إليها ، ثم أنشدني شعراً حفظته ، يقول فيه :

أبا الخَيْرِيَّ ، وأنت امرؤٌ ظلومٌ العشيْرة شتأُمها
أُتيتَ بصحبك تَبْنِي القرَى لَدَى حُفْرَةٍ قد صَدَّتْ^(٤) هَامُها
أُنَبِّئُ لِي الذَّمَّ عند الليث وَحَوْلَك طِيٌّ وَأَنفَامُها
فإنَّا لنشيعُ أَضيافنا وتَأْنِي اللَّطِيَّ فَنَعْتَامُها^(٥)

* بلوغ الأرب : ١ - ٧٤

(١) هو حاتم بن عبد الله من قبيلة طيٍّ ، وهو من أجواد العرب ، وله أخبار كثيرة في السَّخَاءِ مشهورة ، حتى جرى ذكره بحرى الأمثال ، وكان مع ذلك شاعراً وشجاعاً ، توفي سنة ٦٠٦ م .
(٢) قال في القاموس : كان له ولد بخير . وخير : حصن قرب المدينة . (٣) ركض الرجل ركضاً من باب قل : ضرب برجله . (٤) صلت : صوتت . والهامة : طير تزعم العرب أنه يصيح على قبر الميت القتيل ، فلا يفتأ ينادي بئاره حتى يؤخذ به . (٥) نعامها : عنت الإبل ، واعتمت ، واستعنت : إذا حلبت عشاء .

فقاموا ، وإذا ناقة الرجل تكوس^(١) عقرًا ، فانتحروها وباتوا يأكلون ،
وقالوا : قرأنا حاتم حيًا وميتًا !
وأردفوا صاحبهم ، وانطلقوا سائرين ، وإذا برجل راكب بغيراً وهو يقول
آخر ، قد لحقه ، وهو يقول : أيكم أبو الخَيْرِ ؟ قال الرجل : أنا ! قال : فخذ هذا
البعير ؛ أنا عدى بن حاتم ؛ جاءني حاتم اليوم في النوم ، وزعم أنه قرأكم بنافتك ،
وأمرني أن أحملك ؛ فشأنك والبعير^(٢) !
ودفعه إليهم وانصرف .

(١) تكوس : كاس البعير ، مشى على ثلاث قوائم وهو معرّب . (٢) إلى هذه القصة أشار
ابن دارة النطفاي في قوله بمدح عدى بن حاتم :
أبوك أبو سفانة الخير لم يزل
به تضرب الأمثال في الكرم ميتا
لأنه شب حاتم في الخير داعيا
وكان له إذ ذاك حيا مصاحبا
ولم يقر قبر قبله البحر راكبا
قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به

١٢٢ — جَارُ مَالِكِ بْنِ حَرِيمٍ *

خرج مالك بن حريم في نفر من قومه يريدون عُكَاظَ ، فاصطادوا غليياً ،
وأصابهم عطش شديد ، فانهبوا إلى موضع قَصَدُوا الظِّلَّ ، وجعلوا يشربون من
دمه من العطش ، فلما ذهب دمه ذبحوه ، وخرجوا في طلب الحطب ، وگَمَنَ مَالِكُ
في خِيَابِهِ فَأَنَارَ بَعْضُهُمْ شُجَاعاً^(١) فَأَقْبَلَ مُنْسَاباً حَتَّى دَخَلَ رَحْلَ مَالِكِ ، فَلَاذَ بِهِ ،
وَأَقْبَلَ الرَّجُلُ فِي أَثَرِهِ ؛ وَقَالَ : يَا مَالِكُ ، اسْتَيْقِظْ فَإِنَّ الشُّجَاعَ عِنْدَكَ ؛ فَاسْتَيْقِظَ
مَالِكُ ، وَنَظَرَ إِلَى الشُّجَاعِ ، فَإِذَا هُوَ يُلَوِّدُ^(٢) بِهِ ؛ فَقَالَ لِلرَّجُلِ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا
تَرَكْتَهُ ، فَكَفَّ عَنْهُ وَأَنَسَابَ الشُّجَاعَ إِلَى مَأْمَنِهِ ، وَأَنشَأَ مَالِكُ يَقُولُ :

وَأَوْصَانِي الْحَرِيمَ بِمَرْجَارِي وَأَمْنَمِهِ وَلَيْسَ بِهِ امْتِنَاعُ

وَأَضَعُ ضَيْمَهُ وَأُذَبُّ عَنْهُ وَأَمْنَمِهِ إِذَا مَنَعَ لَلتَّاعِ

فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَاسْتَدْبَرُوا وَاسْتَدْبَرَهُمُ الْعَطَشُ ، وَإِذَا بِهِاتِفٍ يَهْتَفُ بِهِمْ وَيَقُولُ :

يَا أَيُّهَا الْقَوْمُ لَا مَاءَ أَمَامَكُمْ حَتَّى تَسُومُوا الْمَطَايَا يَوْمَهَا التَّعْبَا

فَمِمَّا عَابُوا شَامَةً قَالُوا لِي عَيْنُ كَثِيبٍ عَيْنٌ رَوَاءَ وَمَاءٍ يَذْهَبُ لَلنَّبَا^(٣)

حَتَّى إِذَا مَا أَصَبْتُمْ مِنْهُ رَيْكُم فَاسْقُوا لِلطَّيَا وَمِنْهُ فَاثَلُوهَا التَّرْبَا

فَدَلُّوا شَامَةً ، فَإِذَا هُمْ فِي عَيْنِ خَرَّارَةٍ فِي أَصْلِ جَبَلٍ ، فَشَرَبُوا وَسَقُوا لِأَبْلِهِمْ .

* بلوغ الأرب : ٢ - ٣٦٢

(١) الشُّجَاعُ : الذِّكْرُ مِنَ الْحَيَاتِ .
(٢) لَاذَ بِهِ : لَجَأَ إِلَيْهِ . (٣) الشَّامَةُ : ضِدُّ النِّيمَةِ ،
وَالْكُتْبُ : الْقُرْبُ ، وَالنَّبَا : النَّبْ .

وحلوا رِيَهُم حَتَّى أَتَوْا عُكَاظَ ، نَمِ اقْبَلُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى ذَلِكَ لِلْوَضْعِ ، فَلَمْ يَرَوْا
شَيْئًا ، وَلِذَا يَهْتَافُ يَقُولُ :

يَا مَالٍ عَنِ جِزَائِكَ اللَّهُ صَالِحَةٌ هَذَا وَدَاعٌ لَكُمْ مِنِّي وَتَسْلِيمٌ
لَا تَزْهَدُنْ فِي اصْطِنَاعِ الْخَيْرِ مَعَ أَحَدٍ إِنَّ الَّذِي يَحْرُمُ لِلْعُرُوفِ مَحْرُومٌ
مَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ لَا يَعْدَدُ مِنْهُ مَغْبِطَةٌ مَا عَاشَ ، وَالْكَفَرُ بَعْدَ النَّبِّ مَذْمُومٌ
أَنَا الشَّجَاعُ الَّذِي أُنْجِيتَ مِنْ رَهْقٍ شَكَرْتُ ذَلِكَ إِنَّ الشُّكْرَ مَقْسُومٌ
ثُمَّ طَلَبُوا الْعَيْنَ فَلَمْ يَجِدُوهَا .

١٢٣ — الجن وابن الحمارس *

كان عبيد بن الحمارس النكلي رجلاً شجاعاً، وكان نازلاً بالسَّوَّة^(١)،
أيام الربيع، فلما حَسَرَ الربيع، وقلَّ ماؤه، وأقلَّتْ أنواؤه، تحمل^(٢) إلى وادي
بَسل^(٣) فرأى روضة وغديراً، فقال: روضة وغدير وخطب يسير، وأنا لما
حويتُ بحير.

فزل هناك، وله امرأتان: اسم إحداهما الرِّباب، والأخرى خَوْلَة؛ قالت
له خَوْلَة:

أرى بلدةً قرراً قليلاً أنيسها وإنا لنخشى - إن دجال الليل - أهلها
وقالت له الرِّباب:

أرنتك برأى، فاستمعْ عنك قولها ولا تأمن جنَّ العَرِيف^(٤) وجهلها
فقال محبباً لها:

ألسْتُ كميَّ^(٥) في الحروب مجرباً شجاعاً إذا شُبَّتْ له الحرب مجرباً^(٦)
سريماً إلى الهيجا^(٧) إذا حَسَّ^(٨) الوغى فأقسم لا أغدو النفسدير مُتَكَبِّباً^(٩)
ثم صعد إلى جبل بُبَل فرأى شَيْهَةً^(١٠)، فرماها فأفصصها^(١١)، ومعهما ولدها
فارتبطه؛ فلما كان الليل هتف به هاتف من الجن:

* بلوغ الأرب: ٢ - ٣٥٥، ابن أبي الحديد: ٤ - ٤٤٨

(١) السَّوَّة: بادية قرب الشام. (٢) تحمل: سافر. (٣) بَسل: واد على أميال يسيرة من
الكوفة، وأعله متصل بساوة كلب. (٤) العَرِيف: الخلفاء. (٥) الكبي: الشجاع
(٦) المجرب: صاحب الحرب. (٧) الهيجا: الحرب. (٨) حَسَّ: اشتد وصلب في القتال.
(٩) تَكَبَّب: عدل. (١٠) الشَّيْهَة: الأثني من التنافذ. (١١) أفصصها: قتلها مكانها.

يا بن الحمارس قد أسأت جوارنا
وعقرت لقصته^(١) وقدت فصيلها
وزلت مرعى شائنا وظلمتنا
فلنظركك بالذي أزلت لنا
وركبت صاحبنا بأمر منقطع
قوداً عنيفاً في المنيف الأرفع
والظلم قاعله وخيم للرفع
شراً يبيك وما له من مدفع

فأجابه ابن الحمارس :

يا مدعى ظلى ، ولست بظالم
لا تطلعوا فيما لدى فالكم
استمع لديك مقالتي ونسنع
فيا حويت وحزنته من مطعم

فأجابه الحفي :

يا ضارب اللقعة^(٢) بالمضرب الأقل^(٣)
وساقك الحدين إلى جن تبلى
قد جارك الموت ووافق الأجل
قال يوم أقيوت^(٤) وأعيتك الحيل

فأجابه ابن الحمارس :

يا صاحب اللقعة هل أنت بجمل
وكثرة المنطق في الحرب فسل
مستمع منى قد قلت انك تطل
هيبت قمقاماً^(٥) من القوم بطل
ليث ليوث ، وإذا هم فعل
لا يرهب الجن ولا الإنس أجل
من كان بالقوة^(٦) من جن تبلى

فسمعا شيخ من الجن ؛ قال : لا والله لا نرى قتل إنسان مثل هذا ، ثابت
القلب ، ماضى العزيمة ! فقام ذلك الشيخ فأنشد :

(١) اللقعة : الباقة . (٢) المضرب : السيف . (٣) الأقل : النظم . (٤) أقيوت : افتقر .
(٥) القمام : اليد . (٦) القوة : الهمة .

يا ابن الحمارس قد نزلت بلادنا
فأصبت منها مشرباً ومناماً
فبدأتنا ظلاماً بقر لقوحنا
وأصأت لنا أن نطقت كلاماً
فأحمد لأمر الرشد واجتنب الردى
إنا نرى لك حرمَةً وذماماً
واغرم لصاحبنا لقوحاً متجباً
فلقد أصبت بما فلت أناماً^(١)
فأجابه ابن الحمارس :

الله يعلم حيث يرفع عرشه
إني لأكره أن أصيب أناماً
أما أذاؤك ما أذعيت فإني
جئت البلاد ولا أريد مقاماً
فأتممت^(٢) فيها مالنا ونزلها
لأريح فيها ظهرنا أياماً
فليند صاحبكم علينا نعطه
ما قد سألت ولا نراه غراماً
ثم غرم للجن لقوحاً متجباً^(٣) .

(١) الألفاظ : الإثم . (٢) أسام المال : أرواه . وللال (هنا) : الإيل . (٣) قال ابن أبي الحديد بعد إيراد هذه القصة في شرح نهج البلاغة : وهذه الحكاية وإن كانت كذباً إلا أنها تضمن أدباءً وهي من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وإمتاعها .

١٢٤ — حارس مال ابن الخشرم*

خرج نُجَيْح اليزْبُوعى يوماً إلى الصيد ، فعرض له حمارٌ وخشٍ فأتبعه ، حتى دفع إلى أكمة ، فإذا هو برجل أمى أسود قاعد في أطمار^(١) ، بين يديه ذهب وفضة ودرّ وياقوت . فدنا منه نُجَيْح ؛ فتناول منها بعضها ، فلم يستطع أن يحرك يده حتى ألقاها ؛ قال : يا هذا ؛ ما الذى بين يديك ؟ وكيف تستطيع حمله ؟ ألك هو أم لغيرك فأنى أعجب مما أرى ، أجواد أنت فتجود لنا ، أم بخيل فأعذرك ؟ فقال الأعمى : كيف تطلب مال رجل قد غلب منذ سنتين ، وهو سعد بن خشرم ، فأتني بسد يملك ما تشاء .

فانطلق نُجَيْح مسرعاً ، قد استطير فؤاده ، حتى وصل إلى محله^(٢) ، ودخل خبائه ، فوضع رأسه ، ونام لما به من النع ؛ لا يدرى من سعد !

فأتاه في منامه آت ؛ قال له : يا نُجَيْح ؛ إنَّ سعد بن خشرم فى حى مُحَلِّمٍ من ولد دُهل بن شيبان ؛ تفرج وسأل عن بنى مُحَلِّمٍ ، ثم سأل عن خشرم ، فإذا هو بشيخ قاعد على باب خبائه ، فحيّاه نُجَيْح ، فردّ عليه ، فقال له نُجَيْح : من أنت ؟ قال : خشرم بن شماس . قال : وأين ابنك ؟ قال : خرج فى طلب نُجَيْح اليزْبُوعى ؟

* المحاسن والأضداد : ٢٩

(١) الأطمار : الملابس البالية . (٢) المحلة : منزل القوم .

وذلك أن أتيا أتاه في منامه ، فحدثه أن مالا له في نواحي بني يربوع لا يعلم به إلا نجيح ، فضرب نجيح بطن فرسه ، وهو يقول :

أطلبني مَنْ قد عَنَانِي طَلَابُهُ فيألتني أَلْهَاكَ سَمَدَ بْنَ خَشْرَمٍ
أَنْتَ بَنِي يَرْبُوعَ تَبْنِي لِقَاءَنَا وقد جُثْتُ - كَيَ أَلْهَاكَ - حَيَّ حُكْمٍ

فما دنا من محلته استقبل سمداً ، فقال له : أيها الراكب ؛ هل لقيت سمداً في بني يربوع ؟ قال : أنا سمداً ؛ فهل تدلني على نجيح ؟ قال : أنا نجيح ! وحدثه بالحديث ؛ ثم قال : الدالُّ على الخير كفاعله .

فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان ؛ فتوارى الرجل الأعمى حين أبصرهما ، وترك اللال ، فأخذه سمداً كله ، فقال له نجيح : يا سمداً ؛ فاسمى ، فقال له : اطو عن مالي كشعاً ! وأبى أن يعطيه شيئاً ، فأتقضى نجيح سيفه ، وجعل يضربه ، حتى برد ؛ فلما وقع قتيلاً تحوّل الرجل الحافظ للال سِمْلاًة^(١) ، وأعاد للال إلى مكانه ؛ فلما رأى نجيح ذلك وثى هارباً إلى قومه !

(١) السملة : التول أو ساحرة الجن .

١٢٥ — في موت أمية بن أبي الصلت*

لما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم أخذ أمية بنتيه وهرب بهما إلى أقصى اليمن ، ثم عاد إلى الطائف ، فبينما هو يشرب مع إخوان له في قصر غيلان هناك إذ سقط غراب على شُرْفَةٍ في القصر ، فَتَعَبَ نَعْبَةً ؛ فقال أمية : بفيك الكَثْكُثُ^(١) ! فقال أصحابه : ما يقول ؟ قال : يقول : إنك إذا شربت الكأس التي بيدك ميت . فقلت : بفيك الكَثْكُثُ ، ثم نسب نَعْبَةً أخرى ، فقال أمية نحو ذلك ، فقال أصحابه : ما يقول ؟ قال : زعم أنه يقع على هذه للزُبَلَةِ^(٢) أسفل القصر ، فيستثير عظاما فيقتلهم فيشجى به فيموت ، فقلت نحو ذلك . فوقع الغرابُ على الزُبَلَةِ ، فأثار العظيم ، فشجى به فمات .

فانكسر أمية ، ووضع الكأس من يده ، وتغيّر لونه ، فقال له أصحابه : ما أكثر ما سمعنا بمثل هذا وكان باطلا ! ثم أُلْحُوا عليه حتى شرب الكأس فقال وأغشى عليه ، ثم أفلق ، ثم قال : لا برى ، فأعتر ، ولا قوى ، فأتضر ، ثم خرجت نفسه .

* الأغانى : ٤ - ١٣٣

(١) الكَثْكُثُ : التراب . (٢) موضع السجدين .

١٣٦ - في بحر الخَزَر *

قال ميمون الأمدى : ركبتم بحر الخَزَرَ أريد بلداً حتى إذا ما كنت منه غير بعيد لُجِّجَ^(١) مركبنا ، فاستاقه ريح الشمال شهراً في اللجة ، ثم انكسر بنا ، فوقعتُ أنا ورجل من قريش إلى جزيرة في البحر ليس بها أنيس .

فصلنا نطوف حتى أشرَفْنَا على هُوَّة ، وإذا بشيخ مستند إلى شجرة عظيمة ، فلما رأنا تَحَشَّشَ^(٢) وأناف إلينا ! فترَعْنَا منه ، ثم دنونا نحوه ، وقلنا : السلام عليك أيها الشيخ ! قال : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فأنسنا به ، فقال : ما خبطُكم ؟ فأخبرناه ، فضحك وقال : ما وطئ هذا اللوضع أحد من ولد آدم قط ، فن أننا ؟ قلنا : من العرب ، قال : بأبي وأمي العرب ، فن أيها ؟ قلت : أما أنا فرجل من خُزاعة ، وأما صاحبي فن قريش . قال : بأبي قريش وأحمدُها ! قال : يا أخا خُزاعة ، هل تدري من القاتل :

كَأَن لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْمَجُونِ^(٣) إِلَى الصَّفَا أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرٌ
بلى نحن كُنَّا أَهْلَهُمْ فَأَبَادَنَا صُرُوفُ الْإِيَالِ وَالْجُدُودُ الْعَوَاتِرُ
قلت : نعم ، ذلك الحارث بن مضاض الجُرهمي . قال : ذلك مؤدِّيها ، وأنا

● المجرة : ٢٦

(١) بلغت السفينة : خاضت اللجة . ولجة البحر : مظهره . (٢) تَحَشَّشَ : تحرك ، أناف : أشرَف . (٣) المجون : جبل بمكة ومقبرة .

فأثلمها في الحرب التي كانت بينكم معشر خزاعة وبين جرهم .

يا أبا قريش ؛ أولد عبد المطلب بن هاشم ؟ قلت : أين يذهب بك ، رحلك
الله ، فربنا وعظم وقال : أرى زمانا قد قارب إبطائه ، أقول له ابنه عبد الله ؟ قلنا :
وأين يذهب بك ، إنك لتسألنا مسألة من كان في الموتى .

قال : فتزايد ، ثم قال : فابنه محمد الهادي ؟ قلت : هيهات مات رسول الله
صلى الله عليه وسلم منذ أربعين سنة .

فشهق حتى غلغلت أن نفسه قد خرجت ، وانغصص حتى صار كالفرخ وأنشأ
يقول :

ولرب راجٍ حيل دون رجائه ومؤملٍ ذهب به الآمالُ

ثم جعل ينوح ويبكى ، حتى بلّ دمه لحيته ، فبكينا لبكائه ، ثم قال :
ويحكما ! فمن ولى الأمر بعده ؟ قلنا : أبو بكر الصديق ، وهو رجل من خير
أصحابه . قال : ثم من ؟ قلنا : عمر بن الخطاب ، قال : أفمن قومه ؟ قلنا : نعم . قال :
أما إن العرب لا تزال بخير ما ضلت ذلك !

١٢٧ — نجى^(١) سواد بن قارب*

وفدَّ سَوَادُ بْنُ قَارِبٍ عَلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ،
قَالَ عَمْرٌ: يَا سَوَادُ! قَالَ: لِيَبِّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! قَالَ: مَا بَقِيَ مِنْ كَهَانَتِكَ؟
فَقَضَبْتُ ثُمَّ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ مَا أَظْنُكَ اسْتَقْبَلْتَ بِهَذَا الْكَلَامِ غَيْرِي؛ فَلَمَّا
رَأَى عَمْرُ الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِهِ قَالَ: يَا سَوَادُ؛ إِنْ أَلَيْكَ كِتَابًا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ
الْأَوْثَانِ أَعْظَمَ مِنَ الْكِهَانَةِ، لَخَدَثَنِي بِمَحْدِثٍ كُنْتُ أَشْتَعِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْكَ.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، يذنبنا أنا في إبل بالسرقة، وكان لي نجى^٢ من الجن؛
إِذَا أَتَانِي فِي لَيْلَةٍ وَأَنَا كَالنَّاسِ، فَوَكَّضَنِي بِرِجْلِهِ، ثُمَّ قَالَ: قُمْ يَا سَوَادُ، قَدْ ظَهَرَ
بِتَّهَامَةِ نَبِيٍّ يُدْعَوُ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ، قُلْتُ: تَنَحَّ عَنْ فِئَتِي نَاعِسٌ؛
فَوَلَّى عَنِّي وَهُوَ يَقُولُ:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَطْلُبُهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَكْوَارِهَا^(٣)

تهوى إلى مكة تبني الهدى ما مؤمنو الجن ككفارها

فأرحل إلى الصقوة من هاشم بين روايها وأجبارها

ثم لما كان في الليلة الثانية أتاني، فقال مثل ذلك القول، قلت: تنح عنى

فإني ناعس، فوَلَّى عَنِّي وَهُوَ يَقُولُ:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتَخْبَرُهَا وَشَدَّهَا الْعَيْسَ بِأَقْبَابِهَا^(٣)

* بلوغ الأرب: ٢ - ٣٠٣، الجمهرة: ٢٠.

(١) النجى: من يلقى بالقول السر. (٢) الأكوار: جمع كور، وهو الرجل. (٣) الأقباب: جمع قتب، وهو ما يوضع على سنام البعير.

تهوى إلى مكة تبني الهدى ما مؤمنو الجن ككفارها
 فارحل إلى الصفوة من هاشم ليس قدماها كاذناتها
 ثم أتاني في الليلة الثالثة ، فقال مثل ذلك ، قلت : إني ناعس ، فولى عني
 وهو يقول :

عجبت للجن ولإيجاسها^(١) وشدها العيس بأحلاسها^(٢)
 تهوى إلى مكة تبني الهدى ما مؤمنو الجن كأنجاسها
 فارحل إلى الصفوة من هاشم واسمُ بمنيك إلى راسها

قال سواد : فلما أصبحت يا أمير المؤمنين أرسلتُ لناقةً من إيلي ،
 فشددتُ عليها ، وأتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمتُ وبايتُ ، وأنشأتُ
 أقول :

أتاني نجيٌ بمد هذه^(٣) ورقدة ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذب
 ثلاث ليالٍ قوله كل ليلة أذاك رسولٌ من نؤى بن غالب
 فشمزتُ عن ذيل الإزار وأرقلتُ^(٤) بي الذُعْلَبُ الوجناء بين السباب^(٥)
 فأشهد أن الله لا ربَّ غيره وأنتَ مأمونٌ على كل غائب
 وأنتَ أدنى المرسلين وسيلةً إلى الله يا بن الأكرمين الأطايِب

(١) أوجس : وقع في قهه الخوف . (٢) المجلس : كاء رقيق يكون تحت البرذعة بمنزلة
 للرشحة . (٣) الهدى : الكون . (٤) أرقلت : أسرعت . (٥) الذُعْلَب : الذاقة السريعة ،
 شبهت بالذُعْلبة وهي النمامة لسرعتها (اللسان مادة ذُعْلَب) ، والوجناء : الشديدة . والسباب ،
 جمع سبب : اللقاة .

فمرّني بما أحببت يا خيرَ مرسلٍ وإن كان فيما قلتَ شيبُ النوائبِ
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعةٍ بمنزلة فتيلٍ عن سوادِ بن قارب
ففرح رسول الله وأصحابه بمقاتلي فرحاً شديداً حتى رُئي الفرح في وجوههم ؛
فوثب إليه عمر فالتزمه ، وقال : قد كنت أحبُّ أن أسمع هذا الحديث منك ،
فهل يأتيك رثيك اليوم ؟ قال : منذ قرأت القرآن فلا ، ونم الموضع كتاب الله
تعالى من الجن !

١٢٨ - ليلي الأخيلية على قبر توبة*

مرّت ليلي الأخيلية^(١) مع زوجها بقبر توبة بن الحخير ، فقال لها : هذا قبرُ
الكذاب الذي قال :

ولو أن ليلي الأخيلية سلّمتُ على ودوي جندلٍ وصفائحُ
لستُ نسلمَ البشاشةَ أو زقاً إليها حدّى من جانب القبرِ صائحُ
قالت : دعه ، قال : أقسمتُ عليك إلا مادّنتِ منه فسَلّمتِ عليه. فأبت ،
فكرّر عليها ذلك ، فلما تقدّمت إلى القبر ، وقالت : السلام عليك يا توبة ، طار من
جانب القبر طائر كان هناك ، وزقاً وافر منه جلّ ليلي ، فوقّت من أعلاه فاندقت
عقبها وماتت من وقها !

● ديوان الصبابة : ١٨٤

(١) هي ليلي بنت عبد الله من بني الأخيل بن عامر ، من النساء اللطيفات في الشعر ، وكان توبة
ابن الحخير يهواها ، وقال فيها الشعر الكثير ثم تزوجها ، توفيت سنة ٨٠ هـ .

١٢٩ - جان يختطف فتاة*

حدث زياد بن النضر الحارثي قال : كنا على غدير لنا في الجاهلية ، وممنا رجل من الحبي يقال له : عمرو بن مالك ، معه بنية له شابة ، على ظهرها ذؤابة ، فقال لها أبوها : خذي هذه الصخرة ، ثم اثني الندير ، فحيثنا بشيء من مائه .

فانطلقت فواقفها عليه جان فاختطفها ، فذهب بها ؛ فلما قدناها نادى أبوها في الحبي ، فخرجنا على كل صمب وذلول^(١) ، وقصدنا كل شعيب^(٢) ونقب ، فلم نجد لها أثرًا ؛ ومضت على ذلك السنون ، حتى كان زمنُ عمر بن الخطاب ، فإذا هي قد جاءت ، وقد عفا^(٣) شعرها وأظفارها ، وتغيرت حالها ، فقال لها أبوها : أي بنية ؛ أني كنت ؟ وقام إليها يقبلها ، ويشم ريحها ، وقالت : يا أبت ؛ أذكرك ليلة الندير ؟ قال : نعم ! قالت : فإنه واقفي عليه جان ، فاختطفني ، فذهب بي ، فلم أزل فيهم ، حتى إذا كان الآن غزا هو وأهله قومًا مشركين ، أو غزاهم قوم مشركون ، فجعل لله تبارك وتعالى نذرا إن هم ظفروا بملوهم أن يعتقني ويردني إلى أهلي فظفروا ؛ فحملني فأصبحتُ عندكم ، وقد جعل بيني وبينه أماراة ، إن احتجتُ إليه أن أولول بصوتي ، فإنه يحضرني .

* للثقي من أخبار الأسمى : ١٣

(١) الصعب : الجبل العسى ، والذلول : الجبل الهادئ . (٢) النقب : الطريق في الجبل ، وسيل الماء في بطن أرض ، أو ما اخرج بين الجبلين . (٣) عفا شعرها : كثر وطال .

فأخذ أبوها من شعرها وأغافرها ، وأصلح من شأنها ، وزوجها رجلا من أهله ؛
فوقع بينها وبينه ذات يوم ما يقع بين المرأة وبعلها فميرها ، وقال : يا مجنونة !
والله ، إن نشأت إلا في الجن .

فصاحت وولولت بأعلى صوتها ، فإذا هاتف يهتف : يا معشر بنى الحارث ؛
اجتمعوا وكونوا حيًّا كرامًا ، فاجتمعنا قتلنا : ما أنت - رحلك الله ؟ فإننا نسمع
صوتًا ولا نرى شخصًا ! قال : أنا راب^(١) فلانة ، رعيته في الجاهلية بحسي ؛
وصنعتها في الإسلام بديفي ، والله إن نلت منها محرماً قط ! واستنات في هذا
الوقت ، فحضرت فسألها عن أمرها ، فزعت أن زوجها غيرها بأنها كانت فينا ،
ووالله ، لو كنت تقدمت إليه لفتأت عينيهِ ! قتلنا : يا عبد الله ! لك الجباء والجزاء
وللكفاة ! قال : ذلك إليه (يعني الزوج) !

فقامت إليه عجوز من الحى ، قالت : أسألك عن شيء ؛ قال : سئلي اذلت :
إن لى بنية أصابها حصبة^(٢) ، فمزق رأسها ، وقد أخذتها حى الربع^(٣) ؛ فهل لها
من دواء ؟ قال : نعم ! اعدى إلى ذباب اللاء الطويل القوائم الذى يكون على
أفواه الأنهار ، فخذى منه واحدة ، فاجعلها في سبعة ألوان عمن^(٤) ، من أصفرها
وأحمرها وأخضرها وأسودها ، وأبيضها وأكحلها وأزرقها ، ثم اخل ذلك الصوف
بأطراف أصابعك ، ثم اعقديه على عضدك ؛ فعملت أمها ذلك ، فكانتما نشطت
من عقال !

(١) راب : كائل . (٢) الحصبة : يثر يخرج بالجد . (٣) الربع فى الحى : أن تأخذ يوما
وتدع يومين ، ثم تحبى فى اليوم الرابع . (٤) العمن : الصوف .

١٣٠ - لا بقاء للإنسان*

ليس سليمان^(١) بن عبد الملك يوم الجمعة في ولايته لباساً شهيراً به ، ونمطر ودعا بَنَتْ^(٢) فيه عمام ، وببيده مرآة ، فلم يزل يسمّ بواحدة بعد أخرى حتى رضى بواحدة منها ، فأرخص من سدولها ، وأخذ بيده مَحْضَرَة^(٣) ، وملا للنفر ناظرًا في عطفه ، وجمع جمعه ، وخطب خطبته التي أرادها ، فأعجبته نفسه ، فقال : أنا الملك الشاب ، السيد الملهب ، الكريم الوهاب ، ففتملّت له جارية من بعض جواريه ، فقال لها : كيف ترى أمير المؤمنين ؟ قالت : أراه مئى النفس ، وقرّة العين ، لولا ما قال الشاعر ا قال : وما قال الشاعر ؟ قالت :

أنت نعم للتاع لو كنت تَبَقَى غير أن لا بقاء للإنسان
أنت من لا يرينا منك شيء علم الله - غير أنك فان

فدمعت عيناه وخرج على الناس باكيًا ، فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بالجارية ، فقال لها : ما دعاك إلى ما قلت لأمر المؤمنين ؟ قالت : والله ما رأيت أمير المؤمنين اليوم ، ولا دخلت عليه ؟ فأكبر ذلك ، ودعا بَقِيْمَة جواريه ، فصدمتها في قولها ، فراع ذلك سليمان ، ولم ينتفع بنفسه ، ولم يمكث بعد ذلك إلا مدّة حتى توفى .

* مروج الذهب : ١ - ١٦٣

(١) سليمان بن عبد الملك من خلفاء بني أمية ، كانت أيامه أيام فتح وغزو وكان فصيحًا بلينا ، إلا أنه كان نهبا ، توفى سنة ٩٦ هـ . (٢) التفتت : وعاء تصان فيه الثياب . (٣) المحضرة : ما يتوكأ عليه كالعمامة ونحوها ، وما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب ، والحطّيب إذا خطب .

١٣١ — الغريـض يتلقى غناءه عن الجن *

قال مولى لآل الغريـض ^(١) :

حدَّثني بعض مَوَلِيَّائِي وقد ذَكَرَنَ الغريـضَ فترجَّعن عليه وقلن : جاءنا يوماً
يحدثنا بمحدث أنكرناه عليه ، ثم عَرَفْنَا بعد ذلك حقيقته ، وكان من أحسن الناس
وجهاً صغيراً وكبيراً ، وكنا نَلْقَى من الناس عَنَّا بنسبه ، وكان ابنُ سُريـجٍ في
جوارنا فدفعناه إليه فَلَقِنَ الفناء ، وكان من أحسن الناس صوتاً فقتن أهل مكة
بِحُسْن وجهه مع حسن صوته ؛ فلما رأى ذلك ابنُ سُريـجٍ نَحَاهُ عنه ، وكانت بعضُ
مولياته تَلْمِهُه التَّيَاحَةَ ، فبرَزَ فيها ، فجاءني يوماً فقال : نهتني الجن أن أنوح ،
وأسمعتني صوتاً عجيباً ، قد ابْتَنَيْتُ عليه لحناً فاسمعيه مني ، واندفع فتفي بصوت عجيب
في شعر المرار الأسدي :

حلفتُ لها بالله ما بين ذِي النَمَا وهضب القنَّانِ ^(٢) من عَوَانٍ ولا بُكْرٍ
أَحَبُّ إلينا منك دَلًّا وما نرى به عند تَلَمَّى من ثوابٍ ولا أجرٍ

فكذَّبناه وقلنا : شيء فكَرَّ فيه وأخرجه على هذا اللحن ، فكان في كل يومٍ
يأتينا فيقول : سمعتُ البارحة صوتاً من الجن يترجيع وتقطع قد بنيت عليه صوتٌ
كذا وكذا بشعر فلان ، فلم يزل على ذلك ونحن نُنْكِرُ عليه ؛ فإننا لكذلك ليلة

* الأغانى : ٢ — ٣٧٣

(١) اسمه عبد الملك ، والغريـض لقبه ، كان يضرب بالعود ، وينقر بالدف ، أخذ الثناء عن ابن
سريـج ثم فاق عليه ، وتوفى في خلافة سليمان بن عبد الملك . (٢) الثنان : جبل لبني أسد .

وقد اجتمع جماعة من نساء أهل مكة في جمع سَمَرْنَا فيه ليلتنا ، والفريض ينيننا
بشعر عمر بن أبي ربيعة :

أَمِنْ آلِ زَيْبِ جَدِّ الْبُكُورِ نَمِ فَلَايٍ هَوَاهَا تَصِيرُ
لَمَّا سَمِعْنَا فِي بَعْضِ اللَّيْلِ عَرِيْقًا مَجِيئًا وَأَصْوَاتًا مُخْتَلِفَةً ذَهَرَتْهَا وَأَفْزَعَتْهَا ، فقال لنا
الفريض : إن في هذه الأصوات صوتًا إذا نَمَتْ سَمِعْتُهُ ، وَأَصْبَحُ فَأَبْنِي عَلَيْهِ غِنَائِي ،
فَأَصْبَغُنَا إِلَيْهِ ، فإذا نَمَتِ نَمَةُ الْفَرِيضِ بِمِثْلِهَا ، فَصَدَّقْنَاهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ .

١٣٢ - شيطان أبي نواس *

قال رزين الكاتب : اجتمعنا يوماً وأنا وأبو نواس^(١) وعلى بن الخليل في سوق الكرخ^(٢) ، وكنا مجتمع وتناشد الأشعار وتذاكر الأخبار وتحدث بها ، قال أبو نواس : أدبر من كان في نفسي ، وكان أسرع الخلق في طاعتي ؛ فما أدري ما أحتال له ؟ قال على بن الخليل يمازحه : يا أبا على ؛ سل شيخك وأستاذك يُعطفه عليك ؛ قال له أبو نواس : من تمني ؟ قال : من أنت في طاعته ليلاك ونهارك - يعني إبليس ، فإن لم يقض لك هذه الحاجة ، فإني بني لك أن تباه مسأله ، ولا أن تمر عينه بمصيبة . قال : هو أسدٌ رأياً من أن يُخلل بي أو يُخذلني ، واهضى مجلسنا ذلك .

فلما كان بعد أيام اجتمعنا في ذلك للوضع ، وأخذنا في أحاديثنا ، فضحك أبو نواس ، قلنا له : ما أضحكك ؟ قال : ذكرت قول على بن الخليل يومئذ : سل شيخك يعطفه عليك ، حينئذ قد سألتُه يا أبا الحسن ، قضي الحاجة ، وما مضت والله ثالثة حتى أناني من غير أن أبحث إليه ومن غير أن أستزيره ، فماتني واستزأني ، وكان النضب مفي والتجنى ، وأحسب الشيخ - يعني إبليس -

* عصر للأُمون : ٣ - ٢٣٣

(١) هو الحسن بن هاني ، رحل إلى بغداد ، واصل فيها بالحقاء من بني الباس ، وهو أول من نهج الشعر طريقته المخففة ، وأخرجته من الابهة البدوية ، توفي سنة ١٩٢ هـ .
(٢) من أسواق بغداد .

كان يسمع علينا في وقت كلامنا ، وقد قلت أحياناً في ذلك ؛ فقلنا : هاها ،
فأنشد :

لما جفاني الحبيبُ وامتنعتُ	عنى الرسالاتُ منه والخبرُ
واشتدَّ شوقى فكاد يفتلنى	ذكرُ حبيبي والممُّ والفكرُ
دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له	فى خَلْوَةٍ والدموعُ تنحدرُ :
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد	أفرح جَفْنى البكاءَ والسمُرُ
إِن أنتَ لم تُلقِ لى للودَّةِ فى	صدرِ حبيبي وأنتَ مقدرُ
لا قلتُ شعراً ولا سمعتُ غِناءً	ولا جرى فى مفاصلِ السُّكرِ ^(١)
فما مضتُ به دُلكِ ثالثة	حقى أنا فى الحبيبِ يعتذرُ
فيا لها مِنَّةٌ لقد عظمْتُ	عندى لإبليس ما لها خطرُ

١٣٣ — إبليس في ضيافة إبراهيم الموصلي *

قال إبراهيم بن إسحاق اللوصلي :

سألت الرشيد^(١) أن يَهَبَ لي يوماً في الجمعة لا يبعثُ فيه إلّا بوجه ولا بسبب لأخوِّ فيه بجواري وإخواني ، فأذن لي في يوم السبت ، وقال لي : هو يوم استنقذه ، فآله فيه بما شئت ؛ فأقت يوم السبت بمنزلي ، وتقدمتُ في إصلاح طعامي وشرابي بما احتجتُ إليه ، وأسرتُ بوابي فأغلق الأبواب ، وتقدمتُ^(٢) إليه ألا يأذنَ عليّ لأحد .

فبينما أنا في مجلسي والخدم قد حَفُّوا بي وجواري يتردّدن بين يدي ، إذا أنا بشيخ ذي هيئة وجمال ، عليه قميصان ناعمان وخفّان قصيران ، وعلى رأسه قلنسوة لاطئة^(٣) ، ويده عكازة مُقَمَّمة بِفِصَّة ، وروائحُ المسك تفوح منه حتى ملأ البيت والدار ، فداخلى بدخوله عليّ - مع ما تقدمت فيه - غيظٌ ما تداخلى قطُّ مثله ، ومهمتُ بطرد بوابي ومن حججني لأجله ، فلم عليّ أحسن سلام ؛ فرددتُ عليه ، وأمرته بالجلوس فجلس ، ثم أخذ بي في أحاديث الناس وأيام العرب وأحاديثها وأشعارها حتى سلّى ما بي من الغضب ، وظننتُ أن غلماي تحمّروا مسرّعاً يادخّالهم مثله عليّ لأدبه وظرفه .

(١) الأغاني : ٥ - ٢٣٩ ، ذيل زهر الآداب : ٢٦٤

(٢) أعظم خلفاء بني عباس ، وأكبرهم شأنًا ، كان محافظًا كثير المهاد وافر العطاء . توفي سنة ١٩٣ . (٢) تقدمت إليه : أمرته . (٣) اللاطئة : قلنسوة صغيرة تزق بالأس .

قُلْتُ : هل لك في الطعام ، قَالَ : لا حاجة لي فيه ، قلت : هل لك في الشراب ، قَالَ : ذلك إليك ، فشربتُ رطلاً وسقيته مثله ، قَالَ لي : يا أبا إسحاق ؛ هل لك أن تُنْفِي لنا شيئاً من صُنْعِكَ وما قد نَفَقْتُ^(١) به عند الخاصِّ والعام ؟ فنأفاني قوله ، ثم سَهَلْتُ على نفسي أمره ، فأخذتُ العود فحَسَسْتُهُ ثم ضربتُ فَنَنَيْتُ ، قَالَ : أحسنت يا إبراهيم ! فازداد غيظي وقلت : ماضى بما فعله من دخوله على نبيز إذن واقتراحه أن أُغْنِيه حتى سَمَانِي ولم يُكَنِّنِي ولم يُجِيلْ مخاطبتي ! ثم قال : هل لك أن تزيدنا ؟ فَتَدَمَّيْتُ^(٢) فأخذتُ العود فَنَنَيْتُ ، قَالَ : أَجَدْتُ يا أبا إسحاق ! فَأَمِّمْ حتى نكافيتك ونمنيتك ، فأخذتُ العود ونمنيتُ وتحفَظْتُ وقتُ بما غنيتُهُ إياه قياماً تاماً ما تحفَظْتُ مثله ، ولا قتُ بفناء كما قتُ به له بين يدي خليفة قط ولا غيره ، لقوله لي : أكاثلك ، فطرب وقال : أحسنت ياسيدي ، ثم قال : أأأذن لمبدك بالفناء ؟ قلت : شأنك ، واستضعفتُ عقله في أن ينفيني بحضرتي بعد ماسمعه مني ، فأخذ العود وجسه فوالله لَخَلَّتْهُ ينطق بلسانٍ عربيٍّ لمُحْسِنٍ ماسمعه من صوته ثم نَفَقَ :

ولى كَيْدٌ مقروحةٌ مِنْ يَبِيْعِي بها كَيْدٌ ليسَتْ بذاتِ قُرُوحِ
أباها على الناسُ لا يشترونها ومنْ يشتري ذاكِ عِلَّةٌ بصحيحِ ؟
أَنْ مِنْ الشوقِ الذى فى جوانبي أَنْ مِنْ غَصِيصِ بالشرابِ جَرِيحِ

قال إبراهيمُ : فوالله لقد ظننتُ الحيطانَ والأبوابَ وكلَّ ما فى البيتِ يحببه

(١) نفقت : يريد سار ذكره به . (٢) تدمم الرجل : استنكف ، ويقال : لو لم أترك الكذب تأمماً لتركته تدمماً .

وَيَفْقَىٰ مَعَهُ مِنْ حُسْنِ غَنَائِهِ ، حَتَّى خِلْتُ وَاللَّهِ أَنِّي أَسْمَعُ أَعْضَائِي وَتِيَابِي يُجَاوِبُهُ !
وَبَقِيْتُ مُجْهِوًّا لَا أَسْتَطِيعُ الْكَلَامَ وَلَا الْجَوَابَ وَلَا الْحَرَكَهَ لِيَا خَالَطَ قَلْبِي ،
ثُمَّ غَفَى :

أَلَا يَا حَامَاتِ اللَّوَى عُدْنَ عَوْدَةً فَلَيْ لِي إِلَى أَصَوَاتِكُنَّ حَزِينُ
فَمَدْنُ فَلَمَّا عُدْنَ كِدْنُ يُمِغْنِي وَكَدْتُ بِأَسْرَارِي لِمَنْ أُبِينُ
دَعَوْنُ بِتَرْدَادِ الْهَدِيرِ كَأَنَّمَا سَقِينُ حُمَيَّا أَوْ بَهْنُ جُونُ
فَلَمْ تَرَ عَيْفِي مِثْلَهُنَّ حَامَتَا بَكَيْنُ وَلَمْ تَدْمَعْ لِمَنْ عِيُونُ
فَكَادَ ، وَاللَّهِ أَعْلَمُ ، عَقْلِي أَنْ يَذْهَبَ طَرَبًا وَارْتِيَا حَاسِمَتُ ، ثُمَّ غَفَى :
أَلَا يَا صَبَا نَجْدٍ مَتَى هَبَّتْ مِنْ نَجْدٍ لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكُ وَجَدًا عَلَى وَجْدٍ
أَنَّ هَضْبَتَ وَرَقَاءَ فَرَوَتْكَ الصُّحَا^(١) عَلَى فَنَنْ غَضَّ النَّبَاتِ مِنَ الرَّندِ^(٢)
بَكَيْتُ كَمَا يَبْكِي الْحَزِينُ صَبَابَةً وَذُبَّتْ مِنَ الْحَزْنِ لِلْبَرْحِ وَالْجُحْدِ
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْحُبَّ إِذَا دَنَا يُكَلِّمُ وَأَنَّ النَّأْيَ يُشْفِي مِنَ الْوَجْدِ
بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشْفَ مَا بَنَا عَلَى أَنَّ قَرَبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبُعدِ
عَلَى أَنَّ قَرَبَ الدَّارِ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذَا كَانَ مِنْ تَهْوَاهِ لَيْسَ بِذِي عَهْدِ

ثُمَّ قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ ؛ هَذَا الْفَنَاءُ نَفْذُهُ وَانْصَحْ نَحْوَهُ فِي غَنَائِكَ وَعِلْمُهُ جَوَارِيكَ ،
قُلْتُ : أَعِيدَهُ عَلَيَّ ، قَالَ : لَسْتُ بِمُتَحْتَاجٍ ، قَدْ أَخَذْتَهُ وَفَرَّغْتَ مِنْهُ ، ثُمَّ غَابَ مِنْ
بَيْنِ يَدَيَّ فَارْتَمَتْ وَقْتُ إِلَى السِّيفِ فَبَرَدَتْهُ ، وَعَدْتُ نَحْوَ أَبْوَابِ الْحَرَمِ فَوَجَدْتُهَا
مُتَلَفَّةً ، قُلْتُ لِلْجَوَارِي : أَيُّ شَيْءٍ سَمِعْتُنَّ عِنْدِي ؟ قُلْنَ : سَمِعْنَا أَحْسَنَ غَنَاءِ

(١) رَوْنَقِ الصُّحَا : حُسْنُهُ وَإِسْرَاقُهُ . (٢) الرَّندُ : هَجْرَ طَيْبِ الرَّاحَةِ .

سَمِعَ قَطًّا ، فَرَجَتْ مُتَعَبِرًا إِلَى بَابِ الدَّارِ ، فَوَجَدَتْهُ مُنْقَلَبًا ؛ فَسَأَلَتْ الْبَوَّابَ عَنِ الشَّيْخِ . قَالَ لِي : أَيُّ شَيْخٍ هُوَ ؟ وَاللَّهِ مَا دَخَلَ إِلَيْكَ الْيَوْمَ أَحَدٌ ، فَرَجَعْتُ لِأَتَأَمَّلَ أَمْرِي ، فَإِذَا هُوَ قَدْ هَتَفَ بِي مِنْ بَعْضِ جَوَانِبِ الْبَيْتِ : لَا بَأْسَ عَلَيْكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ ! أَنَا إِبْلِيسُ وَأَنَا كُنْتُ جَلِيسَكَ وَتَدِيمَكَ الْيَوْمَ ، فَلَا تُرْعَ .

فَرَكِبْتُ إِلَى الرَّشِيدِ وَقُلْتُ : لَا أَطْرُقُهُ أَبَدًا بِطُرُقَةٍ مِثْلِ هَذِهِ ، فَدَخَلْتُ إِلَيْهِ خَذَمَتَهُ بِالْحَدِيثِ ، قَالَ : وَنَحْنُ ! تَأَمَّلْ هَذِهِ الْأَصْوَاتَ ، هَلْ أَخَذْتَهَا ؟ فَأَخَذْتُ الْمَوَدَّ أَمْتَحِنُهَا ، فَإِذَا هِيَ رَاسِخَةٌ فِي صَدْرِي كَأَنَّمَا لَمْ تَزَلْ ، فَطَرَبَ الرَّشِيدُ وَجَلَسَ يَشْرَبُ وَلَمْ يَكُنْ عَزَمَ عَلَى الشَّرَابِ ، وَأَمَرَنِي بِصَلَاةٍ وَخُلَانٍ وَقَالَ : الشَّيْخُ كَانَ أَعْلَمَ بِمَا قَالَ لَكَ مِنْ أَنَّكَ أَخَذْتَهَا وَفَرَعْتَ مِنْهَا ، فَلَيْتَهُ أَمْتَحِنَا بِنَفْسِهِ يَوْمًا وَاحِدًا كَمَا أَمْتَحَنُكَ !

١٣٤ — دعبيل بن علي ورجل من الجن *

قال دعبيل^(١) بن علي: لما هربتُ من الخليفة بث ليلة بنيسابور وحدي ،
وعزمت على أن أعملَ قسيمة في عبد الله بن طاهر في تلك الليلة ؛ فإني لفي ذلك ؛
إذ سمعتُ - والباب مروودٌ عليّ - من يقول : السلام عليكم ورحمة الله ، أنتجُ
برحمتك الله ، فأقشعرُ بدني من ذلك ، ونالني أمرٌ عظيم ، فقال لي : لا تُرْع ، عافاك
الله ، فإني رجل من إخوانك من الجن من ساكني اليمن ، طرأ إلينا طاري من
أهل العراق ، فأنشدنا قصيدتك :

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزلٍ وحى مُقَرِّرِ العِصَابِ

فأحييتُ أن أسميها منك . قال : فأنشدته إياها ، فبكي حتى خر ، ثم قال :
رَحِمَكَ اللهُ ، ألا أحدثُكَ حديثاً يَزِيدُ في نَيْتِكَ ، ويُمَيِّنُكَ على التمسُّكِ بمنْهَبِكَ ؟
قلت : بلى ، قال : مكثتُ حيناً أَسْمَعُ بذكر جعفر بن محمد ، ففصرت إلى المدينة
فسمعتُه يقول : حدثني أبي عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« عليٌّ وشيعته هم الفائزون » ، ثم ودَّعني لينصرف ، فقلت له : برحمتك الله ، إن
رأيت أن تخبرني باسمك فأفضل ، قال : أنا غلبيان بن عامر !

• الأغانى : ٧ - ٣٩

(١) شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان ، لم يعلم منه أحد من الخلفاء ولا وزراءهم ولا أولادهم
ولا ذى نعمة أحسن إليه أم لم يحسن ، توفي سنة ٢٤٦ هـ .

البَابُ السَّادِسُ

في القصص التي تسمُد بارع الملح التي أثرت
عن الحقى والمجانين، وتفصل روائع النوادر التي فاضت بها
قرايح الطفيليين والمتنبئين، وما يشبه ذلك مما فيه راحة
للنفوس، ونشاط للخواطر.

١٣٥ — أَفْنَكِ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَجْدَعُ*

دفع الربيع بن كعب اللزاني فرساً كان قد أبر^(١) على الخيل كرمًا وجودة إلى أخيه كميث ليأتي به أهله ، وكان كميث مشهورًا بالحق ، وقد كان رجلًا من بني مالك يقال له : فُرَادُ بْنُ جَرَمٍ ، قدم على أصحاب الفرس ؛ ليصيب منهم غرّةً فيأخذها ، وكان داهية ؛ فكث فيهم مقيًا ؛ لا يعرفون نسبه ، ولا يظهروه هو . فلما نظر إلى كميث راكبًا الفرس ركب ناقته ، ثم عارَضَه^(٢) ، فقال : يا كميث ؛ هل لك في عانة^(٣) لم أر مثلها سمنًا ولا عظمًا ، وعير^(٤) فيها الذهب ؛ فاما الآن فنروح بها إلى أهلك ، فتملاً قدورهم ، ونُفْرَحَ صبورهم ؛ وأما العيرُ فلا افتقار بعده !

قال له كميث : وكيف لنا به ؟ قال : أنا لك به ، وليس يُدْرِكُ إلا على فرسك هذا ، ولا يرى إلا بكيل ، ولا يراه غيري !
قال كميث : فدُونَسْكَ ! قال : نعم ، وأمسِكْ أنت راحتي .
فركب فراد الفرس ، وقال : انتظرنى فى هذا المكان إلى هذه الساعة من غد
قال : نعم !
ومضى فراد ؛ فلما توارى أنشأ يقول :

ضَيِّعْتَ فِي الْعِيرِ ضَلَالًا مُهْرًا لَتَطْعَمَ الْحَيَّ جَمِيعًا عَيْرًا كَا

* بجم الأمثال : ٢ - ٢٢٦

(١) أبر على أصحاجه : علام . (٢) عارَضه : سار حباله . (٣) الدابة : القطيع من حمر الوحش .

(٤) العير : القافلة تحمل البيرة .

فسوف تأتي بالهوان أهلكا وقبل هذا ما خدعتُ الأنوكا^(١)
 فلم يزل كيش ينتظر حتى أمسى من غدِهِ وجاع . فلما لم يَرَ له أنراً انصرف
 إلى أهله ، وقال في نفسه : إن سألتني أخى عن الفرس ، قلت : تحوّل ناقةً !
 فلما رآه الربيعُ عرف أنه خُدع عن الفرس ؛ فقال له : أين الفرس ؟ قال : تحوّل
 ناقة ! قال : فما فعل السرج ؟ قال : لم أذكر السرج فأطلب له عِلَّة !
 فصرعه الربيع ليقطعه ؛ فقال له قنفذ بن جَعَوْنَة : ألهُ عما فانتك ، فإن أنفَكَ
 منك وإن كان أجْدَعُ^(٢) !

وقدم قراد بن جرم على أهله بالفرس ، وقال في ذلك :

يوئِّلُ عيراً من نُضَارٍ وَعَسْجَدٍ فهل كان لي في غير ذلك مطعم
 وقلتُ له : أُمْسِكْ قَلْوَسِي^(٣) ولا تَرِمِ^(٤) خِدَاعاً له إذ ذو اللكايد يَمْدَعُ
 فأصْبَحَ يَرْمِي الخاهقين بطَرْفِهِ وأصْبَحَ تَحْتِي ذُو أَفَاتِينِ^(٥) جُرْشُعُ^(٦)

(١) أنوك : أحق . (٢) سارت مثلاً : يضرب إن يترك خيره وشده ، وإن كان ليس بمحتجك
 القرب . (٣) القلوس من الإبل : الثابة . (٤) لا ترم : لا تبرح . (٥) الأفاتين : جمع أفان ،
 وأفان جمع فتن ، وهو الخصلة من الشعر ، يقول : إنه ذو خصل من الشعر في ناصيته وذنبه
 (٦) الجرشع : العظيم من الخيل .

١٣٦ — أبو رافع لا يَكْذِبُ في نَوْمٍ ولا يَقْطَعُ*

حكى أن امرأة أبي رافع^(١) رأتَه في نومها بعد موته ، فقال لها : أتعرفين فلانا الصيرفي^(٢) ؟ قالت له : نعم ، قال : فإن لي عليه مائتي دينار .

فلما اتبعت غدت إلى الصيرفي فأخبرته ، وسألته عن المائتي الدينار ! فقال : رحم الله أبا رافع ، والله ما جرت بيني وبينه معاملة قط !

فأقبلت إلى مسجد المدينة فوجدت مشايخ من آل أبي رافع ، كلهم مقبول القول ، جازئ الشهادة ، فقصت عليهم الرويا ، وأخبرتهم خبر هاعم الصيرفي ، وإنكاره لما ادّعاء أبو رافع .

قالوا : ما كان أبو رافع ليكذب في نوم ولا يقطع ! قرّبي صاحبك إلى السلطان ، ونحن نشهد لك عليه .

فلما علم الصيرفي عزم القوم على الشهادة لها ! وعلم أنهم إن شهدوا عليه لم يبرح حتى يؤذيها ، قال لهم : إن رأيتم أن تصلحوا بيني وبين هذه المرأة على ماترونها فاضلوا ، قالوا : نعم ، والصلح خير ، ونمّ الصلح الشطر ، فأدّ إليها مائة دينار من المائتين ، فقال لهم : أفعّل ، ولكن اكتبوا بيني وبينها كتاباً يكون وثيقة لي .

* العقد الفريد : ٤ - ٢٠٤

(١) أبو رافع : مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وآل أبي رافع من فضلاء أهل المدينة وخيارهم ، مع به فيهم وعى شديد . (٢) الصيرفي : صراف الدرام .

قالوا : وكيف تكون هذه الوثيقة ؟ قال : تكتبون لى عليها أنها قبضت منى مائة دينار صلحا عن مائتى الدينار التى اذاعها أبو رافع فى نومها، وأنها قد أبرأتنى منها، وشرطت على نفسها ألا ترى أبا رافع فى نومها مرة أخرى ، فيدعى على بئير هذه اللائى الدينار ؛ فتجىء بفلان وفلان يشهدان على لها . فلما سموا الوثيقة انتبه القوم لأنفسهم ، وقالوا : قبضك الله ، وقبض ما جئت به !

١٣٧ — أهلك أعلم بك ! *

كان لأبي الأسود^(١) القولى دُكان^(٢) إلى صدر الجبل يجلس فيه وحده ،
ويضع بين يديه مائدة ، ويدعو إليها كل من يمر به ، وليس لأحد أن يجلس ،
فينصرفون عنه .

فرَّ به صبي من الأنصار ، فقال له أبو الأسود : هلمَّ إلى الغداء يا فتى ! فأتى
إليه ، فلم يرك موصداً يجلس فيه ، فتناول المائدة فوضعها في الأرض ؛ ثم قال :
يا أبا الأسود ، إن كان لك في الغداء حاجة فانزل ، وأقبل الفتى يأكل ، حتى أتى
على جميع ما في المائدة ، وسقطت آخر الطعام من يده لقمة على الأرض فأخذها ،
وقال : لا أدعها للشياطين ! فقال أبو الأسود : والله ما تدعها للملائكة للقرابين ،
فكيف تدعها للشياطين ؟ ثم قال له : ما اسمك ؟ قال : لقمان . فقال أبو الأسود :
أهلك كانوا أعلم زمانهم إذ سموك بهذا الاسم ؛ ولم يمدُّ إلى ما كان يصنع !

* ذيل زهر الآداب : ١٦٧

(١) هو : ظالم بن عمرو ، وأبو الأسود كنيته ، وكان قد أدرك حياة النبي ، وسافر إلى البصرة على عهد عمر ، واستعمله على بن أبي طالب على البصرة وكان شيعيا ، وهو أول من وضع التريية ،
توفي سنة ٦٩ هـ . (٢) الدكان : الدكة المبنية للجلوس عليها .

١٣٨ — المقادير نصير العمي خطيباً*

وُصف عند الحجاج^(١) رجلٌ بالجهل ؛ وكانت له إليه حاجةٌ ، فقال في نفسه :
لَا خَيْرَ لَهُ ! ثم قال له حين دخل عليه : أعصاي أنت أم عظامي^(٢) ؟ قال الرجل :
أنا عَصَاي وعظامي ، فقال الحجاج : هذا أفضلُ الناس ، وقضى حاجته وزاده ،
ومكث عنده مُدَّة .

ثم باخَّه فوجده أجهلَ الناس ، فقال له : تصدقني وإلا قتلُكَ ، قال له :
قُلْ ما بدا لك وأصدقك ! قال : كيف أجبتني بما أجبت لِمَا سألتك عما سألتُ ؟
قال له : والله لم أعلم : أعصاي خيرٌ أم عظامي ! انخسيتُ أن أقول أحدهما فأخطيء .
قلتُ : أقول كليهما ، فإن ضررتني أحدهما نفعتني الآخر ؛ فقال له الحجاج عند ذلك :
للمقادير نصيرُ العمي خطيباً !

* جمع الأمثال : ٢ - ٢٦٠

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي : قائد خطيب ، ولد ونشأ في العائف وانتقل إلى الشام ،
وهو مشهور بشده ، توفي سنة ٩٥ هـ . (٢) يريد : أشرفت بنفسك أم تقتخر بأهلك الذين
ساروا عظاما .

١٣٩ — لئن شكرتم لأزيدنكم*

أخذ الحجاج لصاً أعرابياً؛ فصر به سبعمائة سوط، فكلما قرعه بسوط قال :
 اللهم شكراً ! فأنابه ابن عم له فقال : والله ما دعا الحجاج إلى التماذى في ضربك
 إلا كثرةُ شُكْرِكَ ، لأن الله تعالى يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ؛
 قال : أمذا هو في كتاب الله ؟ قال : اللهم نعم ، فأنشأ الأعرابي يقول :
 يا رب لا شُكْرَ فلا تَزِدْنِي أُسْرَفْتُ في شُكْرِكَ فاعفُ عني
 باعدْ ثواب الشاكرين مني
 فبلغ قوله الحجاج ، غفل سبيله .

١٤٠ — الحمد لله الذى مسحك كلباً*

كان لأبى حية النُمَيْرِى^(١) سيفٌ ليس بينه وبين الخشب فرق ، كان يسميه « لُمَابُ النِّيةِ » ، فحكى عنه بعض جيرانه أنه قال : أشرفتُ عليه ليلة وقد انتضاه ؛ وهو واقفٌ بباب بيتٍ فى داره ، قد سمع فيه حِسًا ، وهو يقول : أيها المقتربُ بنا ، المجترئُ علينا ، بئس والله ما اخترتَ لنفسك اخيراً قليل ، وسيفٌ صقيل « لُمَابُ النِّيةِ » الذى سمعتَ به ، مشهورةٌ صَوْلَتُهُ ، لا تُخَافُ نَبُوَتُهُ ، اخْرُجْ بالعفو عنك ، لا أدخِلُ العقوبة عليك إناى والله إن أدعُ قَيْسًا تَمَلَأُ القِضاءَ عليك خَيْلاً وَرَجَلاً^(٢) ، سبحان الله ! ما أكَثَرَهَا وأَطْيَبَهَا ! والله ما أنتَ ببعيدٍ من تابعتها ، والرسوبِ فى تِيَارِ لُجَبِهَا .

وهبت ريحٌ فتفتحت الباب ، فخرج كلبٌ ، فارتدَّ وجهه ، وشفر^(٣) برجليه ، وتبادرتْ إليه نساءُ الحى قتلن : بأبأ حية ، ليُفْرِخَ رَوْعُكَ^(٤) إنما هو كلب ، فجلس وهو يقول : الحمد لله الذى مَسَحَكَ كلباً ، وكفانى حراماً .

* الأغانى : ١٥ - ٦١ ، ابن أبى الحديد : ٢ - ٤١

(١) هو المهيم بن الربيع ، شاعر مجيد من عظمى الدولتين الأموية والعباسية مدح خلفاء عصره وفيهنا ، وكان فصيحاً راجزاً ، له أخبار وكانت به لوعة ، وكان من أجبين الخلق تولى نحو سنة ١٦٠ هـ .
(٢) الرجل : جمع راجل . وهو ضد الفارس . (٣) شفر : رفع إحدى رجليه . (٤) لينكشف عنك فرعك .

(٢٧ - قصص العرب - ٤)

١٤١ - يوم الحساب *

قال أحد الرواة :

كان في زمن المهدي^(١) رجل صوفي ؛ يركب قَصَبَةً في كل جمعة يومين :
الاثنين والخميس ، فإذا ركب في هذين اليومين فليس لملم على صبيانه حُكْم ولا
طاعة ، فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان .

شاهدته يوماً وقد صعد تلاً ؛ فنادى بأعلى صَوْتِه : ما فعل النبيون والمرسلون ؟
أَلَيْسُوا في أعلى عِلِّيِّين ؟ فقالوا : بلى ! قال : هاتوا أبا بكر الصديق ؛ فَأَخَذَ غلام
فأجلس بين يديه ، فقال : جزاك الله خيراً أبا بكرٍ عن الرعية ، فقد عَدَلْتَ وقُمْتَ
بالقسط ، وخلفت محمداً - عليه السلام - في حُسْنِ الخلافة ، ووصلت حَبْلَ الدِّينِ
بعد حِكْمٍ وتنازعٍ ، وفرغت منه إلى أوثق عُروَةٍ وأحسن ثقة ، اذهبوا به إلى أعلى
عِلِّيِّين !

ثم نادى : هاتوا عمر ، فأجلس بين يديه غلام ، فقال : جزاك الله خيراً
يا أبا حفص عن الإسلام ، قد فضحت الفتوح ، وسَعَتِ الْفَيْءُ ، وسَدَكْتَ سَبِيلَ
الصالحين ، وعدلت في الرعية ، اذهبوا به إلى أعلى عِلِّيِّين بجذاه أبي بكر .

* القند القريد : ٤ - ١٩٨

(١) محمد بن عبد الله من خلفاء الدولة العباسية في العراق ، ولى بعد وفاة أبيه وهام في الخلافة

مصر سنين ومات سنة ١٦٩ هـ .

ثم قال : هاتوا عثمان ؛ فَأَتِيَ بِنْلَام فَأَجْلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ لَهُ : خَلَطْتَ فِي تِلْكَ السَّنِينَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » . ثُمَّ قَالَ : اذْهَبُوا بِهِ إِلَى صَاحِبِيهِ فِي أَعْلَى عِلْيَيْنَ .

ثم نادى : هاتوا عليّ بن أبي طالب ، فَأَجْلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ غَلَامٌ ؛ فَقَالَ لَهُ : جَزَاكَ اللَّهُ عَنِ الْأُمَّةِ خَيْرًا أَبَا الْحَسَنِ فَأَنْتَ الْوَصِيُّ ، وَوَلَّى النَّبِيَّ ، بَسَطْتَ الْعَدْلَ ، وَزَهَدْتَ فِي الدُّنْيَا ، وَاعْتَزَلْتَ النَّيَّ ، فَلَمْ تَخْشَ فِيهِ بَنَابَ وَلَا غُفْرَ ، وَأَنْتَ أَبُو الذُّرِّيَّةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَزَوْجُ الزَّكِيَّةِ الطَّاهِرَةِ ، اذْهَبُوا بِهِ إِلَى أَعْلَى عِلْيَيْنَ .

ثم قال : هاتوا معاوية ، فَأَجْلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ غَلَامٌ ؛ فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ الْقَاتِلُ حِمَارِ ابْنِ يَاسِرٍ وَخَزِيمَةَ بِنْتِ ثَابِتٍ ذَا الشَّهَادَتَيْنِ ، وَأَنْتَ الْقَدِي جَعَلَ اخْتِلَافَهُ مُلْكًا ، وَاسْتَأْثَرَ بِالنَّيِّ ، وَحَكَمَ بِالْهَوَى ، وَبَطَرَ بِالنِّعْمَةِ ، وَأَنْتَ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنَقَضَ أَحْكَامَهُ ، وَقَامَ بِالْبَغْيِ ؛ اذْهَبُوا بِهِ فَأَوْقِفُوهُ مَعَ الظَّالِمَةِ :

ثم قال : هاتوا يزيد ؛ فَأَجْلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ غَلَامٌ ؛ فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي قَتَلْتَ أَهْلَ الْحَرَمِ^(١) ، وَأُجِنَّتَ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَانْتَهَكْتَ حُرْمَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَوَيْتَ الْمُتَحِدِّينَ ، وَبَوَّأْتَ بِاللُّعْنَةِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَمَثَّلْتَ بِشَعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ :

لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدِرُ شَهْدُوا جَزَعًا كَلْزَرْجٍ^(٢) مِنْ وَقْعِ الْأَسَلِ^(٣)

(١) موضع بظاهر المدينة بها كانت وقعة الحرة أيام يزيد . (٢) المزرج : إحدى قبيلتي الأنصار (٣) الأسل : الرماح .

وَقَتَلَتْ حَسِينًا ، وَحَلَّتْ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَايَا عَلَى
حَقَائِبِ^(١) الْإِبِلِ ، أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ !

وَلَمْ يَزَلْ يَذْكُرُ وَالِيًا بَعْدَ وَالٍ حَتَّى بَلَغَ إِلَى عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْمَزِيزِ ، قَالَ : هَاتُوا
عَمْرًا ، فَأَتَى بِنَلَامٍ ، فَاجْلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ : جِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا عَنِ الْإِسْلَامِ ؛ قَدْ
أُحْيَيْتَ الْمَدَّلَ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَأَلَنْتَ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ؛ وَقَامَ بِكَ حَمُودُ الدِّينِ عَلَى سَاقِ
بَعْدَ شَتَاقٍ وَنِفَاقٍ ، أَذْهَبُوا بِهِ فَأَلْحَقُوهُ بِالصَّادِقِينَ ، ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ كَانَ بَعْدَهُ مِنْ
الْخُلَفَاءِ إِلَى أَنْ بَلَغَ دَوْلَةَ بَنِي الْعَبَّاسِ ، فَكَتَبَ ، فَقِيلَ لَهُ : هَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : فَبَلَغَ أَمْرَنَا إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ ! ارْضُوا حَاسِبَ هَؤُلَاءِ جَمْلَةً ،
وَاقْذِفُوا بِهِمْ فِي النَّارِ جَمِيعًا !

(١) الحَقِيَّةُ : الرِّفَاعَةُ فِي مَوْخَرِ الْقَتَبِ ، وَكُلُّ مَا هَدَى فِي مَوْخَرِ رَحْلِ أَوْ قَتَبٍ فَقَدْ احْتَقَبَ .

١٤٢ — إِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا*

ركب محمدُ بن سليمان^(١) يوماً بالبصرة وسوار القاضى يُسَيره فى جنازة ابن عم له ، فاعترضه مجنونٌ يُعرف برأس النجعة ، قال له : يا محمد ؛ أَيْنَ العَدْلُ أَنْ تَكُونَ نَحْلُتَكَ^(٢) فى كلِّ يومٍ مائة ألفِ درهم ، وأنا أطلبُ نصفَ درهم فلا أقدرُ عليه ؟

ثم التفت إلى سوار قال : إِنْ كَانَ هَذَا حَدَثًا فَأَنَا أَكْفَرُ بِهِ ؟ فَأَسْرِعْ إِلَيْهِ غُلَانُ مُحَمَّدٍ ؛ فَكَفَّهِمْ عَنْهُ ، وَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ دَرَاهِمٍ !

فلما انصرف محمد وسوار معه اعترضه رأسُ النجعةِ قال : لقد كَرَّمَ اللهُ مَنَصِيكَ^(٣) ، وشَرَّفَ أبوتَكَ ، وحَسَّنَ وجهَكَ ، وعَظَّمَ قَدْرَكَ ، وأَرْجَوَانِ يَكُونُ ذَلِكَ لِحَاجِرِيدهُ اللهُ بِكَ !

فدنا منه سوار قال : يا خبيث ؛ ما كَانَ هَذَا قَوْلَكَ فى الْبِدَاءَةِ ! فقال له : سَأَلْتُكَ بِحَقِّ اللهِ وَبِحَقِّ الْأَمِيرِ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي فى أَى سُوْرَةِ هَذِهِ الْآيَةِ : « فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ » ؟ قال فى : « بَرَاءة » . قال : صَدَقْتَ ؛ فَبَرِئَ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْكَ ! فَضَحَكَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ حَتَّى كَادَ يَسْقُطُ عَنْ دَابَّتِهِ !

* السجوى : ٢ - ٢٦٢

(١) محمد بن سليمان بن على الباسى : أمير البصرة ، وليها فى أيام المهدي . واستمر إلى أن توفى فيها ، وكان غنياً نبيلاً سمى نفسه إلى الخلافة ؛ وصده عن المهر يطلبها ما كانت عليه من القوة أيام المهدي والرشيد ، توفى سنة ١٧٣ هـ . (٢) النحلة : الحلية . (٣) للنصب : الأصل .

١٤٣ — ما أختار غير عبد الله بن طاهر*

شكا اليزيدى ^(١) إلى اللأمون خلة ^(٢) أصابته ودنيا لحقه ، فقال : ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغت به ما تريد ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الأمر قد ضاق عليّ ، وإن غرماً قد أُرْهقوني ، قال : فرم لنفسك أمراً تنل به نفعاً .

قال : لك منادمون ، فيهم ما إن حرّكته نلت منه ما أحب ، فأطلق لي الحيلة فيهم ، قال : قل ما بدا لك ؛ قال : فإذا حضروا وحضرت قمرُ فلان الخادم أن يوصل إليك رقتي ، فإذا قرأتها فأرسل إلى : دخولك في هذا الوقت متمذّر ؛ ولكن اختر لنفسك من أحببت .

فلما علم اليزيدى بجلوس اللأمون ، واجتماع ندمائهِ إليه ، وتيقن أنهم في سرورهم أتى الباب فدفع إلى ذلك الخادم رقعةً قد كتبها ، فأوصلها إلى اللأمون فقرأها ، فإذا فيها :

يا خيرَ إخواني وأصحابي هذا الطّفلُ لدى البابِ
خبرُ أن القومَ في لذّةٍ يصبُّو إليها كلُّ أوابِ
فصبروني واحداً منكم أو أخرجوا لي بعضَ أثوابِ

* عصر اللأمون : ١ - ٣٣٣

(١) اليزيدى : يحيى بن المبارك بن النيرة من علماء الرية والأدب ، اتصل بالرشيد فهد إليه في تأديب اللأمون فاش إلى أيام خلافة هـ توفي سنة ٢٠٢ هـ . (٢) الخلة : الحاجة والفقير .

قرأها المؤمن على مَنْ حَضَرَهُ ؛ فقالوا : ما ينبغي أن يدخل هذا الطفيلي على
مثل هذه الحالة ؛ فأرسل إليه المؤمنُ : دخولك في هذا الوقت متعذر ، فاختار
لنفسك من أحببتَ تنادمه .

قال : ما أرى اختياراً غير عبد الله بن طاهر ، فقال له المؤمن : قد وقع
اختياره عليك ؛ فسير إليه . قال : يا أمير المؤمنين ، فما أكون شريك الطفيلي ؟
قال : ما يمكن ردّ أبي محمد عن أمرين ، فإن أحببتَ أن تخرجَ وإلا فافتدِ
نفسك !

قال : يا أمير المؤمنين ، له على عشرة آلاف درهم ! قال : لا أحسب ذلك
يُقْنِعُهُ منك ومن جُبالستك ، قال : فلم يزل يزيد عشرة عشرة ، والمؤمنُ يقولُ له :
لا أرضى له بذلك ، حتى بلغ مائة ألف ، فقال له المؤمن : فمَجِّلْها له ، فكتب له
بها إلى وكيله ، ووجه معه رسولا فأرسل إليه المؤمن : قبضْ هذه في مثل هذه
الحال أصلحُ لك من منادمته على مثل حاله ، وأنفعُ عاقبةً .

١٤٤ - أترى الله يعطيك وينسانى؟*

خرج الرشيد إلى الحج فلما كان بظاهِر الكوفة إذ أبصر بهلولاً^(١) المجنون على قِصبةٍ، وحلقه الصَّبَّيكان وهو يَعدو، قال: مَنْ هذا؟ قيل له: بهلول المجنون، قال: كنت أشتى أن أراه، فادعوه مِن غير ترويع، فذهبوا إليه وقالوا: أجب أمير المؤمنين؛ فلم يجب، فذهب إليه الرشيد، وقال: السلام عليك يا بهلول، قال: عليك السلام يا أمير المؤمنين، قال: دعوتك لاشقياء إليك، قال بهلول: لكنى لم أشتق إليك! قال الرشيد: عطفى يا بهلول، قال: ويم أعطك؟ هذى قصورهم وهذى قبورهم! قال الرشيد: زدنى قد أحسنت! قال: يا أمير المؤمنين من رزقه الله مالاً وجالاً، فنف في جماله، وواسى في ماله كُتب في ديوان الأبرار، فظن الرشيد أنه يريد شيئاً؟ قال: قد أمرنا لك أن تقضى دينك، قال: لا، يا أمير المؤمنين، لا يقضى الدين بدَيْن، ارزُد الحق على أهله، واقض دين نفسك من نفسك، قال: فإننا قد أمرنا أن يُجرى عليك. قال: يا أمير المؤمنين؛ أترى الله يعطيك وينسانى! ثم ولَّى هارباً.

● عقلاء المجانين : ٦٩

(١) هو بهلول بن عمرو، كان من عقلاء المجانين، ولد ونشأ بالكوفة واستقدمه الرشيد وغيره من الخلفاء لسماع كلامه، وله كلام مليح، ونواذر وأهوار، توفى سنة ١٩٠ هـ.

١٤٥ — طُفَيْلِي فِي حَضْرَةِ الْمَأْمُونِ*

أمر المأمون أن يحمل إليه عشرة من الزنادقة سُمُّوا له من أهل البصرة ، فجمعوا فأبصرهم طُفَيْلِي فقال : ما اجتمعوا إلا لِصَنيعٍ ، فدخل في وسطهم ، ومضى بهم الموكلون ، حتى انتهوا إلى زُورْقٍ قد أَعِدَّ لهم ، قال الطُفَيْلِي : هي زهدة ، فدخل معهم الزورق ، فلم يكن بأسرع من أن يقيدوا ، وقيدَ معهم الطُفَيْلِي .

ثم سِيرَ بهم إلى بِنْدَاد ، فأدخلوا على المأمون ، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجلاً رجلاً ؛ ويأمر بضرب أعناقهم ، حتى وصل إلى الطُفَيْلِي ، وقد استوفى العدة ، فقال للنوَّكِلِينَ : ماهذا ؟ قالوا : والله ما ندري ، غير أننا وجدناه مع القوم ، فجئنا به . فقال له المأمون : ما قصَّتْكَ وِلك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لأعرفُ من أأولِهم شيئاً ، وإنما أنا رجلٌ طُفَيْلِي ، رأيتُهم مجتمعين ، فظننتُ صَنِيعاً يُدْعَوْنَ إليه . فضحك المأمون ، وقال : يؤدَّب !

وكان إبراهيم بن المهدي قائماً على رأس المأمون ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هب لي أدبته ، وأحدثك بحديثٍ عجيبٍ عن نفسي ، قال : قل يا إبراهيم .

قال : يا أمير المؤمنين ، خرجتُ من عندك يوماً ؛ فُطِفْتُ في سِكَكِ بِنْدَادٍ متطرِّفاً ، حتى انتهت إلى موضعٍ كذا ، فشمت من قَتَارِ^(١) أُلَازِيرٍ قُدُورٍ

* القند الفريد : ٤ - ٢٣٧ ، نهاية الأرب : ٣ - ٣٣٢

(١) القطار : ربع القدر والشواء ، والأبازير : التوابل .

قَدْ فَاحَ ؛ فَنَاقَتْ نَفْسِي إِلَيْهَا ، وَإِلَى طَيْبِ رِيحِهَا ، فَوَقَفْتُ إِلَى خِيَاطٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : لِمَنْ هَذِهِ الدَّارُ ؟ قَالَ : لِرَجُلٍ مِنَ التَّجَارِ . قُلْتُ : مَا اسْمُهُ ؟ قَالَ : فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ ، فَرَمَيْتُ بِطَرَفِي إِلَى الدَّارِ ؛ فَإِذَا شُبَّاكٌ بِهِ جَارِيَةٌ ذَاتُ مَنْظَرٍ حَسَنٍ ، فَبُهِتَ سَاعَةً ثُمَّ أَذْرَكْنِي رَهْنِي ، فَقُلْتُ لِلْخِيَاطِ : أَهْوِ عَنِّي بِشَرِبِ النَّبِيذِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأَحْسَبُ أَنَّ عِنْدَهُ الْيَوْمَ دَعْوَةً ، وَهُوَ لَا يَتَأَدَّمُ إِلَّا تَجَارًا مِثْلَهُ مُسْتَوْرِينَ .

فَإِنِّي لَكُنْكَ ، إِذَا أَقْبَلَ رَجُلَانِ نَبِيلَانِ رَأْيَانِ مِنْ رَأْسِ الدَّرْبِ ، قَالَ لِي الْخِيَاطُ : هَؤُلَاءِ مُتَادِمَاهُ ، قُلْتُ : مَا اسْمَاهُمَا وَمَا كُنَاهُمَا ؟ قَالَ : فُلَانُ وَفُلَانُ ، فَحَرَّكَتُ دُبِّي وَدَاخَلْتُهُمَا ، وَقُلْتُ : جُعِلْتُ فِدَاكُمَا ، قَدْ اسْتَبَيْطَأُ كَمَا أَبُو فُلَانٍ ، وَسَايَرْتُهُمَا حَتَّى بَلَّغْنَا الْبَابَ ، فَأَجَلَّانِي وَقَدَّمَانِي ؛ فَدَخَلْتُ وَدَخَلَا .

فَلَمَّا رَأَيْتُ صَاحِبَ الْمَنْزِلِ مَعَهُمَا لَمْ يَشْكُ أَتَى مِنْهُمَا ؛ فَرَحَّبَ بِي وَأَجْلَسَنِي فِي أَفْضَلِ الْمَوَاضِعِ ، فَنَجَّيْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَائِدَةٍ عَلَيْهَا خَبِزٌ نَظِيفٌ ، وَاتَيْنَا بِتِلْكَ الْأَلْوَانِ ، هَكَانَ طَعْمُهَا أَطْيَبَ مِنْ رِيحِهَا ، ثُمَّ رَفَعَ الطَّعَامَ ، وَجِئْتُ بِالْوُضُوءِ ، ثُمَّ صِرْنَا إِلَى مَحَلِّ الْمَنَادِمَةِ ، وَجَلَسَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ يُلَافِي بِي ؛ وَيَمِيلُ هَلًا بِالْحَدِيثِ ؛ حَتَّى إِذَا شَرِبْنَا أَقْدَاحًا خَرَجْتُ عَلَيْنَا جَارِيَةٌ ، كَانَتْهَا بَدْرٌ فَأَقْبَلْتُ ؛ وَسَلَّمْتُ غَيْرَ حَظْلَةٍ ، وَثَبَّتْ لَهَا وَسَادَةً ، فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا ؛ وَأَتَى بِالْمُودِ فَوَضَعَ فِي جِجْرِهَا ؛ فَجَسْتُهُ فَاسْتَنْتَنْتُ حِدْقَهَا فِي جَسَدِهَا ؛ ثُمَّ أَقْدَصْتُ مُنَعَقِي :

تَوَهَّمَهَا طَرَفِي فَأَصْبَحَ خَدُّهَا وَفِيهِ مَكَانُ الْوَهْمِ مِنْ نَظَرِي أَثَرُ
نَصَافِحِهَا كَتَبْتُ فِتْوَاهُ كَفَّهَا فَمِنْ مَسِّ كَتَبْتُ فِي أَنْفَالِهَا عَثَرُ^(١)

فَهَبَّجْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَلَّالِي ، وَطَرِبْتُ لِحُسْنِ شِعْرِهَا ، ثُمَّ انْدَفَعَتْ
نَفْسِي :

أَشْرْتُ إِلَيْهَا هَلْ عَرَفْتَ مَوْدَّتِي ؟ فَرَدَّتْ بِطَرْفِ الْمِينِ : إِنِّي عَلَى الْعَهْدِ
فَحَدَّثْتُ عَنِ الْإِظْهَارِ عِنْدًا لِسِرِّهَا وَحَادَتْ عَنِ الْإِظْهَارِ أَيْضًا عَلَى عُنْدِ

فَصَحْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَجَاءَنِي مِنَ الطَّرَبِ مَا لَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي مَعَهُ ، ثُمَّ
انْدَفَعْتُ فَضَتِ الصَّوْتِ الثَّالِثَ :

أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ يَبْتَئَا يَضْمُنِي وَإِيَّاكَ لَا نَخْلُو وَلَا نَتَكَلَّمُ !
سِوَى أَعْيُنٍ تَشْكُو الْمَوَى بِحُفُونِهَا وَقَطِيعٍ أَكْبَادٍ عَلَى النَّارِ تَضْرَمُ
إِشَارَةُ أَفْوَاهٍ وَغَمَزِ حَوَاجِبٍ وَتَكْسِيرِ أَجْفَانٍ وَكَفِّ نُسَمٍ

لَحَدَّثَهَا وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى حَدِّهَا وَمَعْرِفَتِهَا بِالْغِنَاءِ ، وَإِصَابَتِهَا لِمَعْنَى
الشَّعْرِ ، قُلْتُ : بَقِيَ عَلَيْكَ يَا جَارِيَّةُ ، فَضَرِبْتُ بِالْمُودِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَقَالَتْ : مَتَى
كُنْتُمْ تُخَضَّرُونَ بِمَجَالِسِكُمُ الْبُغْضَاءِ ؟ فَتَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مَعْنَى ، وَرَأَيْتُ الْقَوْمَ قَدْ
تَغَيَّرُوا لِي ، قُلْتُ : أَمَا عِنْدَكُمْ عَوْدٌ غَيْرَ هَذَا ؟ قَالُوا : بَلَى ، فَأَتَيْتُ بِمُودٍ فَأَصْلَحْتُ
مِنْ شَأْنِهِ ثُمَّ غَنَيْتُ :

مَا لِلنَّازِلِ لَا يُمَجِّنَ حَزِينًا أَصَحَّنَ أَمْ قَدَّمَ إِلَيَّ فِيلِينَا ؟
رَاحُوا الْمَسِيَّةَ رَوْحَةً مَنكُورَةً إِنْ مُتَنَ مُتْنَا أَوْ حَيَّيْنَا حَبِيبًا

فَاسْتَقَمَّتْهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى قَامَتِ الْجَارِيَّةُ ، فَأَكْبَتَ عَلَى رِجْلَيْ تَقَبُّلِهَا ،
وَقَالَتْ : مَعْدِرَةٌ يَا سَيِّدِي ، فَوَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَقْنِي هَذَا الصَّوْتَ غِنَاءً ، وَفَعَلَ

مولاهما وأهل المجلس كفعلها ، وطرب القوم واستمتعوا الشراب فشريوا ، ثم
الافتتُ أغنى :

أني الحق أن تمشي ولا تذكريني وقد هممت عيناى من ذكرها الدما
إلى الله أشكو بخلها وسماحي لها عسل منى وتبذل علقما
فردى مصاب القلب أنت قتلته ولا تركيه ذاهل العقل مفرما

فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم ، فأمسكت عنهم ساعة حتى تراجعوا ،
ثم غنيت الثالث :

هذا حبيك مطويا على كمدية عبرى مدامه تجرى على جسده
له بدئ نسأل الرحمن راحته مما به ويد أخرى على كبديه

فجأت الجارية تصيح : هذا الفناء والله يا سيدى ، لا ما كنا فيه منذ اليوم .
وقال صاحب المنزل : يا سيدى ؛ ذهب ما مضى من أياى ضياعا ، إذ كنت لأعرفك ،
فمن أنت ؟ ولم يزل يلح على حتى أخبرته الخبر ، فقام وقبل رأسى ، وقال : وأنا
أعجب أن يكون هذا الأدب إلا لملك ! ولما جالس مع الخليفة ولا أشعر ، ثم
سألنى عن قصتى ، فأخبرته حتى بلغت إلى تلك الجارية التى رأيتها ، فقال للجارية :
قوى قولى لفلانة : تنزل ، فلم تنزل تنزل جواريه واحدة واحدة ، فأنظر إلى كفها
وممصها ، وأقول : ليست هذه ! حتى قال : والله ما بقى غير أختى وأمى ، والله
لأنزلها ؛ فنجبت من سمة صدره ، قلت : جعلت فداك ! ابدأ بالأخت قبل
الأم ، فسى أن تسكون هى .

فبرزت ، فلما رأيت كفتها وممصمها ، قلت : هذه هي أفاقر غلمانته ، فساروا
إلى عشرة مشايخ من جَلَّةِ جيرانه ؛ فأقبل بهم ، وأمر ببذرتين فيهما عشرون ألف
درهم ؛ ثم قال للمشايخ : هذه أختي فلانة ، أشهدكم أني قد زوجتها من سيدي إبراهيم
ابن المهدي ؛ وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم ، فرضيت وقبلت الزواج ، فدفع إليها
بذرة ، وفرق الأخرى على المشايخ وصرفهم ، ثم قال : يا سيدي ، أهدد بعض
البيوت فأخشمني ما رأيت من كرمه ، قلت : أخضر عمارية^(١) وأحلبها إلى
منزلي . فوالله يا أمير المؤمنين لقد أنعمها من الجاهز ما ضاقت عنه بيوتنا ، فأولدها
هذا القائم على رأس أمير المؤمنين - بشير إلى ولده .

فمحبب للآمون من كرم الرجل ، وألحقه في خاصة أهله ، وأطلق العنقلى ،
وأجازته .

١٤٦ — أَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِكَ *

تَتَبَأَ رَجُلٌ فِي أَيَّامِ الْآمُونِ ، وَادَّعَى أَنَّهُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ ، فَقَالَ لَهُ الْآمُونُ :
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ لَهُ مَعْجَزَاتٌ وَبَرَاهِينُ . قَالَ : وَمَا بَرَاهِينُهُ ؟ قَالَ : أَضْرِمْتُ
لَهُ نَارًا ، وَآتَيْتُ فِيهَا ؛ فَصَارَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسِلَاقًا ، وَنَحْنُ نُوْقِدُ لَكَ نَارًا ، وَنَطْرَحُكَ
فِيهَا ، فَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ كَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ آمَنَّا بِكَ . قَالَ : أُرِيدُ وَاحِدَةً أَخْفَ مِنْ
هَذِهِ . قَالَ : فَبَرَاهِينُ حُوسَى . قَالَ : وَمَا بَرَاهِينُهُ ؟ قَالَ : أَلْتَقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ
تَسْعَى . وَضَرَبَ الْبَحْرَ بِهَا فَانْفَلَقَ . وَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ فَأَخْرَجَهَا بَيْضَاءَ ، قَالَ :
وَهَذِهِ عَلَى أَصْعَبُ مِنَ الْأُولَى . قَالَ : فَبَرَاهِينُ عِيسَى ، قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ :
إِحْيَاءُ الْمَوْتَى . قَالَ : مَكَانَكَ قَدْ وَصَلْتَ . أَنَا أَضْرِبُ رَقَبَةَ الْقَاضِيِ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَ ،
وَأُحْيِيهِ لَكُمْ السَّاعَةَ !

فَقَالَ يَحْيَى : أَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِكَ وَصَدَّقَ !

١٤٧ — أبو دلف وجعفران الموسوس *

قال علي بن يوسف : كنتُ عند أبي دلف^(١) القاسم بن عيسى المجلى ،
فاستأذنَ عليه حاجبه جعفران^(٢) الموسوس ، فقال له : أى شئ أصنع بموسوس ؟
قد قضينا حقوقَ المقلّاء ، وبقي علينا حقوقُ المجانين ! فقلتُ له : جُمِلْتُ فداء
الأمير ، موسوس أفضلُ من كثيرٍ من المقلّاء ، وإن له لساناً يُتَقَى ، وقولاً مأثوراً
يُبْقَى . فآله الله أن تحجبه ! فليس عليك منه أذى ولا قتل ! فأذنَ له . فلما
مَثَلَ بين يديه قال :

يا أكرمَ العالمِ مَوْجوداً ويا أعزَّ الناسِ مَقْعوداً
لما سَأَلْتُ الناسَ عن واحدٍ أصبحَ في الأُمّةِ مَحْموداً
قالوا جميعاً : إنه قاسمٌ أَشْبَهَ آبَاءَهُ له صِيْداً^(٣)
لو عَبَدُوا شَيْئاً سِوَى رَبِّهِمْ أَصْبَحَتْ في الأُمّةِ مَعْبوداً
لَا زَلَّتْ في نَعْمَى وفي غِبْطَةٍ مُكْرَماً في الناسِ مَعْدوداً

فأمر له بِكِسْوَةٍ وبألف درهم ، فلما جِئَ بالدراهم أخذَ منها عشرة وقال : تأمر
القهرمان^(٤) أن يُعْطِيَني الباقي مُتَرَفِّقاً كَمَا جِئْتُ ؛ ثلثاً نَصِيعَ مَنَى ، فقال للقهرمان :

* الأغانى : ٨ — ٦٤

- (١) أبو دلف : هو أحمد قواد الأُمون ثم المتصم من بعده ، كان كريماً سرياً جواداً ممدحاً شجاعاً . مقداماً ذا وقائم مشهورة ، وصنائع مأثورة ، وله مشاركة في النناء ، توفي سنة ٢٢٦ هـ .
- (٢) ولد جعفران بِنِنداد ولشأ بها ، ثم سكن سر من رأى ، وكان أديباً شاعراً مطبوعاً ، وغلبت عليه المرة السوداء فاخطلط في أوقاته ، ثم كان إذا أفاق تاب إليه عقله وطمحه فقال الشعر الجليد .
- (٣) الأمير : الملك ، ورافع رأسه كبيراً . (٤) القهرمان : هو المسيطر الحفيظ على ماتحت يده ، وهو من أمناء الملك وخاصته .

أعطيه المال ، وكلما جاءك فأعطه ما شاء حتى يفرق الموت بيننا ، فبكى عند ذلك جُمَيْقِرَان وتنفس الصمداء وقال :

يَمُوتُ هَذَا الْقِيَّ أَرَاهُ وكل شيء له شأْدُ
لو غير ذى العرش دام نبي فها هو ذا الْفَضِيلُ الجوادُ
ثم خرج . فقال أبو دُلْفٍ : أنت كنت أعلم به نبي .

قال ؛ وَغَيْرُ^(١) عني مدة ثم لقيني ، وقال : يا أبا الحسن ؛ ما فعل أميرنا وسيدنا ؟ وكيف حاله ؟ قلت : بخير وعلى غاية الشوق إليك . قال : أنا والله يا أخى أشوق . ولكنى أعرف أهل السكر وشرهم وإلحاحهم ؛ والله ما أراهم يتركونه من اللأله ولا يتركه كرمه أن يخليهم من العطية حتى يخرج قسيراً . قلت : دع هذا عنك وزرّه ؛ فإن كثرة السؤال لا تضرُ بماله . قال : وكيف ؟ أهو أيسر من الخليفة ؟ قلت : لا . قال : والله لو تبدل^(٢) لهم الخليفة كما يتبدل أبو دُلْفٍ وأطمعهم فى ماله كما يطمعهم لأفقروه فى يومين ، ولكن اسمع ما قلته فى وقتى هذا . قلت : هاته يا أبا الفضل ! فأنشأ يقول :

أبا حَسَنِ بَلَقَنْ قَاسِمًا بَاقِي لَمْ أَجِئْهُ عَنْ قَلَا^(٣)
ولا عن مَلَالٍ لِإِنِّي أَنِي ولا عن صدود ولا عن عَنَّا
ولكن تَعَفَّفْتُ عَنْ مَالِهِ وَأَصْفَيْتُهُ^(٤) مِدْحَتِي وَالشَّنَا
أبو دلف سيد ماجد سيِّءُ الْعَطِيَّةِ رَحْبُ الْفَنَاءِ

(١) غير : مكث وذهب ، ضد . (٢) لا يتبدل : ضد الصيانة . (٣) القلا : البئس .
(٤) أصفيته مدحتى : أخلصتها له .

كريم إذا انتابهُ للمَقْصُودِ نَ عَمَّهُمْ يَمْزِلُنِ الْحَبَا^(١)
قال : فأبلغتها أبا دلف ، وحدَّثتُهُ بالحديث الذي جرى . فقال لي : قد بقيتُ
منذ أيام ، فلما رأيته وقفتُ له وسلَّمتُ عليه وتحفَّيتُ^(٢) به ؛ فقال لي : سِرُّ أُمِّيَا
الأمير على بركة الله ، ثم قال لي :

يا ممدى الجود على الأموال ويا كريم النفس في الفعال
قد صُنِّعَني عن ذِلَّةِ السُّؤال بمجودِكَ لِلْوَفَى على الآمالِ
صانِكْ ذو العزَّةِ والجلالِ من غَيْرِ الأيامِ والليالِ
قال : ولم يزل يخلفُ إلى أبي دُلفَ ويَبْرِّه حتى افترقا .

(١) الحباء : الطاء . (٢) تحفَّى به : بالغ في إكرامه .

١٤٨ - رميت به في بطنك*

قال دُعَيْلُ^(١) : أَقْنَا يَوْمًا عِنْدَ سَهْلَ بْنِ هَارُونَ ، فَأَطْلَنَّا الْحَدِيثَ حَتَّى اضْطَرَّهُ
الْجُوعُ إِلَى أَنْ دَعَا بَنَدَانَهُ ، فَأَتَى بِصَفْحَةٍ عِذْ مَلِيَّةٍ^(٢) ، فَبِهَامَرَقُ لَحْمِ دَبْكٍ عَاسٍ^(٣)
هَرَمَ ، لَيْسَ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا غَيْرُهَا ، لَا تَحْزَنُ^(٤) فِيهِ السَّكِينُ ، وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِ الْأَضْرَاسُ .
فَأَطْلَعَ فِي الْقَصْعَةِ ، وَقَابَ بَصَرَهُ فِيهَا ؛ فَأَخَذَ قِطْعَةً خُبَزٍ يَابِسَ ؛ فَقَلَّبَ بِهَا
جَمِيعَ مَا فِي الصَّفْحَةِ فَقَدَّرَ الرَّأْسَ ؛ فَبَقِيَ مُطَرِّقًا سَاعَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى الْعُلَامِ ،
وَقَالَ : أَيْنَ الرَّأْسُ ؟ قَالَ : رَمَيْتُ بِهِ ، قَالَ : وَلَيْمَ ؟ قَالَ : مَا طَلَنْتُ أَنْتَكَ تَأْكُلُهُ ،
وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ ! قَالَ : وَلَئِي شِئْءٌ ظَلَنْتَ ذَلِكَ ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَمُتُ مِنْ يَوْمِ بَرَجْلِهِ ؛
فَكَيْفَ مِنْ يَوْمِ بَرَأْسِهِ !

وَالرَّأْسُ رَيْسٌ ، وَفِيهِ الْحَوَاسُ الْخَمْسُ ، وَمِنْهُ يَصْبِحُ الدِّبْكُ ، وَلَوْلَا صَوْتُهُ
مَا أُرِيدَ ، وَفِيهِ عُرْفُهُ الَّذِي يُتَبَرَّكُ بِهِ ، وَفِيهِ عَيْنُهُ الَّتِي يُضْرَبُ بِهَا اللَّثْلُ ؛ فَيَقَالُ :
« شَرَابُ كَعْمِينَ الدِّبْكِ » ، وَدِمَاغُهُ مَجْبُورُ لَوْجِ السَّكَلِيَّةِ ، وَلَنْ تَرَى عِظْمًا قَطُّ
أَهْشَ مِنْ عِظَمِ وَاسِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ مِنْ نُبُلٍ أَنْتَكَ لَا تَأْكُلُهُ فَإِنْ عِنْدَنَا مِنْ يَأْكُلُهُ !
أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ طَرَفِ الْجَنَاحِ وَمِنْ السَّاقِ وَالْمُنْقِ !
انْظُرْ أَيْنَ هُوَ ! قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَدْرَى أَيْنَ هُوَ ، رَمَيْتُ بِهِ ؛ قَالَ : لَكِنِّي أَدْرَى
أَنْتَكَ رَمَيْتَ بِهِ فِي بَطْنِكَ ، وَاللَّهِ حُسْبُكَ !

* عيون الأخبار : ٣ - ٢٥٩

(١) كَانَ هَامِرًا جَمِيدًا ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ بَنَى الْإِسَانَ أَوَّلَ بِالْجَعْرِ وَالْمُطْعَمِ مِنْ أَفْئَادِ النَّاسِ ، كَانَ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّكِينِ بَنُ زَيْدٍ وَأَبْنَى سَعْدِ الْخَزَوِيِّ مَنَاقِضَاتٍ ، وَمَاتَ سَنَةَ ٢٤٦ هـ . (٢) عَدْلِيَّةٌ :
قَدِيمَةٌ . (٣) السَّاسَى : الَّتِي أَسْنَى حَتَّى جَفَّ وَصَلَبَ . (٤) لَا تَحْزَنُ . لَا تَهْطَعُ .

١٤٩ — لَوْ عَلِمْتُ بِحَالِهِ لَوَلَّجْتُ عَلَيْهِ*

قال بشر بن سعيد : كان بالبصرة شيخٌ من بني نَهشل نزل ببني أخت له في سَكَّةَ بنى مازن ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم ، وذلك في شهر رمضان ، وبقيت النساء يصلين في المسجد ، فلم يبقَ في الدار إلا كلب يَمُسُّ^(١) ، فرأى بيتاً فدخل . وانصَقَّ^(٢) الباب ، فسمع الحركة بعضُ الإماء ، فظنوا أن لهاً دخل الدار .

فذهبت إحداهن إلى الشيخ ، وليس في الحى رجلٌ غيره فأخبرته فقال : ما يبتنى اللصُّ منّا ؟ ثم أخذ عصاه وجاء حتى وقف على باب البيت فقال : إيه يَمْلَأُمان^(٣) ! أما والله إنك بنى لَمَارِفَ ، وإني بك أيضا لمارف ، فهل أنت إلا من لصوص بنى مازن ، شربت حامضاً خبيثاً ، حتى إذا دارت الأقداحُ في رأسك مننتك فسك الأمانى ، وقلت : أطرُقُ بنى عمرو ، والرجالُ خلوف ، والنساء يصلين في مسجدهن ، فأسرقهن ، سوءة لك ! والله ما يفعل هذا الأحرار ! ليس والله ما مننتك فسك ، فأخرجُ وإلا دخلتُ عليك فصدمتك منى العقوبة ، وإيمُ الله لتخرجنَّ أو لأهتفنَّ هَتَفَةً مشنومة يلتقى فيها الحيان : عمرو وحَنَظَلَةٌ ، ويحى سعدٌ يمدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من هاهنا ومن هاهنا ، ولئن قلت لتكوننَّ أشأمَ مولود .

* عيون الأخبار : ١ - ١٦٧ ، الحيوان : ٢ - ٨٤ .

(١) كلب عروس : طلوب لما يأكل . (٢) انصَقَّ : أغلق . (٣) اللامان : التميم .

فلم أرأى أنه لا يحميه أخذه باللين ، وقال : اخرج بأبي وأمي ! إني والله ما أراك تعرفني ، ولو عرفتنى لقمت بقولي واطمأننت إلى ! أنا عروة بن مرثد ؛ أبو الأغر ، وأنا خال القوم ، وجِلْدَةٌ ما بين أعينهم ، لا يصوتني في أمر ، وأنا لك بالثمة^(١) كفيلٌ خفير ، أصبرُّك بين شحمة أذني وعاتقي ، لا تُصَارُ ؛ فاخرج فانت في ذمتي ، وإلا فإن عندي قَوصَرَتَيْنِ أهدهما إلى ابن أختي البار الوصول ، فخذ إحدهما فانتبهذها حلالاً من الله تعالى ورسوله !

وكان الكلبُ إذا سمع الكلامَ أطرقَ ، وإذا سكَّت وثب يريد الخروج ؛ فضاحك أبو الأغر ، ثم قال : يا أَلَمَ الناس وأوْضمهم ؛ لا أرى إلَّا أني الليلة في وادٍ وأنت في آخر ، إذا قلت لك : السوداء والبيضاء تَسْكُت وتطرق ، فإذا سكَّت عنك تريدُ المَخْرَجَ ، والله لتخرجنَّ بالمفْوَعِ عنك ، أو لَأَجْلِنَّ^(٢) عليك البيت بالمفوعة ؛ فسا طال وقوفهُ جاءت جاريةٌ من إماء الحى ، قالت : أعرأى مجنون والله ! ما أرى في البيت شيئاً ، ودفت الباب فخرج الكلب شديداً ، وحادَّ عنه أبو الأغر ، ساقطاً على قفاه ! ثم قال : أما والله لو علمت بحاله لَوَجَّلتُ عليه !

(١) الثمة : السهد والأمان . (٢) ولج الباب : دخل .

١٥٠ — وعلى أيضا *

قال أبو الحسن : كان عندنا بالمدينة رجل قد كثر عليه الدين حتى تَوَارَى من غُرَمَائِهِ ، وَلَزِمَ مَنْزِلَهُ ، فَأَتَاهُ غَرِيمٌ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَسِيرٌ فَتَلَطَّفَ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا تَجْعَلُ لِي إِنْ أَنَا دَلَلْتُكَ عَلَى حِيلَةٍ تَصِيرُ بِهَا إِلَى الظُّهُورِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ غُرَمَائِكَ ؟ قَالَ : أَفْضِيكَ حَقَّكَ وَأَزِيدُكَ بِمَا عِنْدِي بِمَا تَقَرَّرَ بِهِ عَيْنُكَ . فَتَوَقَّعَ مِنْهُ بِالْإِيمَانِ ، فَقَالَ لَهُ : غَدًا قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرُّ خَادِمِكَ بِكُنُسِ بَابِكَ وَفَنَاءُكَ ، وَبِرْشٍ وَيَسْطٍ عَلَى دُكَّانِكَ حُصْرًا ، وَيَضَعُ لَكَ مَتَكًّا ، ثُمَّ اجْلِسْ وَكُلْ مِنْ بَيْرُ عَلَىكَ وَيَسْلَمْ تَنْبِجُ لَهُ فِي وَجْهِهِ ، وَلَا تَزِيدَنَّ عَلَى النَّبَاحِ أَحَدًا كَاتِنًا مِنْ كَانَ ، وَلَوْ كَلَّمَكَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِكَ أَوْ خَدَمِكَ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ غَرِيمٍ أَوْ غَيْرِهِ ، حَتَّى تَصِيرَ إِلَى الْوَالِي ، فَإِذَا كَلَّمَكَ فَانْبِجْ لَهُ ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تَزِيدَهُ أَوْ غَيْرَهُ عَلَى النَّبَاحِ ، فَإِنَّ الْوَالِي إِذَا أُبْقِنَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْكَ جَدًّا لَمْ يَشْكُ أَنَّهُ قَدْ عَرَضَ لَكَ عَارِضٌ مِمَّنْ قُبِخِلَ عَنْكَ .

فَقُلْ ، فَرَّ بِهِ بَعْضُ جِيرَانِهِ فَلَمْ عَلَيْهِ ؛ فَتَنْبِجْ فِي وَجْهِهِ ؛ ثُمَّ مَرَّ آخِرُ فَعْمَلٍ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى تَسَامِعَ غُرَمَاؤَهُ ؛ فَأَتَاهُ بَعْضُهُمْ فَلَمْ عَلَيْهِ فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى النَّبَاحِ ، ثُمَّ آخِرُ وَآخِرُ ؛ فَتَمَلَّقُوا بِهِ فَرَفُوهُ إِلَى الْوَالِي ؛ فَسَأَلَهُ الْوَالِي فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى النَّبَاحِ ، فَرَفَعَهُ مَعَهُمْ إِلَى الْقَاضِي فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَأَمَرَ بِمَحْبَسَةِ أَيَّامًا ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ الْعِيُونَ . فَلَمْ يَنْفَسْ ، وَجَعَلَ لَا يَنْتَقِ بِمَحْرِفٍ سِوَى النَّبَاحِ .

فلما رأى القاضى ذلك أمر بإخراجه ، ووضع عليه العيونَ فى منزله ، وجعل لا ينطق بحرف إلا النباح ، فلما تقرر ذلك عند القاضى أمر غرماءه بالكف عنه ، وقال : هذا رجل به لَم ؛ فكث ما شاء الله تعالى .

ثم إن غريمه الذى كان علمه الحيلة أتاه متقاضياً لِمَدته ، فلما كله جعل لا يزيدُه على النباح ! فقال له : ويلك يا فلان ! وعلىّ أيضاً ! وأنا علمتك هذه الحيلة ! فجعل لا يزيدُه على النباح ، فلما يئس منه انصرف غير آمل فيما يطالبه به .

١٥١ — كَذِبٌ بِكَذِبٍ *

قال الجاحظ^(١) : حدثني محمد بن يسير^(٢) عن والٍ كان بفارس قال : بينا هو يوماً في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب جهده^(٣) ، إذ نجم^(٤) شاعر من بين يديه ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرظه^(٥) ومجده . فلما فرغ قال : قد أحسنت ، ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ؛ فقرح الشاعر فرحاً قد يستطار^(٦) له .

فلما رأى حاله قال : وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الوقع . اجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده . فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ! أعطه يا فلان أربعين ألفاً . فكاد الفرح يقتله . فلما رجعت إليه فسه قال له : أنت - جملتُ فذاك - رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازدددتُ فرحاً زدتنى في الجائزة . وقبول هذا منك لا يكون إلّا من قلة الشكر له ! ثم دعا له وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يورخى منك بأربعين درهماً ، تأمر له بأربعين ألف درهم ! قال : وتلك ! وتريد أن تعطيه شيئاً ؟ قال :

● البخلاء : ١ - ٥٩ (طبعة دار الكتب) .

(١) عمرو بن بحر ، ولد بالبصرة ، كتبه أشهر من أن تحصى ، توفي سنة ٢٥٥ هـ . (٢) شاعر بصري . (٣) أي احتجب عن الناس ما أمكنه الاحتجاب . (٤) نجم : ظهر . (٥) قرظه : مدحه .

(٦) يستطار له : يدفع منه .

ومِنْ إِنْغَازِ أَمْرِكَ بَدَّ؟ قَالَ : يَا أَحَقُّ ! إِنَّمَا هَذَا رَجُلٌ سَرَّنا بِكَلَامٍ وَسَرَّناهُ
بِكَلَامٍ ؛ هُوَ حِينَ زَعَمُ أَنِّي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ ، وَأَشَدُّ مِنَ الْأَسَدِ ، وَأَنَّ لِسَانِي أَقْطَعُ
مِنَ السَّيْفِ ، وَأَنَّ أَمْرِي أَغْذُ مِنَ السَّكَّانِ ، جَمِلَ فِي يَدِي مِنْ هَذَا شَيْئًا أَرْجِعُ بِهِ
إِلَى شَيْءٍ ؟ أَلَسْنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ كَذَبَ ؟ وَلَكِنَّهُ قَدْ سَرَّنا حِينَ كَذَبَ لَنَا . فَتَحْنُ أَیضًا
نَسْرَهُ بِالْقَوْلِ ، وَنَأْمُرُ لَهُ بِالْجَوَازِ ، وَإِنْ كَانَ كَذِبًا ؛ فَيَكُونُ كَذِبٌ بِكَذِبِ ،
وَقَوْلٌ يَقُولُ . فَأَمَّا أَنْتَ يَكُونُ كَذِبٌ بِصَدَقِ ، وَقَوْلٌ يَقُولُ ، فِهَذَا هُوَ
الْخُسرَانُ الَّذِي مَاسَمْتُ بِهِ !

١٥٢ - ذهب الحمارُ بأَمِّ عمرو*

قال الجاحظ : دخلت يوماً مدينةً ، فوجدت فيها مملأً في هيئة حسنة ، فسلمتُ عليه ، فردَّ هَلْ أَحْسَنَ رَدٍّ ، ورحَّبَ بي ، فجلستُ عنده ، وباحثته في القرآن ؛ فإذا هو ماهرٌ فيه ، ثم تَقَاَمَحْنَا الفقه والنحو وأشعار العرب ؛ فإذا هو كامل الآداب ؛ قلت : سأخلفُ إليه وأزوره .

وجئت يوماً لزيارته ، فإذا بالكُتَّاب^(١) مُغَلَّقٍ ، ولم أجده ؛ فأنلتُ عنه ، فقيل : مات له مَيِّتٌ ؛ فحزنَ عليه ، وجلس في بيته للزَّاء .
فذهبتُ إلى بيته ، وطرقتُ الباب ، فخرجتُ إلى جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سَيِّدُكَ . فدخلتُ وخرجتُ ، وقالت : باسمِ الله ؛ فدخاتُ إليه ، وإذا به جالس . قلت : عَظَّمَ اللهُ أَجْرَكَ ؛ لقد كان لَكُمْ في رسولِ الله أسوةٌ حسنة . كلُّ نفسٍ ذائِلَةٌ للموت ؛ فليكن بالصبر .

ثم قلت له : هذا الذي تُوقِي ولدك ؟ قال : لا . قلت : فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . قلت : فمنَ هو ؟ قال : حبيبي . قلت في نفسي : هذه أولى العجائب . قلت : سبحان الله ! النساءُ كثيرٌ ويستجدن غيرها . فقال : أنظن أني رأيتها ؟ قلت : وهذه الثانية .

* المنطوق : ١ - ٢٤٢

(١) المكتب والكتّاب : موضع التعليم .

ثم قلت : وكيف عشقتَ من لم تر ؟ فقال : اعلم أنى كنت جالساً في هذا
المكان ، وأنا أنظر من الطالق^(١) ، إذ رأيت رجلاً عليه بُرْدٌ ، وهو يقول :
يا أمَّ عمرو جزاك الله مكرمةً رُدِّيْ عَلَى فَوَادِي أَيْنَا كَانَا
فقلت في نفسي : لولا أن أمَّ عمرو هذه ما في الدنيا أحسنُ منها ما قيل فيها هذا
الشعر ؛ فمشيتُها .

فلما كان منذ يومين مرَّ ذلك الرجل ببيته وهو يقول :
لقد ذهب الحمارُ بأُمِّ عمرو فلا رجعتُ ولا رَجَعَ الحِمَارُ
فعلت أنها ماتت ، فحزنت عليها ، وأغلقتُ المكتبَ ، وجلست في الدار ؛
قلت : يا هذا ؛ إني كنت قد ألَّفتُ كتاباً في نوادرهم معشر العلماء ،
وكنتُ حين صاحبُك عزمْتُ على قطيعه ، والآن قد قويتَ عزمي على إبقائه ،
وأول ما أبدأ بك إن شاء الله .

(١) الطالق : ماعقد من الأبنية .

١٥٢ - أعجب ما رأيت من المجانين *

حدث للبرد^(١) قال : قال لى المازنى : بلغنى أنك تنصرف من مجلسنا إلى مواضع المجانين والمعالجين^(٢) فامعنى ذلك ؟ قلت : أعزك الله تعالى ؛ إن لهم طرائف من الكلام ! قال : فأخبرنى بأعجب ما رأيت من المجانين ! قلت : صرت يوماً إليهم فررت على شيخٍ منهم ، وهو جالس على حصير قصير ، فجاوزته إلى غيره ، فقال : سبحان الله ! أين السلام ؟ من المجنون ؟ أنا أم أنت ؟ فاستحييتُ منه ، وقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته. قال : لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حسن الردِّ ، على أنا نصرفُ سوء أدبك إلى أحسن جهاته من العذر ، لأنه كان يقال : إن للدخال على القوم دهشةً ، اجلس - أعزك الله - عندنا ، وأوماً إلى موضع من الحصير ، فجلستُ إلى ناحية منه ، فقال لى - وقد رأى معى مخبرى : أرى معك آله رجلين أرجو ألا تكون أحدهما : أصحاب الحديث الأغثاء ، أو الأدباء أصحاب النعوى والشمع ؟ قلت : الأدباء ! قال : أتعرف أبا عثمانَ للمازنى ؟ قلت : نعم ! قال : أتعرف الذى يقول فيه القائل :

وفقى من مازن أستاذ أهل البصرة
أمه مرفة وأبوه نكرة

* معجم الأدباء : ١٩ - ١١٦

(١) هو محمد بن يزيد ، المعروف بالبرد إمام العربية فى زمنه ينفذ وأحد أئمة الأدب والأخبار.

مولده ينفذ وتوفى بها سنة ٢٨٦ هـ . (٢) المدخولون فى عقولهم ، والمتاملين للعلاج .

قلت : لا أعرفه ، فقال : أنعرفُ غلاماً له قد نبعَ في هذا المصر ، له ذهنٌ وحفظ وقد برّز في النحو ، يعرف بالمبرد ؟ قلت : أنا والله الخبير به ! قال : فهل أنشدك شيئاً من شعره ؟ قلت : لأحسبه يحسن قول الشعر ! فقال : ياسبحان الله ! أليس هو القائل :

حَبَّذَا مَا هُ الْعَنَاقِدِ بِرِيقِ الْفَكَائِيَاتِ
بِهِمَا يَنْبُتُ لَحْيِي وَدُمِي أَيُّ نَهَاتِ

قلت : قد سمعته ينشد هذا في مجلس أنس ؛ فقال : ياسبحان الله ! ألا يستحي أن ينشد مثل هذا الشعر حول الكعبة ؟ ثم قال : ألم تسمع ما يقولون في نسبه ؟ قلت : يقولون : إنه من الأزْد أزد شنوءة ، ثم من ثُمالة ! قال : أنعرفُ القائل في ذلك :

سَأَلْنَا عَنْ ثُمَالَةَ كُلِّ حَيٍّ
قَالَتِ : مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدٍ مِنْهُمْ
قَالُوا : زِدْنَا بِهِمْ جَهَالَةً !
قَالَ لِي الْمُبَرَّدُ : خَلَّ قَوْمِي قَوْمِي مَعَشَرٌ فِيهِمْ نَذَالَةٌ !

قلت : أعرفه ! هذا عبد الصمد بن المذل يقولها فيه ! فقال : كذب فيما ادّعاها ! هذا كلام رجل لا نسب له ، يريد أن يُثبت له بهذا الشعر نسباً ، قلت له : أنت أعلم ! فقال : يا هذا ، قد غلبت خفة روحك على قلبي ، وقد أخزرت ما كان يجب تقديمه ، ما الكنية ؟ أصلحك الله ! قلت : أبو البساس ، قال : فما الاسم ؟ قلت : محمد ، قال : فالأب ؟ قلت : يزيد . قال : فبَحَلَّك الله ! أحوجنني إلى الاعتذار بما قدمت ذكره ، ثم وثب وبسط يده فصاغني ؛ فرأيتُ القيدَ في

رجله ، فأَمِنْتُ غائلته ، فقال : يا أبا العباس ، صُنْ نفسك من الدخول في هذه
المواضع ؛ فليس يَتَبَيَّنُ في كل وقتٍ أن تصادف مِنِّي على مثل حالي ، ثم قال :
أنت للبرد ! أنت المبرد ! وجعل يصفقُ ، واغلبتُ عيناه واحمرَّت وتغيَّرت
حالته ، فبادرت مسرعاً خوفاً أن تَهْدِرَ إلىّ منه بادرة ؛ وقبلتُ منه والله نُصْحَهُ ،
ولم أعلوْذَ بعدها إلى تلك المواضع أبداً !

١٥٤ - مجنون أديب*

قال أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بـثعلب^(١) : كان ببغداد فتى يُجَنِّ
سنة أشهر ، فاستقبلني يوماً ببعض السكك فقال : ثعلب ! قلت : نعم ، قال :
فأنشدني ، فأنشدته :

وإذا مررت بقبره فاعقِر به كُومَ^(٢) المِجَانِ وكلَّ طِرْفٍ^(٣) ساجِحِ
وانضَحْ جوانِبَ قبره بدمائِها فكلنا يصكون أخا دَمٍ وذِئاحِ
فضحك ثم سكت ساعة ؛ وقال : ألا قال :

اذهبا بي إن لم يكن لكما عقرٌ على تُرْبِ قبره فاعقِراني
وانضَحَا من دمي عليه قد كا نَ دَمِي من نَدَاهِ لو تعلَّمانِ
ثم رآني يوماً بعد ذلك فأَمَلَنِي ، وقال : ثعلب ! قلت : نعم ؛ قال : أنشدني ،
فأنشدته :

أَعَارَ الْجَوْدَ^(٤) نَائِلَهُ إِذَا مَا مَالُهُ نَقِداً
وإن أُسِدُّ شَكَا جُبِيناً أَعَارَ فَوَادَهُ الْأَسَدَا
فضحك وقال : ألا قال :

عَلَّمَ الْجَوْدَ النَّدَى حَقِي إِذَا مَا حَكَاهُ عِلْمُ الْبَاسِ الْأَمْدُ
فَلَهُ الْجَوْدُ مَقَرٌّ^(٥) بِالنَّدَى وَلَهُ اللَّيْثُ مَقَرٌّ^(٦) بِالْجَلْدِ

* عقلاء المجانين : ١٣٥ ، نهاية الأرب : ٣ - ٢١٣

(١) أحمد بن يحيى إمام الكوفيين في النحو واللغة كان رواية الشعر مشهوراً بالحفظ وصدق البهجة ،
تفة حجة ، توفي سنة ٢٩١ هـ . (٢) الكوم : القطة من الإبل . (٣) الطرف : الكريم من
الخيل . (٤) الجود : العطر الزير .

١٥٥ — كَذَرُ اللَّهِ مِنْ كَذَرِ الْعَيْشِ*

قال الجحدوي : بئس إلى أحمد بن حرب للهلي في غداة ، السماء فيها مغيمة ،
فأنتبه ، وللمائدة موضوعة مُنْطَاة ، وقد وافى « حجاب » اللغنية ؛ فأكلنا جميعاً
وجلسنا على شرابنا ؛ فإرا عانا إلا داق يدق الباب فأتاه الغلام ؛ فقال : بالباب
فلان ! فقال لي : هو فتى من آل المهلب ، ظريف نظيف ! قلت : ما تريد غير
ما نحن فيه !

فأذن له ؛ فجاء يبيعتر ، وقُدَّامِي قَدَحُ شراب فكسره ، فإذا رجل آدم^(١)
ضخم ! وتكلم ؛ فإذا هو أعيا الناس .

جلس بيني وبين « حجاب » ؛ فدعوت بدواة ، وكتبت إلى أحمد
ابن حرب :

كَذَرُ اللَّهِ عَيْشَ مَنْ كَذَرِ الْعَيْدِ ش ؛ قد كاف صافياً مُسْتَنْطَاباً
جاءنا والسماء تهطل بالنِّية ش ؛ وقد طابق السماعُ الشرابا
كسر الكأس وهي كالكوكب الدر^(٢) رِي ضَمَّتْ مِنَ الدِّمَامِ^(٣) رُضَاباً^(٤)
قلت لكَ رُمِيتُ مِنْهُ بما أكر رُهُ ، والدهرُ ما أفدأ أصابا !
مَجَّلَ اللَّهُ نَفْسَةً لابن حرب تدعُ الدارَ بسد شهر خراباً !

* زهر الآداب : ٤ - ١٧٧

(١) الآدم : الأسمر . (٢) الكوكب الدرّي : الثاقب الغي ، نسب إلى الفدّاء بيته .

(٣) الدمام : الحجر . (٤) الرضاب : الصل ، أو دغته .

ودفعت الرقعة له ؛ قال : ألا نكمت^(١) ؛ قلت : بعد حول^(٢) ؟ قلت :
أردت أن أقول بعد يوم ؛ تخفت أن يصيبني مضرة ذلك ؛
وفطن الثقيل ؛ فنهض ، قال : أذيتك ؛ قلت : هو آذاني !

(١) نفس تنفيا : فرج ، يريد ألا فرجت عن نفسك وصبرت . (٢) يريد : بدل شهر التي
وردت في البيت .

١٥٦ — يضيف أهل الصفة ثم يضربهم*

كان زيادُ بنُ عبد الله الحارثي والياً على المدينة ، وكان فيه بُخلٌ وجفاء ؛ فأهدى إليه كاتبٌ سِلَاحاً فيها أطعمة ؛ وقد تنوّق^(١) فيها ، فواقتته وقد تَفَدَّى ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : غداء بمنه فلان الكاتب ! فغضب ، وقال : بيعتُ أحدم الشيء في غير وقته ! يا خيثم بن مالك - يريد صاحبَ شرطته : ادعُ على أهل الصفة^(٢) يأكلون هذا !

فبعث خيثمُ الحرسَ يدعونهم ، فقال الرسول الذي جاء بالسلال : أصلح الله الأمير ! لو أمرت بهذه السلال تُفْتَحُ وينظرُ ما فيها ! قال : اكشِفُوها ، فإذا طعام حسن من دجاج وجِذَاء^(٣) وسمك وأخبَصَةٍ^(٤) وحلواء ! فقال : ارفعُوا هذه السلال .

وجاء أهل الصفة ؛ فأخبر بهم ، فأمر بإحضارهم وقال : يا خيثم ، اضربهم عشرة أسواط ، فإنه بلغني أنهم يحدثون في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم !

* نهاية الأرب : ٣ - ٣٠٥

(١) تنوّق في الأمر : تأنّق فيه . (٢) أهل الصفة : كانوا أضياف الإسلام ، وكانوا يبيتون في مسجده صلى الله عليه وسلم . (٣) الجِذَاء : جمع الجدي ، ولد للز . (٤) الخبِصَة : طعام من التمر والتمر .

١٥٧ — ابن المدبر وطفيلي *

كان ابنُ المدبر قليلَ الجلوس للندامة ، وكان له سبعة ندماء لا يَأْسُ بغيرهم ولا ينسبط إلى سواهم ، قد اصطَلَقاهم لِعِشْرَتِهِ ، واختارهم لندامته ، كل رجل منهم قد اغترد بنوع من العلم لا يساويه فيه غيره .

وكان طفيلي يُعرَفُ بابنِ دُرَّاجٍ من أكمل الناس أدباً ، وأخفهم رُوحاً ، وأشدَّهم في كلِّ مليحة افتناناً ؛ فلم يزل يحتالُ إلى أن عرَفَ وقت جلوس ابن المدبر للندماء ، فتزيّاً في زى ندمائه ، ودخل في جملتهم ، وغلَّ حاجبُه أن ذلك يعلم من صاحبه ومعرفة من أولئك الندماء ، ولم ينكر شيئاً من حاله .

وخرج ابنُ المدبر ، ففطر إليه بين القوم ، قال لحاجبه : اذهب إلى ذلك الرجل ، قل له : ألك حاجة ؟ فسَطِط في يد الحاجب ، وعلم أن الحيلة قد تمت عليه ، وأن ابن المدبر لا يرضى في عقوبته إلا بقتله ، فذهب إليه ، فقال له : الأستاذ يقول لك : ألك حاجة ؟ فقال : قل له : لا . فقال له : ارجع إليه قل له : أي شيء أنت ؟ فقال : قل له : طفيلي يرحلك الله !

قال له ابنُ المدبر : أنت طفيلي ؟ قال : نعم ! أَعَزَّكَ اللهُ ! قال : إن الطفيلي يُحْتَمَلُ دخوله بيوت الناس وإفساده عليهم ما يريدونه من الخَلْوةِ بندمائهم والخلوض في أسرارهم لخصال ، منها أن يكون لاعباً بالشطرنج ، أو بالرُّدِّ ، أو ضارباً بالعود أو الطنبور !

قال : أَيْدِكَ اللهُ ! أنا أحسنُ هذه الأشياء كلها ، قال : وفي أى غليفة أنتَ منها ؟ قال : فى المُلْكِيَا من جميعها !
فقال لبعض ندمائه : لابعه بالشُّطْرَج ، فقال الطفيلُ : أصلح اللهُ الأستاذ !
فإن قُمرْتُ^(١) ؟ قال : أخرجناك من ديارنا . قال : فإن قُمرْتُ ؟ قال : أعطيناك ألفَ درهم . قال : فإن رأيت - أَيْدِكَ اللهُ - أن تحضر الألف ؛ فإن فى حضورها قوة للنفس والإيقان بالفقر .

فأحضرت ؛ فلعبا فقلب الطفيلُ ، ومدَّ يده ليأخذ الهرام ، فقال الحاجب لينفى عن نفسه بعض ما وقع فيه : أعزَّ اللهُ الأستاذ ؛ إنه زعم أنه فى الطبقة المُلْكِيَا ، وابنُ فلان غلامك يَقلبه .

فأحضر الغلام ، فقلبَ الطفيلُ ، فقال له : انصرف ، فقال : أحضروا النرد ، فأحضرت فلوعب فقلبَ ، فقال الحاجب : ولا هذا - يا سيدى - فى الطبقة العليا من النرد ، ولكن بوابنا فلان يقلبه ، فأحضر البواب فقلبَ الطفيلُ ، فقال له : اخرج ، فقال : يا سيدى ، فالمود ؟

فأتى بالمود ، فضرب فأصاب ، وغنى فأترب ، فقال الحاجب : يا سيدى ؛ فى جوارنا شيخ هاشمى يُعلم التبيان أحذقُ منه ، فأحضر الشيخ ، فكان أطربَ منه . فقال له : اخرج ، قال : فالطنبُور ، فأعطى طنبوراً فضرب ضرباً لم يَرَ الناسُ أحسنَ منه ، وغنى غناء فى النهاية ، فقال الحاجب : أعزَّ اللهُ الأستاذ ؛ فلان فى جوارنا أحذقُ منه ، فأحضر فكان أحذقُ منه وأطيب ، فقال له ابن الدبر :

(١) قُرت : غلبت فى اللعب .

فدَقَصِينَا لَكَ بِكُلِّ جَهْدٍ ، فَأَبَتْ حِرْفَتُكَ إِلَّا طَرْدَكَ عَنْ مَنْزِلِنَا .

قَالَ : يَا سِيدِي ، بَقِيَ شَيْءٌ . قَالَ : مَا هُوَ ؟ قَالَ : تَأْمُرُنِي بِقَوْمٍ بُنْدُوقٍ^(١) مع خَمْسِينَ بُنْدُوقَةً رِصَاصَ ، وَيَقَامُ هَذَا الْحَاجِبُ عَلَى أَرْبَعٍ وَأَرْمِيهِ بِهَا ، وَإِنْ أَخْطَأْتُ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا ضَرَبْتُ رَقِيبِي . فَضَجَّ الْحَاجِبُ مِنْ ذَلِكَ ، وَوَجَدَ ابْنَ الْمَدِيرِ فِي ذَلِكَ شِفَاءً لِنَفْسِهِ وَعَقُوبَةً لَهُ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ فِي إِدْخَالِ الطُّفْلِي إِلَى مَجْلِسِهِ . فَأَمَرَ بِكَافَيْنٍ^(٢) فَأَحْضَرَا ، وَجَمَلَ أَحَدَهُمَا فَوْقَ الْآخَرِ ، وَشَدَّ الْحَاجِبُ فَوْقَهُمَا ، وَأَمَرَ بِالتُّوسِ وَالْبَنْدُقِ فَدَفَعَا إِلَى الطُّفْلِي ، فَرَمَى بِهِ ؛ فَمَا أَخْطَأَهُ ؛ وَخَلَّى عَنْ الْحَاجِبِ وَهُوَ يَتَأَوَّهُ لِمَا بِهِ . فَقَالَ لَهُ الطُّفْلِي : أَعْلَى بَابِ الْأَسْتَازِ مِنْ يُحْسِنُ مِثْلَ هَذَا ؟ فَقَالَ : مَا دَامَ الْبَرْجَاسُ^(٣) اسْتَبَى فَلَا !

(١) البندق : القى يرمى به ، الواحدة بهاء . (٢) الإلكاف : البرذعة . (٣) البرجاس : غرض في الهواء على رأس رمح أو نحوه .

١٥٨ — صناعتهم التطفيل *

قال ابن درّاج : قدمتُ من بغداد ، فررتُ بباب قومٍ وعندهم وَلِيمةٌ ، وإذا بصاحب الدار يدخلُ ويضعُ سِلْماً ، فكلمنا رَأى إنساناً لا يعرفُهُ قال : اصعدْ يا أبى ؛ فصعدتُ إلى غرفةٍ مفروشةٍ حتى وافيتُ فيها ثلاثة عشر طفلياً ، ثم رُفِعَ السُّلْمُ ، ووُضِعَتِ الموائدُ ، فبقي أصحابي قد تحيَّروا وقالوا : مامرَّ بنا مثل ذا قط ؛ قلت : يا فتيان ، ما صناعتكم ؟ قالوا : التطفيل ، قلت : فما عندكم فى هذا الأمر الذى وقمنا فيه ؟ قالوا : ما عندنا فيه حيلةٌ ، قلت : فإذا احتلتُ عليكم حتى تأكلوا وتزولوا تُقرِّون أنى أعلمكم بالتطفيل ؟ قالوا : ومن تكون بالله ؟ قلت : أنا ابن درّاج . قالوا : قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا . قال : فجئتُ إلى صاحب الدار فاطلمتُ عليه والناس يأكلون وقلت : يا صاحب الدار ؛ قال : مالك ؟ قلت : أيتا أحبُّ إليك ؛ تصعدُ إلينا بخوانٍ كبيرٍ ، نأكل ونزُلُ أو أرْمى بنفسى ، فيخرج من دارك قَتِيلٌ ؛ وبصير عُرْسُكَ ماتماً ؟ وجعلتُ أريه كأنى أرْمى بنفسى ، فصاح وقال : اصبر وبلك لا تضل ! وجعل يسجّل ويقول : هذا مجنون . وأصعدوا إلينا خواناً ، فأكلنا ونزلنا .

١٥٩ - اصبروا على إلى غد*
—

ادعى مدّيع النبوة ، فطلب ودعى له بالسيف والنّطع ؛ فقال : ما تصنعون ؟
قالوا : نقتلك ، قال : ولم تقتلوننى ؟ قالوا : لأنك ادّعت النبوة . قال : فليست
أدعيها ، قيل له : فأى شئ أنت ؟ قال : أنا صديق ، فدعى له بالسّياط ، فقال :
لم تضربوننى ؟ قالوا : لادّعائك أنك صديق ، قال : لا أدعى ذلك ، قالوا : فمن
أنت ؟ قال : من التابعين لم بإحسان ، فدعى له بالدّرة^(١) ، قال : ولم ذلك ؟
قالوا : لادّعائك ما ليس فيك ، فقال : ويحكم ! أدخل إليكم وأنا نبي تريدون أن
تخطونى فى ساعة واحدة إلى مرتبة العوام ! اصبروا على إلى غد حتى أصير لكم
ما شقتم !

* نهاية الأرب : ٤ - ١٦

(١) الدرة بالكسر : التى يضرب بها .

١٦٠ — هو خير الناس مهما فعل *

حدث رجل من عامر بن لؤي ، قال : كان صبي منا ترك له أبوه غنماً وعبيداً ؛ فخرج يوماً ، فنظر إلى جارية في خباياها فهوَّيها ، ومال إلى أمها ، وسألها أن تزوجها منه ، فقالت : حتى أسأل عن أخلاقك .

فسأل عن أقرب الناس إليها ، فدُلَّ على شيخ كان معروفًا بحسن اللِّحْزَر . فأتاه وسلم عليه ، وقال : ما جاء بك ؟ فأخبره . فقال : لا عليك ؛ فإنَّ المعجوزَ غيرَ خارجٍ من رأيي ، فلمض إلى منزلِك ، وأقم يوماً أو يومين ، ومرُّ بِنسك أن تُساقَ ، ونادٍ في أهلك : أما من أراد أن يحبَّ فلْيأتنا ؛ ودعني والأمر !

فشاع الخبرُ ، فخرجت المعجوزة مع مَنْ خرج ، والشيخُ مع القوم ، فنظر إلى الشاب ، وقد كانت المعجوزة قد أخبرته بشأنه ، فقال : هو هو ! فقالت : نعم ! قال : لقد حرمتِ حظك ! قالت : إني أريد أن أسألَ عن أخلاقه . قال : أنا ربُّيتُه . قالت : فكيف لسانُه ؟ قال : خطيبُ أهله ، والتكلم عنهم . قالت : فكيف سماعته ؟ قال : ثَمَالٌ^(١) في قومه ، وريعهم ! قالت : فكيف شجاعته ؟ قال : حامى قومه وللدافع عنهم !

قال : فطَلَمَ الفتى ، فقال : أما ترين ما أحسن ما أقبل ! ما انحنى ولا اشقى !

* المحاسن والساوئ : ٦٤٣ (طبع لبيزج) .

(١) الثَمَال : النيات التي يقوم بأمر قومه .

فلما قرب سلم ، فقال : ما أحسن ما سلم ! ما حار ولا نار . ثم استوى جالساً .
فقال : ما أحسن ما جلس ! ما ركع ولا عجز . قالت : أجل ! فذهب يتحرك
فصرط ، قال الشيخ : ما أحسن والله ما صرط . ما أطأها ولا أغنأها ولا نفخأها
ولا ترأأها^(١) . فنهض التقى خجلاً ، قال الشيخ : ما أحسن والله ما نهض !
قالت الجوز : أجل والله ! فصيح به ورؤده ، فوالله لزوجناه ولو فعل أكثر
مما فعل !

(١) التبرير : التزلزل والتقلقل .

١٦١ - طفيلي في عرس*

دخل طفيلي عرساً فلم يقدر على الدخول، فأخذ قرطاساً وأدْرَجَه^(١)، ولم يكتب فيه شيئاً، وسأل عن العروس : هل له قريب غائب ؟ فقيل : أخوه . فكتب عنوان الكتاب من فلان ابن فلان أخيه . وجاء فدفق الباب ، وقال : معي كتاب من أخى العروس . فخرج العروس مبادراً فأدخله وأخضر له الطعام ؛ فلما قرأ العنوان قال : سبحان الله ! تراه نسي اسمي إذ لم يكتبه على الكتاب ! فقال الطفيلي : وأعجب من هذا أنه لم يكتب داخله شيئاً من المعجزة ! فلم مراده وأدخله !

* ذيل زهر الآداب : ٢٨٠

(١) أدرج الكتاب : طواه .

١٦٢ — طفيلي محدث*

قال أبو عمرو نصر بن علي : كان لي جار طفيلي ، وكان من أحسن الناس مَنظراً ، وأعذبهم منطقاً ، وأطيبهم رائحة ، وأجملهم لباساً ، وكان من شأنه معي أني إذا دعيتُ إلى مدعاة^(١) تَبَعْنِي ، فيسكرمه الناس من أجلي ، ويظنون أنه صاحبُ لي ؛ فاتفق يوماً أن جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يَخْتَنَ بمض أولاده ، فقلت في نفسي : كأني برسول الأمير قد جاء ، وكأني بهذا الرجل قد تبعتني ، والله لئن تبعتني لأفضعنه !

فأنا على ذلك إذ جاء رسوله يدعوني ، فما زدتُ أن لبستُ ثيابي وخرجت ، وإذا أنا بالطفيلي واقفٌ على باب داره ، وسبقني بالتأهب فتقدمتُ وتبعني ؛ فلما دخلنا دار الأمير جلسنا ساعة ، ودعا بالطعام ، وأحضرت الموائد وكان كلُّ جماعة على مائدة لكثرة الناس ، فقدَّمتُ إلى مائدة والطفيلي معي ، فلما مَدَّ يده ، وشرع في تناول الطعام قلت : حدثنا نافع عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دخل دار قومٍ بغير إذنهم فأكل طعامهم دخل سارقاً ، وخرج مُغِيرًا » .

فلما سمع ذلك قال : أَتَيْتُكَ اللَّهُ أَبَا عمرو من هذا الكلام ! فإنه ما من أحدٍ من الجماعة إلا وهو يظنُّ أنك تعرض به دُونَ صاحبه ، أو لا تَسْتَحْيِي أن تتكلم بهذا الكلام على مائدة سَيِّدٍ مِنْ أَهْلِ الطعام ، وتبخل بطعام غيرك على مَنْ سِوَاكَ !

● الطفيل البغدادي : ٦٦

(١) المدعاة : الدعوة .

ثم لا تستحي أن تحدث بهذا الحديث وهو ضعيف ، وتحكم برفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وللسلمون على خلافه ! لأن حكم السارق القطع ، وحكم الفير أن يُعزَّر على ما يراه الإمام ، وأين أنت عن حديث حدَّثناه أبو عاصم النبيل عن ابن جريج عن جابر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية » . وهو إسنادٌ صحيح ومُتَنٌ صحيح !

قال نصر : فأخضعني فلم يحضرني له جواب ، فلما خرجنا من اللوضع للانصراف فارقتني من جانب الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي ، وسمعتَه يقول :

ومن ظنَّ يَمُنَّ بلأق الحروب بألَّا يصاب فقد ظنَّ عَجَزَا

١٦٣ — غِنَى وَغَفْلَةٍ*

كان بمصر شريف من وَلَدِ العباس يعرف بأبي جعفر ؛ شبهه بآبن الجصاص في
الغفلة والجدّ والنّعمة .

قال أبو القاسم بن محمد التنوخي : بعتني أبي إليهِ من قرية تعرف بتلا
يستقرّضه عشرة أَرادب قمحاً وثلاثين زوج بقر ، وكتب معي بذلك رقعة ، فأتيْتُ
إليهِ وسلمت عليهِ ، ودفعت إليهِ الرقعة ؛ فقال : ذكرتُ أباك ، فهو صاحبي
وصديقي وخليطي ! وأين هو الآن ؟ قلت : بقرية تلا - أعزَّ الله سيدي الشريف !
قال : نعم ! حفظه الله ! هو بالقسْطاط معنا ، وقد انقطع عنا كذا ! ما كنتُ أظنّه
إلا غائباً !

قلت : لا ، سيدي هو بتلا ! قال : فإلك ؟ ما قلتُ لي ! فما كان سبيله أن يؤنّسني
برقعة من قبْلِهِ ؟ قلت : ياسيدي ، قد دفعتُ إليك رُقْمَتَهُ ! قال : وأين هي ؟ قلت :
تحت البساط ! فأخذها وقرأها ، وقال : قل لي الآن ، أكان لك أخٌ أعرفه حاد
الذهن يحسن النحو والمروض والشعر ؟ فافلَّ الله به ؟ قلت : أنا هو - أعزَّك الله !
قال : كبرتَ كذا ! وعهدى بك تأتيني معه ؟ قلت : نعم ! أبَدَ الله الشريف !

قال : وما الذي جئتُ فيه ؟ قلتُ له : والدي بعتني إليك برقعة يسألك فيها
قرض عشرة أَرادب قمحاً وثلاثين زوج بقر . قال : وهو الآن بالقسْطاط ! ؟

قلت : لا ، يا سيدى هو بتلا ! قال : نعم ! وإنما ذاك القى أخوك ؟ قلت : لا ! أنا هو .

فصار راجعى فى الكلام وقد ضجرت من شدة غفلته ، وكثرة نسيانه لما أقول له ، حتى أقبل كاتبه أبو الحسين ، قال له : سَلْ هذا القى ما يريد؟ فسألنى فمررت فآخبره ، قال له : نَفَذْ له حاجته . فوقع لى الكتاب بما أراد ، وقال : تَلَقَّائى للقبض بالديوان ، فشكرت الشريف ونهضت ! قال : اصبر يا بنى قد حضر طعامنا ؛ وقدم الطعام ، وفيه طعام غير جيد ، فرفع يده ، وقال : مثل مطبخى يكون فيه مثل هذا ! على بالطباخ ! فأتى به ، قال له : ما هذا العمل ! قال : يا سيدى ؛ إنما أنا صانع ، وعلى قدر ما أعطى أعمل ! وقد سألت المُنْفِقَ أن يشتري لى ما أحتاجُ إليه فتأخر عنى ، فعملتُ على تمكّن ؛ فجاء التصير كما ترى .

قال : على بالمُنْفِقِ ! فأخضر ، قال : مَالِ قليل ؟ قال : لا ، يا سيدى إنما أنْفِقَ ما أعطى ، وقد سألت الجُهَيْدَ^(١) أن يدفع لى فتأخر عنى ؛ قال : على بالجُهَيْدِ ! فأتى به . قال : مالك لم تدفع للمُنْفِقِ شيئاً ؟ قال : لم يوقع لى الكاتب ! قال للكاتب : لِمَ لَمْ تدفع إليه شيئاً ؟ فتلقم فى الكلام ، ولم يكن عنده جواب ؛ قال للكاتب : قف ها هنا ، فوقف ، ووقف خلفه الجُهَيْدُ ، ووقف خلف الجُهَيْدِ المنفق ، وخلف المنفق الطباخ ، وقال : ليصنع كل واحد منكم بمن يليه بأكثر ما يقدر عليه فتصافعوا .

قال : فخرجت وأنا متعجب من غباوته وغفلته !

(١) الجُهَيْدُ : النقاد الجدير ، ويريد القائم بالإتقان وحفظ الأموال .

١٦٤ — حذاء أبي القاسم*

كان في بغداد رجلٌ اسمه أبو القاسم الطنبُورِي ، وكان له مَدَّاسٌ^(١) ، وهو يَلْبَسُهُ سَبْعَ سنين ، وكان كلما تَقَطَّعَ منه موضعٌ جعل مكانه رقعةً إلى أن صار في غاية الثَقَلِ ، وصار الناسُ يضربون به للتل .

فاتفق أنه دخل يوماً سوق الزجاج ، فقال له شمسار^(٢) : يا أبا القاسم ، قد قدِم إلينا اليوم تاجر من حَلَب ، ومعه خُلُ زجاج مُدَّهَبٌ قد كسَدَ ، فاشترِه منه ، وأنا أبيعُه لك بعد هذه اللدة ؛ فَتَكْسِبُ به للتل مِثْلينِ ! فضى واشتراه بسَعْنين ديناراً.

ثم إنه دخل إلى سوق المطارين ؛ فصادفه شمسار آخر ، وقال له : يا أبا القاسم ؛ قد قدِم إلينا اليوم من نصيبين^(٣) تاجرٌ ، ومعه ماء وَرْدٌ ، ولَمِجَلَّةٌ سفره ، يمكن أن تشتريه منه رخيصةً ، وأنا أبيعُه لك فيما بمسد ، بأقرب مدة ؛ فَتَكْسِبُ به للتل مِثْلينِ !

فضى أبو القاسم ، واشتراه أيضاً بستين ديناراً أخرى ، وملاً به الزجاج المذهب وحمله ، وجاء به فوضعه على رَفٍّ من رفوف بيته في الصُّدْر !

ثم إن أبا القاسم دخل الحمام يفتسل ؛ فقال له بعض أصدقائه : يا أبا القاسم ؛

* بحان الأدب : ٣ — ٢٣٢

(١) اللداس كحجاب : الذي يلبس في الرجل . (٢) السمسار : المتوسطين البائع والمشتري .

(٣) قاعدة دينار ربيعة .

أَشْتَبِي أَنْ تَغَيِّرَ مَدَاسَكَ هَذَا ! فَإِنَّهُ فِي غَايَةِ الشَّنَاعَةِ ! وَأَنْتِ ذُو مَالٍ بِحَمْدِ اللَّهِ أَقْبَالَ
لَهُ أَبُو الْقَاسِمِ : الْحَقُّ مَعَكَ ؛ فَالْسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ .

ثُمَّ لَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَمَّامِ ، وَلَبَسَ ثِيَابَهُ ، فَرَأَى بِجَانِبِ مَدَاسِهِ مَدَاسًا آخَرَ
جَدِيدًا ؛ فَظَنَّ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ كَرَمِهِ اشْتَرَاهُ لَهُ ؛ فَلبسه ، وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ !

وَكَانَ ذَلِكَ لِلدَّاسِ الْجَدِيدِ الْقَاضِي ، وَقَدْ جَاءَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى الْحَمَّامِ ، وَوَضَعَ
مَدَاسَهُ هُنَاكَ ، وَدَخَلَ يَسْتَحْتِمُ !

فَلَمَّا خَرَجَ فَتَشَّ عَنْ مَدَاسِهِ ؛ فَلَمْ يَجِدْهُ ؛ فَقَالَ : أَمِنْ لَيْسَ حِذَائِي لَمْ يَتْرَكَ
عَوْضَهُ شَيْئًا ؟ فَتَنَشَّوْا ؛ فَلَمْ يَجِدُوا سِوَى مَدَاسِ أَبِي الْقَاسِمِ ! فَعَرَفُوهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ
يُضْرَبُ بِهِ لِلثَّلِّ !

فَأَرْسَلَ الْقَاضِي خَدَمَهُ ، فَكَبَسُوا^(١) بَيْتَهُ ؛ فَوَجَدُوا مَدَاسَ الْقَاضِي عِنْدَهُ ؛
فَأَحْضَرَهُ الْقَاضِي ، وَضَرَبَهُ تَأْدِيبًا لَهُ ، وَحَبَسَهُ مَدَّةً ، وَغَرَمَهُ بِمِائَةِ دِينَارٍ وَأَطْلَقَهُ !

تَفَرَّجَ أَبُو الْقَاسِمِ مِنَ الْحَبْسِ ، وَأَخَذَ حِذَاءَهُ ، وَهُوَ غَضَبَانٌ عَلَيْهِ ، وَمَضَى إِلَى
دُجْلَةٍ ، فَأَلْقَاهُ فِيهَا ؛ فَخَاصَ فِي الْمَاءِ !

فَأَتَى بَعْضُ الصَّيَادِينَ وَرَى شَبَكَتَهُ ، فَطَلَعَ فِيهَا ! فَلَمَّا رَأَى الصَّيَادَ عَرَفَهُ ، وَظَنَّ
أَنَّهُ وَقَعَ مِنْهُ فِي دُجْلَةٍ ! فَحَمَلَهُ وَأَتَى بِهِ بَيْتَ أَبِي الْقَاسِمِ ؛ فَلَمْ يَجِدْهُ ! فَتَنَظَّرَ فَرَأَى نَافِذَةً
إِلَى صَدْرِ الْبَيْتِ ، فَرَمَاهُ مِنْهَا إِلَى الْبَيْتِ ، فَسَقَطَ عَلَى الرِّفَالِ قَدَى فِيهِ الزَّجَاجُ ، فَوَقَعَ ،
وَتَكَسَّرَ الزَّجَاجُ وَتَبَدَّدَ مَاءُ الْوَرْدِ !

(١) كَبَسَ دَارَهُ : هَجَمَ عَلَيْهَا وَاحْتَاطَ بِهَا .

فجاء أبو القاسم ونظر إلى ذلك، فرف الأمر، فلطم وجهه، وصاح يبكي،
وقال : واقترأه ! أقترنى هذا المداس للمون !

ثم إنه قام ، ليَحْفُرَ له في الليل حُفْرَةً ، ويدفنه فيها ، ويرتاح منه ؛ فسمع
الجيرانُ حسنَ الخبرِ ؛ فظنوا أن أحداً ينقب عليهم ؛ فرفموا الأمر إلى الحاكم ؛
فأرسل إليه ، وأحضره ، وقال له : كيف تَسْتَحِيلُ أن تنقبَ على جيرانك حائطهم ؟
وحبسَه ، ولم يُطْلِقْه ، حتى غَرِمَ بمض المال !

ثم خرج من السجن ومضى وهو حَرْدَانٌ ^(١) من المداس ، وحمله إلى كنيف
الخان ، ورماه فيه ، فشدَّ قصبه الكنيف ؛ ففاض وضجر الناس من الرائحة
الكرهة ! وبخثوا عن السبب ؛ فوجدوا مداساً فتأملوه ؛ فإذا هو مداسُ أبي القاسم !
فصلوه إلى الوالى ، وأخبروه بما وقع ؛ فأحضره الوالى ، ووبخه وحبسَه ، وقال
له : عليك تصليح الكنيف ! ففرم بُحْلَةً مال ، وأخذ منه الوالى مقدار ما غرم
تأديماً له وأطلقه .

فخرج أبو القاسم والمداسُ معه ، وقال - وهو مقتناظ منه : والله ما عدتُ
أفارقُ هذا المداس !

ثم إنه غَسَلَ وجهه على سطح بيته حتى يحف ؛ فقرأه كلب ؛ فظنهُ رَمَةً ^(٢) فعلمه
وعبر به إلى سطح آخر ؛ فسقط من الكلب على رأس رجل ، فألّه وجرحه جرحاً
بليغاً ، فنظروا وفتشوا من المداس ، فمروا أنه لأبى القاسم !

(١) حردان : غضبان . (٢) الرمة بالكسر : العظام البالية .

فرضوا الأمر إلى الحاكم ؛ فألزمه بالقبول ، والقيام بواجب الخروج مدة
مرضه ! فنقد عند ذلك جميع ما كان له ، ولم يبق عنده شيء !
ثم إن أبا القاسم أخذ للداس ، ومضى به إلى القاضي ، وقال له : أريد من
مولانا القاضي أن يكتب بيني وبين هذا للداس مبرة شرعية على أنه ليس مني
ولست منه ! وأن كلاً منا برى من صاحبه ، وأنه مهما فعله هذا للداس لا يؤخذ
أنا به ! وأخبره بجميع ما جرى عليه منه !
فضحك القاضي منه ووصله ومضى !

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

فهرس القصص

الباب الأول

في القصص التي نصف ما عقده من مجالس الطرب ، وحفلات الفناء ، وما أثاروه من أسباب المناقشة بين الفنانين ، قاصدين الترفيه عن النفوس ، وجلاء الهم ، وتهذيب للشاعر ، وترقيق الوجدان :

رقم القصة	المنفعة	النوآن
١	١٠	الشعر والفناء
٢	١٢	قل للكرام بباينا يلعبوا
٣	١٣	عبد الله بن جعفر ضيف طويس
٤	١٥	سقوني وقالوا لا تنن
٥	١٨	عبد الله بن جعفر عند جميلة
٦	٢٠	بيتان من الشعر
٧	٢٣	ماذا ضلت بزاهد متعبد ؟
٨	٢٤	دُعَاةُ ابن أبي عتيق
٩	٢٦	لحن لجميلة
١٠	٣٠	في أيام الحج
١١	٣٥	في وادي العتيق

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١٢	٣٧	من أين صَبَّكَ اللهُ علىَّ !
١٣	٣٩	ارجع إلى عمك راشداً
١٤	٤١	الأحوص يحتال حتى تسمع سلامة غناء الفريض .
١٥	٤٤	غناء في ختان
١٦	٤٧	يضطرب حين يسمع الغناء
١٧	٤٩	في قصر الوليد بن يزيد
١٨	٥١	معبد في مكة
١٩	٥٣	معبد في السفينة
٢٠	٥٧	وفاء مالك بن أبي السمح لمعبد
٢١	٦١	مالك بن أنس يفي
٢٢	٦٢	أفسد آخر ما أصلح أولاً !
٢٣	٦٣	ابن جامع في دار الخلافة
٢٤	٧٢	ابن جامع وأبو يوسف القاضي
٢٥	٧٤	سرقة الغناء
٢٦	٧٨	أنا والصبيح كفرسى رهان
٢٧	٨٠	ما هذا بجزائي منك !
٢٨	٨٢	ما نفعي الغناء إلا ذلك اليوم
٢٩	٨٤	طفلي ولكنه ظريف
٣٠	٨٨	زرياب وإسحاق الموصلي
٣١	٩٢	في مسجد رسول الله تتنقى !

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٣٢	٩٥	شمر رقيق
٣٣	٩٦	صوت بلدهمين
٣٤	٩٨	أم جعفر تنوح على الرشيد
٣٥	١٠٠	أما إليك سبيل غير مسدود ؟
٣٦	١٠١	عند مخارق
٣٧	١٠٤	مخارق ينفي لأبى الساهية في شعره
٣٨	١٠٦	للشئون عند الواثق
٣٩	١٠٩	في دار الواثق
٤٠	١١٣	محبوبة جارية للتوكل
٤١	١١٥	قينة تمن إلى بنداد

الباب الثاني

في القصص التي تفضح عن رقة قلوب العرب، ورطلة عواطفهم وسمو نفوسهم بالإخبار عن وقع الحب في قلبه وامتزج العفاف والشرف بحبه، ولكن امتنع عليه أمه، فبقى معذباً في سبيل مَنْ أَحَبَّ؛ وراح شهيداً الرقة والعفاف :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٤٢	١١٨	جنى الجلال على نصر قزّبه
		عن المدينة تبيكه ويبكيها
٤٣	١٢١	عروة وعفراء

رقم القصة	المنصة	العنوان
٤٤	١٢٨	قتيل الحب
٤٥	١٢٩	قيس وليلى
٤٦	١٤٤	ما أبالي ما نيل من شعري ومن بشرى
٤٧	١٤٦	في القلبين ثم هو دفين
٤٨	١٤٨	أخبرني عن ليلة النيل
٤٩	١٥٠	أيا شبه ليل لا تراعى
٥٠	١٥١	استبكتني السيل إذ جرى
٥١	١٥٢	عمود جبل التوباد
٥٢	١٥٣	حديث المجنون عن ليل
٥٣	١٥٤	حلال ليل شتينا
٥٤	١٥٥	إن فاني ودواني أنتِ
٥٥	١٥٧	ما رأيت مثل حزنها ووجدتها عليه قط
٥٦	١٥٩	عند الكعبة
٥٧	١٦١	ذهول !
٥٨	١٦٣	خاتمة المجنون
٥٩	١٦٧	اليوم يحممنا في بطنها الكفن
٦٠	١٧١	العفة في الحب
٦١	١٧٣	حديث جميل وبثينة
٦٢	١٨١	عتاب بين بثينة وجميل
٦٣	١٨٢	يتذاكران الشعر والهوى
٦٤	١٨٣	لا أزال أبكيه حتى للمات

رقم القصة	المنفعة	النزوان
٦٥	١٨٥	حتى ويحك من حياك يا جمل
٦٦	١٨٨	إلى الخلوات يأنس فيك قلبي
٦٧	١٩٠	من لم يقيد جوارحه أنسب قلبه
٦٨	١٩٢	غداً يكثر الباكون منا ومنكم
٦٩	١٩٤	وذو الشوق القديم وإن تمرّى
٧٠	١٩٦	مشوق حين يلقي الماشقين ففى كل ذى دين فوق غريمه وعزة ممطول معفى غريمها
٧١	١٩٨	تغنيه فيموت
٧٢	٢٠١	فاضت نفسها عليه
٧٣	٢٠٤	يموتان في وقت واحد
٧٤	٢٠٧	رحلت مية ولم يبق إلا الدبار
٧٥	٢١٠	صباية ابن الطلّرية
٧٦	٢١٦	مبعد الصغير وأحد العشاق
٧٧	٢٢٠	نسب النراب بفرانها
٧٨	٢٢٤	نخلنا حلوان
٧٩	٢٢٦	وازمحتا للماشقين
٨٠	٢٢٩	الله يعلم أننى كند
٨١	٢٣١	في دار الجانين
٨٢	٢٣٦	عتاب
٨٣	٢٤٠	يا غريب الدار عن وطنه

الباب الثالث

في القصص التي تحتج^١ لما اتصفوا به من شديد الفيرة على الحرم ، وبالع الحافة من التهمة ؛ إغلاء بالشرف ، وضماناً لوفرة العرض ، وما جره بعد ذلك من إزهاق الأرواح وسفك الدماء ، درءاً للفتنة ، واتقاء للسمعة :

رقم القصة	المقعة	المتون
٨٤	٢٤٢	لا أحد أذل من جديس
٨٥	٢٤٥	آبى الذل
٨٦	٢٤٧	أجبن الناس وأحيل الناس وأشجع الناس
٨٧	٢٥٤	خل سبيل الحرية للنبيعة
٨٨	٢٥٨	عند الموت
٨٩	٢٦٢	تعدو الذئاب على من لا كلاب له
٩٠	٢٦٣	الأحوص وابن حزم الأنصارى

الباب الرابع

في القصص التي أراد بها الكتاب تصوير حالة ، أو شخص أو مجلس ، واخترعوا لها من الكلام ما يبلغ إرادتهم ، ويدخل في ذلك الباب ما وضعوه على ألسنة الطير والبهائم ، وأنواع الحيوان من محاورات وأحاديث تحمل في أنثائها المعبرة والمفظة والنصح :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٩١	٢٦٨	أكلت يوم أكل الثور الأبيض
٩٢	٢٦٩	حديث السقيفة
٩٣	٢٨٥	بمن أستجير من جورك ؟
٩٤	٢٩١	خدعة لمأوية
٩٥	٢٩٩	من صدق الله نجا
٩٦	٣٠١	عمر بن أبي ربيعة في مضرب فاطمة بنت عبد الملك
٩٧	٣٠٥	عمارة
٩٨	٣١١	عمر بن أبي ربيعة في لبسة أعرابي
٩٩	٣١٥	حديث يوم الدوحة
١٠٠	٣٢٢	لولا فصاحتهم لضربت أعناقهم
١٠١	٣٢٤	يوم دارة جلعن
١٠٢	٣٢٧	دعني وربي الذي لا يبخل ولا يذهل
١٠٣	٣٣٥	أبو جعفر للنصور في المرأة
١٠٤	٣٤١	واعظ أبي جعفر للنصور
١٠٥	٣٤٥	لماذا سلبوا الملك ؟
١٠٦	٣٤٧	جعفر البرمكي والرشيد
١٠٧	٣٥٠	إخوان الصفا
١٠٨	٣٥٦	لا أحب تخديش وجه صاحب
١٠٩	٣٥٧	حكومة الغيب
١١٠	٣٥٨	أعطك ثلاث خصال
١١١	٣٥٩	مجير أم عامر
١١٢	٣٦٠	كيف أعادوك وهذا أثر فأسك !
١١٣	٣٦١	حكم

الباب الخامس

في القصص التي يعرف بها مذهبهم في شياطين الشر ، وأصوات الجن في
القباني وأحاديثهم عن النول ، ورؤية من رآها منهم ، وما إلى ذلك مما يصور سمة
أخيائهم ، وسيمهم وراء الجاهول بأجنحة التفكير والتصوير :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١١٤	٣٦٤	تأبط شرًّا يقتل النول
— ١١٥	٣٦٦	رؤى الأعشى
— ١١٦	٣٦٧	هاجس الأعشى
١١٧	٣٦٩	عبيد بن الأبرص والشجاع
١١٨	٣٧٢	ومن عبيد لولا هبيد
١١٩	٣٧٥	لافظ بن لاحظ
١٢٠	٣٧٧	تابع زهير بن أبي سلمى
١٢١	٣٨٠	حاتم يقرى الضيف بعد موته
١٢٢	٣٨٢	جار مالك بن حريم
١٢٣	٣٨٤	الجن وابن الحارث
١٢٤	٣٨٧	حارس مال ابن الحشرم
١٢٥	٣٨٩	في موت أمية بن أبي الصلت
١٢٦	٣٩٠	في بحر الخزر
١٢٧	٣٩٢	نجي سواد بن قارب
١٢٨	٣٩٥	للى الأخيلية على قبر توبة
١٢٩	٣٩٦	جان يختطف فتاة

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١٣٠	٣٩٨	لا بقاء للإنسان
١٣١	٣٩٩	الفريض يتلقى غناؤه عن الجن
١٣٢	٤٠١	شيطان أبي نواس
١٣٣	٤٠٣	إيليس في ضيافة إبراهيم بن المهدي
١٣٤	٤٠٧	دعبل بن علي ورجل من الجن

الباب السادس

في القصص التي تسرد بارع للملح التي أثرت عن الحق والجنانين ، وتفصل
روايم النوادر التي فاضت بها قرائح الطفيليين وللتنبئين ؛ وما يشبه ذلك مما فيه راحة
للفؤوس ونشاط للخواطر :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١٣٥	٤١٠	أهلك منك وإن كان أجدع
١٣٦	٤١٢	أبورافع لا يكذب في نوم ولا يقظة
١٣٧	٤١٤	أهلك أعلم بك
١٣٨	٤١٥	القادير تصير العبيّ خطيباً
١٣٩	٤١٦	لئن شكرتم لأزيدنكم
١٤٠	٤١٧	الحمد لله الذي منحك كلباً
١٤١	٤١٨	يوم الحساب
١٤٢	٤٢١	إن أعطوا رضوا
١٤٣	٤٢٢	ما أختار غير عبد الله بن طاهر

الموضوع	الصفحة	رقم القصة
أترى الله يعطيك وينسأني ؟	٤٢٤	١٤٤
طفيلي في حضرة للأمون	٤٢٥	١٤٥
أنا أول من آمن بك	٤٣٠	١٤٦
أبو دلف وجيغران للوسوس	٤٣١	١٤٧
رمى به في بطنك !	٤٣٤	١٤٨
لو علمت بحاله لو لجت عليه	٤٣٥	١٤٩
وعلى أيضاً !	٤٣٧	١٥٠
كذب بكذب	٤٣٩	١٥١
ذهب الحمار بأم عمرو	٤٤١	١٥٢
أعجب ما رأيت من المجانين	٤٤٣	١٥٣
مجنون أديب	٤٤٧	١٥٤
كدر الله من كدر العيش	٤٤٧	١٥٥
يضيف أهل الصفة ثم يضر بهم	٤٤٩	١٥٦
ابن المدبر وطفيلي	٤٥٠	١٥٧
صنائعهم التطفيل	٤٥٣	١٥٨
اصبروا علىّ إلى الدن	٤٥٤	١٥٩
هو خير الناس مهما يفعل !	٤٥٤	١٦٠
طفيلي في عرس	٤٥٧	١٦١
طفيلي يحدث	٤٥٨	١٦٢
غنى وغفلة	٤٦٠	١٦٣
جفاء أبي القاسم	٤٦٢	١٦٤

فهرس الأعلام

ابن للدبر : ٤٥١	(١)
أبو الأسود الدؤلى : ٢٦٢ ، ٤١٤	إبراهيم الحرافى : ٩٢
أبو بكر بن أبى قحافة (الصادق) : ٢٦٩	إبراهيم بن عبد الملك بن صالح : ٣٤٩
أبو الحسن البيضا : ٢٣٦	إبراهيم بن المهدي : ٨٢ ، ٣٤٧ ، ٤٢٥
أبو حية النميرى : ٤١٧	إبراهيم اللوصلى : ٢٦ ، ٧٤ ، ٧٨
أبو الخبيرى : ٣٨٠	٤٠٣ ، ٩٦
أبو الفرداء : ٢٩٢	ابن أبى عتيق : ١٥ ، ٢٤ ، ١٣٠
أبو رافع (مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم) : ٤١٢	ابن بسْطَنَر : ١٠٩
أبو ريحانة (حاجب عبد الملك بن مروان) : ١٩٢	ابن جامع : ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٩٦
أبو صالح الفزارى : ٢٠٧	ابن دراج : ٤٥٣
أبو عبيدة عامر بن الجراح : ٢٦٩	ابن سريج : ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٣٩٩
أبو المتاهية : ١٠٤	ابن صياد (مغن) : ١٠
أبو على بن الأسكر : ١١٥	ابن مكحول (عواف النجامة) : ١٢٥
أبو المتبس الصيمرى : ٢٢٢ ، ٢٣٣	

بنو تغلب : ٢٨١	أبو نواس : ٤٠١
بنو الحريش : ١٥٧ ، ١٦٣	أبو هريرة : ٢٨٤ ، ٢٩٢
بنو حمزة : ١٩٦	أبو يوسف القاضى : ٧٢
بنو حنظلة : ١٣٥ ، ٢٠٤	أحمد بن بشر : ٢٦٩
بنو عامر : ١٥٢ ، ١٥٧	أحمد بن حرب اللهاي : ٤٤٧
بنو قشير : ٢١٠	أحمد بن يحيى (ثعلب) : ٤٤٦
بنو كعب : ١٢٩	إسحاق بن إبراهيم اللوصلى : ٢٦ ، ٤٤٦
بنو نهد : ١٨٦	١٠٠ ، ٩٨ ، ٩٦ ، ٨٨ ، ٨٤
بهلول (المجنون) : ٤٢٤	إسماعيل بن المرزبذ : ٩٦
(ت)	الأصمى : ٨٠
تأبط شرا : ٣٦٤	أعشى قيس : ٣٦٦ ، ٣٦٧
تميم بن أبي تميم : ١١٥	امرؤ القيس : ٢١ ، ٣٢٤
توبة بن الخير : ٣٩٥	أم جعندر (معشوقة ابن ميادة) : ٢٢٠
(ج)	أمية بن أبي الصلت : ٣٨٩
الجاحظ : ٢٢٦ ، ٤٥١	(ب)
جديس (قبيلة) : ٢٤٢	بثينة (معشوقة جميل) : ١٧١ ، ٤٥١
جرم (قبيلة) : ٤١٠	١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣
جرير بن عبد الله البجلي : ٣٦٦	البحترى : ٢٣٣
الجمد بن مجع : ٣١٥	البرامكة : ٢١٦
جعفر بن يحيى : ٦٩ ، ٧٤ ، ٢١٩ ، ٣٤٧	بشر بن مروان : ١٤٤
	بلى (قبيلة) : ١٢٧

(د)

دريد بن الصمة : ٥٢٤

دعبل بن علي : ٤٠٧ ، ٤٣٤

(ذ)

ذو الرمة : ٢٠٧

(ر)

الربيع بن كعب اللاتفي : ٤١٠

ربيعة بن مكلم : ٢٥٥

رزين الكاتب : ٤٠١

الرواح بن أبرد : ٢٢٠

رملة بنت الزبير : ١٩٠

ريطة بنت جندل : ٢٥٧

(ز)

زدياب اللقي : ٨٨

زفر بن الحارث : ٣٢٠

زلزل اللقي : ١٠٦

زياد بن عبد الله الحارثي : ٤٤٩

زياد بن عثمان النطفاني : ٢٢٠

زياد بن النضر الحارثي : ٣٩٦

زياد بن زيد السري : ٢٥٨

جيفران الموسوس : ٤٥١

جميل بن عبد الله بن معمر : ١٧١ ،

١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣

جميلة المنفية : ١٨ ، ٢٠ ، ٢٦

جناد (مولي عمر بن أبي ربيعة) :

٣٠

(ح)

حاتم الطائي : ٣٨٠

الحارث بن سعد : ٢٤٨

حي للدنية : ٢٥٩

الحجاج الثقفي : ٣٢٢ ، ٤١٥ ، ٤١٦

الحسن بن الحسن بن علي : ٣٥

الحسين بن دحمان : ٦١

الحسين بن علي : ١٣٠ ، ٢٩٥

حزمة الزيات : ٣٧٨

حفزة بن عبد الله بن الزبير : ٥٧

(خ)

خالد الخريت : ٣١٢

خالد بن الحكم : ١٣٧

خالد بن يزيد بن معاوية : ١٩٠

خليفة بن بوزل : ٣١٤

زينب بنت إسحاق : ١٩١

(س)

سالم بن قتيبة : ٣٢٤

سبيعة (من ولد عبد الرحمن بن

أبي بكر) : ٢٨

سمد بن خشرم : ٣٨٧

سميد بن العاص : ٢٥٩

سفيان بن عيينة : ٦٢

سلام الأبرش : ٦٤

سلامة الزرقاء (الغنية) : ٢٤ ، ٤١

سليمان بن عبد الملك : ٣٩٨

سهل بن هارون : ٤٣٤

سواد بن قارب : ٣٩٢

سوار القاضي : ٤٢١

سياط المغني : ٢٦

(ش)

شبيب بن شيبه : ٣٣٥

شرجيل بن يعقوب الخزرجي : ٢٨٢

شميلة (زوج مجاشع بن مسمود) :

١٢٠

(ص)

صالح بن علي : ٣٤٥

(ط)

طسم (قبيلة) : ٢٤٢

طغيل بن عامر «عمري» : ١٦٧

طويس للمغي : ١٣

(ظ)

ظبيان بن عامر : ٤٠٧

ظبية (مغنية) : ٥٣

(ع)

العباس بن الأخنف : ٢٣٩ ، ٣٥١

عبيد المغني : ٩٥

عبد الرحمن بن إبراهيم الخزرجي : ٤٤٠

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : ١٤

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : ١٣ ، ٢٩٠

عبد الرحمن بن الحكم : ٩١

عبد الرحمن بن زيد المدرى : ٢٥٨

عبد قيس (قبيلة) : ٣٨٠

عبد الله بن حنف : ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ،

١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٣٠٠

عقيلة بنت الضحاك : ٢٠٦
 علويه اللقي : ١٠٠
 علي بن أبي طالب : ٢٦٨ ، ٢٦٩
 علي بن الجهم : ١١٣ ، ٢٧٧
 علي بن الخليل : ٤٠١
 علي بن محمد التوحيدي : ٢٦٩
 عمارة (مفضية عبد الله بن جعفر) :
 ٣٠٥
 عمرو بن أبي ربيعة : ٢٨ ، ١٩٢ ، ٣٠
 ٣٠١ ، ٣١١ ، ٣١٥
 عمرو بن الخطاب : ١١٨ ، ٢٤٧ ،
 ٣٩٢ ، ٢٦٩
 عمرو بن سميد بن العاص : ٣٢٨
 عمرو بن عبد العزيز : ٤٠
 عمرو بن كلثوم : ٢٤٥
 عمرو بن مالك : ٣٩٦
 عمرو بن معد يكرب : ٢٤٧
 عمرو بن هند : ٢٤٥
 (غ)
 العريض (اللقي) : ٤١ ، ٤٤ ،
 ٣٩٩ ، ١٧٣

عبد الله بن الزبير : ٣٢٨
 عبد الله بن سلام : ٢٩١
 عبد الله بن طاهر : ١١٣ ، ٤٢٣
 عبد الله بن مروان : ٣٤٥
 عبد الملك بن صالح : ٣٤٧
 عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج :
 ٩٣
 عبد الملك بن مروان : ١٥ ، ١٩٠ ،
 ١٩٢ ، ٣٢٨
 عبيد بن الأبرص : ٣٦٩ ، ٣٧٢
 عبيد بن الحارث : ٨٣٢
 عثمان بن إبراهيم الخاطبي : ٣١١
 عثمان بن حيان الرمي : ٢٤
 عدي بن حاتم : ٣٨١
 هُذْرَة (قبيلة) : ١٢٨
 عروة بن حزام : ١٢١ ، ١٢٨
 عزة (مشوقة كثير) : ١٨٥ ، ١٩٦
 عصمة بن مالك : ٥٧
 عطاء بن أبي رباح : ٤٤ ، ٤٧
 عقراء بنت عقال : ١٢٨
 عقال بن مالك : ١٢٨
 عقيل بن زياد الخارجي : ٢٨٢

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،

١٦٣

(ك)

كثير بن الصلت : ١٤١

كثير بن عبد الرحمن : ١٨٢ ، ١٨٥ ،

١٩٦

(ل)

لبنى بنت الحباب الكعبية : ١٢٩ ،

١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،

١٤٨

ليلي الأخيالية : ٣٨٧

ليلي العامرية : ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،

١٦٣

ليلي بنت مهلهل ٣٩٥

(م)

مالك بن أبي السمح : ٥٧

مالك بن أنس : ٦١

ملك بن حريم : ٣٨٢

(٣١ - قصص العرب - ٤)

(ف)

فارقة بنت ثابت : ١٤

فاطمة بنت عبد الملك بن مروان :

٣٠١

الفتح بن خاقان : ٣٧٧

الفرزدق : ١٨٥ ، ٢٠٤ ، ٣٢٤

فريدة (مغنية الرائق والمتوكل) : ١١٠

فزارة (قبيلة) : ١٣٦

الفضل بن الربيع : ٦٤ ، ٦٩

فليح (الغنى) : ٩٦

فهم (قبيلة) : ٣٦٤

(ق)

القاسم بن عيسى المجلي : ٤٣١

قراذ بن جرم : ٤١٠

قفند بن جمونة : ٤١١

قيس بن ذريح : ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٦

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٨

قيس بن معد يكرب : ٣٦٧

قيس بن اللوح : ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

- مسكين الدارمي : ٢٣
 مطيع بن إلياس : ٢٢٤
 معاوية بن أبي سفيان : ١٠ ، ١٢٧ ،
 ١٢٨ ، ١٣٨ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ ،
 ٢٩١ ، ٣٠٥
 معبد الصغير : ٢١٦
 معبد بن وهب : ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ،
 ٥٧ ، ١٧٣
 ملاحظ (اللفظ) : ١٠٦
 للوح (أبو الجنون) : ١٥٤ ، ١٥٩
 المنصور (الخليفة العباسي) : ٢٦٤ ،
 ٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٥
 المهب بن أبي صفرة : ١٤٤
 ممت بنت مقاتل للفقيرة : ٢٠٧
 مياد الجرمي : ٢١٠
 (ن)
 نجيح اليربوعي : ٣٨٧
 نصر بن حجاج : ١٠٩
 نصر بن ذبيان : ٢٨٨
 النعمان بن بشير : ١٢٨ ، ٣٢٩
 نوفل بن مساحق : ١٦١
 للأمون (الخليفة العباسي) : ٨٦ ،
 ١٠٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٣٠
 المتوكل (الخليفة العباسي) : ١١١ ،
 ١١٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣١
 مجاشع بن مسعود السلي : ١١٨
 محبوبية (جارية المتوكل) : ١١٣
 محمد بن إبراهيم : ٢٢٦
 محمد بن سليمان : ٤٢١
 محمد بن عائشة : ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٧
 محمد بن عبد الله (الرسول صلى الله
 عليه وسلم) : ٢٩٩
 محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري :
 ٢٦٣
 محمد بن عمرو الزف (اللفظ) : ٧٥
 محمد بن القاسم : ٢٣١
 محمد بن قيس : ٢٠١
 محمد بن يزيد (الثريد) : ٢٢٩ ، ٢٣١ ،
 ٤٤٣
 غارق (اللفظ) : ١٠١ ، ١٠٤
 مروان بن الحكم : ١٣٧ ، ٢٨٥
 مسحل بن أتابية (شيطان الأعشى) :
 ٣٦٦ ، ٣٦٨

(٥)

هاذر (شيطان الثابتة الذياني) ٣٧٦

هارون بن أحمد بن هشام : ١٠١

هارون الرشيد : ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٤ ،

٧٨ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ٩٨ ، ٢١٩ ، ٣٥٢ ، ٣٦٩ ،

٤٠٣ ، ٤٢٤

هبيد (شيطان عبيد بن الأبرص) :

٣٦٨

هدبة بن خشرم : ٢٥٨

هشام بن عبد الملك : ١٨٦

هند بنت الحارث (أم عمرو بن هند) :

٢٤٥

هند بنت الحارث المرتبة : ٣١٢

(و)

الواثق (الخليفة العباسي) : ١٠٦ ، ١٠٩

الوليد بن عبد الملك : ٣٧ ، ٢٦٣

الوليد بن يزيد : ٤٩ ، ٣٢٧

(لا)

لافظ بن لاحظ (شيطان امرئ)

القيس : ٣٧٥

(ي)

يحيى بن أكنم : ٣٦٩ ، ٤٣٠

يحيى بن خالد : ٧٢ ، ٣٥٢

يحيى بن المبارك : ٤٢٢

يزيد بن الطرية : ٢١٠

يزيد بن عبد الملك : ٣٤ ، ٤١ ،

١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٢٧

يزيد بن مسهر : ٣٦٨

يزيد بن معاوية : ٢٩١ ، ٣٠٥

يزيد بن الوليد بن عبد الملك : ٣٢٧

يونس بن محمد الكاتب : ٢٦ ، ١٨٨

فهرس الأماكن

(ع)	(١)
المقيق : ٢١٧ ، ١٨٨ ، ٣٥	الأبلة : ٥٣
(ق)	إضم : ٥٣
القاطول (نهر) : ٢٢٦	الأهواز : ٥٣
قرطبة : ٩١	(ب)
قميقان : ٩١	باب محول : ٦٤
(ك)	بحر الخزر : ٣٩٠
كشيب أبي شعوة : ٣٣	البصرة : ١١٩
(م)	(ت)
المدينة : ٢٤ ، ١	التوابع : ١٥٢
مصر : ٣٤٨	(ح)
(ن)	حلوان : ٢٢٤
النوبة : ٣٤٥	(ذ)
(ى)	ذو طوى : ٤٧
الياسرية : ١١٦	(س)
العين : ٢٠٤ ، ١٥٢	سامرا : ٢٢٦

مراجع هذا الجزء

الأغاني	: لأبي الفرج الأصفهاني
الأمالي	: لأبي علي التتالي
الأمالي	: للزجاجي
البغلاء	: للجاحظ
بلوغ الأرب	: للأومى
تزيين الأسواق	: لداود الأنطاكي
التطفيل	: للبندادى
ثمرات الأوراق	: للحموى
جمهرة أشعار العرب	: لأبي زيد محمد بن الخطاب القرشى
الحيوان	: للجاحظ
خزانة الأدب	: للبندادى
ذيل الأمالي	: لأبي علي التتالي
ذيل زهر الآداب	: للحموى
رغبة الآمل	: للمرصنى
زهر الآداب	: للحموى
شرح الأمالي	: للبكرى

شرح مقامات الحريري	: لشرشي
شرح نهج البلاغة	: لابن أبي الحديد
صبح الأعشى	: للقلقشندي
عصر المأمون	: للدكتور فريد رفاعي
العقد الفريد	: لابن عبد ربه
عيون الأخبار	: لابن قتيبة
غرر الخصال الواضحة	: لأبي إسحاق الوطواط
السكامل في التاريخ	: لابن الأثير
السكامل في الأدب	: للبزدر
جاني الأدب	: للأب لويس شينغو
جمع الأمثال	: للميداني
الحاسن والأضداد	: للجاحظ
الحاسن والمساوي	: للبيهقي
محاضرات الأبرار	: لابن عربي
المختار من نوادر الأخبار (مخطوط)	: لـ محمد بن أحمد الأنباري
مروج الذهب	: للمسعودي
المستطرف في كل فن مستظرف	: للأبشيبي
مصارع الشاق	: لأبي جعفر بن أحمد المراج
معجم الأدباء	: لياقوت الحموي
معجم البلدان	: لياقوت الحموي

المتقى من أخبار الأوصى

مذهب الأغاى : للرحوم الخضرى

فتح الطيب : للقرى

نهاية الأرب : للنويرى

مراجع الضبط والشرح والتحقيق والتراجم

أساس البلاغة	: للزحشرى
الأعلام	: للزركلى
تاريخ آداب اللغة العربية	: لجورجى زيدان
تاريخ الأمم الإسلامية	: للمرحوم الخضرى
رغبة الآمل من كتاب الكامل	: للمرصنى ^١
شرح ديوان الحماسة	: للتبريزى
شرح الأمالى	: للبكرى
شرح المفضليات	: لابن الأنبارى
طبقات الشعراء	: لابن سلام
طبقات الشعراء	: لابن قتيبة
الفاخر فى الأمثال	: للضجى
فهرس خريطة الممالك الإسلامية	: لأمين واصف
القاموس المحيط	: للفيروزابادى
لسان العرب	: لابن منظور
المعارف	: لابن قتيبة
معجم البلدان	: لياقوت الحموى
وفيات الأعيان	: لابن خلكان

